

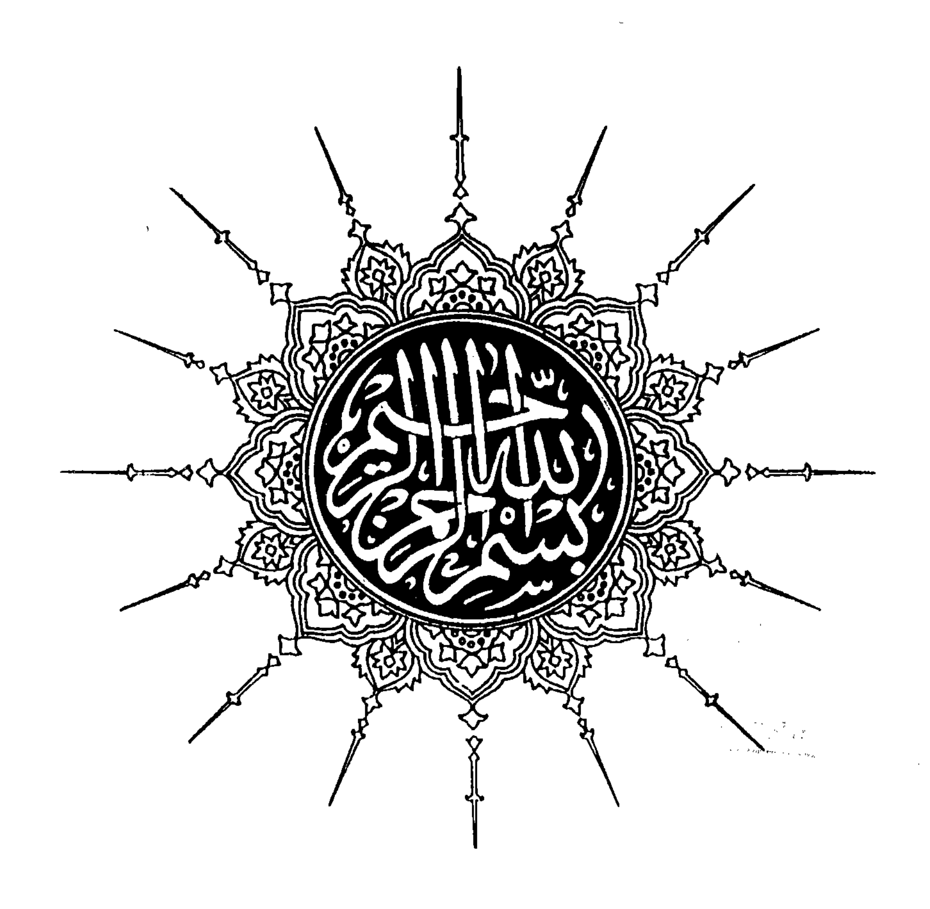
# الضوء المنير على التفسير

المجلّد السّادس

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده
علي الحمد المحمّد الصالحي

من كتب الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيّم الجوزيّة

الناشر
مؤسّسة النّور للطّباعة والتّجليد
بالتّعاون مع
مكتبة دار السّلام




الناشر

مؤسسة النور للطباعة و التجليد

هاتف: ٤١١٨٨٧٤، فاكس: ٤١١٤١٩١
دخنة-شارع الشيخ محمد بن إبراهيم
عنيزة-هاتف و فاكس: ٣٦٤١٠٤٠ (٠٦)
ت ٣٦٤٨٦٧٨ (٠٦)

بالتعاون مع

مكتبة دارالسلام

الرياض-شارع الضباب-هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢، فاكس: ٤٠٢١٦٥٩




**بسم الله الرحمن الرحيم**

## (١)حكم رسول الله في الظهار، وبيان ما أنزل فيه ومعنى « العود » الموجب للكفارة

قال ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّن نِّسَآئِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللائِي وَلَدْنَهُمْ وإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * والَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِن نِّسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٢-٤].

**ثبت** في السنن والمسانيد «أن أوس بن الصامت: ظاهر من زوجته خَوْلة بنت مالك بن ثعلبة ـ وهي التي جادلت فيه رسول الله، ﷺ، واشتكت إلى الله، وسمع الله شكواها من فوق سبع سموات ـ فقالت: يارسول الله، إن أوس بن الصامت تزوجني، وأنا شابة مرغوب فيَّ، فلما خلا سِنِّي، ونَثَرت له ذات بطنى: جعلني كأمِّه عنده. فقال لها رسول الله ﷺ: **«ما عندي في أمرك شيء»**، فقالت: اللهم إني أشكو إليك». وروي أنها قالت: «إن لي صبية صغارا، إن ضَمَّهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليَّ جاعوا. فنزل القرآن».

**وقالت** عائشة «الحمد الله الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله، ﷺ، وأنا في كسر البيت، يخفى عليَّ بعض كلامها. فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وتَشْتَكِي إِلَى اللهِ واللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[المجادلة: ١]. فقال النبي ﷺ: **«ليعتق رقبة؟»** قالت: لا يجد. قال: **«فيصوم شهرين متتابعين»**. قالت: يارسول الله، إنه شيخ كبير، ما به صيام. قال: **«فليطعم ستين مسكينا»** قالت:

---

(١) ١٥٨ زاد المعاد جـ٤.

ما عنده شيء يتصدق به. قال: «**فإني سأعينه بعَرَق من تمر**» قالت: وأنا أعنه بعَرَق آخر. قال: «**أحسنتِ، فأطعمي عنه ستين مسكينا، وارجعي إلى ابن عمك**».

[(١)]**والسمع** يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن، فمن الأول: قوله: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ واللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾[المجادلة: ١]. وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع، وذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت وأنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا**﴾. والثاني: سمع الفهم كقوله: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ**﴾ أى لأفهمهم ﴿**وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ**﴾[الأنفال: ٢٣]. لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق؛ ففيهم آفتان: إحداهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب. والثالث: سمع القبول والإجابة كقوله تعالى: ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَّازَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ**﴾[التوبة: ٤٧]. أى قابلون مستجيبون. ومنه قوله: ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾[المائدة: ٤٢]. أى قابلون له مستجيبون لأهله. ومنه قول المصلى: سمع الله لمن حمده. أي أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه. وقول النبي، ﷺ: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم**» أى يجيبكم. والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه، ومعاده كان الحيوان البهيم خيراً منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل.

...[(٢)]**وسألته** ﷺ خولة بنت مالك فقالت: إن زوجها أوس بن الصامت ظاهر منها، وشكته إلى رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ، يجادلها فيه بقوله: «**اتقي الله فإنه ابن عمك**» فما برحت حتى نزل القرآن: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي**

---

(١) ٧٩ مفتاح جـ١.　　(٢) ٣٥٣ أعلام جـ٤.

**زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ واللهُ يَسمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾**[المجادلة: ١] الآيات فقال: «**يعتق رقبة**» قالت: لا يجد. قال: «**فيصوم شهرين متتابعين**». قالت: إنه شيخ كبير ما به من صيام قال: «**فليطعم ستين مسكينًا**». قالت: ما عنده من شيء يتصدق به، فأتى ساعته بعَرْق من تمر، قلت: يارسول الله إني أعينه بعَرْق آخر، قال: «**أَحْسَنْت اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكينًا، وارجعي إلى ابن عمك**» ذكره أحمد وأبو داود.

**ولفظ** أحمد: قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صَدْرَ سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه وضجر، قالت: فدخل عليَّ يومًا، فراجعته بشيء، فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي، ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ، فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس الخويلة بيده لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم، قالت: فواثبَني، فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب المرأةُ الشيخَ الضعيفَ، فألقيته عني، ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله، ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خُلُقه، فجعل رسول الله ﷺ، يقول: «**يا خويلة ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه**»، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ، ما كان يتغشاه ثم سُرِّيَ عنه، فقال: «**يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك**»، ثم قرأ عليَّ **﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَىَ اللهِ﴾**[المجادلة: ١]، إلى قوله: **﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[المجادلة: ٤]. قالت: فقال رسول الله، ﷺ: «**مُرِيه فليعتق رقبة**» وذكر نحو ما تقدم. وعند ابن ماجه أنها قالت: يارسول الله أكل شبابي، ونثرت[١] له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل عليه السلام بهؤلاء الآيات.

[٢]**وفي** السنن: «أن سلمة بن صخر البياضى: ظاهر من امرأته مدة شهر

---

(١) أردات: أنها كانت شابة تلد الأولاد عنده. ويقال: امرأة نثور: كثيرة الولد. (٢) ١٥٩ زاد المعاد جـ٤.

رمضان، ثم واقعها ليلة قبل انسلاخه. فقال له النبي، ﷺ: «**أنت بذاك ياسلمة**»؟ قال: قلت: أنا بذاك يارسول الله ـ مرتين ـ وأنا صابر لأمر الله. فاحكم فيَّ بما أراك الله، قال: «**حَرِّر رقبة**». قلت: والذي بعثك بالحق نبيا ما أملك رقبة غيرها ـ وضربت صفحة رقبتي ـ قال: «**فصم شهرين متتابعين**».، قال: فهل أصبتُ الذي أصبت إلا في الصيام؟ قال: «**فأطعم وَسْقًا من تمر ستين مسكينًا**». قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا وَحْشَيْنِ[1]، مالنا طعام. قال: «**فانطلق إلى صاحب صدقة بني زُريقٍ فليدفعها إليك، فأطعم ستين مسكينا وسقا من تمر. وكل أنت وعيالك بقيتها**». قال: فَرُحْتُ إلى قومي. فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول ﷺ السَّعة، وحسن الرأي، وقد أمر لي بصدقتكم».

**وفي** جامع الترمذي عن ابن عباس «أن رجلا أتى النبي ﷺ، قد ظاهر من امرأته. فوقع عليها، فقال: يارسول الله، إني ظاهرت من امرأتي، فوقعت عليها قبل أن أُكَفِّرَ؟ قال: «**وما حملك على ذلك؟ يرحمك الله**». قال: رأيت خَلْخالها في ضوء القمر. قال: «**فلا تقر بها حتى تفعل ما أمرك الله**» وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وفيه أيضًا عن سلمة بن صخر عن النبي ـ ﷺ ـ في المظاهر يواقع قبل أن يُكَفِّرَ، فقال: «**كفارة واحدة**» وقال: حسن غريب. انتهى. وفيه انقطاع بين سليمان بن يسار وسلمة بن صخر.

**وفي** مسند البزار عن إسماعيل بن مسلم عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس قال: «أتى رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني ظاهرت من امرأتي، ثم وقعت عليها قبل أن أُكَفِّرَ. فقال: رسول الله ﷺ: «**ألم يقل الله ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾** [المجادلة:٣]؟ فقال: أعجبتني. فقال: «**أمسك حتى تُكَفِّرَ**» قال البزار: لا نعلمه يروى بإسناد أحسن من هذا، على أن إسماعيل بن مسلم قد تُكُلم فيه. وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم. فتضمنت هذه الأحكام أمورًا.

**أحدها:** إبطال ما كانوا عليه في الجاهلية، وفي صدر الإسلام من كون الظهار

---

(١) الوحش ـ بسكون الحاء ـ الجائع.

طلاقًا، ولو صرح بنيته له، فقال: «أنتِ عليّ كظهر أمي، أعني به الطلاق» لم يكن طلاقًا. فكان ظهارًا. وهذا بالاتفاق إلا ما عساه من خلاف شاذ. وقد نص عليه أحمد والشافعي وغيرهما.

**قال** الشافعي: ولو ظاهر ـ يريد طلاقًا ـ كان ظهارًا، أو طلق يريد ظهارًا: كان طلاقًا. هذا لفظه، فلا يجوز أن ينسب إلى مذهبه خلاف هذا.

**ونص** أحمد على أنه إذا قال: «أنت عليَّ كظهر أمي، أعني به الطلاق» أنه ظهار. ولا تطلق به. وهذا لأن الظهار كان طلاقا في الجاهلية فنسخ. فلم يجز أن يعاد إلى الحكم المنسوخ. وأيضًا: فإن أوس بن الصامت إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه، وأجرى عليه حكم الظهار، دون الطلاق. وأيضًا: فإنه صريح في حكمه فلم يجز جعله كناية في الحكم الذي أبطله الله ـ عز وجل ـ بشرعه، وقضاء الله أحق، وحكم الله أوجب.

**ومنها**: أن الظهار حرام، لا يجوز الإقدام عليه. لأنه ـ كما أخبر الله عنه ـ منكر من القول وزور، فكلاهما حرام. والفرق بين جهة كونه منكرًا، وجهة كونه زورًا: أن قوله: «أنت عليَّ كظهر أمي» يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاءً لتحريمها. فهو يتضمن إخبارًا وإنشاءً. فهو خبر زُور، وإنشاء منكر، فإن الزور: هو الباطل، خلاف الحق الثابت. والمنكر: خلاف المعروف.

**وختم** سبحانه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[المجادلة: ٢]. وفيه إشعار بقيام سبب الإثم، الذي لولا عفو الله ومغفرته لآخذه به.

**ومنها**: أن الكفارة لا تجب بنفس الظهار. وإنما تجب بالعود. وهذا قول الجمهور.

**وروى** الثوري عن ابن أبي نجيح عن طاوس قال: «إذا تكلم بالظهار فقد لزمه» وهذه رواية ابن أبي نجيح عنه. وروى معمر عن ابن طاوس عن أبيه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ قال: «جعلها عليه كظهر أمه، ثم يعود فيطؤها، فتحرير رقبة».

**وحكى** الناس عن مجاهد: أنه تجب الكفارة بنفس الظهار. وحكاه ابن حزم عن الثوري وعثمان البتي. وهؤلاء لم يخف عليهم: أن العود شرط في الكفارة، ولكن العود عندهم: هو العود إلى ما كان عليه في الجاهلية من التظاهر. كقوله

تعالى في جزاء الصيد: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾[المائدة:٩٥]، أى عاد إلى الاصطياد بعد نزول تحريمه. ولهذا قال: ﴿عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥].

**قالوا:** ولأن الكفارة إنما وجبت في مقابلة ما تكلم به من المنكر والزور. وهو الظهار دون الوطء، أو العزم عليه.

**قالوا:** ولأن الله ـ سبحانه ـ لما حرم الظهار، ونهى عنه: كان العود هو فعل المنهي عنه، كما قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وإنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾[الإسراء:٨]. أي إن عدتم إلى الذنب عدنا إلى العقوبة. فالعود هنا: نفس فعل المنهي عنه.

**قالوا:** ولأن الظهار كان طلاقا في الجاهلية. فنقل حكمه من الطلاق إلى الظهار، ورتب عليه التكفير، وتحريم الزوجة حتى يُكَفِّرَ، وهذا يقتضي أن يكون حكمه معتبرًا بلفظه كالطلاق. . .

(١)**قوله** تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾[المجادلة:٥]. والكبتُ: الإذلال والخزي والتصريع على الوجه، قال النضر(٢) وابن قتيبة: هو الغيظ والحزن(٣)، وقال أهل التفسير: كُبتوا: أهلكوا وأُخزوا وحزنوا، وإذا كان المحاد مكبوتًا فلو كان آمناً على نفسه وماله لم يكن مكبوتًا بل مسرورًا جذلًا(٤) يشفي صدره من الله ورسوله، آمنًا على دمه وماله، فأين الكبت إذن؟

**ويدل** عليه قوله: ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فَخَوَّفَهم بكبْتٍ نظير كَبْت مَنْ قبْلَهم: وهو الإهلاك من عنده وأنا بأيدي عباده وأوليائه. وقوله: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] عقيب قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة:٥] دليلٌ على أنّ المحاداة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادَّيْن غالبًا، وهذا إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعُلم أن المحادّ

---

(١) ٨٢٦ أحكام أهل الذمة جـ٢.

(٢) هو النضر بن شميل كما في الصارم ٢٢.

(٣) زاد ابن تيمية في الصارم ٢٢ فائدة لغوية طريفة في هذا المقام حين قال: «وهو في الاشتقاق الأكبر من كبده، كأن الغيظ والحزن أصاب كبده. كما يقال: أحرق الحزن والعداوة كبده».

(٤) في الأصل (اجدلا). والذي في مطبوعة الصارم ٢٣ (جذلان).

ليس بمسالم، فلا يكون له أمان مع المحادّة، وقد جرت[١] سنة الله ـ سبحانه ـ أن الغلبة لرسله بالحجة والقهر، فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك[٢] عدوه.

**يوضحه**[٣] أن المحـادَّة مشـاقّة، لأنها من الحد والفصْل والبْينونة، وكذلك المشـاقـة[٤] من الشق، وكـذلـك المعاداة من العُدْوة، وهي الجانب يكون أحد العدوّين في شق وجانب وحدّ وعدوه الآخر[٥] في غيرها، والمعنى في ذلك كله معنى المقاطعة والمفاصلة[٦]؛ وذلك لا يكون إلا مع انقطاع الحبل الذي بيننا وبين أهل العهد، لا يكون مع اتصال الحبل أبدًا.

**يوضحه** أن الحبل وُصْلَةٌ وسبب، فلا يجامع المفاصلة والمباينة.

**وأيضًا** فإنها إذا كانت بمعنى المشاقة فقد قال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ[٧] اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢، ١٣] فأمر بضرب أعناقهم، وعلّل ذلك بمشاقتهم ومحادَدَتهم[٨]، وكل من فعل ذلك وجب أن يضرب عنقه، وهذا دليل تاسع في المسألة. وترتيبه هكذا: هذا مشاق لله ورسوله، والمشاق لله ورسوله مستحق ضرب العنق، وقد تبينت صحة المقدمتين.

**ونظير** هذا الاستدلال قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: ٣] والتعذيب في الدنيا هو القتال والإهلاك، ثم علّل ذلك بالمشاقّة، وأخرّ عنهم ذلك التعذيب لِما سبق من كتـابِهِ الجلاءَ عليهم، فمن وجدت منه المشاقة [من] غيرهم ممن لم يكتب عليه الجلاء استحقّ عذاب الدنيا الذي أخره عن أولئك. وهذا دليل عاشر في المسألة.

---

(١) في الأصل (جرى).
(٢) كذا بالأصل، والذي في (الصارم ٢٣) ملك.
(٣) في الصارم ٢٣ (وأيضًا، فإن المحادة).
(٤) في الأصل (المساقة) بالسين المهملة.
(٥) في الأصل (والآخر).
(٦) في الأصل (القاطعة والفاصلة) صوابها من الصارم ٢٣.
(٧) كذا بالأصل (يشاقّ) بإدغام القاف، وهي قراءة معروفة، والفك هنا أشهر.
(٨) كذا في الأصل بفكّ الإدغام في لفظة (محادّة)، وهي في الصارم ٢٤ مدغمة.

(١) **وقوله:** ﴿مَايَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الآية فنبه ـ سبحانه ـ بالثلاثة على العدد الذي يجمع الشفع والوتر، ولا يمكن أهله أن ينقسموا في النجوى قسمين، ونبه بالخمسة على العدد الذي يجمعهما، ويمكن أهله أن ينقسموا فيها قسمين، فيكون مع كل العددين. فالمشتركون في النجوى: إما شفع فقط أو وتر فقط أو كلا القسمين، وأقل أقسام الوتر المتناجين ثلاثة، وأقل أنواع الشفع اثنان، وأقل أقسام النوعين إذا اجتمعا خمسة، فذكر أدنى مراتب طائفة الوتر وأدنى مراتب النوعين إذا اجتمعا. ثم ذكر معيته العامة لما هو أدنى من ذلك أو أكثر.

**وتأمل** كيف جعل نفسه: رابع الثلاثة، وسادس الخمسة؛ إذ هو غيرهم ـ سبحانه ـ بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل.

**وقال:** ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الإلهية، والعرب تقول: رابع أربعة، وخامس خمسة، وثالث ثلاثة لما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف، كما قال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] رسول الله وصديقه، فإن كان من غير جنس قالوا رابع ثلاثة وخامس أربعة وسادس خمسة.

**وقال** ـ تعالى ـ في المعية الخاصة لموسى وأخيه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقال في العامة: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥].

**فتأمل** كيف أفرد ضمير نفسه حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون؟ وكيف جمع الضمير لما أدخل فرعون معهما في الذكر؟ فجعل الخاص مع المعية الخاصة والعام مع المعية العامة.

(٢) **المعية** نوعان: عامة. وهي: معية العلم والإحاطة. كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿مَايَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ولا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

**وخاصة:** وهي معية القرب، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ

---

(١) ٢٦٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ٢٦٥ مدارج جـ٢.

**هُم مُّحْسِنُونَ﴾** [النحل: ١٢٨] وقوله: **﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** [البقرة: ١٥٣] وقوله: **﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[العنكبوت: ٦٩].

**فهذه** معية قرب. تتضمن الموالاة، والنصر، والحفظ. وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. فـ «مع» في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط، ولا مجاورة، ولا مجانبة. فمن ظن منها شيئًا من هذا فمن سوء فهمه أتي.

**وأما** القرب: فلا يقع في القرآن إلا خاصا. وهو نوعان: قربه من داعيه بالإجابة. وقربه من عابده بالإثابة.

**فالأول:** كقوله تعالى: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾** [البقرة: ١٨٦] ولهذا نزلت جوابًا للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وقد سألوا رسول الله ﷺ: «ربُّنا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية».

**والثاني:** قوله ﷺ: «**أقرب مايكون العبد من ربه: وهو ساجد، وأقرب ما يكون الرب من عبده: في جوف الليل**» فهذا قربه من أهل طاعته.

**وفي** الصحيح: عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر. فارتفعت أصواتنا بالتكبير. فقال: «**ياأيها الناس، اربعوا على أنفسكم. إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**».

**فهذا** قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه، واستواءه على عرشه، بل يجامعه ويلازمه، فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، ولكنه نوع آخر. والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جدًّا من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي، ويجده أقرب إليه من جليسه، كما قيل:

ألا رُبَّ من يدنو ويزعم أنه		يحبك والنائي أحب وأقرب

**وأهل** السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحباؤه، الذين هو عندهم أولى بهم من أنفسهم، وأحب إليهم منها: يجدون نفوسهم أقرب إليه، وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون

قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها. هذا مع عدم تأتي القرب منها، فكيف بمن يقرب خلقه كيف يشاء. وهو مستو على عرشه. وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله خَليٍّ من محبته ومعرفته. . . .

[1]...**لم يأت** (الحزن) في القرآن ألا مَنهيًا عنه ومنفيًا؛ فالنهي عنه كقوله تعالى: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا**﴾ [آل‌عمران: ١٣٩] وقوله: ﴿**وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ [النحل: ١٢٧] في غير موضع وقوله: ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة: ٤٠] والنفي كقوله تعالى: ﴿**فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٣٨].

**وسر** ذلك: أن «الحزن» موقف غير مُسَيِّر، ولا مصلحة فيه للقلب. وأحب شيء إلى الشيطان: أن يُحَزِّن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [المجادلة: ١٠] ونهى النبي ﷺ الثلاثة: «**أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث، لأن ذلك يحزنه**».

**فالحزن** ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة. وقد استعاذ منه النبي ﷺ، فقال: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن**» فهو قرين الهم. والفرق بينهما: أن المكروه الذي يرد على القلب، إن كل لما يستقبل: أورثه الهم، وإن كان لما مضى: أورثه الحزن. وكلاهما مضعف للقلب عن السير. مُفَتِّر للعزم.

**ولكن** نزول منزلته ضروري بحسب الواقع، ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخولها: ﴿**الحمدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾ [فاطر: ٣٤] فهذا يدل على أنهم كان يصيبهم في الدنيا الحزن، كما يصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم بغير اختيارهم.

**وأما** قوله تعالى: ﴿**وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ**﴾ [التوبة: ٩٢] فلم يمدحوا على نفس الحزن. وإنما مُدِحوا على مادَلَّ عليه الحزن من قوة إيمانهم، حيث تخلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة. ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلفهم، بل غبطوا نفوسهم به.

**وأما قوله** ﷺ في الحديث الصحيح: «**مايصيب المؤمن من هَمٍّ ولا نَصَب،**

---

(١) ٥٠٥ مدارج جـ١.

ولاحَزَن إلا كَفَّرَ الله به خطاياه» فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد، يكفِّر بها من سيئاته. لايدل على أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه. . . .

(١)**الوجه** التاسع عشر: أنه ـ سبحانه ـ أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي المَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١] وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع.

**أحدها** هذا. والثاني قوله: ﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وعلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]. والثالث قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى﴾[طه: ٧٥]. والرابع قوله ـ تعالى ـ: ﴿وفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ على القَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦] فهذه أربعة مواضع في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، والرابع الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد الذين بهما قوام الدين.

(٢)**الوجه** السابع والستون: أن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال: إيمان بالله؛ فهو رأس الأمر، والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها.

**والإيمان** له ركنان: أحدهما معرفة ماجاء به الرسول والعلم به.

**والثاني** تصديقه بالقول والعمل، والتصديق بدون العلم والمعرفة محال، فإنه فرع العلم بالشيء المصدق به فإذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، ولا تقوم شجرة الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة، فالعلم إذا أجل المطالب وأسنى المواهب.

**الوجه** الثامن والستون: أن صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة

(١) ٥٠ مفتاح جـ١. (٢) ٨١ مفتاح جـ١.

والإرادة، والإرادة فرع العلم، فإنها تستلزم الشعور بالمراد، فهي مفتقرة إلى العلم في ذاتها وحقيقتها، والقدرة لا تؤثر إلا بواسطة الإرادة، والعلم لا يفتقر في تعلقه بالمعلوم إلى واحدة منهما، وأما القدرة والإرادة فكل منها يفتقر في تعلقه بالمراد والمعلوم إلى العلم، وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته.

**الوجه** التاسع والستون: أن العلم أعم الصفات تعلقًا بمتعلقه وأوسعها، فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم.

**فذات** الرب ـ سبحانه ـ وصفاته وأسماؤه معلومة له، ويعلم العباد من ذلك ماعلمهم العليم الخبير. وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص التعلق.

**أما** القدرة؛ فإنما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب، فهي أخص من العلم من هذا الوجه، وأعم من الإرادة، فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات وهو ما أريد وجوده، فالعلم أوسع وأعم وأشمل في ذاته ومتعلقه.

**الوجه** السبعون: أن الله ـ سبحانه ـ أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، ويأتم بهم من بعدهم. فقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال في موضع آخر: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٤] أي أئمة يقتدى بنا من بعدنا.

**فأخبر** ـ سبحانه ـ أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين؛ وهي أرفع مراتب الصديقين. واليقين هو كمال العلم وغايته، فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين، وهي ولاية آلتها العلم يختص الله بها من يشاء من عباده.

**الوجه** الحادي والسبعون: أن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء، لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء في اليوم مرة أو مرتين، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس، لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبًا لإيمان أو حكمة، فإن فارقه الإيمان أو حكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه، وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم فالحاجة إليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب، وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه، فقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه كل وقت.

**الوجه** الثاني والسبعون: أن صاحب العلم أقل تعبًا وعملاً وأكثر أجرًا، واعتبر هذا بالشاهد: فإن الصناع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه.

**وقد** أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال: «**أفضل الأعمال: إيمان بالله، ثم الجهاد**» فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه وهو أفضل الأعمال مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان مايعانيه مفضولاً، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة. ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملاً وحجًا وصومًا وصلاة وقراءة منه. قال أبوبكر بن عياش: ماسبقكم أبوبكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. وهذا موضوع المثل المشهور.

من لي بمثل سيرك المدلل    تمشي رويدًا وتجي في الأول

(١)**الوجه** السادس والأربعون بعد المائة: إن من نال شيئًا من شرف الدنيا والآخرة، فإنما ناله بالعلم، وتأمل ماحصل لآدم من تميزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها، ثم ماحصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تلقاها من ربه.

**وما** حصل ليوسف من التمكين في الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا، ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التي توصل إليها بالعلم، كما أشار إليها ـ سبحانه ـ في قوله: ﴿**كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَاكَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٧٦] جاء في تفسيرها نرفع درجات من نشاء بالعلم، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم.

---

(١) ١٧٣ مفتاح جـ١

**وقال** في إبراهيم ﷺ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] فهذه رفعة بعلم الحجة والأول رفعة بعلم السياسة.

**وكذلك** ماحصل للخضر بسبب علمه من تلميذه كليم الرحمن له وتلطفه معه في السؤال حتى قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، وكذلك ماحصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته، ولذلك قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾

**وكذلك** ماحصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء وعدّد ـ سبحانه ـ هذه النعمة بهذا العلم على عباده، فقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

**وكذلك** ماحصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل مارفعه الله به إليه وفضله وكرمه: وكذلك ماحصل لسيد ولد آدم من العلم الذي ذكره الله به نعمة عليه فقال: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

[١]**وللعلم** ست مراتب: أولها حسن السؤال، الثانية: حسن الإنصات والاستماع، الثالثة: حسن الفهم، الرابعة: الحفظ، الخامسة: التعليم، السادسة: وهي ثمرته، وهي العمل به ومراعاة حدوده.

**فمن** الناس من يحرمه لعدم حسن سؤاله، إما لأنه لا يسأل بحال أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه، كمن يسأل عن فضوله التي لا يضر جهله بها ويدع مالا غنى له عن معرفته، وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين.

**ومن** الناس من يحرمه لسوء إنصاته فيكون الكلام والمارات آثر عنده وأحب إليه من الإنصات، وهذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة للعلم، وهي تمنعهم علمًا كثيراً ولو كان حسن الفهم.

---

(١) ١٦٩ مفتاح جـ١.

**ذكر** ابن عبدالبر عن بعض السلف أنه قال: من كان حسن الفهم ردىء الاستماع لم يقم خيره بشره، وذكر عبدالله بن أحمد في كتاب العلل له قال: كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس، فكان يخزن علمه عنه، وكان عبيدالله بن عبدالله بن عتبة يلطف له في السؤال فيغره بالعلم غرًّا. وقال ابن جريج: لم أستخرج العلم الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به.

**وقال** بعض السلف: إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧].

**فتأمل** ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه ـ سبحانه ـ أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم، ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب وكان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين.

**أحدهما** أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه، فإن كان غائبًا عنه مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى مايوعظ به ويرشد إليه.

**وهاهنا** ثلاثة أمور: أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله: الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق. الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر. فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية. . . .

(١)**قوله تعالى**: ﴿**اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً**﴾ [المنافقون: ٢] وأجننت الميّت واريته في القبر فهو جَنِين. والحب المفرط يستر العقل، فلا يَعْقِل المحب ما ينفعه ويضره، فهو شعبةٌ من الجنون. وأصل المادة من السِّتر في جميع تصاريفها، ومنه أَجَنَّهُ الليل،

---

(١) ٤٩ روضة المحبين.

وجَنَّ عليه إذا ستره، ومنه الجَنين لاستتاره في بطن أمه، ومنه الجَنّة لاستتارها بالأشجار، ومنه المِجَنُّ لاستتار الضارب به والمضروب، ومنه الجِنّ لاستتارهم عن العيون بخلاف الإنس فإنهم يُؤْنَسُون أي يُرَون، ومنه الجُنَّة بالضم وهي ما استترت به واتّقيت.

..[1]**قلت:** الروح التي تتوفى وتقبض، فهي روح واحدة، وهي النفس، وأما مايؤيد الله به أولياءه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيْمَانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

**وكذلك** الروح الذي أيّدَبها روحه المسيح ابن مريم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

**وكذلك** الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن.

**وأما** القوى التي في البدن فإنها تسمى أيضًا: أرواحًا. فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشامّ.

**فهذه** الأرواح قوى مودعة في الأبدان تموت بموت الأبدان، وهي غير الروح التي لاتموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى.

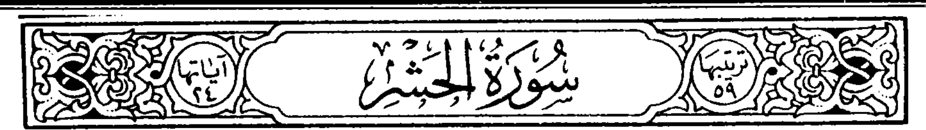
**ويطلق** الروح على أخص من هذا كله، وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذه إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه، وهي الروح التي يؤيد بها أهل ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس فلان فيه روح، وفلان مافيه روح، وهوبَوّ، وهو قصبة فارغة ونحو ذلك. فللعلم روح، وللإحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل وللصدق روح، والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيا، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيًا بهيميًا. والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المجادلة

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٦٦ الروح.




## بسم الله الرحمن الرحيم

## فصل(١)

**ثم** نقض العهد بنو النضير. قال البخاري: «وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر» قاله عروة، وسبب ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم في نَفَرٍ من أصحابه، وكَلَّمهم أن يعينوه في دِيَة الكلابِيَّين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضى حاجتك، وخلا بعضهم ببعض، وسَوَّلَ لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله، ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحا ويَصْعَد، فيلقيها على رأسه يَشْدَخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جِحاش: أنا. فقال لهم سَلَّام بنَ مِشْكَم: لا تفعلوا، فوالله لَيُخْبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقضٌ للعهد الذي بيننا وبينه. وجاء الوحيُ على الفور إليه من ربه ـ تبارك وتعالى ـ بما هَمُّوا به، فنهض مسرعًا، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابُه، فقالوا: نهضتَ ولم نشعر بك؟ فأخبرهم بما هَمَّت يهود به.

**وبعث** إليهم رسول الله ﷺ: أن أخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أَجَّلْتكم عشرًا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، فأقاموا أيامًا يتجهزون. وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبى: أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حِصْنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قُريظة وحلفاؤكم من غطفان.

**وطمع** رئيسهم حييُّ بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله، ﷺ، يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبَّرَ رسول الله، ﷺ، وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلى بن أبي طالب يحمل اللواء. فلما انتهى إليهم قاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبدالله بن أبى وحلفاؤهم من غطفان، ولهذا شبه الله سبحانه وتعالى قصتهم وجعل مثلهم: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر: ١٦].

---

(١) ١٨٥ زاد المعاد جـ٢.

**فإن** سورة الحشر هي سورة بني النضير، وفيها مبدأ قصتهم ونهايتها، فحاصرهم رسول الله (ﷺ) وقطع نخلهم وحَرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج عن المدينة. فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل، إلا السلاح: وقبض النبي (ﷺ) الأموال والحَلْقَة، وهي السلاح، وكانت بنو النضير خالصةً لرسول الله (ﷺ) لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يُخَمِّسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يُوجِف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب(١).

(٢)**وذكر** الحاكم وغيره أن بني النضير لما أجلوا من المدينة أقبل عمر بن سعد فأطاف بمنازلهم فرأى خرابها ففكر. ثم رجع إلى بني قريظة فوجدهم في الكنيسة فنفخ في بوقهم فاجتمعوا. فقال الزبير بن باطا: ياأباسعيد أين كنت منذ اليوم؟ فلم نرك. وكان لا يفارق الكنيسة، وكان يتأله في اليهودية ـ قال: رأيت اليوم عبراً اعتبرنا بها: رأيت إخواننا قد جلوا بعد ذلك العز والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع، قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم، وخرجوا خروج ذل، ولا ـ والتوراة ـ ما سلط هذا على قوم قط لله بهم حاجة. وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف في عزة بنيانه في بيته آمناً، وأوقع بابن سنينة سيدهم. وأوقع ببني قينقاع فأجلاهم وهم جل اليهود، وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة، فحصرهم النبي ـ عليه السلام ـ فلم يخرج إنسان منهم رأسه حتى نهاهم فكلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب.

**ياقوم** قد رأيتم ما رأيتم فاطيعوني وتعالوا نتبع محمداً، فوالله أنكم لتعلمون أنه نبي وقد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان وأبوعمرو بن حراس، وهما أعلم اليهود، جاءا من بيت المقدس يتوكفان قدومه وأمرانا باتباعه، وأمرانا أن نقرئه منهما السلام ثم ماتا على دينهما ودفناهما بحرتنا، فاسكت القوم فلم يتكلم منهم متكلم، فأعاد هذا الكلام ونحوه، وخوفهم بالحرب والسباء والجلاء.

**فقال** الزبير بن باطا: قد ـ والتوراة ـ قرأت صفته في كتاب التوراة التي أنزلت على موسى ليس في المثاني التي أحدثنا.

**فقال** له كعب بن أسد: ما يمنعك يا أبا عبدالرحمن من اتباعه؟ قال: أنت.

---

(١) تقدم سياق طوائف اليهود في سورة الأحزاب (ج).

(٢) ١٨ هداية الحيارى.

قال ولم ـ فوالتوراة ـ ما حلت بينك وبينه قط؟

**قال** الزبير: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا، فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيت أبينا.

**فأقبل** عمر بن سعد على كعب فذكر ما تقاولا في ذلك إلى أن قال كعب: ما عندي في ذلك إلا ما قلت، ما تطيب نفسي أن أصير تابعاً.

**وهذا** المانع هو الذي منع فرعون من اتباع موسى، فإنه لما تبين له الهدى عزم على اتباع موسى ـ عليه السلام ـ فقال له! وزيره هامان: بينا أنت إله تعبد تصبح تعبد ربا غيرك؟! قال: صدقت.

**وذكر** ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر، قال: حدثت عن صفية بنت حيي أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، فلما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة غدوا عليه ثم جاءا من العشي، فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته. قال: نعم، قال: فما في نفسك منه قال: عداوته والله ما بقيت.

**فهذه** الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قديماً وأسلافهم وخيارهم قد أخبرنا الله ـ سبحانه ـ عن أذاهم لموسى، ونهانا عن التشبه بهم في ذلك، فقال: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذوا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عندَ اللهِ وَجِيهاً**﴾

**وأما** خلفهم فهم قتلة الأنبياء: قتلوا زكريا وابنه يحيى وخلقاً كثيراً من الأنبياء، حتى قتلوا في يوم سبعين نبيًا، وأقاموا السوق في آخر النهار كأنهم لم يصنعوا شيئاً.

**واجتمعوا** على قتل المسيح وصلبه فصانه الله من ذلك وأكرمه أن يهينه على أيديهم وألقى شبهه على غيره، فقتلوه، وصلبوه، وراموا قتل خاتم النبيين مراراً عديدة، والله يعصمه منهم. ومن هذا شأنهم لا يكبر عليهم اختيار الكفر على الإيمان لسبب من الأسباب التي ذكرنا بعضها أو سببين أو أكثر.

[1]... و«**الاعتبار**» هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن الدليل إلى المدلول، فينتقل إليه بسرعة لطف إدراك، فينتقل ذهنه من الملزوم إلى لازمه. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ**﴾ [الحشر: ٢] و«الاعتبار» افتعال من العبور. وهو عبور القلب من الملزوم إلى لازمه. ومن النظير إلى نظيره.

---

(١) ٣٥٧ مدارج جـ٣.

**وهذا** «الاعتبار» يضعف ويقوى، حتى يستدل صاحبه بصفات الله ـ تعالى ـ وكماله على ما يفعله، لحسن اعتباره وصحة نظره، وهو اعتبار الخواص واستدلالهم. فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا. فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده، ولا يفعل ما يناقض ذلك.

**وقد** ذكر ـ سبحانه ـ هذين الطريقين في كتابه. فقال ـ تعالى ـ في الطريق الأولى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ**﴾. ثم قال في الطريق الثانية: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت: ٥٣].

**فمخلوقاته** دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به، وما لا يفعله ولا يأمر به. مثال ذلك: أن اسمه «الحميد» ـ سبحانه ـ يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر. واسمه «الحكيم» يدل على أنه لا يخلق شيئاً عبثاً. واسمه «الغني» يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

**واسمه** «الملك» يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه: من قدرته، وتدبيره، وعطائه ومنعه، وثوابه وعقابه، وبَثِّ رسله في أقطار مملكته، وإعلام عبيده بمراسيمه، وعهوده إليهم، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد.

**فمتى** قام بالعبد تعظيم الحق ـ جل جلاله ـ وحسن النظر في الشواهد، والتبصر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قبلةً له...

[1]... **قال** الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧] فأمرنا باتباعه وطاعته فيما سنه وأمر به وما نهى عنه وما حكم به. وقال (ﷺ): «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**» وقال: «**من رغب عن سنتي فليس مني، ومن أحب سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة**» فعرفنا سنته ووجدناها بهذه الآثار المشتهرة التي رويت بالأسانيد الصحيحة المتصلة التي نقلها حفاظ العلماء وثقاتهم بعضهم عن بعض.

**ثم** نظرنا فرأينا فرقة أصحاب الحديث: لها أطلب، وفيها أرغب، ولها أجمع، ولأصحابها اتبع، فعلمنا يقيناً أنهم أهلها دون من عداهم من جميع الفرق، فإن

---

(١) ٤٢٨ مختصر الصواعق جـ٢.

صاحب كل حرفة أو صناعة إن لم يكن معه دلالة وآلة من آلات تلك الصناعة والحرفة ثم ادعى تلك الصناعة كان في دعواه مبطلاً فإذا كانت معه آلات الصناعة الحرفة شهدت له تلك الآلات بصناعته بل شهد له كل من عاينه قبل الاختبار. . .

(١) **والذي** قال لنا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] هو الذي شرع لنا هذه الزيادة على لسانه(٢) والله ـ سبحانه ـ ولاه مَنْصِبَ التشريع عنه ابتداء، كما ولاه منصب البيان لما أراده بكلامه.

**بل** كلامه كله بيان عن الله، والزيادة بجميع وجوهها لا تخرج عن البيان بوجه من الوجوه. بل كان السلف الصالح الطيب إذا سمعوا الحديث عنه وَجَدُوا تصديقه في القرآن، ولم يقل أحد منهم قط في حديث واحد أبداً: إن هذا زيادة على القرآن فلا نقبله ولا نسمعه ولا نعمل به، ورسول الله (ﷺ) أجَلُّ في صدورهم وسنتُه أعظم عندهم من ذلك وأكبر.

**ولا فرق** أصلاً بين مجيء السنة بعدد الطواف وعدد ركعات الصلاة ومجيئها بفرض الطمأنينة وتعيين الفاتحة والنية؛ فإن الجميع بيانٌ لمراد الله أنه أوجب هذه العبادات على عباده على هذا الوجه، فهذا الوجه هو المراد، فجاءت السنة بياناً للمراد في جميع وجوهها، حتى في التشريع المبتدأ، فإنها بيان لمراد الله من عموم الأمر بطاعته وطاعة رسوله، فلا فرق بين بيان هذا المراد وبين بيان المراد من الصلاة والزكاة والحج والطواف وغيرها، بل هذا بيان المراد من شيء، وذاك بيان المراد من أعم منه؛ فالتغريب بيان مَحْض للمراد من قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

**وقد** صرح النبي (ﷺ) بأن التغريب بيان لهذا السبيل المذكور في القرآن، فكيف يجوز رده بأنه مخالف للقرآن معارض له؟ ويقال: لو قبلناه لأبطلنا به حكم القرآن؟ وهل هذا إلا قَلْبٌ للحقائق؟ فإن حكم القرآن العام والخاص يوجب علينا قبوله فرضاً لا يسعنا مخالفته؛ فلو خالفناه لخالفنا القرآن ولخرجنا عن حكمه ولابد، ولكان في ذلك مُخَالفة للقرآن والحديث معاً. يوضحه الوجه الثاني:

**أن الله** ـ سبحانه ـ نَصَبَ رسول الله (ﷺ) منصب المبلغ المبين عنه، فكل ما

(١) ٢٩٤ أعلام جـ٢.

(٢) يشير إلى ماتقدم من الأدلة على وجوب قبول السنة على أي وجه وردت (ج).

شرعَه للأمة فهو بيان منه عن الله أن هذا شَرعُه ودينه، ولا فرق بين ما يبلغه عنه من كلامه المتلو ومن وَحيه الذي هو نظير كلامه في وجوب الاتباع، ومخالفة هذا: كمخالفة هذا. يوضحه الوجه الثالث:

**أن** الله ـ سبحانه ـ أمرنا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحَج البيت وصَوْم رمضان، وجاء البيانُ عن رسوله (ﷺ) بمقادير ذلك وصفاته وشروطه؛ فوجب على الأمة قبوله، إذ هو تفصيل لما أمر الله به، كما يجب علينا قبولُ الأصل المفصَّل.

**وهكذا** أمر الله ـ سبحانه ـ بطاعته وطاعة رسوله؛ فإذا أمر الرسول بأمرٍ كان تفصيلاً وبياناً للطاعة المأمور بها، وكان فرض قبوله كفرض قبول الأصل المفصل، ولا فرق بينهما. يوضحه الوجه الرابع:

**أن** البيان من النبي (ﷺ) أقسام:

**أحدها:** بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيًا.

**الثاني:** بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلى ذلك كما بين أن الظلم المذكور في قوله: ﴿**وَلَم يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**﴾ [الأنعام: ٨٢] هو الشرك، وأن الحساب اليسير هو العرض، وأن الخيط الأبيض والأسود هما بياض النهار وسواد الليل، وأن الذي رآه نزلة أخرى عند سِدْرَة المنتهي هو جبريل.

**كما** فسر قوله: ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ [الأنعام: ١٥٨] أنه طلوع الشمس من مَغْربها. وكما فسر قوله: ﴿**مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ**﴾ [إبراهيم: ٢٤] بأنها النخلة.

**وكما** فسر قوله: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [إبراهيم: ٢٧] أن ذلك في القبر حين يسأل: مَن ربك؟ وما دينك؟

**وكما** فسر الرعد بأنه ملك من الملائكة موكل بالسحاب.

**وكما** فسر اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله: بأن ذلك باستحلال ما أحلوه لهم من الحرام، وتحريم ما حرموه من الحلال. وكما فسر القوة التي أمر الله أن نعدها لأعدائه بالرَّمي. وكما فسر قوله: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ [النساء: ١٢٣] بأنه ما يجزي به العبد في الدنيا من النصَب والهم والخوف واللأواء.

**وكما** فسر الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم. وكما فسر الدعاء في قوله: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠] بأنه العبادة. وكما فسر أدبار النجوم

بأنه الركعتان قبل الفجر وأدبار السجود بالركعتين بعد المغرب، ونظائر ذلك.

**الثالث:** بيانه بالفعل كما بيّن أوقات الصلاة للسائل بفعله.

**الرابع:** بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن فنزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذْف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره.

**الخامس:** بيان ما سئل عنه بالوحي وإن لم يكن قرآناً، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تَضَمَّخَ بالخلُوق، فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق.

**السادس:** بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك.

**السابع:** بيانه للأمة جواز الشيء بفعله هو له وعدم نهيهم عن التأسيِّ به.

**الثامن:** بيانه جواز الشيء بإقراره لهم على فعله، وهو يشاهده أو يَعْلَمهم يفعلونه.

**التاسع:** بيانه إباحة الشيء عفواً بالسكوت عن تحريمه وإن لم يأذن فيه نطقاً.

**العاشر:** أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه أو إباحته، ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف، فيحيل الربُّ - سبحانه وتعالى - على رسوله في بيانها كقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] فالحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته وأهلية المحل، فإذا جاءت السنة ببيان ذلك كله لم يكن الشيء منه زائداً على النص فيكون نسخاً له، وإن كان رفعاً لظاهر إطلاقه.

**فهكذا** كل حكم منه (ﷺ) زائد على القرآن، هذا سبيله سواء بسواء، وقد قال - تعالى -: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] ثم جاءت السنة بأن القاتل والكافر والرقيق لا يرث، ولم يكن نسخاً للقرآن مع أنه زائد عليه قطعاً، أعنى في موجبات الميراث؛ فإن القرآن أوجَبَه بالولادة وحدها، فزادت السنة مع وصف الولادة اتحاد الدين وعدم الرق والقتل، فهلا قلتم: إن هذه زيادة على النص فيكون نسخًا والقرآن لا ينسخ بالسنة كما قلتم ذلك في كل موضع تركتم فيه الحديث لأنه زائد على القرآن. . .

**(١) قال الله - تعالى -:** ﴿مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ

(١) ٢٨٧ عدة الصابرين.

**وَلِلرَّسُولِ﴾** [الحشر: ٧] فنزهه ربه ـ سبحانه ـ عن الفقر الذي يسوغ أخذ الصدقة وعوضه عما نزهه عنه بأشرف المال وأجله وأفضله، وهو ما أخذه بظل رمحه وقائم سيفه من أعداء الله الذين كان مال الله بأيديهم ظلماً وعدواناً فإنه خلق المال ليستعان به على طاعته، وهو بأيدي الكفار والفجار ظلماً وعدواناً، فإذا رجع إلى أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خلق لهم. ولكن لم يكن غنى رسول الله (ﷺ) وملكه من جنس غنى بني الدنيا وأملاكهم، فإن غناهم بالشيء، وغناه (ﷺ) عن الشيء، وهو الغنى العالي.

**وملكهم** ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم، وهو (ﷺ) إنما يتصرف في ملكه تصرف العبد الذي لا يتصرف إلا بأمر سيده. وقد اختلف الفقهاء في الفيء: هل كان ملكاً للنبي (ﷺ) على قولين، وهما روايتان عن أحمد.

**والتحقيق** أن ملكه له كان نوعاً آخر من الملك، وهو ملك يتصرف فيه بالأمر كما قال (ﷺ): «**والله لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً؛ إنما أنا قاسم، أضع حيث أمرت**»، وذلك من كمال مرتبة عبوديته، ولأجل ذلك لم يورث، فإنه عبد محض من كل وجه لربه ـ عز وجل ـ والعبد لا مال له فيورث عنه.

**فجمع** الله له ـ سبحانه ـ بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر، فكمل له مراتب الكمال، فليست إحدى الطائفتين بأحق به من الأخرى، فكان (ﷺ) في فقره أصبر خلق الله وأشكرهم، وكذلك في غناه. والله ـ تعالى ـ جعله قدوة للأغنياء والفقراء، وأي غنى أعظم من غنى من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهباً. وخير بين أن يكون ملكاً نبيًّا وبين أن يكون عبداً نبيًّا، فاختار أن يكون عبداً نبيًّا، ومع هذا فجبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن فأنفقها كلها، ولم يستأثر منها بشيء، بل تحمل عيال المسلمين ودينهم فقال: «**من ترك مالا فلورثته ومن ترك كلا فإلي وعلي**».

**فرفع** الله ـ سبحانه ـ قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة، كما نزهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة، بل أغناه به عن سواه، وأغنى قلبه كل الغنى، ووسع عليه غاية السعة، فأنفق غاية الإنفاق، وأعطى أجل العطايا، ولا استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقاراً ولا أرضاً، ولا ترك شاة

ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة ولا ديناراً ولا درهماً، فإذا احتج الغني الشاكر بحاله (ﷺ) لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله، كما أن الفقير الصابر إذا احتج بحاله (ﷺ) لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره ويترك الدنيا اختياراً لا اضطراراً، فرسول الله (ﷺ) وفى كل مرتبة من مرتبتي الفقر والغنى حقها وعبوديتها.

**وأيضاً** فإن الله ـ سبحانه ـ أغنى به الفقراء، فما نالت أمته الغنى إلا به، وأغنى الناس من صار غيره به غنيًا. قال علي بن أبي رباح اللخمي: كنت عند مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو يومئذ على مصر وعبدالله بن عمرو بن العاص جالس معه، فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبي طالب فقال: لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير، فقال عبدالله بن عمرو: ويومئذ كان سيداً كريماً قد جاء بخير كثير. فقال مسلمة: ألم يقل الله ـ تعالى ـ: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ**﴾ [الضحى: ٦-٨] فقال عبدالله بن عمرو: أما اليتيم فقد كان يتيماً من أبويه. وأما العيلة فكلما كان بأيدي العرب إلى القلة يقول: إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشيء ومضى وتركها وحذر منها ومن فتنتها، قال وذلك معنى. قوله: ﴿**عائلاً فأغنى**﴾. وأما قوله: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾ [الضحى: ٥] فلم تكن الدنيا لترضيه وهو لا يرضاها كلها لأمته، وهو يحذر منها، وتعرض عليه فيأباها، وإنما هو ما يعطيه من الثواب وما يفتح عليه وعلى أمته من ملك كسرى وقيصر ودخول الناس في الإسلام وظهور الدين إذ كان ذلك محبته ورضاه صلوات الله وسلامه عليه.

**وروى** سفيان الثوري عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبدالله عن علي بن عبدالله بن عباس عن النبي (ﷺ) قال: «**رأيت ما هو مفتوح بعدي كفراً كفراً فسرني ذلك**» فنزلت ﴿**وَالضُّحَى * واللَيْلِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾ [الضحى: ١-٥]. قال أعطني ألف قصر من لؤلؤ ترابها المسك في كل قصر ما ينبغي له...

[1] **قال الله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فلِلَّهِ ولِلرَّسُولِ**

---

(١) ٤٦٨ زاد المعاد جـ٣.

**وَلِذِي الْقُرْبَىٰ واليَتَامَى والمَسَاكِين وابن السَّبيل كَيْ لَا يكون دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه وما نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا واتَّقُوا الله إنَّ الله شَدِيدُ العِقَاب * لِلْفُقَرَاءِ المُهاجرينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللهِ وَرِضْـوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَه أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * والَّذِينَ تَبَوَّءوا الدَّارَ والإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّون من هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله ﴿والَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾** [الحشر: ٧ ـ ١٠].

**إلى** آخر الآية ـ فأخبر ـ سبحانه ـ. أن ما أفاء على رسوله بجملته: لمن ذُكر في هؤلاء الآيات، ولم يخص منه خُمسه بالمذكورين، بل عمم وأطلق، واستوعب، ويصرف على المصارف الخاصة، وهم أهل الخمس.

**ثم** على المصارف العامة، وهم المهاجرون والأنصار، وأتباعهم إلى يوم الدين. فالذي عمل به هو وخلفاؤه الراشدون: هو المراد من هذه الآيات.

**ولذلك** قال عمر بن الخطاب فيما رواه أحمد وغيره عنه: «**ما أحدٌ أحقَّ بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد. والله ما من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبد مملوك**». ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقَسْمنا من رسول الله (ﷺ) فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغَناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته. ووالله لئن بقيت لهم، ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال، وهو يرعى مكانه».

**فهؤلاء** المسلمون في آية الفيء: هم المسلمون في آية الخمس، ولم يدخل المهاجرون والأنصار وأتباعهم في آية الخمس، لأنهم المستحقون لجملة الفيء.

**وأهل** الخمس لهم استحقاقان: استحقاق خاص من الخمس، واستحقاق عام من جملة الفيء. فإنهم داخلون في النصيبين.

**وكما** أن قسمته من جملة الفيء بين من جعل له ليس قسمة الأملاك التي يشترك فيها المالكون، كقسمة المواريث والوصايا والأملاك المطلقة، بل بحسب الحاجة والنفع، والغناء في الإسلام، والبلاء فيه. فكذلك الخمس في أهله، فإن مخرجهما واحد في كتاب الله.

**والتنصيص** على الأصناف الخمسة: يفيد تحقيق إدخالهم، وأنهم لا يخرجون

من أهـل الفيء بحال، وأن الخمس لا يعدوهم إلى غيرهم كأصناف الزكاة لا تعـدوهم إلى غيرهم، كما أن الفيء العـام في آية الحشر للمـذكورين فيها، لا يتعداهم إلى غيرهم.

**ولهذا** أفتى أئمة الإسلام ـ كمالك وأحمد وغيرهما ـ أن الرافضة: لا حق لهم في الفيء. لأنهم ليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار، ولا من ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفر لنا ولإخواننا الذين سَبقونا بالإيمان**﴾ [الحشر: ١٠] وهذا مذهب أهل المدينة، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية. وعليه يدل القرآن، وفعل رسول الله (ﷺ) وخلفائه الراشدين. . .

[(١)] **وههنا** دقيقة ينبغي التفطن لها، وهي أن إيثار المحبوب نوعان: إيثار معاوضة ومتاجرة، وإيثار حب وإرادة.

**فالأول:** يؤثر محبوبه على غيره طلباً لحظه منه، فهو يبذل ما يؤثره ليعاوضه بخير منه. والثاني يؤثره إجابة لداعي محبته، فإن المحبة الصادقة تدعوه دائماً إلى إيثار محبوبه، فإيثاره هو أجلّ حظوظه، فحظه في نفس الإيثار لا في العوض المطلوب بالإيثار، وهذا لا تفهمه إلا النفس اللطيفة الورعة المشرقة، وأما النفس الكثيفة فلا خبر عندها من هذا، وما هو بعشها فلتدرج.

**والدين** كله والمعاملة في الإيثار، فإنه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به على نفسك، حتى أن من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر، إذ لو لم يكن محتاجاً إليه لكان بذله سخاء وكرماً. وهذا إنما يصح في إيثار المخلوق، والله ـ سبحانه ـ يؤثر عبده على غيره من غير احتياج منه ـ سبحانه ـ فإنه الغني الحميد. وفي الدعاء المرفوع: «**اللهم زدنـا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض عنا**». وقيل: من آثر الله على غيره آثره الله على غيره.

**والفرق** بين الإيثار والأثرة: أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك، والأثرة اختصـاصـك به على الغـير. وفي الحديث: «**بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا**».

---

(١) ٢٩٨ طريق الهجرتين.

**فإذا** عرف هذا فالإيثار إما أن يتعلق بالخلق، وإما أن يتعلق بالخالق. وإن تعلق بالخلق، فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتاً، ولا يفسد عليك حالاً، ولا يهضم لك ديناً، ولا يسد عليك طريقاً، ولا يمنع لك وارداً.

**فإن** كان في إيثارهم شيء من ذلك فإيثار نفسك عليهم أولى، فإن الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحداً كائناً من كان. وهذا في غاية الصعوبة على السالك، والأول أسهل منه. فإن الإيثار المحمود الذي أثنى الله على فاعله: الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب.

**قال** الله ـ تعالى ـ: **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [الحشر: ٩] فأخبر أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقى الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات. فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها، فمن لمي كن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً. فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله. ومما يدل على هذا أنه ـ سبحانه ـ أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها.

**قال** الله ـ تعالى ـ: **﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾** [آل عمران: ١٣٣]. وقال تعالى: **﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾** [البقرة: ١٤٨] وقال تعالى: **﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾** [المطففين: ٢٦]

**وقال** النبي (ﷺ): «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول لكانت قرعة**». والقرعة إنما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الإيثار، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلاً للإيثار، بل محلا للتنافس والمسابقة.

**ولهذا** قال الفقهاء: لا يستحب الإيثار بالقربات. والسر فيه ـ والله أعلم ـ أن الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه، فلا يسع المؤثِر والمؤثَر، بل لا يسع إلا أحدهما. وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشترك الألوف المؤلفة في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم.

**وإن** قدِّر التزاحم في عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع ـ بحيث

إذا فعله واحد فات على غيره ـ فإن في العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبي (ﷺ) في غير حديث، فإذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله.

**وأيضاً** فإنه إذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوض منه: إما مساو له، وإما أزيد، وإما دونه. فمتى أتى بالعوض وعلم الله من نيته وعزيمته الصادقة إرادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه، فجمع له الأمرين. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

**وأيضاً** فإن المقصود رغبة العبد في التقرب إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه، والمنافسة في محابه. والإيثار بهذا التقرب يدل على رغبته عنه، وتركه له، وعدم المنافسة فيه. وهذا بخلاف ما يحتاج إليه العبد من طعامه وشرابه ولباسه إذا كان أخوه محتاجاً إليه فإذا اختص به أحدهما فات الآخر، فندب الله عبده إذا وجد من نفسه قوة وصبراً على الإيثار به ما لم يخرم عليه ديناً، أو يجلب له مفسدة، أو يقطع عليه طريقاً عزم على سلوكه إلى ربه، أو شوش عليه قلبه بحيث يجعله متعلقاً بالخلق، فمفسدة إيثار هذا أرجح من مصلحته.

**فإذا** ترجحت مصلحة الإيثار بحيث تتضمن إنقاذ نفسه من هلكة أو عطب أو شدة ضرورة ـ وليس للمؤثر نظيرها ـ تعين عليه الإيثار.

**فإن** كان به نظيرها لم يتعين عليه الإيثار، ولكن لو فعله لكان غاية الكرم والسخاء والإحسان، فإنه من آثر حياة غيره على حياته وضرورته على ضرورته فقد استولى على أمد الكرم والسخاء، وجاوز أقصاه، وضرب فيه بأوفر الحظ. وفي هذا الموضع مسائل فقهية ليس هذا موضع ذكرها، فإن قيل: ما الذي يسهل على النفس هذا الإيثار. فإن النفس مجبولة على الأثرة لا على الإيثار؟ قيل يسهله أمور:

**أحدهما**: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها، فإن من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الإيثار، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته، لا تبديل لخلق الله.

**والأخلاق** ثلاثة: خلق (الإيثار) وهو خلق الفضل. وخلق (القسمة والتسوية) وهو خلق العدل. وخلق (الاستئثار والاستبداد) وهو خلق الظلم. فصاحب

الإيثار محبوب مطاع مهيب، وصاحب العدل لا سبيل للنفوس إلى أذاه والتسلط عليه، ولكنها لا تنقاد إليه انقيادها لمن يؤثرها، وصاحب الاستئثار النفوس إلى أذاه والتسلط عليه أسرع من السيل في حدوره. وهل أزال الممالك وقلعها إلا الاستئثار؟ فإن النفوس لا صبر لها عليه(١)

**ولهذا** أمر رسول الله (ﷺ) أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الأمر وإن استأثروا عليهم، لما في طاعة المستأثر من المشقة أو لكره الاستئثار.

**الثاني:** النفرة من أخلاق اللئام، ومقت الشح وكراهته له.

**الثالث:** تعظيم الحقوق التي جعلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمسلمين بعضهم على بعض، فهو يرعاها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها، ويعلم أنه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حده، فإن ذلك عسر جدًّا، بل لابد من مجاوزته إلى الفضل، أو التقصير عنه إلى الظلم، فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار بما لا ينقصه ولا يضره ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه له الإيثار من البركة وفيضان الخير عليه، فيعود عليه من إيثاره أفضل مما بذله. ومن جرب هذا عرفه، ومن لم يجربه فليستقرِ أحوال العالم. والموفق من وفقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

(٢)**قال** الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

**فالإيثار** ضد الشح. فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح: حريص على ما ليس بيده. فإذا حصل بيده شيء شَحَّ عليه، وبخل بإخراجه. فالبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي (ﷺ): «**إياكم والشح! فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**». فالبخيل: من أجاب داعي الشح. والمؤثر: من أجاب داعي الجود.

---

(١) وفي ذلك يقول مصطفى صادق الرافعي:

إن ملكت النفوس فابغ رضاها ... فلها ثورة وفيها مضاء

يسكن الوحش للوثوب من الأسر ... فكيف الخلائق العقلاء

(٢) ٢٩١ مدارج جـ٢.

**كذلك** السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء. وهو أفضل من سخاء البذل. قال عبدالله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل. وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

**وسمي** بمنزل «الإيثار» لأنه أعلى مراتبه، فإن المراتب ثلاث.

**إحداها:** أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه. فهو منزلة «السخاء».

**الثانية:** أن يعطي الأكثر، ويُبْقي له شيئاً، أو يبقي مثل ما أعطى، فهو «الجود».

**الثالثة:** أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار» وعكسها «الأثَرة» وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه. وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله (ﷺ) للأنصار رضي الله عنهم: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**» والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر: ٩] فوصفهم بأعلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفاً.

**وكان** قيس بن سعد بن عُبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين. حتى إنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانه في العيادة. فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل. فما أمسى حتى كُسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده. وقالوا له يوماً: هل رأيت أسخي منك؟ قال: نعم! نزلنا بالبادية على امرأة. فحضر زوجها. فقالت: إنه نزل بك ضيفان. فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم؟ فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها. فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا اليسير. فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسماء تمطر. وهو يفعل ذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه. ومضينا. فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا. أيها الركب اللئام. أعطيتموني ثمن قراي؟ ثم إنه لحقنا، وقال: لتأخذنَّه أو لأطاعننكم برمحي. فأخذناه وانصرف.

**فتأمل** سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخبير ـ سبحانه ـ استئثار الناس على الأنصار بالدنيا ـ وهم أهل الإيثار ـ ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على

نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس. فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك ـ مع كونك من أهل الإيثار ـ فاعلم أنه لخير يراد بك. والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

## فصل

و«**الجود**» عشرة مراتب.

**أحدها:** الجود بالنفس. وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضَنَّ البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

**الثانية:** الجود بالرياسة. وهو ثاني مراتب الجود. فيحمل الجواد جودهُ على امتهان رياسته، والجود بها. والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

**الثالثة:** الجود براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه. فيجود بها تعباً وكدًّا في مصلحة غيره. ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامِره، كما قيل:

مُتَيَّمٌ بالندى لو قاله سائله هب لي جميع كَرَى عينيك لم يَنَم

**الرابعة:** الجود بالعلم وبذله. وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال. لأن العلم أشرف من المال.

**والناس** في الجود به على مراتب متفاوتة. وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: أن لا ينفع به بخيلاً أبداً.

**ومن** الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحاً.

**ومن** الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جواباً شافياً، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصراً عليها.

**ولقد** شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ في ذلك أمراً عجيباً: كان إذا سئل عن مسألة حُكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح. وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته. فيكون فرحة بتلك المتعلقات، واللوازم: أعظم من فرحة بمسألته. وهذه فتاويه ـ رحمه الله ـ بين الناس. فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

**فمن** جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل. بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

**وقد** سأل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ النبي (ﷺ) عن المتوضىء بماء البحر؟ فقال: **«هو الطهور ماؤه، الحلُّ ميتته»** فأجابهم عن سؤالهم. وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

**وكانوا** إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته. كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: «أينقص الرطب إذا جَفَّ؟ قالوا: نعم. قال: فلا. إذن» ولم يكن يخفى عليه (ﷺ) نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علة الحكم. وهذا كثير جدًا في أجوبته (ﷺ). مثل قوله: «**إن بعتَ من أخيك ثمرة. فأصابتها جائحة فلا يَحِلُّ لك أن تأخذ من مال أخيك شيئاً. بِمَ يأخذ أحدكم مال أخيه؟ بغير حق؟**» وفي لفظ: «**أرأيت إن منع الله الثمرة: بم يأخذ أحدكم مال أخيه، بغير حق؟**» فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن. وهي مَنْعُ الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

**وكان** خصومه ـ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يعيبونه بذلك. ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر ـ مثلاً ـ فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند. وأي حاجة بالسائل إلى ذلك؟

**ولعمر** الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب: الجهل والكبر. وهذا موضع المثل المشهور:

لقبوه بحامض. وهو خل مثل من لم يصل إلى العنقود

**الخامسة:** الجود بالنفع بالجاه. كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه. وذلك زكاة الجاه المطالبُ بها العبد. كما أن التعليم وبَذْلَ العلم زكاته.

**السادسة:** الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال (ﷺ): «**يُصْبِح على كل سُلاَمَى من أحدكم صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين: صدقة. ويعين الرجل في دابته، فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه: صدقة. والكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خُطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة. ويُميط الأذى عن الطريق: صدقة**» متفق عليه.

**السابعة:** الجود بالعرض، كجود أبي ضَمْضَم من الصحابة ـ رضي الله

عنهم ـ. كان إذا أصبح قال: «اللهم إنه لا مال لي، أتصدق به على الناس. وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني، أو قذفني: فهو في حلٍّ. فقال النبي (ﷺ): «من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟»». وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

**الثامنة:** الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء. وهذه مرتبة شريفة من مراتبه. وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها. ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

**فمن** صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود. فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة. وهذا جود الفتوة. قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ**﴾ [المائدة: ٤٥] وفي هذا الجود. قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [الشورى: ٤٠] فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل، وأذن فيه. ومقام الفضل، وندب إليه. ومقام الظلم، وحرمه.

**التاسعة:** الجود بالخُلق والبشر والبسطة. وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو. وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يوضع في الميزان. قال النبي (ﷺ): «**لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه**» وفي هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع المصالح ما فيه. والعبد لا يمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

**العاشرة:** الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه. وهذا الذي قال عبدالله بن المبارك «**إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل**». فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس، فَجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم. وما في أيديهم، تُفَضّل عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

**ولكل** مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال. والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك. والله المستعان.

## فصـــل

**قال** صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ:

«**الإيثار**: تخصيص واختيار. والأثرة: تحْسُن طوعاً. وتصح كرهاً».

**فرق** الشيخ بين «الإيثار» و«الأثرة» وجعل «الإيثار» اختياراً و«الأثرة» منقسمة إلى اختيارية، واضطرارية. وبالفرق بينهما يعلم معنى كلامه. فإن «الإيثار» هو البذل، وتخصيصك لمن تؤثره على نفسك، وهذا لا يكون إلا اختياراً.

**وأما** «الأثرة» فهي استئثار صاحب الشيء به عليك، وحَوْزه لنفسه دونك. فهذه لا يحمد عليها المستأثر عليه. إلا إذا كانت طوعاً. مثل أن يقدر على منازعته ومجاذبته، فلا يفعل. ويدعه وأثرته طوعاً. فهذا حسن، وإن لم يقدر على ذلك كانت أثرة كرهٍ. ويعنى بالصحة: الوجود، أي توجد كرهاً. ولكن إنما تحسن إذا كانت طوعاً من المستأثر عليه.

**فحقيقة** «الإيثار» بذل صاحبه وإعطاؤه. و«الأثرة» استبداله هو بالمؤثر به. فيتركه وما استبدل به: إما طوعاً، وإما كرهاً. فكأنك آثرته باستئثاره حيث خليت بينه وبينه، ولم تنازعه. قال عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: «بايعنا رسول الله (ﷺ) على السمع والطاعة، في عُسْرِنا، ويُسْرِنا، ومنشَطِنا ومكرهنا، وأثَرةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله» فالسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره: لهم معه ومع الأئمة بعده، والأثرة: عدم منازعة الأمر مع الأئمة بعده خاصة، فإنه (ﷺ) لم يستأثر عليهم.

## فصـــل(١)

...**وفيها**: (٢) كمال محبة الصديق له، وقصده التقرب إليه، والتحبب بكل ما يمكنه، ولهذا ناشد المغيرة أن يَدعه هو يُبشر النبي (ﷺ) بقدوم وفد الطائف، ليكون هو الذي سَرَّه وأفرحه بذلك. وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أو يُؤثره بقربة من القُرب، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر أخاه.

**وقول** من قال من الفقهاء: لا يجوز الإيثار بالقرب. لا يصح، وقد آثرت

---

(١) ٤٦٨ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أي قصة ثقيف حيث ساقها الشيخ ـ رحمه الله ـ كاملة مفصلة قبل هذا (ج).

عائشة عمر بن الخطاب بدفنه في بيتها بجوار النبي (ﷺ). وسألها عمر ذلك، فلم تكره له السؤال، ولا لها البذل. وعلى هذا: فإذا سأل الرجل غيره: أن يؤثره بمقامه في الصف الأول: لم يكره له السؤال، ولا لذلك البذل ونظائره.

**ومن** تأمل سيرة الصحابة وجدهم غير كارهين لذلك، ولا ممتنعين منه. وهل هذا إلا كرمٌ وسخاء، وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها، وتفريح لأخيه المسلم، وتعظيم لقدره، وإجابة له إلى ما سأله، وترغيب له في الخير. وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحاً على ثواب تلك القربة، فيكون المؤثر بها ممن تاجر، فبذل قربة وأخذ أضعافها؟

**وعلى** هذا: فلا يمتنع أن يؤثر صاحب الماء بمائة من يتوضأ به ويتيمم هو، إذا كان لابد من تيمم أحدهما، فآثره أخاه وحَازَ فضيلة الإيثار، وفضيلة الطُّهر بالتراب. ولا يمنع هذا كتاب ولا سُنَّة، ولا مكارم أخلاق.

**وعلى** هذا: فإذا اشتد العطش بجماعة عاينوا التلف، ومع بعضهم ماء، فآثر به على نفسه واستسلم للموت. كان ذلك جائزاً، ولم يقُلْ: إنه قاتل لنفسه، ولا أنه فعل محرماً، بل هذا غاية الجود والسخاء، كما قال تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر: ٩].

**وقد** جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام، وعُدَّ ذلك من مناقبهم وفضائلهم. وهل إهداء القُرب المجمع عليها والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها؟ وهو عين الإيثار بالقرب، فأي فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحرز ثوابها، وبين أن يعمل ثم يؤثر بثوابها؟ وبالله التوفيق.

(١)**المثال** الثالث عشر: ردَّ الرافضة النصوص الصحيحة الصريحة المحكمة المعلومة عند خاص الأمة وعامتها بالضرورة؛ في مَدْح الصحابة، والثناء عليهم، ورضاء الله عنهم، ومغفرته لهم، وتَجاوُزِه عن سيئاتهم، ووجوب محبة الأمة، واتباعهم لهم، واستغفارهم لهم، واقتدائهم بهم بالمتشابه من قوله: «**لا تَرْجعُوا بعدي كفاراً يَضْرِب بعضكم رقاب بعض**» ونحوه.

---

(١) ٢٨٥ أعلام جـ٢.

**كما** ردوا المحكم الصريح من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم، كفعل إخوانهم من الخَوَارج حين ردُّوا النصوص الصحيحة المحكمة في موالاة المؤمنين ومحبتهم وإن ارتكبوا بعض الذنوب التي تقع مكفرةً بالتوبة النَّصُوح، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين لهم في حياتهم وبعد موتهم، وبالامتحان في البرزخ وفي موقف القيامة، وبشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة، وبصدق التوحيد، وبرحمة أرحم الراحمين.

**فهذه** عشرة أسباب تمحق أثر الذنوب، فإن عجزت هذه الأسباب عنها فلابد من دخول النار، ثم يخرجون منها؛ فتركوا ذلك كله بالمتشابه من نصوص الوعيد، وردوا المحكم من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم التي يحتمل أن يكونوا قصدوا بها طاعة الله، فاجتهدوا، فأداهم اجتهادهم إلى ذلك، فحصلوا فيه على الأجر المفرد، وكان حظ أعدائهم منه تكفيرهم واستحلال دمائهم وأموالهم، وإن لم يكونوا قصدوا ذلك كان غايتهم أن يكونوا قد أذنبوا، ولهم من الحسنات والتوبة وغيرها ما يرفع موجب الذنب فاشتركوا هم والرافضة في رد المحكم من النصوص وأفعال المؤمنين بالمتشابه منها فكفروهم وخرجوا عليهم بالسيف يقتلون أهل الإيمان ويدعون أهل الأوثان. ففساد الدنيا والدين من تقديم المتشابه على المحكم، وتقديم الرأي على الشرع، والهوى على الهدى، وبالله التوفيق.

(1)**وكذلك** فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها، ثم دَلَّ أهلها عليه وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فرَّ عنه وتركه، وفيه أنزل الله ـ سبحانه ـ: ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الحشر: ١٦] وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته؛ فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: (**إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ**﴾ [إبراهيم: ٢٢] فأوردهم شر الموارد، وتبرأ منهم كل البراءة.

---

(١) ١٠٩ إغاثة جـ١.

**وتكلم** النـاس في قول عدو الله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾ [الحشر:١٦] فقال قتادة وابن إسحـاق «صدق عدو الله في قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وكذب في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾ [الأنفال:٤٨] والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه».

**وقـالت** طائفـة: «إنـما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقابه في الآخرة»، وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيماناً ولا نجاة...

## فصـــل[1]

**ومن** عقوباتها[2] أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهنالك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة. قال الله - تعالى -: ﴿يَاأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللهَ وَلْتَنـظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَـدٍ واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾

**فأمر** بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه.

**وأخبر** أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه أي أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلـك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره، فترى العاصي مهملاً لمصـالح نفسه مضيعاً لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطـاً، قد انفـرطت عليه مصـالح دنياه وآخرته، وقد فرط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة. إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف.

أحـلام نوم أو كـظل زائل		إن اللبيب بمثلها لايخدع

**وأعـظم** العقـوبـات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبها من الله وبيعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيع من لا غنى له عنه ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض

من كل شيء إذا ضيعته عوض		وليس في الله إن ضيعت من عوض

**فالله** - سبحانه وتعالى - يعوض عن كل شيء سواه ولا يعوض منه شيء، ويغني

---

(١) ٩٢ الجواب الكافي.		(٢) أي المعاصي (ج).

عن كل شيء، ولا يغني عنه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، ويجير من كل شيء، ولا يجير منه شيء، وكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟ وكيف ينسى ذكره، ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم ظلم؟ فما ظلم العبد ربه، ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه، ولكن هو الذي ظلم نفسه.

(١)... **والتحقيق**: أن التوبة بين محاسبتين. محاسبة قبلها، تقتضي وجوبها. ومحاسبة بعدها، تقتضي حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين.

**وقد** دل على المحاسبة قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾ [الحشر: ١٨] فأمر ـ سبحانه ـ العبد أن ينظر ما قدم لغد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ماقدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟

**والمقصود** من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه. من كمال الاستعداد ليوم المعاد. وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله! وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتـزينوا للعرض الأكبر» ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ [الحاقة: ١٨] أو قال: «على من لا تخفى عليه أعمالكم».

(٢)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾ [الحشر: ١٩] فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً، وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده، فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه لبقائها على هداها التام الذي أعطاها إياه خالقها.

**وأما** هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها، فنسى ربه، فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وتزكوبه وتسعد به في معاشها ومعادها. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**﴾ [الكهف: ٢٨] فغفل عن ذكر ربه، فانفرط عليه أمره وقلبه، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتت القلب مضيعه، مفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلاً.

(٣)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ**﴾ [الحشر: ١٩]

---

(١) ١٧٠ مدارج جـ١.　(٢) ٨٦ مفتاح جـ١.　(٣) ٢٥٨ الروح.

فهؤلاء نسوا نفوسهم لا من جميع الوجوه، بل من الوجه الذي به مصالحها وكمالها وسعادتها، وإن لم ينسوها من الوجه الذي منه شهوتها وحظها وإرادتها، فأنساهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها، وعيوبها ونقائصها أن يزيلوها ويجتنبوها، وكمالها الذي خلقت له أن يعرفوه ويطلبوه، فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجوه وإن كانوا عالمين بها من وجوه أخر.

[1]**وتأمل** قوله ـ تعالى ـ: **﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾** [التوبة: ٦٧] وقوله: **﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾** [الحشر: ١٩] كيف عدل فيهم كل العدل بأن نسيهم كما نسوه، وأنساهم حظوظ أنفسهم ونعيمها وكمالها وأسباب لذتها وفرحها عقوبة لهم على نسيان المحسن إليهم بصنوف النعم المتحبب إليهم بآلائه فقابلوا ذلك بنسيان ذكره والإعراض عن شكره فعدل فيهم بأن أنساهم مصالح أنفسهم فعطلوها، وليس بعد تعطيل مصلحة النفس إلا الوقوع فيما تفسد به وتتألم بفوته غاية الألم.

[2]**قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾** [الحشر: ١٩] عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم فنسوا مصالحها أن يفعلوها وعيوبها أن يصلحوها وحظوظها أن يتناولوها.

**ومن** أعظم مصالحها وأنفع حظوظها؛ ذكرها لربها وفاطرها، وهي لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره، وحبه، وطاعته، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فأنساهم ذلك لما نسوه، وأحدث لهم هذا النسيان نسيانًا آخر.

**وهذا** ضد حال الذين ذكروه ولم ينسوه، فذكرهم مصالح نفوسهم ففعلوها، وأوقفهم على عيوبها فأصلحوها، وعرفهم حظوظها العالية فبادروا إليها، فجازى أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان ومحبته وذكره وشكره فلما خلت قلوبهم من ذلك لم يجدوا عن ضده محيصًا. وهذا يبين لك كمال عدله ـ سبحانه ـ في تقدير الكفر والذنوب عليها، وإذا كان قضاؤه عليها بالكفر والذنوب عدلاً منه عليها فقضاؤه عليها بالعقوبة أعدل وأعدل، فهو ـ سبحانه ـ ماض في عبده حكمه عدل فيه قضاؤه.

**وله فيها قضاآن**: قضاء السبب، وقضاء المسبب وكلاهما عدل فيه، فإنه لما ترك ذكره، وترك فعل مايحبه، عاقبه بنسيان نفسه، فأحدث له هذا النسيان ارتكاب

---

(١) ٣٤٦ مختصر الصواعق جـ١.
(٢) ١٣٥ شفاء.

مايبغضه ويسخطه بقضائه الذي هو عدل، فترتب له على هذا الفعل والترك عقوبات وآلام لم يكن له منها بدّ، بل هي مترتبة عليه ترتب المسببات على أسبابها، فهو عدل محض من الرب ـ تعالى ـ فعدل في العبد أولاً وآخرًا، فهو محسن في عدله محبوب عليه، محمود فيه يحمده من عدل فيه طوعًا وكرهًا.

**قال** الحسن: لقد دخلوا النار وأن حمده لفي قلوبهم ماوجدوا عليه سبيلاً.

(1)**قال** ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**الجبار المتكبر**﴾ : هو العظيم، وجبروت الله عظمته، والجبار من أسماء الملوك والجبر الملك والجبابرة الملوك. قال الشاعر:

* وأنعم صباحًا أيها الجبر

**أي**: أيها الملك. وقال السدي: هو الذي يجبر الناس، ويقهرهم على مايريد.

**وعلى** هذا؛ فالجبار معناه: القهار. وقال محمد بن كعب: إنما سمي الجبار لأنه جبر الخلق على ما أراد، والخلق أدق شأنًا من أن يعصوا ربهم طرفة عين إلا بمشيئته: قال الزجاج: الجبار الذي جبر الخلق على ماأراد. وقال ابن الأنباري: الجبار في صفة الرب ـ سبحانه ـ الذي لا ينال، ومنه قولهم: نخلة جبارة، إذا فاتت يد المتناول.

**فالجبار** في صفة الرب ـ سبحانه ـ ترجع إلى ثلاثة معان: الملك، والقهر، والعلو. فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سميت جبارة.

**ولهذا** جعل ـ سبحانه ـ اسمه الجبار مقرونًا بالعزيز والمتكبر، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة تضمن الاسمين الآخرين، وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة وهي: الخالق، البارىء، المصور؛ فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن البارىء المصور تفصيل لمعنى اسم الخالق.

**فالجبار** من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك، ولهذا كان من أسمائه الحسنى. وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذم له ونقص، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار**﴾.

**وقال** ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ: ﴿**وما أنت عليهم بجبار**﴾ أي: مسلط تقهرهم وتكرههم على الإيمان. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس**».

(١) ١٢١ شفاء.




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**الكافرُ** مفتونٌ بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به، ولهذا سأل المؤمنون ربَّهم أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا، كما قال الحنفاء: ﴿**رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾. [الممتحنة: ٤، ٥]. وقال أصحاب موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿**رَبَّنا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾. [يونس: ٨٥].

**قال** مجاهد: المعنى، لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذابٍ من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحقِّ ما أصابهم هذا. وقال الزجاج: معناه: لا تُظهرهم علينا، فيظنُّوا أنهم عل حَقٍّ، فيُفتنوا بذلك. وقال الفرّاء: لا تُظهر علينا الكفارَ، فيرَوْا أنهم على حق وأنّا على باطل. وقال مقاتل: لا تقتِّرْ علينا الرِّزق وتبسُطه عليهم، فيكون ذلك فتنةً لهم.

**وقد** أخبر الله ـ سبحانه ـ أنه قد فتن كلاًّ من الفريقين بالفريق الآخر، فقال: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا**﴾. فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾. [الأنعام: ٥٢].

(٢)**قوله** تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. [الممتحنة، ٨، ٩].

**فإن** الله ـ سبحانه ـ لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبيَّن الله ـ سبحانه ـ أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو من الإحسان الذي يحبه ويرضاه، وكتبه على كل شيء؛ وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة، ولا ريب أن جعل الكفر بالله وتكذيب رسوله موجبًا وشرطاً في الاستحقاق من أعظم موالاة الكفار المنهي عنها، فلا يصح

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢.
(٢) ٣٠١ أحكام أهل الذمة جـ١.

من المسلم، ولا يجوز للحاكم تنفيذه من أوقاف الكفار؛ فأما إذا وقفوا ذلك فيما بينهم، ولم يتحاكموا إلينا ولا استفتونا[١] عن حكمه لم يتعرض لهم فيه، وحكمه حكم عقودهم وأنكحتهم الفاسدة.

**وكذلك** وقف المسلم عليهم فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم أو على أقاربه وبني فلان ونحوه، ولا يكون الكفر موجبا وشرطا في الاستحقاق ولا مانعا منه. . .

... **وأما** الوقف على كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرهم التي يقيمون فيها شعار الكفر فلا يصح من كافر ولا مسلم. . .

[٢]**وذكر** ابن أبي شيبة عن معتمر بن سليمان عن معمر عن الزهري «إن أسلمت ولم يسلم زوجها، فهما على نكاحهما، إلا أن يفرق بينهما سلطان» ولا يعرف اعتبار العدة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبي، ﷺ، يسأل المرأة: هل انقضت عدتها أم لا؟.

**ولا** ريب أن الإسلام لو كان بمجرده فرقة لم يكن فرقة رجعية بل بائنة. فلا أثر للعدة في بقاء النكاح. وإنما أثرها في منع نكاحها للغير. فلو كان الإسلام قد نجز الفرقة بينهما لم يكن أحق بها في العدة.

**ولكن** الذي دل عليه حكمه ﷺ: أن النكاح موقوف. فإن أسلم قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وإن انقضت عدتها فلها أن تنكح من شاءت، وإن انقضت عدتها فلها أن تنكح من شاءت. وإن أحبت انتظرته، فإن أسلم كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد نكاح. ولا نعلم أحدًا جدد للإسلام نكاحه ألبتة، بل كان الواقع أحد أمرين: إما افتراقهما ونكاحها غيره، وإما بقاؤهما عليه، وإن تأخر إسلامها أو إسلامه. وأما تنجيز الفرقة، أو مراعاة العدة: فلا نعلم أن رسول الله ﷺ، قضى بواحدة منهما، مع كثرة من أسلم في عهده من الرجال وأزواجهن، وقرب إسلام أحد الزوجين من الآخر، وبعده منه.

**ولولا** إقراره ﷺ، الزوجين على نكاحهما ـ وإن تأخر إسلام أحدهما عن الآخر بعد صلح الحديبية وزمن الفتح ـ لقلنا بتعجيل الفرقة بالإسلام، من غير اعتبار

(١) في الأصل: استغنونا.

(٢) ٢٨ زاد المعاد جـ٤ .

عدة، لقوله تعالى ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. [الممتحنة: ١٠]. وقوله: ﴿ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ﴾. [الممتحنة: ١٠]. وأن الإسلام سبب الفرقة. وكل ماكان سببًا للفرقة تعقبه الفرقة، كالرضاع والخلع والطلاق. وهذا اختيار الخلال وأبي بكر صاحبه، وابن المنذر، وابن حزم. وهو مذهب الحسن وطاوس وعكرمة وقتادة والحكم، قال ابن حزم: وهو قول عمر بن الخطاب، وجابر بن عبدالله، وابن عباس. وبه قال حماد بن زيد، والحكم بن عتيبة، وسعيد بن جبير، وعمر بن عبدالعزيز، وعدي بن عدي الكندي، والشعبي وغيرهم. قلت: وهو أحد الروايتين عن أحمد.

**ولكن** الذي أنزل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ﴾. [الممتحنة: ١٠]. ﴿لا هُنَّ حِلٌّ لهُمْ ولا هُمْ يَحِلُّون لَهُنَّ﴾. [الممتحنة: ١٠]. لم يحكم بتعجيل الفرقة. فروى مالك في موطئه عن ابن شهاب قال «كان بين إسلام صفوان بن أمية وبين إسلام امرأته ـ فاختة ـ بنت الوليد بن المغيرة نحو من شهر. أسلمت يوم الفتح. وبقي صفوان حتى شهد حنينا والطائف، وهو كافر، ثم أسلم. ولم يفرق النبي ﷺ، بينهما. واستقرت عنده امرأته بذلك النكاح» قال ابن عبدالبر: وشهرة هذا الحديث أقوى من إسناده.

**وقال:** ابن شهاب «أسلمت أم حكيم يوم الفتح، وهرب زوجها عكرمة، حتى أتى اليمن. فدعته إلى الإسلام فأسلم وقدم فبايع النبي ﷺ، فبقيا على نكاحهما». ومن المعلوم يقينا: أن أبا سفيان بن حرب خرج فأسلم عام الفتح قبل دخول النبي ﷺ، مكة ولم تسلم هند امرأته حتى فتح رسول الله مكة. فبقيا على نكاحهما.

**وأسلم** حكيم بن حزام قبل امرأته. وخرج أبوسفيان بن الحارث، وعبدالله بن أبي أمية عام الفتح. فلقيا النبي ﷺ، بالأبواء، فأسلما قبل منكوحتيهما فبقيا على نكاحهما ولم يعلم أن رسول الله، ﷺ، فرق بين أحد ممن أسلم وبين امرأته.

**وجواب** من أجاب بتجديد نكاح من أسلم: في غاية البطلان. ومن القول على رسول الله ﷺ، بلا علم. واتفاق الزوجين في التلفظ بكلمة الإسلام معاً في لحظة واحدة: معلوم الانتفاء.

**ويلي** هذا القول: مذهب من يقف الفرقة على انقضاء العدة، مع مافيه. إذ

فيه آثار ـ وإن كانت منقطعة ـ ولو صحت لم يجز القول بغيرها. قال ابن شُبْرُمة «كان الناس على عهد رسول الله ﷺ يُسلم الرجل قبل المرأة، والمرأة قبل الرجل، فأيُّهما أسلم قبل انقضاء عدة المرأة. فهي امرأته. وإن أسلم بعد العدة: فلا نكاح بينهما» وقد تقدم قول الترمذي في أول الفصل. وماحكاه ابن حزم عن عمر، فما أدرى من أين حكاه؟ والمعروف عنه: خلافه. فإنه ثبت عنه من طريق حماد بن سلمة عن أيوب وقتادة كلاهما عن ابن سيرين عن عبدالله بن يزيد الخطمي «أن نصرانيًا أسلمت امرأته، فخيرها عمر بن الخطاب، إن شاءت فارقته، وإن شاءت أقامت عليه . . .

(١)**قال** المعجلون للفرقة: قال الله ـ تعالى ـ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ولا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنْفَقُوا ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا ما أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**. [الممتحنة: ١٠].

**قالوا:** فهذا حكم الله الذي لا يحل لأحد أن يخرج عنه، وقد حرَّم فيه رجوع المؤمنة إلى الكافر، وصرح ـ سبحانه ـ بإباحة نكاحها؛ ولو كان في عصمة الزوج حتى يسلم في العدة أو بعدها لم يجز نكاحها، لا سيما والمهاجرة تستبرأ بحيضة. وهذا صريح في انقطاع العصمة بالهجرة.

**وقوله:** **﴿ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾** [الممتحنة: ١٠] صريح في أن المسلم مأمور ألا يمسك عصمة امرأته إذا لم تسلم، فصح أن ساعة وقوع الإسلام منه تنقطع عصمة الكافرة منه. وقوله ـ تعالى ـ: **﴿لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُم ولا هُمْ يَحِلُّون لَهُنَّ﴾** [الممتحنة: ١٠] صريح في تحريم أحدهما على الآخر في كل وقت، فهذه أربعة أدلة من الآية؛ ودعونا من تلك المنقطعات والمراسيل والآثار المختلفة، ففي كتاب الله الشفاء والعصمة.

**قال** الآخرون: مرحبًا وأهلاً وسهلاً بكتاب الله، وسمعًا وطاعة لقول ربنا،

(١) ٣٣٨ أحكام أهل الذمة جـ١.

ولكن تأولتم الآية على غير تأويلها، ووضعتموها على غير مواضعها، وليس فيها مايقتضي تعجيل الفرقة إذا سبق أحدهما الآخر بإلغائها[1]، ولا فهم هذا منها أحد قط من أصحاب رسول الله ﷺ ولا من التابعين، ولا يدل على ما ذهبتم إليه أصلاً. . .

[2]**قلت:** وكان شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ رحمه الله ورضي عنه ـ يضعف هذا القول جدًّا، ويذهب إلى خروج البضع من ملكه متقوم ويحتج عليه بالقرآن.

**قال:** لأن الله ـ تعالى ـ أمر المسلمين أن يردوا إلى من ذهبت امرأته إلى الكفار مهره إذا أخذوا من الكفار مالا بغنيمة أو غيرها فقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِن فَاتَكُم شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فآتوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا**﴾ [الممتحنة: ١١] ومعنى عاقبتم: أصبتم منهم عقبى، وهي الغنيمة. هذا قول المفسرين، والمقصود أنه قال: ﴿**فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا**﴾ وهو المهر.

**وقال** ـ تعالى ـ في هذه القصة ﴿**وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ**﴾. [الممتحنة: ١٠]. فأمر المسلمين أن يسألوا مهور نسائهم ويسأل الكفار مهور نسائهم اللاتي هاجرن وأسلمن، ولولا أن خروج البضع متقوم لم يكن لأحد الفريقين عى الآخر مهرا.

**واختلف** أهل العلم في رد مهر من أسلم من النساء إلى أزواجهن في هذه القصة هل كان واجبًا أو مندوبًا على قولين أصلهما أن الصلح هل كان قد وقع على رد النساء أم لا. ؟

**والصحيح** أن الصلح كان عامًّا على رد من جاء مسلماً مطلقاً ولم يكن فيه تخصيص بل وقع بصيغة من المتناولة للرجال والنساء ثم أبطل الله منه رد النساء وعوض منه رد مهورهن وهذه شبهة من قال إن حكم هذه الآية منسوخ ولم ينسخ منه إلا رد النساء خاصة وكان رد المهور مأموراً به.

**والظاهر** أنه كان واجبًا لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿**واسْأَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وليسْأَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ**﴾. [الممتحنة: ١٠]. فثبت أن رد المهور حق لمن يسأله، فيجب رده إليه. قال الزهري: ولولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ، وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يرد الصداق.

**وكذلك** كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد، فلما نزلت هذه الآية أقر

(١) في الأصل: بألف أوها.
(٢) ١٦٦ بدائع جـ٣.

المسلمون بحكم الله ـ تعالى ـ وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله ـ تعالى ـ فيما أمر من رد نفقات المسلمين إليهم فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُم فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ [الممتحنة: ١١].

**فهذا** ظاهر القرآن يدل على أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم.

**قلت**: ويدل عليه أن الشارع كما جعله متقوماً في دخوله، فكذلك في خروجه، لأنه لم يدخله إلى ملك الزوج إلا بقيمة. وحكم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في المفقود بما حكموا به من رد صداق امرأته إليه بعد دخول الثاني بها؛ دليل على أنه متقوم في خروجه وهذا ثابت عن خمسة من الصحابة منهم: عمر وعلي.

**قال** أحمد: أي شيء يذهب من خالفهم؟ فهذا القرآن والسنة وأقوال الخلفاء الراشدين دالة على تقويمه، ولو لم يكن له قيمة لما صح بذل نفائس الأموال فيه، بل قيمته عند الناس من أغلى القيم، ورغبتهم فيه من أقوى الرغبات، وخروجه عن ملك الرجل من أعظم المغارم حتى يعده غرما أعظم من غرم المال. قلت لشيخنا: لو كان خروجه من ملكه متقوما عليه لكانت المرأة إذا وطئت بشبهة يكون المهر للزوج دونها، فحيث كان المهر لها دل على أن الزوج لم يملك البضع، وإنما يملك الاستمتاع، فإذا خرج البضع عنه لم يخرج عنه شيء كان مالكه.

**فقال** لي: الزوج إنما ملك البضع ليستمتع به، ولم يملكه ليعارض عليه، فإذا حصل لها بوطء الشبهة عوض كان لها لأن عقد النكاح لم يقتض ملك الزوج المعاوضة عن بضع امرأته فصار مايحصل لها بجناية الواطيء بمثابة مايحصل لها بغيره من أروش الجنايات.

**قلت** له: فما تقول في خلع المريض بدون مهر المثل؟ فقال: هو يملك إخراج البضع مجانًا بالطلاق، فإذا أخذ منها شيئًا فقد زاد الورثة خيراً. قال: ونحن إنما منعناه من المحاباة فيما ينتقل إلى الورثة، لأنه يفوته عليهم، وبضع الزوجة لا حق للورثة فيه البتة، ولا ينتقل إليهم، فإذا أخرجه بدون مهر المثل لم يفوتهم حقًا ينتقل إليهم، انتهى.

**قلت**: وأما منع الأب من خلع ابنته بشيء من مالها فليست مسألة وفاق، بل فيها قولان مشهوران، ونحن إذا قلنا: إن الذي بيده عقدة النكاح هو الأب، وأن

له أن يعفو عن صداق ابنته قبل الدخول، وهو الصحيح لبضعة عشر دليلا قد ذكرتها في موضع آخر، فكذلك خلعها بشيء من مالها، بل هو أولى لأنه إذا ملك إسقاط مالها مجانًا، فلأن يملك إسقاطه ليخلصها من رق الزوج وأسره ويزوجها بمن هو خير لها منه أولى وأحرى. وهذه رواية عن أحمد ذكرها أبو الفرج في مبهجه وغيره، واختارها شيخنا. وأما قولكم: إنه يخرج من ملكه قهرًا بغير عوض فيما إذا طلق عليه الحاكم لإعسار أو عنت أو غيرها.

**فجوابه:** أن الشارع إنما ملكه البضع بالمعروف، وإنما ملكه بحقه، فإذا لم يستمتع به بالمعروف الذي هو حقه أخرجه الشارع عنه، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾. [النساء: ١٩]. وقال: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾. [البقرة: ٢٢٨]. وقال: ﴿**فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾. [البقرة: ٢٢٩]. فأوجب الله على الزوج أحد الأمرين: إما أن يمسك بمعروف، وإما أن يسرح بإحسان، فإذا لم يمسك بمعروف ولم يسرح بإحسان سرح الحاكم عليه قهرًا.

**قلت** لشيخنا: فلو قتلت الزوجة لم يجب للزوج المهر على قاتلها مع كونه قد أخرج البضع عن ملكه وفوته إياه فلو كان خروجه متقوماً لوجب له على القاتل المهر.

**فقال:** النكاح معقود على مدة الحياة، فإذا قتلت زال وقت النكاح وانقضى أمده، فلا يجب للزوج شيء بعد ذاك، كما لو ماتت. قلت له: فلو أفسد مفسد نكاحها بعد الدخول لأستقر المهر على الزوج، ولم يرجع على المفسد، فضعف هذا القول، وقال: عندي إنه يرجع به: وهو المنصوص عن أحمد، وهو مبني على هذا الأصل، فإذا ثبت أن خروج البضع من ملكه متقوم فله قيمته على من أخرجه من ملكه.

(١)**قال:** ذكر بعضهم أنه يجوز أن يقول: أنا مؤمن، ولا يقول أنا ولي. وفرق بينهما، فإن الله ـ تعالى ـ أمر من ظهر منه الإيمان أن يسمى مؤمناً قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ**﴾. [الممتحنة: ١٠]. الآية ولم يأمر من ظهر منه ذلك أن يسمى وليًا، ولا فرق بينهما، فإن الله قد وصف الولي بصفة المؤمن فقال: ﴿**وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ**﴾. [الأنفال: ٣٤]. وهذه صفة المؤمن، ثم لا يجوز أن يصف نفسه بأنه ولي، وكذلك المؤمن، ولأنه إنما يكون وليًا بتوليه لطاعات الله

(١) ١٠٦ بدائع جـ٣.

وقيامه بها كالمؤمن.

**قلت**: هذه حجة من منع قول القائل: أنا مؤمن بدون استثناء، كما لا يقول: أنا ولي. ومن فرق بينهما أجاب بأنه لا يمكنه العلم بأنه ولي، لأن الولاية هي القرب من الله ـ عز وجل ـ فولي الله هو القريب منه المختص به.

**والولاء** هو في اللغة القرب ولهذا علامات وأدلة وله أسباب وشروط وموجبات، وله موانع وآفات وقواطع، فلا يعلم العبد هل هو ولي الله أم لا.

**وأما** الإيمان فهو أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ويلتزم أداء فرائضه وترك محارمه، وهذا يمكن أن يعلمه من نفسه، بل ويعلمه غيره منه.

**والذي** يظهر لي من ذلك أن ولاية الله ـ تعالى ـ نوعان: عامة وخاصة، فالعامة ولاية كل مؤمن فمن كان مؤمناً لله تقيا كان له وليا وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه ولا يمتنع في هذه الولاية أن يقول: أنا ولي إن شاء الله. كما يقول: أنا مؤمن إن شاء الله.

**والولاية** الخاصة إن علم من نفسه أنه قائم لله بجميع حقوقه، مؤثر له على كل ماسواه في جميع حالاته، قد صارت مراضى الله ومحابه هي همه ومتعلق خواطره يصبح ويمسي وهمه مرضاة ربه، وإن سخط الخلق، فهذا إذا قال: أنا ولي لله كان صادقا.

**وقد** ذهب المحققون في مسألة: أنا مؤمن إلى هذا التفصيل بعينه، فقالوا له: أن يقول آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يقول: أنا مؤمن. لأن قوله أنا مؤمن يفيد الإيمان المطلق الكامل الآتي صاحبه بالواجبات التارك للمحرمات بخلاف قوله آمنت بالله. وفي الصحيحين عن عائشة قالت: كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ، يمتحنهن بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿**يَاأَيُّها النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ باللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ولا يَقْتُلْنَ أولادَهُنَّ**﴾. [الممتحنة:١٢]. إلى آخر الآية، قالت عائشة: فمن أقرت بهذا من المؤمنات فقد أقرت بالمحنة، وكان رسول الله ﷺ، إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ، «**انطلقن فقد بايعتكن**» ولا والله مامست يدُ رسول الله ﷺ، يد امرأة قط، غير أنه يبايعهن بالكلام. قالت عائشة: والله ما أخذ رسول الله ﷺ، على النساء قط إلا بما أمره الله، وما مست كف رسول الله ﷺ، كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: «**قد بايعتكن**» كلاما.




بسم الله الرحمن الرحيم

## فصل(١)

**وأما** إزاغة القلوب: فقال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾. [الصف: ٥]. وقال عن عباده المؤمنين أنه سألوه: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بعدَ إذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل‌عمران: ٨]. وأصل الزيغ الميل، ومنه زاغت الشمس إذا مالت. فإزاغة القلب: إمالته، وزيغه: ميله عن الهدى إلى الضلال. والزيغ يوصف به القلب والبصر، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾. [الأحزاب: ١٠]. وقال قتادة ومقاتل: شخصت فرقا، وهذا تقريب للمعنى، فإن الشخوص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرق، ومنه شخص بصر الميت، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلى الأحزاب، وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم. وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيرة تنظر إليه.

**قلت:** القلب إذا امتلأ رعباً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله.

(٢)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ واللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾. [الصف: ٥]. فعاقبهم ـ سبحانه ـ بإزاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء.

**ونظيره** قوله ـ تعالى ـ: ﴿ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. [الأنعام: ١١٠]. ولهذا قيل: من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه. ومن هنا قيل: لا رأي لصاحب هوى؛ فإن هواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله.

---

(١) ١٠٠ شفاء.

(٢) ٩٩ مفتاح جـ١.

**قال** تعالى: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ**﴾. [النساء: ١٥٥].

**أخبر** ـ سبحانه ـ أن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم ﴿**بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ**﴾. [النساء: ١٥٥]. حتى صارت غلفا، والغلف جمع أغلف وهو القلب الذي قد غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه، وكل شيء في غلافه فهو أغلف، وجمعه غلف. يقال: سيف أغلف، وقوس غلفاء، ورجل أغلف وأقلف إذا لم يختتن، والمعنى: قلوبنا عليها غشاوة وغطاء، فلا تفقه ماتقول يامحمد، ﷺ، ولم يصنع شيئًا من قال: إن المعنى أنها غلف للعلم والحكمة أي أوعية لها فلا يحتاج إلى قولك ولا تقبله استغناء بما عندهم لوجوه:

**أحدها**: أن غلف جمع أغلف: كقلف وأقلف، وحمر وأحمر، وجرد وأجرد، وغلب وأغلب، ونظائره، والأغلف من القلوب هو الداخل في الغلاف، هذا هو المعروف من اللغة.

**الثاني**: أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال: قلب فلان غلاف لكذا، وهذا لا يكاد يوجد في شيء من نثر كلامهم ولا نظمه، ولا نظير له في القرآن فيحمل عليه، ولا هو من التشبيه البديع المستحسن، فلا يجوز حمل الآية عليه.

**الثالث**: أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار: ﴿**قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه**﴾، والأكنة هنا هي الغلف التي قلوب هؤلاء فيها، والأكنة: كالأوعية والأغطية التي تغطي المتاع، ومنه الكنانة لغلاف السهام.

**الرابع**: أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذي ذكروه، ولا يحسن مقابلته بقوله: ﴿**بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ**﴾. [النساء: ١٥٥]. وإنما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التي ادعوها، كما قيل لهم لما ادعوا ذلك: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً**﴾. [الإسراء: ٨٥]. وأما هنا فلما ادعوا أن قلوبهم في أغطية وأغشية لا تفقه قوله قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سببًا لأن طبع على قلوبهم . . .

(١)**فإن** قيل: فالزيغ الأول من فعلهم، وهو مخلوق لله فيهم على غير وجه

(١) ١٣٥ شفاء.

الجزاء، وإلا تسلسل الأمر. قيل: بل الزيغ الأول وقع جزاء لهم وعقوبة على تركهم الإيمان والتصديق لما جاءهم من الهدى. وهذا الترك أمر عدمي لا يستدعي فاعلا، فإن تأثير الفاعل إنما هو في الوجود لا في العدم. فإن قيل: فهذا الترك العدمي له سبب أو لا سبب له. قيل سببه عدم سبب ضده فبقي على العدم الأصلي.

(1)... **والمقصود** أن اسم النبي، ﷺ، في التوراة (محمد) كما هو في القرآن: محمد. وأما المسيح فإنما سماه (أحمد) كما حكاه الله عنه في القرآن. فإذن تسميته بأحمد وقعت متأخرة عن تسميته محمدًا في التوراة ومتقدمة على تسميته محمداً في القرآن فوقعت بين التسميتين محفوفة بهما.

**وقد** تقدم أن هذين الاسمين صفتان في الحقيقة والوصفية فيهما لا تنافي العلمية، وأن معناهما مقصود، فعرف عند كل أمة بأعرف الوصفين عندها، فمحمد مفعل من الحمد، وهو الكثير الخصال التي يحمد عليها حمداً متكرراً حمداً بعد حمد. وهذا إنما يعرف بعد العلم بخصال الخير وأنواع العلوم والمعارف والأخلاق والأوصاف والأفعال التي يستحق تكرار الحمد عليها.

**ولا** ريب أن بني إسرائيل هم أولو العلم الأول. والكتاب الذي قال الله فيه ﴿وكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ولهذا كانت أمة موسى أوسع علوما ومعرفة من أمة المسيح. ولهذا لا تتم شريعة المسيح إلا بالتوراة وأحكامها، فإن المسيح ـ عليه السلام ـ وأمته محالون في الأحكام عليها، والإنجيل كأنه مكمل لها متمم لمحاسنها، والقرآن جامع لمحاسن الكتابين.

**فعرف** النبي ﷺ عند هذه الأمة باسم محمد الذي قد جمع خصال الخير التي يستحق أن يحمد عليها حمدًا بعد حمد.

**وعرف** عند أمة المسيح بأحمد الذي يستحق أن يحمد أفضل مما يحمد غيره، والذي حمده أفضل من حمد غيره، فإن أمة المسيح أمة لهم من الرياضات والأخلاق والعبادات ماليس لأمة موسى، ولهذا كان غالب كتابهم: مواعظ، وزهد، وأخلاق، وحض على الإحسان، والاحتمال، والصفح، حتى قيل: إن الشرائع ثلاث:

**شريعة** عدل وهي شريعة التوراة فيها الحكم والقصاص.

(١) ١١٣ جلاء الأفهام.

**وشريعة** فضل وهي شريعة الإنجيل مشتملة على العفو ومكارم الأخلاق والصفح والإحسان، كقوله: من أخذ رداءك فاعطه ثوبك، ومن لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن سخرك ميلا فامش معه ميلين، ونحو ذلك.

**وشريعة** جمعت هذا وهذا؛ وهي شريعة القرآن، فإنه يذكر العدل ويوجبه والفضل ويندب إليه، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. [الشورى: ٤٠]. فجاء اسمه عند هذه الأمة بأفعل التفضيل، الدال على الفضل والكمال، كما جاءت شريعتهم بالفضل المكمل لشريعة التوراة، وجاء في الكتاب الجامع لمحاسن الكتب قبله بالاسمين معاً. فتدبر هذا الفضل وتبين ارتباط المعاني بأسمائها ومناسبتها لها، والحمد لله المان بفضله وتوفيقه. . .

**وقول** أبي القاسم: إن اسم محمد (ﷺ) إنما ترتب بعد ظهوره إلى الوجود، لأنه حينئذ حمد حمداً مكرراً، فكذلك يقال في اسمه: أحمد أيضاً سواء، وقوله في اسمه أحمد: إنه تقدم لكونه أحمد الحامدين لربه، وهذا يقدم على حمد الخلائق له، فبناء منه على أنه تفضيل من فعل الفاعل، وأما على القول الآخر الصحيح فلا يجيء هذا. وقد تقدم تقرير ذلك والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

(١)... **وموسى** ـ عليه السلام ـ كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر. أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم، وعجل لهم من العقوبات ما عجل، وحُمِّلُوا من الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم.

**وكان** موسى (ﷺ) من أعظم خلق الله هيبة ووقاراً، وأشدهم بأساً وغضباً لله، وبطشاً بأعداء الله، وكان لا يستطاع النظر إليه.

**وعيسى** (ﷺ): كان في مظهر الجمال. وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان. وكان لا يقاتل، ولا يحارب. وليس في شريعته قتال ألبتة. والنصارى يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لشرعه. فإن الإنجيل يأمرهم فيه: أن «من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن نازعك ثوبك فأعطه

(١) ٤٥٧ مدارج جـ٢.

رداءك، ومن سخرك ميلاً فامش معه ميلين» ونحو هذا. وليس في شريعتهم مشقة، ولا آصار، ولا أغلال. وإنما النصارى ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم. ولم تكتب عليهم.

**وأما** نبينا (ﷺ): فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في الله. وهذا اللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع. فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال. وأمته أكمل الأمم. وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات. ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجاباً له وفرضاً. وبالفضل ندباً إليه واستحباباً. وبالشدة في موضع الشدة. وباللين في موضوع اللين. ووضع السيف موضعه. ووضع الندى موضعه. فيذكر الظلم ويحرمه. والعدل ويوجبه. والفضل ويندب إليه في بعض آيات، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿**وجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل ﴿**فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾ فهذا فضل ﴿**إنَّه لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا تحريم للظلم. وقوله: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فعاقبوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ به**﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا إيجاب للعدل، وتحريم للظلم: ﴿**ولَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابرينَ**﴾ [النحل: ١٢٦] ندب إلى الفضل. وقوله: ﴿**وإن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٧٩] تحريم للظلم ﴿**وإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ**﴾ عدل ﴿**وَأَن تَصَدَّقُوا خيرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٨٠] فضل. وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وحمية.

**حرم** عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضَلَّتْ عنه الأمم قبلهم، ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أُخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم، كما كمل نبيهم (ﷺ) من المحاسن بما فرقه في الأنبياء قبله، وكمل في كتابه من المحاسن بما فرقها في الكتب قبله، وكذلك في شريعته. فهؤلاء «الضنائن» وهم المجتبون الأخيار. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿**هو اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨] وجعلهم شهداء على الناس. فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم.

**وتفصيل** تفضيل هذه الأمة وخصائصها يستدعي سِفْراً، بل أسفاراً. **وذلك**

فضل الله يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل العظيم.

(١)... **وأما** «أحمد» فهو أفعل التفضيل، أي هو أحمد من غيره، أي أحق بأن يكون محموداً أكثر من غيره، يقال: هذا أحمد من هذا: أي هذا أحق بأن يحمده من هذا، فيكون تفضيل على غيره في كونه محموداً فلفظ «محمد» يقتضي زيادة في الكمية، ولفظ أحمد يقتضي زيادة في الكيفية.

**ومن** الناس من يقول: معناه أنه أكثر حمداً لله من غيره، وعلى هذا فيكون بمعنى الحامد والحماد، وعلى الأول بمعنى المحمود. وإن كان الفار قليط بمعنى الحمد فهو تسمية بالمصدر مبالغة في كثرة الحمد، كما يقال: رجل عدل ورضى ونظائر ذلك، وبهذا يظهر سر ما أخبر به القرآن عن المسيح من قوله: ﴿**وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ [الصف:٦] فإن هذا هو معنى الفار قليط كما تقدم. وفي التوراة ما ترجمته بالعربية: «وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاك: ها أنا قد باركت فيه، وأثمره، وأكبرهُ بمأذ مأذ» هكذا هذه اللفظة «مأذ» على وزن عمر.

**وقد** اختلف فيها علماء أهل الكتاب فطائفة يقولون: معناها جدًّا جدًّا، أي كثيراً كثيراً، فإن كان هذا معناها فهو بشارة بمن عظم من بنيه كثيراً كثيراً، ومعلوم أنه لم يعظم من بنيه أكثر مما عظم من محمد (ﷺ).

**وقالت** طائفة أخرى: بل هي صريح اسم محمد، قالوا: ويدل عليه أن ألفاظ العبرانية قريبة من ألفاظ العربية فهي أقرب اللغات إلى العربية.

(٢)... **وتأمل** كيف اشْتُقَّ للنبي (ﷺ) من وصفه اسمان مطابقان لمعناه وهما «أحمد، ومحمد» فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة «محمد» ولشرفها وفضلها على صفات غيره «أحمد» فارتبط الاسم بالمسمى ارتباط الروح بالجسد.

(٣)**فصل** في أنه لو لم يظهر محمد بن عبدالله (ﷺ) لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور نبوته تصديق لنبواتهم وشهادة لها بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار ـ سبحانه ـ إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿**بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الصافات:٣٧] فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه؛ فمجيئه هو نفس

(١) ٦١ هداية الحيارى.
(٢) ١٨ هداية الحيارى.
(٣) ١٥٩ هداية الحيارى.

صدق خبرهم، فكأن مجيئه تصديقاً لهم إذ هو تأويل ما أخبروا به. ولا تنافي بين هذا وبين القول الآخر: إن تصديقه المرسلين شهادته بصدقهم وإيمانه بهم، فإنه صدقهم بقوله ومجيئه، فشهد بصدقهم بنفس مجيئه، وشهد بصدقهم بقوله.

**ومثل** هذا قول المسيح: ﴿**مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ [الصف: ٦] فإن التوراة لما بشرت به وبنبوته كان نفس ظهوره تصديقاً لها.

**ثم** بشر برسول يأتي من بعده، فكان ظهور الرسول المبشر به تصديقاً له، كما كان ظهوره تصديقاً للتوراة فعادة الله في رسله أن السابق يبشر باللاحق، واللاحق يصدق السابق، فلو لم يظهر محمد بن عبدالله ولم يبعث لبطلت نبوة الأنبياء قبله، والله ـ سبحانه ـ لا يخلف وعده ولا يكذب خبره.

**وقد** كان بشر إبراهيم وهاجر بشارات بينات، ولم نرها تمت ولا ظهرت إلا بظهور رسول الله (ﷺ)، فقد بشرت هاجر من ذلك بما لم تبشر به امرأة من العالمين غير مريم ابنة عمران بالمسيح على أن مريم بشرت به مرة واحدة، وبشرت هاجر بإسماعيل مرتين، وبشر به إبراهيم مراراً.

**ثم** ذكر الله ـ سبحانه ـ هاجر بعد وفاتها كالمخاطب لها على ألسنة الأنبياء، ففي التوراة «إن الله ـ تعالى ـ قال لإبراهيم: قد أجبت دعاءك في إسماعيل، وباركت عليه، وكبرته، وعظمته» هكذا في ترجمة بعض المترجمين. وأما في الترجمة التي ترجمها اثنان وسبعون حبراً من أحبار اليهود فإنه يقول: «وسيلد اثنى عشر أمة من الأمم».

**وفيها** «لما هربت هاجر من سارة ترائى لهاملك الله، وقال يا هاجر! أمة سارة من أين أقبلت وإلى أين تذهبين؟! قالت: هربت من سيدتي، فقال لها الملك: ارجعي إلى سيدتك، واخضعي لها، فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً تسميه إسماعيل؛ لأن الله قد سمع بذلك خشوعك، وهو يكون عين الناس، ويكون يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته».

**وفي** موضع آخر قصة إسكانها وابنها إسماعيل في برية فاران.

**وفيها**: «فقال لها الملك: يا هاجر! ليفرح روعك، فقد سمع الله ـ تعالى ـ

صوت الصبي، قومي فاحمليه، وتمسكي به، فإن الله جاعله لأمة عظيمة، وأن الله فتح عليها، فإذا ببئر ماء، فذهبت، وملأت المزادة منه وسقت الصبي منه، فكان الله معهما ومع الصبي حتى تربى، وكان مسكنه في برية فاران. فهذه أربع بشارات خالصة لأم إسماعيل نزلت اثنتان منها على إبراهيم. واثنتان على هاجر.

(١)... **وفي** التوراة أيضاً بشارات أخر بإسماعيل وولده، وأنهم أمة عظيمة جدًّا، وأن نجوم السماء تحصى ولا يحصون، وهذه البشارة إنما تمت بظهور محمد بن عبدالله وأمته. فإن «بني إسحاق» كانوا لم يزالوا مطرودين مشردين خولاً للفراعنة والقبط، حتى أنقذهم الله بنبيه وكليمه موسى بن عمران، وأورثهم أرض الشام، فكانت كرسي مملكتهم، ثم سلبهم ذلك، وقطعهم في الأرض أمماً، مسلوباً عزهم وملكهم: قد أخذتهم سيوف السودان، وعلتهم أعلاج الحمران حتى إذا ظهر النبي (ﷺ) تمت تلك النبوات، وظهرت تلك البشارات بعد دهر طويل وعلت بنو إسماعيل على من حولهم فهشموهم هشماً، وطحنوهم طحناً، وانتشروا في آفاق الدنيا، ومدت الأمم أيديهم إليهم بالذل والخضوع، وعلوهم علو الثريا فيما بين الهند والحبشة والسوس الأقصى وبلاد الترك والصقالبة والخزر، وملكوا ما بين الخافقين، وحيث ملتقى أمواج البحرين، وظهر ذكر إبراهيم على ألسنة الأمم، فليس صبي من بعد ظهور النبي (ﷺ) ولا امرأة ولا حر ولا عبد ولا ذكر ولا أنثى إلا وهو يعرف إبراهيم وآل إبراهيم.

**وأما** «النصرانية» وإن كانت قد ظهرت في أمم كثيرة جليلة، فإنه لم يكن لهم في محل إسماعيل وأمه هاجر سلطان ظاهر ولا عز قاهر البتة، ولا صارت أيدي هذه الأمة فوق أيدي الجميع، ولا امتدت إليهم أيدي الأمم بالخضوع، وكذلك سائر ما تقدم من البشارات التي تفيد بمجموعها العلم القطعي بأن المراد بها محمد بن عبدالله (ﷺ) وأمته، فإنه لو لم يقع تأويلها بظهوره (ﷺ) لبطلت تلك النبوات.

**ولهذا** لما علم الكفار من أهل الكتاب أنه لا يمكن الإيمان بالأنبياء المتقدمين إلا بالإيمان بالنبي الذي بشروا به قالوا نحن في انتظاره ولم يجىء بعد.

**ولما** علم بعض الغلاة في كفره وتكذيبه منهم أن هذا النبي في ولد إسماعيل

---

(١) ١٦١ هداية الحيارى.

أنكروا أن يكون لإبراهيم ولد اسمه إسماعيل، وأن هذا لم يخلقه الله. ولا يكثر على أمة البهت وإخوان القرود وقتلة الأنبياء مثل ذلك، كما لم يكثر على المثلثة عباد الصليب الذين سبوا رب العالمين أعظم مسبة أن يطعنوا في ديننا وينتقصوا نبينا (ﷺ). ونحن نبين أنهم لا يمكنهم أن يثبتوا للمسيح فضيلة ولا نبوة ولا آية ولا معجزة إلا بإقرارهم أن محمداً رسول الله؛ وإلا فمع تكذيبه لا يمكن أن يثبت للمسيح شيء من ذلك البتة..

(١)... **قوله** تعالى: ﴿**يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الصف: ١٠] فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة التي الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم، فقال: ﴿**تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**﴾ فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها. فقال: ﴿**ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الصف: ١١] يعنى أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة.

**فكأنها** قالت: فما لنا في الجهاد من الحظ؟ فقال: ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ - مع المغفرة - ﴿**وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [الصف: ١٢]

**فكأنها** قالت: هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال: ﴿**وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الصف: ١٣] فلله ما أحلى هذه الألفاظ! وما ألصقها بالقلوب! وما أعظمها جذباً لها وتسييراً إلى ربها! وما ألطف موقعها من قلب كل محب! وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها! فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم.

(٢)... **ولما** علم - سبحانه - أن آدم ونبيه قد بلوا بهذا العدو وسلط عليهم؛ أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها، وأمد عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالإضافة إلى الآخرة: كنفس واحد من أنفاسها، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف

(١) ٣٥٥ طريق الهجرتين.    (٢) ١٢٨ الجواب الكافي.

كتبه وهي : التوراة، والإنجيل، والقرآن، ثم أخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري من هو، وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأي فوز أعظم من هذا، وأي تجارة أربح منه؟! ثم أكد ـ سبحانه ـ معهم هذا الأمر بقوله: ﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمنُوا هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى تجَارَةٍ تُنجيكُم مِّن عَذَابٍ أَلِيم * تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وتُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ بأَمْوَالِكُم وأَنفُسِكُم ذَلِكُم خيرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُون * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحتِهَا الأنهارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عدنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ * وأُخْرَىٰ تُحِبُّونهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتحٌ قَرِيبٌ وبَشِّرِ المؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣] ولم يسلط ـ سبحانه ـ هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات إليه، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات وأقربهم إليه وسيلة. . .

(١)... **وكل** الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالهُم بأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُون وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا في التَّوْرَاةِ والإنجيلِ والقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة. فتاجروا أيها المفلسون، ويامن لا يقدر على هذا الثمن ههنا ثمن آخر فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن: ﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بالمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ والحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] ﴿يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تجَارَةٍ تُنجيكُم مِّن عَذَابٍ أَلِيم * تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وتُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيرٌ لكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [الصف: ١٠، ١١] والمقصود أن الذنوب تنسي العبد حظه من هذه التجارة الرابحة وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبة، والله المستعان.

**هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الصف**

**والحمد لله رب العالمين**

---

(١) ١٤٢ الجواب الكافي.




## بسم الله الرحمن الرحيم

## فائـدة(١)

**لما** كانت الأيام متماثلة لا يتميز يوم من يوم بصفة نفسية ولا معنوية لم يبق تمييزها إلا بالأعداد، ولذلك جعلوا أسماء أيام الأسبوع مأخوذة من العدد نحو الاثنين والثلاثاء والأربعاء. أو بالأحداث الواقعة فيها: كيوم بعاث، ويوم بدر، ويوم الفتح، ومنه يوم الجمعة. وفيه قولان: أحدهما لاجتماع الناس فيه للصلاة، والثاني وهو الصحيح: لأنه اليوم الذي جمع فيه الخلق وكمل، وهو اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين لفصل القضاء.

**وأما** يوم السبت فمن القطع، كما تشعر به هذه المادة، ومن السبات لانقطاع الحيوان فيه عن التحرك والمعاش. والنعال السبتية التي قطع عنها الشعر، وعلة السبات التي تقطع العليل عن الحركة والنطق، ولم يكن يومًا من أيام تخليق العالم، بل ابتداء أيام التخليق الأحد وخاتمتها الجمعة، هذا أصح القولين، وعليه يدل القرآن وإجماع الأمة: على أن أيام تخليق العالم ستة، فلو كان أولها السبت لكان سبعة.

**وأما** حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه: خلق الله التربة يوم السبت فقد ذكر البخاري في تاريخه: أنه حديث معلول، وأن الصحيح أنه قول كعب، وهو كما ذكر لأنه يتضمن أن أيام التخليق سبعة، والقرآن يرده. واعلم أن معرفة أيام الأسبوع لا يعرف بحس ولا عقل ولا وضع يتميز به الأسبوع عن غيره، وإنما يعلم بالشرع، ولهذا لا يعرف أيام الأسبوع إلا أهل الشرائع، ومن تلقى ذلك عنهم وجاورهم. وأما الأمم الذين لا يدينون بشريعة ولا كتاب فلا يتميز الأسبوع عندهم من غيره، ولا أيامه بعضها من بعض، وهذا بخلاف معرفة الشهر والعام، **فإنه** بأمر محسوس.

**فائـدة:** في اليوم وأمس وغد، وسبب اختصاص كل لفظ بمعناه. **اعلم أن** أقرب الأيام إليك يومك الذي أنت فيه، فيقال: فعلت اليوم. فذكر الاسم العام،

---

(١) ٨٤ بدائع جـ١.

ثم عرف بأداة العهد، ولا شيء أعرف من يومك الحاضر فانصرف إليه، **ونظيره** الآن من آن والساعة من ساعة. وأما أمس وغد، فلما كان كل واحد منهما **متصلاً** بيومك اشتق له اسم من أقرب ساعة إليه فاشتق اليوم الماضي أمس الملاقي للمساء وهو أقرب إلى يومك من صاحبه أعني صباح غد، فقالوا: أمس. وكذلك غد اشتق الاسم من الغدو وهو أقرب إلى يومك من مسائه أعني: مساء غد. . .

[1]... **وذكر** أيضًا عن ابن عباس قال: ما من يوم إلا وليلته قبله إلا يوم عرفة، فإن ليلته بعده. قلت: هذا ما اختلف فيه. وحكى عن طائفة أن ليلة اليوم بعده. والمعروف عند الناس أن ليلة اليوم قبله، ومنهم من فصل بين الليلة المضافة إلى اليوم: كليلة الجمعة والسبت والأحد وسائر الأيام، والليلة المضافة إلى مكان أو حال أو فعل: كليلة عرفة وليلة النفر، ونحو ذلك فالمضافة إلى اليوم قبله، والمضافة إلى غيره بعده، واحتجوا له بهذا الأثر المروي عن ابن عباس، ونقض عليهم بليلة العيد، والذي فهمه الناس قديمًا وحديثًا من قول النبي ﷺ: **﴿لا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، ولا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي﴾** أنها الليلة التي تسفر صبيحتها عن يوم الجمعة، فإن الناس يسارعون إلى تعظيمها وكثرة التعبد فيها عن سائر الليالي، فنهاهم ﷺ عن تخصيصها بالقيام، كما نهاهم عن تخصيص يومها بالصيام، والله أعلم.

## فصل[2]

**وكان** من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه، وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره. وقد اختلف العلماء: هل هو أفضل من يوم عرفة؟ على قولين، **هما** وجهان لأصحاب الشافعي. وكان ﷺ يقرأ في فجره بسورتي (الٓمٓ تنزيل) و(هل أتى على الإنسان) ويظن كثير ممن لا علم عنده أن المراد: تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة، ويسمونها سجدة الجمعة. وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة استحب قراءة سورة أخرى فيها سجدة. ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة في فجر الجمعة، دفعًا لتوهم الجاهلين.

**وسمعت** شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين

---

(١) ١٩٤ بدائع جـ٣.

(٢) ٢٠٦ زاد المعاد جـ١.

السورتين في فجر الجمعة، لأنهما تضمنتا ما كان ويكون في يومها، فإنهما اشتملتا على خلق ـ آدم عليه السلام ـ وعلى ذكر المعاد، وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة. وكان في قراءتهما في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون، والسجدة جاءت تبعًا، ليست مقصودة، حتى يقصد المصلي قراءتها حيث اتفقت. فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة.

**الخاصية** الثانية: استحباب كثرة الصلاة على النبي ﷺ، فيه وفي ليلته، لقوله ﷺ: ﴿**أكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة وليلة الجمعة**﴾ ورسول الله ﷺ، سيد الأنام، ويوم الجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه في هذا اليوم مزية ليست لغيره، مع حكمة أخرى، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنما نالته على يده، فجمع الله لأمته به بين خيري الدنيا والآخرة، فأعظم كرامة تحصل لهم فإنما تحصل يوم الجمعة، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيد لهم في الدنيا، ويوم فيه يُسْعِفُهم الله ـ تعالى ـ بطلباتهم وحوائجهم، ولا يرد سائلهم، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده ﷺ. فمن شُكره وحمده وأداء القليل من حقه ﷺ: أن نكثر من الصلاة عليه، في هذا اليوم وليلته.

**الخاصية** الثالثة: صلاة الجمعة التي هي من آكد فروض الإسلام، ومن أعظم مجامع المسلمين، وهي أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه، سوى مجمع عرفة، ومن تركها تهاونًا بها طبع الله على قلبه، وقرب أهل الجنة يوم القيامة وسبقهم إلى الزيادة يوم المزيد، بحسب قربهم من الإمام يوم الجمعة وتبكيرهم.

**الخاصية** الرابعة: الأمر بالاغتسال في يومها، وهو أمر مؤكد جدًّا، ووجوبه أقوى من وجوب الوتر، وقراءة البسملة في الصلاة، ووجوب الوضوء من مس النساء، ووجوب الوضوء من مس الذكر، ووجوب الوضوء من القهقهة في الصلاة، ووجوب الوضوء من الرعاف والحجامة والقيء، ووجوب الصلاة على النبي ﷺ، في التشهد الأخير، ووجوب القراءة على المأموم. وللناس في وجوبه ثلاثة أقوال: النفي، والإثبات، والتفصيل بين من به رائحة يحتاج إلى إزالتها، فيجب عليه، ومن هو مستغن عنه، فيستحب له. والثلاثة لأصحاب أحمد[1].

(١) ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ في خواص يوم الجمعة وأحكامها قرابة ثلاث كراسات (ج).

(١)... **تزكية** النفوس مُسلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم: دعوة، وتعليمًا، وبيانًا، وإرشادًا، لا خلقًا ولا إلهامًا. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله ـ تعالى ـ: **﴿هو الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آياتِه ويُزَكِّيهمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإنْ كَانوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبينٍ﴾** [الجمعة: ٢] وقال تعالى: **﴿كَمَا أرْسَلْنَا فِيكُم رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُم آيَاتِنَا ويُزَكِّيكُمْ ويُعلِّمُكُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ ويُعَلِّمُكُم مَّالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُون * فَاذْكُرُوني أذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي ولا تَكْفُرُونِ﴾** [البقرة: ١٥١،١٥٢].

**وتزكية** النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجيء بها الرسل: فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه(٢)، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب. فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم(٣)، والله المستعان.

**فإن** قلت: هل يمكن أن يقع الخُلُق كسبيًا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟

قلت: يمكن أن يقع كسبيًا بالتخلق والتكلف. حتى يصير له سَجية وملكة، وقد قال النبي ﷺ، لأشج عبدالقيس رضي الله عنه: «**إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم، والإناة**». فقال: أخلقين تخلقت بهما. أم جبَلني الله عليهما؟ فقال: «**بل جبلك الله عليهما**». فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله. فدل على أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب. وكان النبي ﷺ، يقول في دعاء الاستفتاح: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت**» فذكر الكسب والقَدر، والله أعلم.

(٤)**قال** ـ تعالى ـ: **﴿هُو الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِّنْهُم يَتْلو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَإن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيه مَن يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾** [الجمعة: ٢ـ ٤]. فالأولون هم الذين أدركوا رسول الله

---

(١) ٣١٥ مدارج جـ٢.　　(٢) بل كالذي يعالج نفسه بجهله وسفهه.

(٣) لأنهم يبلغون عن الله. **والله معهم رقيب ومعين.**　　(٤) التبوكية.

ﷺ، وصحبوه، والآخرون هم الذين لم يلحقوهم، وهم كل من بعدهم على منهاجهم إلى يوم القيامة، فيكون التأخر وعدم اللحاق بهم في الزمان وفي الآية قول آخر: إن المعنى: لما يلحقوا بهم في الفضل والرتبة، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق في الرتبة. والقولان كالمتلازمين، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا في الفضل ولا في الزمان. فهؤلاء الصنفان هم السعداء. وأما من لم يقبل هدى الله الذي بعث به رسوله، ولم يرفع به رأسًا، فهو من الصنف الثالث، وهم ﴿الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

(١)﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤] يعني: وبعث في أخرين منهم لما يلحقوا بهم. وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي، فقيل: هو اللحاق في الزمان. أي يتأخر زمانهم عنهم. وقيل: هو اللحاق في الفضل والسبق، وعلى التقديرين، فامتن عليهم - سبحانه - بأن علمهم بعد الجهل، وهداهم بعد الضلالة، ويالها من منة عظيمة فاتت المنن، وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن.

(٢)**قوله** تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥] فقاس مَن حمَّله - سبحانه - كتابه ليؤمن به، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظَهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه، كحمارٍ على ظهره زَامِلَة أسفارٍ لا يدري ما فيها، وحظُّه منها حملها على ظهره ليس إلا؛ فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره؛ فهذا المثل وإن كان قد ضُرِبَ لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤدِّ حقه، ولم يَرعَه حق رعايته.

(٣)**قوله** تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ [الجمعة: ٥] الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالين عند من حمل أسفار الحكمة وحمل ماسواها

---

(١) ٥٨ مفتاح جـ١. (٢) ١٦٥ أعلام جـ١.
(٣) ٢٧ اجتماع الجيوش الإسلامية.

ولا يشعر ذلك إلا بما يزيد فيه من الكد والتعب.

(١)... **وكان** إذا عرض له في خطبته عارض اشتغل به، ثم رجع إلى خطبته، وكان يخطب، فجاء الحسن والحسين يتعثران في قميصين أحمرين، فقطع كلامه، فنـزل فحملهما، ثم عاد إلى منبره، ثم قال: «**صدق الله العظيم ﴿إِنَّما أموالُكم وأولَادُكم فِتنةٌ﴾** [التغابن: ١٥] **رأيت هذين يتعثران في قميصيهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما**». وجاء سليك الغطفاني، وهو يخطب، فجلس فقال له: «**قم يا سليك فاركع ركعتين، وتجوز فيهما**» ثم قال: وهو على المنبر «**إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين، وليتجوز فيهما**» وكان يقصر خطبته أحيانًا ويطيلها أحيانًا بحسب حاجة الناس. وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة، وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد، ويحرضهن على الصدقة، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجمعة

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٩٨ زاد المعاد جـ١.



## بسم الله الرحمن الرحيم

[(1)] **الطبقة** الخامسة عشرة: طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله. وهؤلاء المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار. قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً**﴾ [النساء: ١٤٥] . فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار. لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال ـ تعالى ـ في حقهم: ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾ [المنافقون: ٤] . ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي لا عدو إلاهم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرًا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم ـ وهم في الباطن على خلاف دينهم ـ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحًا ومساء، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم. فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًّا من الكفار المجاهرين.

**ونظير** ذلك قول النبي ﷺ: «**ليس المسكين الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس؛ ولا يفطن له فيتصدق عليه**» فليس هذا نفيًا لاسم المسكين عن الطّواف، بل إخبار بأن هذا القانع الذي لا يسمونه مسكينًا أحق بهذا الاسم من الطواف الذي يسمونه

---

(1) ٤٠٢ طريق الهجرتين.

مسكينًا. ونظيره قوله ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب**» ليس نفيًا للاسم عن الصرعة، ولكن إخبار بأن من يملك نفسه عند الغضب أحق منه بهذا الاسم. ونظيره قوله ﷺ: «**ما تعدون المفلس فيكم**»؟ قالوا: من لا درهم له ولا متاع، قال: «**المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، ويأتي قد لطم هذا، وضرب هذا وأخذ مال هذا، فيقتص هذا؛ من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم، ثم طرح عليه، فألقي في النار**». ونظيره قوله ﷺ: «**ما تعدون الرقوب فيكم**»؟[1] قالوا: من لا يولد له. قال: «**الرقوب من لم يقدم من ولده شيئًا**» ومنه عندي قوله ﷺ: «**الربا في النسيئة**»، وفي لفظ «**إنما الربا في النسيئة**» هو إثبات لأن هذا النوع هو أحق باسم الربا من ربا الفضل، وليس فيه نفي اسم الربا عن ربا الفضل. فتأمله.

**والمقصود** أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء، ولهذا يستهزأ بهم في الآخرة، وتعطى نورًا يتوسطون به على الصراط ثم يطفِىء الله نورهم، ويقال لهم: ﴿**ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالتَمِسُوا نُورًا**﴾ ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿**بِسُورٍ لَهُ بَابٌ باطِنُه فِيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ * يُنادُونَهُمْ أَلَم نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى ولَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُم وَارْتَبْتُمْ وغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ**﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه، وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان مالم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين. ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهم آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فهم لا يفقهون**﴾ [المنافقون: ٣].

---

(١) الرقوب: الزوجان إذا لم يعش لهما ولد.

وقال ـ تعالى ـ فيهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [االبقرة: ١٨]. وقال ـ تعالى ـ في الكفار: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. فالكافر لم يعقل. والمنافق أبصر، ثم عمي، وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر. ومن كان هكذا كان أشد كفرًا، وأخبث قلبًا، وأعتى على الله ورسله، فاستحق الدرك الأسفل. . .

(١)**قال** ـ تعالى ـ عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]. وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٤]، أي: أموالاً ومناظر. قال الحسن: هو الصور. وفي صحيح مسلم عنه ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» قالوا: ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك، وإنما نفى نظر المحبة. قالوا: وقد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال الدنيا. وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. وفي الحديث: «**البذاذة من الإيمان**»، وقد ذم الله المسرفين، والسرف، كما يكون في الطعام والشراب؛ يكون في اللباس.

**وفصل** النزاع: أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيأة ثلاثة أنواع، منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه مالا يتعلق به مدح ولا ذم. فالمحمود منه ما كان لله، وأعان على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ، يتجمل للوفود؛ وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه. والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر، والخيلاء والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية العبد، وأقصى مطلبه؛ فإن كثيراً من النفوس ليس لها همة في سوى ذلك. وأما مالا يحمد ولا يذم، هو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين.

**والمقصود** أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك، فيعرف الله ـ سبحانه ـ بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء، ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه

(١) ١٨٥ الفوائد.

بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه، وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان وتقليم الأظفار، فيعرفه بصفات الجمال، ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة، والسلوك.

(١)**وفي** مرجعهم من هذه الغزوة: قال رأس المنافقين ابن أبيّ: ﴿**لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**﴾ [المنافقون: ٨]. فبلَّغها زيدُ بن أرقم رسولَ الله ﷺ، وجاء ابن أبي يعتذر، ويحلف ما قال، فسكت عنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في سورة المنافقين، فأخذ النبي ﷺ، بأذنه فقال: «**أبشر، فقد صدقك الله**»، ثم قال: «**هـذا الذي وفى الله بأذنه**»، فقال له عمر: يا رسول الله، مُرْ عَبّاد بن بِشر فليضرب عنقه. فقال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟».

(٢)... **والعزة** تتضمن القوة، ولله القوة جميعًا. يقال: عزّ يعَز بفتح العين إذا اشتد وقوي، ومنه الأرض العزاز: الصلبة الشديدة، وعزّ يعِز بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه، وعز يعُز بضم العين إذا غلب وقهر، فأعطوا أقوى الحركات - وهي الضمة - لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها وهي الفتحة لأضعف هذه المعاني، وهو كون الشيء في نفسه صلبًا، ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه، والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه. فاعطوا الأقوى للأقوى، والأضعف للأضعف، والمتوسط للمتوسط.

**ولاريب** أن قهر المربوب عما يريده من أقوى أوصاف القادر، فإن قهره عن إرادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر، والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذمًّا له بخلاف الكبر. قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر. فقال: لست بمتكبر، ولكني عزيز.

**وقال** تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون: ٨]. وقال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقال النبي ﷺ: «**اللهم أعز الإسلام بأحد**

---

(١) ٢٨٨ زاد المعاد جـ٢.	(٢) ١٠٨ طريق الهجرتين.

هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، أو أبي جهل بن هشام» وفي بعض الآثار: أن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك، ولا يجدونها إلا في طاعة الله عز وجل.

**وفي** الحديث: «اللّهم أعِزّنا بطاعَتك ولا تُذلّنا بِمعصيتِك»، وقال بعضهم: من أراد عزًّا بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة، وغنى بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة. فالعزة من جنس القدرة والقوة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القويّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير».

(١)... **قال تعالى**: ﴿يَـاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾[المنافقون: ٩]. فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم، ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم ولم يراقبهم في الله، وآثر الله عليهم ولم يؤثرهم على الله، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه وأحيى حب الله خوفه ورجاءه فيه، فهذا هو الذي يكتب عليهم، وتكون معاملته لهم كلها ربحًا، بشرط أن يصبر على أذاهم ويتخذه مغنمًا لا مغرمًا وربحًا لا خسرانًا.

**ومما** يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره، وفهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، قال النبي ﷺ، لعبد الله بن عباس: «واعلَم أنّ الخليقَة لَو اجتَمعُوا على أن يَنفَعوك لم يَنفعوك إلاّ بشيء كَتبه الله لكَ، ولو اجتمعُوا على أن يَضرُّوك لم يَضرُّوك إلاّ بشيء كَتَبه الله عليكَ». وإذا كانت هذه حال الخليقة فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع. والله أعلم.

هذا مايسر الله جمعه من تفسير سورة المنافقون
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٦٣ طريق الهجرتين.



بسم الله الرحمن الرحيم

## فصل (١)

**والطمأنينة** إلىٰ أسماء الرب ـ تعالىٰ ـ وصفاته نوعان: طمأنينة إلىٰ الإيمان بها وإثباتها واعتقادها، وطمأنينة إلىٰ ما تقضيه وتوجبه من آثار العبودية، مثاله الطمأنينة إلىٰ القدر وإثباته، والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلىٰ مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له علىٰ دفعها فيسلم لها، ويرضىٰ بها، ولا يسخط، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسىٰ علىٰ ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها: كالسمع، والبصر، والعلم، والرضا، والغضب، والمحبة؛ فهذه طمأنينة الإيمان.

**وأما** طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلىٰ أمره امتثالاً وإخلاصًا ونصحاً، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليد، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس، التي لأن يخر من السماء إلىٰ الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال النبي ﷺ صريح الإيمان. وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلىٰ سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين، وباشر قلبه آثارهما، فللتوبة طمأنينة تقابل

(١) ٢٦٩ الروح.

ما في المعصية من الانـزعـاج والقلق، ولـو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب، وإنما يوارىٰ عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة، فإن لكل شهوة سكراً يزيد على سكر الخمر، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب، ولهذا ترىٰ العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمـر. وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلىٰ سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره، وتعلق الروح بحبه ومعرفته؛ فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبداً، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب، ولكن يواريها السكر، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه.

[1]... **حذر** الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد، فقال ـ تعالى ـ: ﴿**يا أَيُّها الَّـذِينَ آمَنُـوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْـوَالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ عن ذكر الله**﴾ [المنافقون: ٩] وقال ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عُدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُم**﴾ [التغـابن: ١٤] وليس المـراد من هذه العـداوة ما يفهمه كثير من الناس إنها عداوة البغضـاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للأباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية ﴿**يـا أَيُّهـا الَّـذِيْنَ آمَنُـوا إِنَّ من أَزْوَاجِكُمْ وأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْـذَرُوهُمْ**﴾ [التغابن: ١٤] قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وأَوْلادِكُم عَدُوًّا لَّكُمْ**﴾ [التغابن: ١٤] الآية قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده وفي الحديث «**الولد مبخلة مجبنة**» وقال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني **زيد بن واقد قال حدثني عبد الله** بن بريدة **قال** سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ **يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسـول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله ﴿إِنَّمَا**

(١) ٦٥ عدة الصابرين.

**أَمْوَالُكُمْ وأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن: ١٥] **نظرت إلىٰ هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتىٰ قطعت حديثي ورفعتهما»**. وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة: الرحمة، والشفقة، واللطف بالصغار.

(١)... **وتطلق** الفتنة علىٰ أعمَّ من ذلك، كقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن: ١٥] قال مقاتل: «أي بلاء، وشغل عن الآخرة. قال ابن عباس: فلا تطيعوهم في معصية الله تعالىٰ». وقال الزَّجاج: أعلمهم الله ـ عزّ وجلَّ ـ أن الأموال والأولاد مما يفُتنون به. وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده. لأنه ربما عصىٰ الله ـ تعالىٰ ـ بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم، إلا من عَصَمه الله ـ تعالىٰ ـ.

**ويشهد** لهذا ما روي أن النبي ﷺ «كان يخطب، فجاء الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ وعليهما قميصان أحمران يَعْثُران، فنزل النبي ﷺ إليهما فأخذهما، فوضعهما في حِجْره على المنبر، وقال: «صدق الله **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن: ١٥] **رأيتُ هذين الصبيين، فلم أصبر عنهما**»[٢]. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لا يقولنّ أحدُكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مُشتَمِلٌ علىٰ فتنة، لأن الله ـ تعالىٰ ـ يقول: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن: ١٥] فأيُّكم استعاذ فليَسْتَعِذْ بالله تعالىٰ من مُضِلَّات الفتن».

هذا مايسر الله جمعه من تفسير سورة التغابن
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٦٠ إغاثة.

(٢) تقدم في تفسير سورة الجمعة نقلاً عن زاد المعاد بلفظ «صدق الله العظيم..» (ج).



## بسم الله الرحمن الرحيم

[(١)] **قال** الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق: ٢، ٣] قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شدة. وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة. فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجاً. وقال الحسن: مخرجاً مما نهاه عنه ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣] أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته. يكفيه كل ما أهمه. و«الحسْب» الكافي ﴿**حَسْبُنَا اللهُ**﴾ [التوبة: ٥٩] كافينا الله. وكلما كان العبد حسن الظن بالله، حسن الرجاء له، صادق التوكل عليه، فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة. فإنه ـ سبحانه ـ لا يخيب أمل آمل، ولا يضيع عمل عامل. وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة. فإنه لا أشرحَ للصدر، ولا أوسع له - بعد الإيمان - من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

[(٢)]... **فإن قلت**: فما معنىٰ التوكل والاستعانة؟.

**قلت**: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس. وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس. فيوجب له هذا اعتماداً عليه، وتفويضاً إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

**فتشبه** حالته حال الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس هَمِّه على إنزال ما ينوبه بهما. فهذه حال المتوكل. ومن كل هكذا مع الله، فالله كافيه ولا بد. قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه. و«الحسب» الكافي. فإن كان - مع هذا - من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل

---

(١) ٤٧١ مدارج جـ١.	(٢) ٨٢ مدارج جـ١.

التقوى فهو القسم الرابع . . .

(١)**قال** الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فأخبر الله ـ سُبحانه وتعالىٰ ـ أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يَحِلّ له؛ رَزَقَه [الله] من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوب ذلك الفَرج حراماً [لله] لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خيرٌ منه حلالاً .

**وقال** الإمام أحمد: حدّثنا هشيم، حدّثنا عبد الرَّحمن بن إسحاق، عن مُحَارِب بن دِثَار، عن صِلَة، عن حُذيفة بن اليَمان ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**النَّظْرَةُ إلىٰ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهُ خَوْفَ اللهِ أثَابَهُ اللهُ إيماناً يَجِدُ حَلاَوَتَهُ فِي قلبِهِ**». وقال عمرُ بن شَبَّة: حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدّثنا عَنْبَسةُ بن عبد الرحمن، حدّثنا أبو الحسن المدَني، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول، الله ﷺ: «**نَظَرُ الرَّجُلِ فِي مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ؛ فَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذٰلِكَ السَّهْمِ أعْقبهُ اللهُ عِبَادَةً تَسُرُّهُ**».

(٢)... **قال** بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه ـ سبحانه ـ كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن؛ لجعل له مخرجاً من ذلك، وكفاه، ونصره. وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله. وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

**السبب** الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر

(١) ٤٧٦ روضة المحبين. (٢) ٢٤٠ بدائع جـ٢.

فيه. وهـذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره؛ فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناما لا يفتر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر حتىٰ يهلك أحدهما، فإذا جبذ روحه عنه، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضـاً، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية. وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والـروح اشتغـاله بعدوه وتعلق الدنيا بالشهوات واللذات، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ [الطلاق: ٤] فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر علىٰ غيره، وقـال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وهـذا أيضاً ييسر عليه بتقواه. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ [الطلاق: ٥] وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه.

(١)...**وأخبر:** أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه. وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاءً معلومًا وجعل نفسـه جزاء المتـوكـل عليه وكفـايتـه. فقـال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّه مَخْرَجاً﴾ [الطلاق: ٢]: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْه سَيِّئَاتِه﴾ [الطلاق: ٥] ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِن أَمْـره يُسْراً﴾ [الطلاق: ٤]: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ والـرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عليَهِم مِنَ النَّبِيين﴾ [النساء: ٦٩] ثم قال في التوكل: ﴿وَمَن يَتَوكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

**فانظر** إلىٰ هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره. وهذا يدل علىٰ

(١) ١٢٨ مدارج جـ٢.

أن التوكل أقوىٰ السبل عنده وأحبها إليه. وليس كونه وكل الأمور إلىٰ نفسه بمناف لتوكل العبد عليه. بل هذا تحقيق كون الأمور كلها موكولة إلىٰ نفسه. لأن العبد إذا علم ذلك وتحققه معرفة: صارت حالة التوكل قطعاً على من هذا شأنه، لعلمه بأن الأمور كلها موكولة إليه، وأن العبد لا يملك شيئاً منها. فهو لا يجد بدًّا من اعتماده عليه، وتفويضه إليه، وثقته به من الوجهين: من جهة فقره، وعدم ملكه شيئاً ألبتة. ومن جهة كون الأمر كله بيده وإليه. والتوكل ينشأ من هذين العلمين.

**فإن** قيل: فإذا كان الأمر كله لله، وليس للعبد من الأمر شيء، فكيف يوكل المالك على ملكه؟ وكيف يستنيبه فيما هو ملك له، دون هذا الموكل؟ فالخاصة لما تحققوا هذا نزلوا عن مقام التوكل وسلموه إلىٰ العامة. وبقي الخطاب بالتوكل لهم دون الخاصة. قيل: لما كان الأمر كله لله ـ عز وجل ـ وليس للعبد فيه شيء البتة. كان توكله على الله تسليم الأمر إلىٰ من هو له، وعزل نفسه من منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، إلىٰ تصرفه بربه، وكونه به ـ سبحانه ـ دون نفسه. وهذا مقصود التوكل.

**وأما** عزل العبد نفسه عن مقام التوكل: فهو عزل لها عن حقيقة العبودية.

**وأما** توجه الخطاب به إلىٰ العامة: فسبحان الله! هل خاطب الله بالتوكل في كتابه إلا خواص خلقه، وأقربهم إليه، وأكرمهم عليه؟ وشرط في إيمانهم أن يكونوا متوكلين، والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه.

**وهذا** يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل. فمن لا توكل له: لا إيمان له، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وعَلَىٰ الله فَتَوكَّلُوا إنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وعَلَى الله فَلْيَتَوكَّل الْمؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١] وقال ـ تعالى ـ: ﴿إنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِيْنَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإذَا تُلِيَتْ عَلَيهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيْمَاناً وعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن كان بهذه الصفة. وأخبر ـ تعالىٰ ـ عن رسله بأن التوكل ملجأهم ومعاذهم. وأمر به رسوله في أربعة مواضع من كتابه. وقال: ﴿وقال مُوسىٰ يا قَوم إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ باللهِ فَعَلَيهِ تَوَكَّلُوا إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٤، ٨٥] فكيف يكون من أوهى السبل، وهذا شأنه؟ والله سبحانه وتعالى أعلم.

## فصل[1]

**والفرق** بين التوكل والعجز: أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله، وثقة به، والتجاء إليه، وتفويضاً إليه، ورضاً بما يقضيه له لعلمه بكفايته ـ سبحانه ـ وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم المتوكلين، وكان يلبس لامته ودرعه، بل ظاهر يوم أحد بين درعين، واختفى في الغار ثلاثة فكان متوكلاً في السبب، لا على السبب.

**وأما** العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما، فإما أن يعطل السبب عجزاً منه، ويزعم أن ذلك توكل ولعمر الله أنه لعجز وتفريط، وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر، ولم يعلق قلبه به تعلقاً تامًّا بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب فهذا توكله عجز وعجزه توكل.

**وهذا** موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطاً (فأحد الطرفين) عطل الأسباب محافظة على التوكل ( والثاني ) عطل التوكل محافظة على السبب (والوسط) علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور ومخدوع متمن كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل في حصول الولد، وعطل الحرث والبذور وتوكل في حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والري، فالتوكل نظير الرجاء، والعجز نظير التمني، فحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلاً له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره. والرب ـ سبحانه ـ قد أمر عبده بالاحتيال، وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك، كما قدره ـ سبحانه ـ ودبره واقتضته حكمته، وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه ـ سبحانه ـ الملي بالوكالة الوفي بالكفالة. فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره، وقعد كسلان، طالباً للراحة،

(١) ٣١٠ الروح.

مؤثراً للدعة، يقول: الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، وسيأتيني ما قدر لي على ضعفي، ولن أنال ما لم يقدر لي مع قوتي، ولو أني هربت من رزقي كما أهرب من الموت للحقني، فيقال له: نعم هذا كله حق، وقد علمت أن الرزق مقدر، فما يدريك كيف قدر لك، بسعيك أم بسعي غيرك، وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه، وإذا خفي عليك هذا كله، فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفواً بلا سعي ولا كد، فكم من شيء سعيت فيه فقدر لغيرك، وكم من شيء سعىٰ فيه غيرك فقدر لك رزقاً! فإذا رأيت هذا عياناً فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك؟ وأيضاً فهذا الذي أوردته عليك النفس يجب عليك طرده في جميع الأسباب مع مسبباتها حتىٰ في أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فهل تعطلها اعتماداً على التوكل أم تقوم بها مع التوكل؟ بلىٰ لن تخلو الأرض من متوكل: صبر نفسه لله، وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب فسكن قلبه إلىٰ الله، واطمأن إليه، ووثق به، وكان هذا من أقوىٰ أسباب حصول رزقه، فلم يعطل السبب، وإنما رغب عن سبب إلىٰ سبب أقوىٰ منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه، وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كماله، فلم يتسع قلبه للأمرين، فأعرض عن أحدهما إلىٰ الآخر، ولا ريب أن هذا أكمل حالاً ممن امتلأ قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه، وأكمل منهما من جمع الأمرين، وهي حال الرسل والصحابة، فقد كان زكريا نجاراً، وقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتماداً على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين. ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم؟ وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت اقتداء بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله .

## فصل وأما عدة الآيسة والتي لم تحض[1]

**فقد** بينها ـ سبحانه ـ في كتابه، فقال: ﴿واللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيْضِ مِن

---

(١) ٣٩٩ زاد المعاد جـ٤ .

نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤] وقد اضطرب الناس في حد الإياس اضطراباً شديداً: فمنهم من حَدَّه بخمسين سنة. وقال: لا تحيض المرأة بعد الخمسين. وهذا قول إسحاق، ورواية عن أحمد. واحتج أرباب هذا القول بقول عائشة: «إذا بلغت خمسين خرجت من حد الحيض» وحَدَّه طائفة بستين سنة. وقالوا: لا تحيض بعد الستين. وهذه رواية ثانية عن أحمد. وعنه رواية ثالثة: الفرق بين نساء العرب وغيرهم. فحده ستون في نساء العرب، وخمسون في نساء العجم. وعنه رواية رابعة: أن ما بين الخمسين والستين دم مشكوك فيه. تصوم وتصلي، وتقضي الصوم المفروض. هذا اختيار الخرقي. وعنه رواية خامسة: أن الدم إن عاد بعد الخمسين وتكرر فهو حيض، وإلا فلا. وأما الشافعي: فلا نص له في تقدير الإياس بمدة. وله قولان بعد. أحدهما: أنه يعرف بإياس أقاربها. والثاني: أنه يعتبر بإياس جميع النساء، فعلى القول الأول: هل المعتبر جميع أقاربها، أو نساء عصباتها، أو نساء بلدها خاصة؟ فيه ثلاثة أوجه، ثم إذا قيل: يعتبر بالأقارب: فاختلفت عادتهن: هل يعتبر بأقلهن عادة منهن، أو بأكثرهن، أو بأقصر امرأة في العالم عادة؟ على ثلاثة أوجه، والقول الثاني للشافعي: أن المعتبر جميع النساء، ثم اختلف أصحابه: هل لذلك حد أم لا؟ على وجهين. أحدهما: ليس له حد. وهو ظاهر نصه. والثاني: له حد. ثم اختلفوا فيه على وجهين. أحدهما: أنه ستون سنة. قاله أبو العباس بن القاص، والشيخ أبو حامد. والثاني: اثنان وستون. قاله الشيخ أبو إسحاق في المهذب، وابن الصباغ في الشامل. وأما أصحاب مالك: فلم يحدوا سن اليأس بحد ألبتة.

**وقال** آخرون - منهم شيخ الإسلام ابن تيمية -: اليأس مختلف باختلاف النساء، وليس له حد يتفق عليه في النساء. والمراد بالآية: أن إياس كل امرأة من نفسها، لأن اليأس ضد الرجاء. فإذا كانت المرأة قد يئست من الحيض ولم ترجه: فهي آيسة، وإن كان لها أربعون، أو نحوها، وغيرها: لا تيأس منه، وإن كان لها خمسون. وقد ذكر الزبير بن بكار: أن بعضهم قال: لا تلد لخمسين سنة إلا عربية، ولا تلد لستين سنة إلا قرشية. وقال: «إن هند بنت أبي عبيدة بن عبيد الله بن ربيعة ولدت موسىٰ بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن

أبي طالب ولها ستون سنة» وقد صح عن عمر بن الخطاب في امرأة طلقت فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم ارتفع حيضها: لا تدري ما رفعه «أنها تتربص تسعة أشهر. فإن استبان بها حمل، وإلا اعتدت ثلاثة أشهر» وقد وافقه الأكثرون على هذا، منهم مالك، وأحمد، والشافعي، في القديم. قالوا: تتربص غالب مدة الحمل، ثم تعتد عدة الآيسة، ثم تحل للأزواج، ولو كانت بنت ثلاثين سنة أو أربعين. وهذا يقتضي أن عند عمر بن الخطاب، ومن وافقه من السلف والخلف تكون المرأة عندهم آيسة قبل الخمسين، وقبل الأربعين. وأن اليأس عندهم ليس وقتاً محدوداً للنساء. بل مثل هذه تكون آيسة، وإن كانت بنت ثلاثين، وغيرها لا تكون آيسة، وإن بلغت الخمسين. وإذا كانوا فيمن ارتفع حيضها - ولا تدري ما رفعه - جعلوها آيسة بعد تسعة أشهر، فالتي تدري ما رفعه - إما بدواء يعلم أنه لا يعود معه، وإما بعادة مستقرة لها من أهلها وأقاربها - أولى أن تكون آيسة، وإن لم تبلغ الخمسين. وهذا بخلاف ما إذا ارتفع لمرض، أو رضاع، أو حمل. فإن هذه ليست آيسة. فإن ذلك يزول.

**فالمراتب** ثلاث. أحدها: أن ترتفع ليأس معلوم متيقن، بأن تنقطع عاماً بعد عام، ويتكرر انقطاعه أعواماً متتابعة. ثم يطلق بعد ذلك. فهذه تتربص ثلاثة أشهر بنص القرآن. سواء كانت بنت أربعين، أو أقل أو أكثر. وهي أولى بالتربص بثلاثة أشهر من التي حكم فيها الصحابة والجمهور بتربصها تسعة أشهر، ثم ثلاثة. فإن تلك كانت تحيض وطلقت وهي حائض، ثم ارتفع حيضها بعد طلاقها، لا تدري ما رفعه؟ فإذا حكم فيها بحكم الآيسات بعد انقضاء غالب مدة الحمل، فكيف بهذه؟ ولهذا قال القاضي إسماعيل في أحكام القرآن: إذا كان الله ـ سبحانه ـ قد ذكر اليأس مع الريبة، فقال ـ تعالى ـ: **﴿واللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾** [الطلاق: ٤] ثم جاء عن عمر بن الخطاب لفظ موافق لظاهر القرآن، لأنه قال: «أيما امرأة طلقت، فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم ارتفعت حيضتها، لا تدري ما رفعها. فإنها تنتظر تسعة أشهر، ثم تعتد ثلاثة أشهر» فلما كانت لا تدري ما الذي رفع الحيضة: كانت موضع الارتياب، فحكم فيها بهذا الحكم. وكان اتباع ذلك ألزم وأولى من قول من يقول:

إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، فيرتفع حيضها وهي شابة: أنها تبقىٰ ثلاثين سنة معتدة. وإن جاءت بولد لأكثر من سنتين: لم يلزمه. فخالف ما كان من إجماع المسلمين الذين مضوا، لأنهم كانوا مجمعين على أن الولد يلحق بالأب ما دامت المرأة في عدتها. فكيف يجوز أن يقول قائل: إن الرجل يطلق امرأته تطليقة أو تطليقتين، ويكون بينها وبين زوجها أحكام الزوجات ما دامت في عدتها، من الموارثة وغيرها، فإن جاءت بولد لم يلحقه؟ وظاهر عدة الطلاق: أنها جعلت من الدخول الذي يكون منه الولد. فكيف تكون المرأة معتدة والولد لا يلزم؟

**قلت**: هذا إلزام منه لأبي حنيفة، فإن عنده أقصر مدة الحمل سنتان، والمرتابة في أثناء عدتها لا تزال في عدة حتى تبلغ سن اليأس، فتعتد به، وهو يلزم الشافعي في قوله الجديد سواء، إلا أن مدة الحمل عنده أربع سنين. فإذا جاءت به بعدها لم يلحقه، وهي في عدتها منه، قال القاضي إسماعيل: واليأس يكون بعضه أكثر من بعض، وكذلك القنوط، وكذلك الرجاء، وكذلك الظن، ومثل هذا يتسع الكلام فيه، فإذا قيل: منه شيء أنزل على قدر ما يظهر من المعنىٰ فيه، فمن ذلك أن الإنسان يقول: قد يئست من مريضي، إذا كان الأغلب عنده: أنه لا يبرأ، ويئست من غائبي إذا كان الأغلب عنده: أنه لا يقدم، ولو قال: إذا مات غائبه، أو مات مريضه، قد يئست منه: لكان الكلام عند الناس على غير وجهه، إلا أن يتبين معنى ما قصد له في كلامه، مثل أن يقول: كنت وَجِلاً في مرضه، مخافة أن يموت، فلما مات وقع اليأس، فينصرف الكلام على هذا وما أشبهه، إلا أن أكثر ما يلفظ باليأس: إنما يكون فيما هو الأغلب عند اليأس أنه لا يكون. وليس واحداً من اليأس. والطامع يعلم يقيناً أن ذلك الشيء يكون، أو لا يكون، وقد قال الله ـ تعالى ـ: **﴿والقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فلَيْسَ عَلَيهِنَّ جُناحٌ أنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾** [النور: ٦٠] والرجاء ضد اليأس، والقاعدة من النساء: قد يمكن أن تتزوج. غير أن الأغلب عند اليأس فيها: أن الأزواج يرغبون عنها، وقال الله ـ تعالى ـ: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾** [الشورى: ٢٨] والقنوط: شبه اليأس، وليسوا يعلمون يقيناً أن المطر لا يكون، ولكن اليأس داخلهم حين تطاول إبطاؤه، وقال الله ـ تعالىٰ ـ: **﴿حَتَّىٰ إذَا اسْتَيْأَسَ**

**الرُّسُلُ وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَد كُذِبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنا﴾** [يوسف: ١١٠] فلما ذكر أن الرسل هم الـذين استيأسـوا كان فيه دليل على أنهم قد دخل قلوبهم يأس من غير يقـين استيقنوه، لأن اليقين في ذلك إنما يأتيهم من عند الله، كما قال في قصة نوح: **﴿فلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُون﴾** [هود: ٣٦] وقال الله تعالىٰ في قصة إخوة يوسف: **﴿فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾** [يوسف: ٨٠] فدل الظاهر على أن يأسهم ليس بيقين، وقد حدثنا ابن أبي أويس، حدثنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه، أن عمر بن الخطاب كان يقول في خطبته يعلمهم «أيها الناس، إن الطمع فقر، وإن اليأس غني، وإن المرء إذا يئس من شيء استغنىٰ عنه» فجعل عمر اليأس بإزاء الطمع. وسمعت أحمد بن المعدل ينشد شعراً لرجل من القدماء يصف ناقة:

صفــراء من تِلْدِ بني الـعبـاس	ضُرتهـا كالـظبي في الكنـاس
تَـدِرُّ أم تسـمـع بالإيسـاس	فالـنـفس بيـن طمـع ويـاس

**فجعل** الطمع بإزاء اليأس، حدثنا سليمان بن حرب حدثنا جرير بن حازم عن الأعمش عن سلام عن شرحبيل، قال: سمع حية بن خالد وسواء بن خالد: أنهما أتيا النبي ﷺ فقـالا: علمنـا شيئـاً، ثم قال: «**لا تيـأسا من الخير ما تهزهزت رءوسكما، فإن كل عبد يولد أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ويعطيه** » وحدثنا علي بن عبـد الله حدثنـا ابن عيينـة قال: قال هشام بن عبد الملك لأبي حازم: «يا أبا حازم، ما مالك؟ قال: خير مالي ثقتي بالله، ويأسي مما في أيدي الناس» قال: وهذا أكثر من أن يحصى، انتهىٰ.

**قال** شيخنا: وليس للنساء في ذلك عادة مستمرة، بل فيهن من لا تحيض وإن بلغت، وفيهن من تحيض حيضاً يسيراً يتباعد ما بين أقرائها، حتىٰ تحيض في السنة مرة، ولهذا اتفق العلماء علىٰ أن أكثر الطهر - بين الحيضتين - لا حد له، وغالب النساء يحضن كل شهر مرة. ويحضن ربع الشهر، ويكون طهرهن ثلاثة أرباعه، ومنهن من تطهر الشهور المتعددة لقلة رطوبتها، ومنهن من يسرع إليها الجفاف فينقطع حيضها وتيأس منه، وإن كان لها دون الخمسين، بل والأربعين، ومنهن من لا يسرع إليهـا الجفـاف، فتجـاوز الخمسين وهي تحيض، قال: وليس في الكتاب ولا السنة تحديد اليأس بوقت، ولو كان المراد بالآيسة من المحيض مَنْ لها

خمسون سنة، أو ستون سنة، أو غير ذلك لقيل: واللائي يبلغن من السن كذا وكذا، ولم يقل «يئسن» وأيضاً: فقد ثبت عن الصحابة أنهم جعلوا من ارتفع حيضها قبل ذلك يائسة كما تقدم، والوجود مختلف في وقت يأسهن، غير متفق. وأيضاً: فإنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿واللَّائي يئِسْنَ﴾ [الطلاق: ٤] ولو كان له وقت محدود لكانت المرأة وغيرها سواء في معرفة يأسهن، وهو ـ سبحانه ـ قد خص النساء بأنهن اللائي يئسن كما خصهن بقوله: ﴿واللَّائي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤] فالتي تحيض هي التي تيأس: وهذا بخلاف الارتياب، فإنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿إن ارْتَبْتُمْ﴾ [الطلاق: ٤] ولم يقل: إن أرتبتن، أي إن أرتبتم في حكمهن وشككتم فيه. فهو هذا.

هذا هو الذي عليه جماعة أهل التفسير، كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث جرير وموسىٰ بن أعين - واللفظ له - عن مطرف بن طريف عن عمر بن سالم عن أبيٍّ بن كعب قال: «قلت: يا رسول الله إن ناساً بالمدينة يقولون في عِدَدِ النساء ما لم يذكر الله في القرآن: الصغار والكبار وأولات الأحمال، فأنزل الله ـ سبحانه ـ في هذه السورة ﴿واللَّائِي يئِسْنَ مِنَ المحِيض مِن نِّسائِكُم إنِ ارْتَبْتُم فعِدَّتهُنَّ ثلاثةُ أشْهُر واللَّائي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأحْمالِ أجَلُهُنَّ أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] فأجل إحداهن أن تضع حملها، فإذا وضعت فقد قضت عدتها، ولفظ جرير «قلت: يا رسول الله، إن ناساً من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء، قالوا: لقد بقي من عدد النساء عدد لم يذكرن في القرآن: الصغار والكبار واللاتي انقطع عنهن الحيض، وذوات الحمل، قال: فأنزلت التي فى النساء القصرىٰ ﴿واللَّائي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إن ارْتَبْتُمْ﴾» ثم روي عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿واللائي يَئِسْن مِنَ الْمَحِيضِ من نِّسائِكُمْ﴾ يعني «الآيسة العجوز التي لا تحيض، أو المرأة التي قعدت عن الحيضة، فليست هذه من القروء في شيء» وفي قوله: ﴿إنِ ارْتَبْتُمْ﴾ في الآية، يعني «إن شككتم فعدتهن ثلاثة أشهر» وعن مجاهد ﴿إن ارتبتم﴾ «لم تعلموا عدة التي قعدت عن الحيض، أو التي لم تحض فعدتهن ثلاثة أشهر، فقوله تعالى: ﴿إن ارتبتم﴾ يعني إن سألتم عن حكمهن، ولم تعلموا حكمهن وشككتم فيه: فقد بيناه لكم، فهو بيان لنعمته على مَنْ طلب ذلك، ليزول ما عنده من الشك والريب، بخلاف

المعرض عن طلب العلم.

**وأيضاً**: فإن النساء لا يستوين في ابتداء الحيض، بل منهن من تحيض لعشر، أو اثنتي عشرة، أو خمس عشرة، أو أكثر من ذلك، فلذلك لا يستوين في آخر سن الحيض الذي هو سن اليأس، والوجود شاهد بذلك. وأيضاً فإنهم تنازعوا فيمن بلغت ولم تحض: هل تعتد بثلاثة أشهر، أو بالحول، كالتي ارتفع حيضها. ولا تدري ما رفعه؟ وفيه روايتان عن أحمد.

**قلت**: والجمهور على أنها تعتد بثلاثة أشهر، ولم يجعلوا للصغر الموجب للاعتداد بها حدًّا، فكذلك يجب أن لا يكون للكبر الموجب للاعتداد بالشهور حدًّا، وهو ظاهر. ولله الحمد.

## فصل وأما عدة الوفاة: فتجب بالموت

**سواء** دخل بها أو لم يدخل اتفاقاً. كما دل عليه عموم القرآن والسنة. واتفقوا على أنهما يتوارثان قبل الدخول، وعلى أن الصداق يستقر إذا كان مسمى؛ لأن الموت لما كان انتهاء للعقد وانقضاء له. استقرت به الأحكام، فتوارثا، واستقر المهر، ووجبت العدة.

**واختلفوا** في مسألتين. إحداهما: وجوب مهر المثل، إذا لم يكن المهر مسمىٰ. فأوجبه أحمد وأبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه. ولم يوجبه مالك والشافعي في القول الآخر. وقضىٰ بوجوبه رسول الله ﷺ. كما جاء في السنة الصحيحة الصريحة من حديث بَرْوَع بنت واشِق. وقد تقدم. ولو لم ترد به السنة لكان هو محض القياس. لأن الموت أجرى مجرى الدخول في تقرير المسمىٰ، ووجوب العدة. والمسألة الثانية: هل يثبت تحريم الربيبة بموت الأم، كما ثبت بالدخول بها؟ وفيه قولان للصحابة. وهما روايتان عن أحمد.

**والمقصود**: أن العدة فيه ليست للعلم ببراءة الرحم؛ فإنها تجب قبل الدخول، بخلاف عدة الطلاق. وقد اضطرب الناس في حكمة عدة الوفاة وغيرها: فقيل: هي لبراءة الرحم. وأورد على هذا القول وجوه كثيرة. منها: وجوبها قبل الدخول في الوفاة. ومنها: أنها ثلاثة قروء، وبراءة الرحم يكفي فيها حيضة، كما في المستبرأة. ومنها: وجوب ثلاثة أشهر في حق من يُقطع ببراءة رحمها لصغرها أو

كبرها. ومن الناس من يقول: هو تعبد لا يعقل معناه. وهذا فاسد، لوجهين:

**أحدهما:** أنه ليس في الشريعة حكم إلا وله حكمة: وإن لم يعقلها كثير من الناس أو أكثرهم. الثاني: أن العِدَدَ ليست من العبادات المحضة. بل فيها من المصالح رعاية حق الزوجين، والولد، والناكح.

**قال** شيخنا: والصواب أن يقال: إن عدة الوفاة هي حرم لانقضاء النكاح ورعاية لحق الزوج. ولهذا تُحِدُّ المتوفى عنها في عدة الوَفاة رعاية لحق الزوج. فجعلت العدة حريماً لحق هذا العقد الذي له خطر وشأن. فيحصل بها فصل بين نكاح الأول ونكاح الثاني. ولا يتصل النكاحان. ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما عظم حقه: حرم نساؤه بعده؟ وبهذا اختص الرسول. لأن أزواجه في الدنيا هن أزواجه في الآخرة، بخلاف غيره. فإنه لو حرم على المرأة أن تتزوج بغير زوجها لتضررت المتوفى عنها. وربما كان الثاني خيراً لها من الأول، ولكن لو تأيمت على أولادها من الأول لكانت محمودة على ذلك مستحبًّا لها. وفي الحديث «**أنا وامرأة سَفْعَاء الخدين كهاتين يوم القيامة**» - وأوْمَأ بالوسطى والسبابة - امرأة تأيمت من زوجها ذات منصب وجمال، وحبست نفسها على يتامى لها، حتى بانوا أو ماتوا. وإذا كان المقتضى لتحريمها قائماً فلا أقل من مدة تتربصها. وقد كانت في الجاهلية تتربص سنة، فخففها الله ـ سبحانه ـ بأربعة أشهر وعشر. وقيل لسعيد بن المسيب: ما بال العشر؟ قال: «فيها ينفخ الروح» فيحصل بهذه المدة براءة الرحم حيث يحتاج إليه، وقضاء حق الزوج إذا لم يحتج إلىٰ ذلك.

## فصل وأما عدة الطلاق: فهي التي أشكلت

**فإنها** لا يمكن تعليلها بذلك؛ لأنها إنما تجب بعد المَسِيس، ولأن الطلاق قطع للنكاح. ولهذا يتنصف فيه المسمى. ويسقط فيه مهر المثل.

**فيقال** - والله الموفق للصواب -: عدة الطلاق وجبت ليتمكن الزوج فيها من الرجعة. ففيها حق للزوج، وحق لله، وحق للولد، وحق للناكح الثاني. فحق الزوج: ليتمكن من الرجعة في العدة. وحق الله: لوجوب ملازمتها المنزل، كما نص عليه سبحانه. وهو منصوص أحمد ومذهب أبي حنيفة، وحق الولد: لئلا يضيع نسبه، ولا يدري لأي الواطئين. وحق المرأة: لمالها من النفقة زمن العدة،

لكونها زوجة ترث وتورث.

**ويدل** على أن العدة حق للزوج: قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩] فقوله: ﴿فمالكم عليهن من عدة﴾ دليل على أن العدة للرجل على المرأة وأيضًا فإنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فجعل الزوج أحق بردها في العدة. وهذا حق له، فإذا كانت العدة ثلاثة قروء وثلاثة أشهر: طالت مدة التربص، لينظر في أمره: هل يمسك ويفيء أو يطلق؟ وكان تخيير المطلق كتخيير المولى. لكن المولى جعل له أربعة أشهر، كما جعل مدة التسيير أربعة أشهر[1]، لينظروا في أمرهم.

**ومما** يبين ذلك أنه ـ سبحانه ـ قال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وبلوغ الأجل: هل الوصول والانتهاء. وبلوغ الأجل في هذه الآية مجاوزته. وفي قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] مقاربته ومشارفته. ثم فيه قولان. أحدهما: أنه حد من الزمان. وهو الطعن في الحيضة الثالثة، أو انقطاع الدم منها، أو من الرابعة، وعلى هذا: فلا يكون مقدوراً لها، وقيل: بل هو فعلها. وهو الاغتسال، كما قاله جمهور الصحابة. وهذا كما أنه بالاغتسال يحل للزوج وطؤها. ويحل لها أن تمكنه من نفسها، فالاغتسال عندهم شرط في النكاح الذي هو العقد. وفي النكاح الذي هو الوطء، وللناس في ذلك أربعة أقوال.

**أحدها:** أنه ليس شرطاً، لا في هذا ولا في هذا، كما يقوله من يقوله من أهل الظاهر.

**والثاني:** أنه شرط فيهما، كما قاله أحمد وجمهور الصحابة كما تقدم حكايته عنهم.

**والثالث:** أنه شرط في نكاح الوطء لا في نكاح العقد. كما قاله مالك والشافعي.

**والرابع:** أنه شرط فيهما، أو ما يقوم مقامه، وهو الحكم بالطهر بمقتضىٰ وقت صلاة وانقطاعه لأكثره، كما يقوله أبو حنيفة. فإذا ارتجعها قبل غسلها لأجل وطئه لها وإلا كان لأجل حلها لغيره، وبالاغتسال يتحقق كمال الحيض وتمامه، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ

---

(١) في قوله في سورة براءة: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾.

**أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾** [البقرة: ٢٢٢] والله ـ سبحانه ـ أمرها أن تتربص ثلاثة قروء. فإذا مضت الثلاثة فقد بلغت أجلها، وهو ـ سبحانه ـ لم يقل: إنها عقيب القرأين تبين من الزوج، بل خيرَّ الزوج عند بلوغ الأجل بين الإمساك والتسريح. فظاهر القرآن ما فهمه الصحابة: أنه عند انتهاء القروء الثلاثة: يخير الزوج بين الإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان. وعلى هذا: فيكون بلوغ الأجل في القرآن واحداً لا يكون قسمين. بل يكون باستيفاء المدة واستكمالها. وهذا كقوله ـ تعالىٰ ـ إخباراً عن أهل النار: **﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾** [الأنعام: ١٢٨] وقوله: **﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُم فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾** [البقرة: ٢٣٤] وإنما حمل من قال: «إن بلوغ الأجل هو مقارنته» أنها بعد أن تحل للخطَّاب لا يبقى الزوج أحق برجعتها. وإنما يكون أحق بها ما لم تحل لغيره، فإذا حل لغيره أن يتزوجها صار هو خاطباً من الخطاب. ومنشأ هذا: ظن أنها ببلوغ الأجل تحل لغيره. والقرآن لم يدل على هذا، بل القرآن جعل عليها أن تتربص ثلاثة قروء، وذكر أنها إذا بلغت أجلها فإما أن تمسَك بمعروف، وإما أن تُسَرح بإحسان.

**وقد** ذكر ـ سبحانه ـ هذا الإمساك أو التسريح عقيب الطلاق، فقال: **﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾** [البقرة: ٢٢٩] ثم قال: **﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾** [البقرة: **٢٣٢**] وهذا هو تزويجها بزوجها الأول المطلق الذي كان أحق بها. فالنهي عن عَضْلهن مؤكد لحق الزوج، وليس في القرآن أنها بعد بلوغ الأجل تحل للخطاب، بل فيه: أنه في هذه الحال إما أن يمسك بمعروف، أو يسرح بإحسان. فإن سرح بإحسان حلت حينئذ للخطاب.

**وعلى** هذا: فدلالة القرآن بينت أنها إذا بلغت أجلها، وهو انقضاء ثلاثة قروء بانقطاع الدم، فإما أن يمسكها قبل أن تغتسل فتغتسل عنده، وإما أن يسرحها، فتغتسل وتنكح من شاءت. وبهذا يعرف قدر فهم الصحابة، وأن من بعدهم إنما يكون غاية اجتهاده أن يفهم ما فهموه ويعرف ما قالوه.

**فإن** قيل: فإذا كان له أن يرتجعها في جميع هذه المدة ما لم تغتسل، فلم قيد التخيير ببلوغ الأجل؟ قيل: ليتبين أنها في مدة العدة كانت متربصة لأجل حق

الزوج. والتربص الانتظار، وكانت منتظرة: هل يمسكها، أو يسرحها؟ وهذا التخيير ثابت له من أول المدة إلىٰ آخرها، كما خير المولى بين الفيئة وعدم الطلاق، وهنا لما خيره عند بلوغ الأجل كان تخييره قبله أولى وأحرى، لكن التسريح إنما يمكن إذا بلغت الأجل، وقبل ذلك هي في العدة، وقد قيل: إن تسريحها بإحسان مؤثر فيها حين تنقضي العدة، ولكن ظاهر القرآن يدل على خلاف ذلك. فإنه ـ سبحانه ـ جعل التسريح بإحسان عند بلوغ الأجل. ومعلوم أن هذا الترك ثابت من أول المدة. فالصواب: أن التسريح إرسالها إلىٰ أهلها بعد بلوغ الأجل ورفع يده عنها. فإنه كان يملك حبسها مدة العدة. فإذا بلغت أجلها فحينئذ إن أمسكها كان له حبسها، وإن لم يمسكها كان عليه أن يسرحها بإحسان. ويدل على هذا قوله ـ تعالىٰ ـ في المطلقة قبل المسيس ﴿فَمَا لَكُم عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهَنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٩] فأمر بالسراح الجميل، ولا عدة. فعلم أن تخلية سبيلها: إرسالها، كما يقال: سَرّح الماء والناقة: إذا مكنهما من الذهاب وبهذا الإطلاق والسراح يكون قد تم تطليقها وتخليتها، وقبل ذلك لم يكن الإطلاق تامًّا، وكان له أن يمسكها وأن يسرحها، وكان مع كونه مطلقاً قد جُعل أحق بها من غيره مدة التربص، وجعل التربص ثلاثة قروء لأجله.

**ويؤيد** هذا أشياء أحدها: أن الشارع جعل عدة المختلعة حيضة، كما ثبت بالسنة: وأقر به عثمان بن عفان وابن عباس وابن عمر وحكاه أبو جعفر النحاس في ناسخه ومنسوخه: إجماع الصحابة وهو مذهب إسحاق وأحمد بن حنبل في أصح الراويتين عنه دليلاً كما سيأتي تقرير المسألة عن قريب إن شاء الله تعالىٰ.

(١)... ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُم مِّنْ وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦] ويقال: وجد فلان وجداً ووُجداً - بضم الواو وفتحها وكسرها - إذا صار ذا جِدة وثروة. ووُجِد الشيء كذا وكذا، فهو موجود، وأوجده الله، ويقال: وجد الله الشيء كذا وكذا على غير معنى أوجده. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِن عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] فالله ـ سبحانه ـ أوجده على علمه، بأن يكون على صفة. ثم وجده بعد إيجاده على تلك الصفة التي علم أن سيكون عليها.

---

(١) ٤١٤ مدارج جـ٣.

**وأما** «الواجد» في أسمائه سبحانه: فهو بمعنى ذو الوُجد والغنى. وهو ضد الفاقد. وهو كالموسع ذي السَّعة. قال تعالىٰ: ﴿**والسَّماءَ بَنَيْنَاها بأيْدٍ وإنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾ [الذاريات: ٤٧] أي ذوو سعة وقدرة وملك. كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَمَتِّعُوهُنَّ على المُوسِعِ قَدَرُه وَعَلى المُقْتِرِ قَدَرُه**﴾ [البقرة: ٢٣٦] ودخل في أسمائه ـ سبحانه ـ: الواجد، دون «الموجد» فإن «الموجد» صفة فعل. وهو معطي الوجود. كالمحيي معطي الحياة وهذا الفعل لم يجيء إطلاقه في أفعال الله في الكتاب ولا في السنة. فلا يعرف إطلاق: أوجد الله كذا وكذا. وإنما الذي جاء «خلقه وبرَأه، وصَوَّره وأعطاه خلقه» ونحو ذلك. فلما لم يكن يستعمل فعله لم يجيء اسم الفاعل منه في أسمائه الحسنىٰ. فإن الفعل أوسع من الاسم. ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالاً لم يتسم منها بأسماء الفاعل. كأراد، وشاء، وأحدث. ولم يسم «بالمريد» و «الشائي» و «المحدث» كما لم يسم نفسه «بالصانع» و «الفاعل» و «المتقن» وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه. فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء.

**وقد** أخطأ - أقبح خطإ - من اشتق له من كل فعل اسما وبلغ بأسمائه زيادة على الألف. فسماه «الماكر، والمخادع، والفاتن، والكائد» ونحو ذلك. وكذلك باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به. فإنه يخبر عنه بأنه «شيء وموجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد» ولا يسمىٰ بذلك.

**فأما** «الواجد» فلم تجيء تسميته به إلا في حديث تعداد الأسماء الحسنىٰ. والصحيح: أنه ليس من كلام النبي ﷺ. ومعناه صحيح . . .

[1]... **الوجه** الرابع: وهو أن الله ـ سبحانه ـ نص في كتابه على إجارة الظئر، وسمىٰ ما تأخذه أجراً. وليس في القرآن إجارة منصوص عليها في شريعتنا إلا إجارة الظئر بقوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فآتُوهُنَّ أُجورَهُنَّ وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ**﴾ [الطلاق: ٦]. قال شيخنا: وإنما ظن الظانّ أنها خلاف القياس، حيث توهم أن الإجارة لا تكون إلا على منفعة. وليس الأمر كذلك. بل الإجارة تكون على كل ما يستوفى مع بقاء أصله. سواء كان عيناً أو منفعة، كما أن هذه العين هي التي توقف وتُعار، فما استوفاه الموقوف عليه والمستعير بلا عوض، يستوفيه المستأجر

(١) ٥١٩ زاد المعاد جـ٤.

بالعوض. فلما كان لبن الظئر مستوفى مع بقاء الأصل جازت الإجارة عليه، كما جازت على المنفعة. وهذا محض القياس. فإن هذه الأعيان يحدثها الله شيئاً بعد شيء وأصلها باق، كما يحدث الله المنافع شيئاً بعد شيء وأصلها باق.

**يوضحه** الوجه الخامس: وهو أن الأصل في العقود: وجوب الوفاء، إلا ما حرمه الله ورسوله: فإن المسلمين على شروطهم إلا شرطًا أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً فلا يحرم من الشروط والعقود إلا ما حرم الله ورسوله. وليس مع المانعين نص بالتحريم البتة. وإنما معهم قياس قد علم بأن بين الأصل والفرع فيه من الفرق ما يمنع الإلحاق، وأن القياس الذي مع من أجاز ذلك أقرب إلىٰ مساواة الفرع الأصلي. وهذا ما لا حيلة فيه: وبالله التوفيق.

## (1) فصل في فتواه ﷺ في نفقة المعتدة وكسوتها

**ثبت** أن فاطمة بنت قيس طلقها زوجها البتة، فخاصمته في السكن والنفقة إلىٰ رسول الله ﷺ قالت: لم يجعل لي سكنىٰ ولا نفقة. وفي السنن أن النبي ﷺ قال: «**يا بنت آل قيس إنما السكنىٰ والنفقة على من كانت له رجعة**»، ذكره أحمد.

**وعنده** أيضاً «**إنما السكنىٰ والنفقة للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنىٰ**». وفي صحيح مسلم عنها: طلقني زوجي ثلاثاً، فلم يجعل لي رسول الله ﷺ سكنىٰ ولا نفقة.

**وفي** رواية لمسلم أيضاً أن أبا عمرو بن حفص خرج مع علي ـ كرم الله وجهه ـ إلىٰ اليمن، فأرسل إلىٰ امرأته بتطليقة بقيت من طلاقها، وأمر عياش بن أبي ربيعة والحارث بن هشام أن ينفقا عليها، فقالا: والله ما لها نفقة، إلا أن تكون حاملاً، فأتت النبي ﷺ، فذكرت له قولهما، فقال: «**لا نفقة لك**» فاستأذنته في الانتقال، فأذن لها، فقالت له: أين يا رسول الله؟ فقال: «**عند ابن أم مكتوم**» وكان أعمىٰ، تضع ثيابها عنده ولا يراها، فلما مضت عدتها أنكحها النبي ﷺ أسامة بن زيد، فأرسل إليها مروان قبيصة بن ذؤيب يسألها عن الحديث، فحدثته، فقال: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة، سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، فقالت فاطمة حين بلغها قولُ مروان: بيني وبينكم القرآن، قال ـ تعالى ـ: ﴿لا

---

(1) ٣٥٧ أعلام جـ٤.

**تُخْرِجُوهُنَّ من بُيُوتِهِنَّ ولا يَخْرُجْنَ﴾** [الطلاق: ١] الآية، قالت: هذا لمن كانت له مُرَاجعة، فأي أمر يحدث بعد الثلاث؟. وأفتىٰ النبي ﷺ بأن للنساء على الرجال رزقهن وكسوتهن بالمعروف، ذكره مسلم.

**وسئل** ﷺ: ما تقول في نسائنا؟ فقال: «**أطْعِمُوهُنَّ مما تأكلون، واكسوهن مما تلبسون، ولا تضربوهن، ولا تقبحوهن**» ذكره مسلم.

**وسألته** ﷺ هند امرأة أبي سفيان فقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، قال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**» متفق عليه.

**فتضمنت** هذه الفتوىٰ أموراً، أحدها: أن نفقة الزوجة غير مُقَدَّرة، بل المعروف ينفي تقديرها، ولم يكن تقديرها معروفاً في زمن رسول الله ﷺ ولا الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم. الثاني: أن نفقة الزوجة من جنس نفقة الولد كلاهما بالمعروف. الثالث: انفراد الأب بنفقة أولاده. الرابع: أن الزوج أو الأب إذا لم يبذل النفقة الواجبة عليه فللزوجة والأولاد أن يأخذوا قدر كفايتهم بالمعروف. الخامس: أن المرأة إذا قَدَرَتْ على أخذ كفايتها من مال زوجها لم يكن لها إلىٰ الفسخ سبيل. السادس: أن ما لم يقدره الله ورسوله من الحقوق الواجبة فالمرجع فيه إلى العرف. السابع: أن ذم الشاكي لخصمه بما هو فيه حال الشكاية لا يكون غيبة، فلا يأثم به هو ولا سامعه بإقراره عليه. الثامن: أن من منع الواجب عليه وكان سبب ثبوته ظاهراً فلمستحقه أن يأخذ بيده إذا قدر عليه، كما أفتىٰ به النبي ﷺ هنداً، وأفتىٰ به ﷺ الضيف إذا لم يَقْره مَنْ نزل عليه كما في سنن أبي دَاود عنه ﷺ أنه قال: «**ليلة الضيف حق على كل مسلم، فإن أصبح بفنائه محروماً كان ديناً عليه إن شاء اقتضاه وإن شاء تركه**» وفي لفظ «**مَنْ نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه**» وإن كان سبب الحق خفيًّا لم يجز له ذلك، كما أفتىٰ النبي ﷺ في قوله: «**أدّ الأمانة إلىٰ من ائتمنك، ولا تخن من خانك**».

(١)**قال** تعالىٰ: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات: ٥٦] وقال

---

(١) ٧٠ مفتاح جـ١.

تعالىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ قَدِيْرٌ وأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: ١٢].

**فتضمنت** هاتان الآيتان أنه ـ سبحانه ـ إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد، فهذا المطلوب، وما كان طريقاً إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة، واللعنة واقعة على ما عداه إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه، وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة، فإنه كما كان متعلق اللعنة التي تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب، والله ـ سبحانه ـ إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضىٰ إليه. وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده.

(١)**ولما** كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكل والمحبة والإنابة والخشية والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة فإن قيل: فالعلم إنما هو وسيلة إلىٰ العمل ومراد له، والعمل هو الغاية، ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة، فكيف تفضل الوسائل على غايتها.

**قيل** كل من العلم والعمل ينقسم قسمين: منه ما يكون وسيلة، ومنه ما يكون غاية، فليس العلم كله وسيلة مراده لغيرها، فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته.

**قال** الله ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ قديرٌ وأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: ١٢]. فقد أخبر ـ سبحانه ـ أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَاعْلَمْ أنه لَا إلـه إلَا اللهُ﴾ [محمد: ١٩] فالعلم بوحدانيته تعالىٰ وأنه لا إلـه إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفي به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يعرف الرب ـ تعالىٰ ـ بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبها ومقتضاها. فكما

(١) ١٧٨ مفتاح جـ١.

أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها فكذلك العلم به ومعرفته. وأيضاً فإن العلم من أفضل أنواع العبادات كما تقدم تقريره، فهو متضمن للغاية والوسيلة.

**وقولكم:** إن العمل غاية، إما أن تريدوا به العمل الذي يدخل فيه عمل القلب والجوارح أو العمل المختص بالجوارح فقط، فإن أريد الأول فهو حق وهو يدل على أن العلم غاية مطلوبة لأنه من أعمال القلب كما تقدم وإن أريد به الثاني وهو عمل الجوارح فقط فليس بصحيح، فإن أعمال القلوب مقصودة ومرادة لذاتها، بل في الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها، فإن الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب أصلاً وللجوارح تبعاً.

**وكذلك** الأعمال المقصودة بها أولاً صلاح القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه وجعلت أعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة له، وإن كان كثير منها مراداً لأجل المصلحة المترتبة عليه فمن أجلها صلاح القلب وزكاته وطهارته واستقامته، فعلم أن الأعمال منها غاية ومنها وسيلة، وأن العلم كذلك.

**وأيضاً** فالعلم الذي هو وسيلة إلىٰ العمل فقط إذا تجرد عن العمل لم ينتفع به صاحبه فالعمل أشرف منه.

**وأما** العلم المقصود الذي تنشأ ثمرته المطلوبة منه من نفسه فهذا لا يقال إن العمل المجرد أشرف منه، فكيف يكون مجرد العبادة البدنية أفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه في خلقه وأمره ومن العلم بأعمال القلوب وآفات النفوس والطرق التي تفسد الأعمال وتمنع وصولها من القلب إلىٰ الله، والمسافات التي بين الأعمال والقلب وبين القلب والرب تعالىٰ، وبها تقطع تلك المسافات إلىٰ غير ذلك من علم الإيمان وما يقويه وما يضعفه، فكيف يقال: إن مجرد التعبد الظاهر بالجوارح أفضل من هذا العلم، بل من قام بالأمرين فهو أكمل، وإذا كان في أحدهما فضل ففضل هذا العلم خير من فضل العبادة، فإذا كان في العبد فضلة عن الواجب كان صرفها إلىٰ العلم الموروث عن الأنبياء أفضل من صرفها إلىٰ مجرد العبادة، فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطلاق

والحمد لله رب العالمين




**بسم الله الرحمن الرحيم**

## (١)حكم رسول الله ﷺ الذي بينه عن ربه تبارك وتعالى فيمن حرّم أمته أو زوجته أو متاعه

**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ**﴾ [التحريم: ١، ٢] ثبت في الصحيحين أنه ﷺ شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش. فاحتالت عليه عائشة وحفصة، حتىٰ قال: «**لن أعود له**». وفي لفظ: «**وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحدًا**».

**وفي** سنن النسائي عن أنس «أن رسول الله ﷺ كانت لـه أمة يطؤها فلم تزل بـه عائشـة وحفصـة حتىٰ حرمها فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحلَّ اللهُ لَكَ**﴾».

**وفي** صحيح مسلم عن ابن عباس قال: «**إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها**. وقال: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب: ٢١].

**وفي** جامـع الترمذي عن عائشة قالت: «آلىٰ رسول الله ﷺ من نسائه وحرم فجعل الحرام حلالاً. وجعل في اليمين كفارة» هكذا رواه مسلمة(٢) بن علقمة عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة. ورواه علي بن مسهر وغيره عن الشعبي عن النبي ﷺ مرسلاً. وهو أصح. انتهىٰ كلام أبي عيسىٰ.

**وقولها:** «جعل الحرام حلالاً» أي جعل الشيء الذي حرمه وهو «العسل، أو الجارية» حلالاً، بعد تحريمه إياه. وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الله بن هبيرة عن قبيصة بن ذؤيب قال: سألت زيد بن ثابت، وابن عمر عمن قال لامرأته «**أنت عليَّ حرام؟ فقالا جميعاً: كفارة يمين**».

**وقال** عبد الرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن مسعود **قال في التحريم**: «**هي يمين يكفرها**». قال ابن حزم: وروي ذلك عن أبي بكر

(١) ١٤٣ زاد المعاد جـ٤.
(٢) في المطبوعة: «مسلم» والصواب ما أثبتناه كما عند الترمذي. المراجع.

الصديق وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما.

**وقال** الحجاج بن منهال: حدثنا جرير بن حازم قال: «سألت نافعاً مولى ابن عمر عن الحرام: أطلاق هو؟ قال: لا، أو ليس قد حرم رسول الله ﷺ جاريته، فأمره الله ـ عز وجل ـ أن يكفِّر عن يمينه، ولم يحرمها عليه. . . .

## (1)فصل وأما من قال: إنه يمين مكفرة بكل حال

**فمأخذ** قوله: إن تحريم الحلال - من الطعام والشراب واللباس - يمين يكفر بالنص والمعنى وآثار الصحابة. فإن الله سبحانه قال: ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيْمٌ * قَدْ فَرَضَ اللهُ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ١، ٢].

**ولا بد** أن يكون تحريم الحلال داخلاً تحت هذا الفرض، لأنه سببه. وتخصيص محل السبب من جملة العام ممتنع قطعاً، إذ هو المقصود بالبيان أو لا. فلو خص لخلا سبب الحكم عن البيان، وهو ممتنع، وهذا استدلال في غاية القوة.

**فسألت** عنه شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فقال: يعم التحريم، لكنه يمين كبرى في الزوجة، كفارتها كفارة الظهار، ويمين صغرى فيما عداها، كفارتها كفارة اليمين بالله، قال: وهذا معنىٰ قول ابن عباس وغيره من الصحابة ومن بعدهم «إن التحريم يمين تكفر». فهذا تحرير المذاهب في هذه المسألة نقلاً، وتقريرها استدلالاً. ولا يخفى على من آثر العلم والإنصاف، وجانب التعصب والاعتساف، ونُصرة ما بنى عليه من الأقوال: الراجحَ من المرجوح، والله المستعان.

## فصل وقد تبين بما ذكرنا

**أن** من حرم شيئاً غير الزوجة، من الطعام، والشراب، واللباس، أو أمته: لم يحرم عليه بذلك، وعليه كفارة يمين، وفي هذا خلاف في ثلاثة مواضع:

**أحدها:** أنه لا يحرم، وهذا قول الجمهور. وقال أبو حنيفة: يحرم تحريماً مقيداً، تزيله الكفارة، كما إذا ظاهر من امرأته، فإنه لا يحل له وطؤها حتىٰ يكفِّر، ولأن الله ـ سبحانه ـ سمىٰ الكفارة في ذلك تَحِلَّة، وهي ما يوجب الحل، فدل على

(١) ١٥٢ زاد المعاد جـ٤.

ثبوت التحريم قبلها، ولأنه سبحانه قال لنبيه ﷺ ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] ولأنه تحريم لما أبيح له، فيحرم بتحريمه، كما لو حرم زوجته.

**ومنازعوه** يقولون: إنما سميت الكفارة تَحِلَّة من الحَلِّ، الذي هو ضد العقد. لا من الحِلِّ الذي هو مقابل التحريم. فهي تحل اليمين بعد عقدها، وأما قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ الله لَكَ﴾ فالمراد: تحريم الأمة أو العسل ومنع نفسه منه، وذلك يسمى تحريماً. فهو تحريم بالقول لا إثبات للتحريم شرعاً.

**وأما** قياسه على تحريم الزوجة بالظهار، أو بقوله: «أنت علي حرام» فلو صح هذا القياس لوجب تقديم التكفير على الحنث، قياساً على الظهار، إذ كان في معناه. وعندهم لا يجوز التكفير إلا بعد الحنث. فعلى قولهم: يلزم أحد أمرين ولا بد: إما أن يفعله حراماً، وقد فرض الله تحلة اليمين. فيلزم كون المحرَّم مفروضاً، أو من ضرورة المفروض. لأنه لا يصل إلى التحلة إلا بفعل المحلوف عليه، أو إنه لا سبيل له إلىٰ فعله حلالاً، لأنه لا يجوز تقديم الكفارة، فيستفيد بها الحل. وإقدامه عليه - وهو حرام - ممتنع. هذا ما قيل في المسألة من الجانبين.

**وبعدُ** فلها غور، وفيها دقة وغموض. فإن من حرم شيئاً فهو بمنزلة من حلف بالله على تركه. ومن حلف على تركه: لم يجز له هتك حرمة المحلوف به بفعله إلا بالتزام الكفارة. فإذا التزمها جاز له الإقدام على فعل المحلوف عليه ويأذن له فيه. وإنما يأذن له فيه ويبيحه إذا التزم ما فرض الله من الكفارة. فيكون إذنه له فيه، وإباحته بعد امتناعه منه بالحلف أو التحريم: رخصة من الله له، ونعمة منه عليه، بسبب التزامه لحكمه الذي فرض له من الكفارة، فإذا لم يلتزمه بقى المنع الذي عقده على نفسه إصراً عليه. فإن الله إنما رفع الآصار عمن اتقاه والتزم حكمه. وقد كانت اليمين في شرع من قبلنا يتحتم الوفاء بها، ولا يجوز الحنث، فوسع الله على هذه الأمة، وجوز لها الحنث بشرط الكفارة، فإذا لم يكفر - لا قبلُ ولا بعد - لم يوسع له في الحنث. فهذا معنى قوله: «إنه يحرم حتى يكفِّر» وليس هذا من مفردات أبي حنيفة، بل هو أحد القولين في مذهب أحمد. . . .

[1]**قال تعالىٰ**: ﴿وإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) ٧٦ التبيان.

والْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره وأعوانه ومعلمه فهو المهدي، والله هاديه وناصره.

# الباب الخامس عشر(١)

## * في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم *

**قال** الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿يآ أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وأَهْلِيكُم ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. قال علي رضي الله ـ عنه ـ: علموهم وأدبوهم. وقال الحسن: مروهم بطاعة الله، وعلموهم الخير.

**وفي** المسند وسنن أبي داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال رسول الله ﷺ: **«مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»** ففي هذا الحديث ثلاثة آداب: أمرهم بها، وضربهم عليها، والتفريق بينهم في المضاجع.

**وقد** روى الحاكم عن أبي النضر الفقيه ثنا محمد بن حمويه ثنا أبي ثنا النصر بن محمد عن الثوري عن إبراهيم بن مهاجر عن عكرمة حدثنا ابن عباس عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: **«افتحوا على صبيانكم أول كلمة [بـ] لا إلـه إلا الله، ولقنوهم عند الموت: لا إلـه إلا الله»**.

**وفي** تاريخ البخاري من رواية بشر بن يوسف عن عامر بن أبي عامر سمع أيوب بن موسىٰ القرشي عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: **«ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن»**، قال البخاري: ولم يصح سماع جده من النبي.

**وفي** معجم الطبراني من حديث سماك عن جابر بن سمرة قال، قال رسول الله ﷺ: **«لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين»**. وذكر البيهقي من حديث محمد بن الفضل بن عطية وهو ضعيف عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس قال: قالوا: يارسول الله! قد علمنا ما حق الوالد، فما حق الولد؟ قال: **«أن يحسن اسمه، ويحسن أدبه»**.

**قال** سفيان الثوري: ينبغي للرجل أن يكره ولدِه على طلب الحديث فإنه

---

(١) ١٣٣ تحفة المودود.

مسئول عنه، وقال: إن هذا الحديث عِزٌّ، من أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها. وقال عبد الله بن عمر: أدب ابنك فإنك مسئول عنه، ماذا أدبته؟ وماذا علمته؟ وهو مسئول عن برك وطواعيته لك.

**وذكر** البيهقي من حديث مسلم بن إبراهيم حدثنا شداد بن سعيد عن الحريري عن أبي سعيد وابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «**من ولد له ولد، فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فليزوجه، فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثماً، فإنما إثمه على أبيه**». وقال سعيد بن منصور حدثنا حزم قال سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله ـ تعالى ـ: ﴿**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ**﴾ [الفرقان: ٧٤] فقال يا أبا سعيد ما هذه القرة الأعين، أفي الدنيا أم في الآخرة؟ قال: لا. بل والله في الدنيا، قال وما هي؟: قال والله أن يُري اللهُ العبدَ من زوجته، من أخيه، من حميمه: طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلىٰ المرء المسلم من أن يرىٰ ولداً أو والداً أو حميماً أو أخاً مطيعاً لله عز وجل.

**وقد** روى البخاري في صحيحه من حديث نافع عن ابن عمر قال، قال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**كلكم مسئول عن رعيته؛ فالأمير راع على الناس، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده، وهو مسئول عنه ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته**».

## * فصل - ومن حقوق الأولاد العدل بينهم في العطاء والمنع *

**ففي** السنن ومسند أحمد وصحيح ابن حبان من حديث النعمان بن بشير قال، قال رسول الله ﷺ: «**اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم**». وفي صحيح مسلم أن امرأة بشير قالت: أنحل ابني غلاماً، وأشهد لي رسول الله ﷺ، فأتىٰ رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: إن ابنة فلان سألتني أن أنحل ابنها غلامي. قال: «**له إخوة؟**» قال: نعم، قال: «**كلهن أعطيت ما أعطيته؟**» قال: لا، قال: «**فليس يصلح هذا، وإني لا أشهد إلا على حق**». ورواه الإمام أحمد، وقال فيه: «**لا تشهدني على جور، إن لابنك عليك من الحق أن تعدل بينهم**».

**وفي** الصحيحين عن النعمان بن بشير أن أباه أتىٰ به النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: إني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي، فقال رسول الله ﷺ: «**أكل ولدك نحلت مثل هذا؟**» قال: لا، فقال: «**ارجعه**».

**وفي** رواية لمسلم - فقال: «**فعلت هذا بولدك كلهم؟**» قال: لا، قال: «**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**»، فرجع أبي في تلك الصدقة.

**وفي** الصحيح: «**أشهد على هذا غيري**» وهذا أمر تهديد، لا إباحة، فإن تلك العطية كانت جوراً بنص الحديث، ورسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يأذن لأحد أن يشهد على صحة الجور، ومن ذا الذي كان يشهد على تلك العطية، وقد أبىٰ رسول الله ﷺ أن يشهد عليها، وأخبر أنها لا تصلح، وأنها جور، وأنها خلاف العدل. ومن العجب أن يحمل قوله: «**اعدلوا بين أولادكم**» على غير الوجوب، وهو أمر مطلق مؤكد ثلاث مرات، وقد أخبر الآمر به أن خلافه جور، وأنه لا يصلح، وأنه ليس بحق، وما بعد الحق إلا الباطل، هذا والعدل واجب في كل حال فلو كان الأمر به مطلقاً لوجب حمله على الوجوب، فكيف وقد اقترن به عشرة أشياء تؤكد وجوبه فتأملها في ألفاظ القصة.

**وقد** ذكر البيهقي من حديث أبي أحمد بن عدي حدثنا القاسم بن مهدي حدثنا يعقوب بن كاسب حدثنا عبد الله بن معاذ عن معمر عن الزهري عن أنس: أن رجلاً كان جالساً مع النبي ﷺ فجاء بني له فقبله وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنته فأخذها فأجلسها إلىٰ جنبه، فقال ـ النبي عليه الصلاة والسلام ـ: «**فما عدلت بينهما**»، وكان السلف يستحبون أن يعدلوا بين الأولاد في الصلة.

**وقال** بعض أهل العلم: إن الله ـ سبحانه ـ يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده، فإنه كما أن للأب على ابنه حقًّا فللابن على أبيه حق، فكما قال تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً**﴾ [العنكبوت: ٨] قال تعالى: ﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦].

**قال** علي بن أبي طالب: علموهم وأدبوهم، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، وَبِذِي الْقُرْبىٰ**﴾ [النساء: ٣٦].

**وقال** النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**اعدلوا بين أولادكم**»، فوصية الله

للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم، قال الله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدىٰ، فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم صغاراً فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كباراً، كما عاتب بعضهم ولده على العقوق، فقال: يا أبت إنك عققتني صغيراً فعققتك كبيراً، وأضعتني وليداً فأضعتك شيخاً.

## فصل(١)

**ومما** يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه، فإنه ينشأ عما عوده المربى في صغره من: حرد، وغضب، ولجاج، وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش، وحدّة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته ولابد يوماً ما، ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم، وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها.

**وكذلك** يجب أن يجتنب الصبي إذا عقل: مجالس اللهو والباطل، والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر، وعز على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، يحتاج صاحبه إلىٰ استجداد طبيعة ثانية، والخروج عن حكم الطبيعة عسر جدًّا.

**وينبغي** لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره غاية التجنب، فإنه متىٰ اعتاد الأخذ صار له طبيعة، ونشأ بأن يأخذ لا بأن يعطي، ويعوده البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئاً أعطاه على يده ليذوق حلاوة الإعطاء، ويجنبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السم الناقع، فإنه متىٰ سهل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة وحرمه كل خير.

**ويجنبه** الكسل والبطالة والدعة والراحة، بل يأخذه بأضدادها ولا يريحه إلا بما يجم نفسه وبدنه للشغل، فإن الكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة، إما في الدنيا وإما في العقبىٰ وإما فيهما، فأروح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أروح الناس، فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا

(١) ١٤٢ تحفة المودود.

يوصل إليها إلا على جسر من التعب.

**قال** يحيىٰ بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة الجسم، ويعوده الانتباه آخر الليل، فإنه وقت قسم الغنائم وتفريق الجوائز، فمستقل ومستكثر ومحروم، فمتى اعتاد ذلك صغيراً سهل عليه كبيراً.

## فصل

**ويجنبه** فضول الطعام والكلام والمنام ومخالطة الأنام، فإن الخسارة في هذه الفضلات، وهي تفوت على العبد خير دنياه وآخرته، ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب، فإن تمكينه من أسبابها والفسح له فيها يفسده فساداً يعز عليه بعده صلاحه، وكم من أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه وإعانته له على شهوته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء.

## فصل

**والحذر** كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره، أو عشرة من يخشى فساده أو كلامه له أو الأخذ من يده، فإن ذلك الهلاك كله، ومتى سهل عليه ذلك فقد سهل الدياثة؛ ولا يدخل الجنة ديوث، فما أفسد الأبناء مثل تفريط الآباء وإهمالهم واستسهالهم شرر النار بين الثياب، فأكثر الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظم ما يعتمده العدو الشديد العداوة مع عدوه وهم لا يشعرون، فكم من والد حرم ولده خير الدنيا والآخرة، وعرضه لهلاك الدنيا والآخرة، وكل هذا عواقب تفريط الآباء في حقوق الله وإضاعتهم لها وإعراضهم عما أوجب الله عليهم من العلم النافع والعمل الصالح، حرمهم الانتفاع بأولادهم، وحرم الأولاد خيرهم ونفعهم لهم هو من عقوبة الآباء.

## فصل

**ويجنبه** لبس الحرير، فإنه مفسد له ومخنث لطبيعته، كما يجنبه اللواط وشرب الخمر والسرقة والكذب، وقد قال النبي ﷺ: «**يحرم الحرير والذهب على ذكور أمتي، وأحل لإناثهم**»، والصبي وإن لم يكن مكلفاً فوليه مكلف، لا يحل له تمكينه من المحرم، فإنه

يعتاده ويعسر فطامه عنه، وهذا أصح قول العلماء، واحتج من لم يره حراماً عليه بأنه غير مكلف، فلم يحرم لبسه للحرير كالدابة وهذا من أفسد القياس، فإن الصبي وإن لم يكن مكلفاً فإنه مستعد للتكليف، ولهذا لا يمكن من الصلاة بغير وضوء، ولا من الصلاة عرياناً ونجساً، ولا من شرب الخمر والقمار واللواط.

## فصل

**ومما** ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله على غيره ما كان مأذوناً فيه شرعاً، فإنه إن حمل على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه وفاته ما هو مهيأ له، فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعياً، فهذه من علامات قبوله وتهيؤه للعلم، لينقشه في لوح قلبه ما دام خالياً، فإنه يتمكن فيه، ويستقر ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية، وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم ولم يخلق له، مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك ورأى عينه مفتوحة إلىٰ صنعة من الصنائع مستعداً لها قابلاً لها وهي صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها. هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه، فإن ذلك ميسر على كل أحد لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة، والله أعلم.

## (١)فصل فإذا صار ابن عشر ازداد قوة وعقلاً

**واحتمالاً** للعبادات فيضرب على ترك الصلاة، كما أمر به النبي ـ عليه السلام ـ وهذا ضرب تأديب وتمرين، وعند بلوغ العشر يتجدد له حال أخرى يقوىٰ فيها تمييزه ومعرفته، ولذلك ذهب كثير من الفقهاء إلىٰ وجوب الإيمان عليه في هذا الحال، وأنه يعاقب على تركه، وهذا اختيار أبي الخطاب وغيره، وهو قول قوي جدًا، وإن رفع عنه قلم التكليف بالفروع، فإنه قد أعطىٰ آلة معرفة الصانع والإقرار بتوحيده وصدق رسله، وتمكن من نظر مثله واستدلاله كما هو متمكن من

(١) ١٧٩ تحفة المودود.

فهم العلوم والصنائع، ومصالح دنياه فلا عذر له في الكفر بالله ورسوله مع أن أدلة الإيمان بالله ورسوله أظهر من كل علم وصناعة يتعلمها . . . .

(١)... **وسمعت** شيخنا ـ رحمه الله ـ يقول: تنازع أبوان صبيًا عند بعض الحكام فخيره بينهما، فاختار أباه، فقالت له أمه: اسأله: لأيّ شيء يختار أباه؟ فسأله. فقال: أمي تبعثني كل يوم للكتاب، والفقيه يضربني، وأبي يتركني ألعب مع الصبيان. فقضى به للأم، وقال: أنتِ أحق به.

**قال** شيخنا: وإذا ترك أحد الأبوين تعليم الصبي وأمره الذي أوجبه الله عليه: فهو عاص، ولا ولاية له عليه. بل كل من لم يقم بالواجب في ولايته فلا ولاية له. بل إما أن يرفع يده عن الولاية، ويقام من يفعل الواجب. وإما أن يضم إليه من يقوم معه بالواجب؟ إذ المقصود طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان.

**قال** شيخنا: وليس هذا الحق من جنس الميراث الذي يحصل بالرحم والنكاح والولاء، سواء كان الوارث فاسقاً أو صالحاً، بل هذا من جنس الولاية التي لا بد فيها من القدرة على الواجب والعلم به وفعله بحسب الإمكان.

**قال:** فلو قدر أن الأب تزوج امرأة لا تراعي مصلحة ابنته ولا تقوم بها، وأمها أقوم بمصلحتها من تلك الضرة، فالحضانة هنا للأم قطعاً.

**قال:** ومما ينبغي أن يعلم: أن الشارع ليس عنه نص عام في تقديم أحد الأبوين مطلقاً، ولا تخيير الولد بين الأبوين مطلقاً. والعلماء متفقون على أنه لا يتعين أحدهما مطلقًا. بل لا يقدم ذو العدوان والتفريط على البر العادل المحسن. والله أعلم.

(٢)**قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾** [التحريم: ٦] قال ابن عباس وغيره: أدبوهم وعلموهم.

**وهذه** اللفظة مؤذنة بالاجتماع. فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة. وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

(٣)... **قوله** تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

**المراد** الأمر في الدنيا لأن الآخرة ليس فيها أمر ولا نهي على الملائكة ولا غيرهم؛

---

(١) ٢٧٠ زاد المعاد جـ٤.	(٢) ٣٧٥ مدارج جـ٢.	(٣) ١٠٥ بدائع جـ٣.

لأن التعبد زائل. وفي البخاري عن علي: اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل. قلت: هذا وهم منه - رحمه الله تعالىٰ - فإن الله - تعالىٰ - يأمر الملائكة يوم القيامة بأخذ الكفار والمجرمين إلىٰ النار، وسوقهم إليها، وتعذيبهم فيها، ويأمر عباده بالسجود له فيخرون سجداً إلا من منعه الله من السجود، ويأمر المؤمنين فيعبرون الصراط، ويأمر خزنة الجنة بفتحها لهم، ويأمر خزنة النار بفتحها لأهلها، ويأمر ملائكة السموات بالنزول إلىٰ الأرض، ويأمر بشأن البعث كله وما بعده، فالأمر يومئذ لله، ولا يعصى الله في ذلك اليوم طرفة عين، وأوامره ذلك اليوم: للثواب والعقاب والشفاعة وغيرهم تضبطها قدرة الخالق، فكيف يقال: ليس في الآخرة أمر ولا نهي، حتى يقال: لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون في الدنيا. أفترى الله - عز وجل - لا يأمرهم يوم القيامة في أمر النار بشيء فلا يعصونه فيه.

**نعم** ليست الآخرة دار حرث، وإنما هي دار حصاد، وأوامر الرب ونواهيه ثابتة في الدارين، وكذلك أوامر التكليف ثابتة في البرزخ ويوم القيامة، وحكاه الأشعري في مقالاته عن أهل السنة في تكاليف من لم تبلغه الدعوة في الدنيا: أن يكلفوا يوم القيامة، فقول القائل: الآخرة ليست دار تكليف ولا أمر ولا نهي: قول باطل، ودعوىٰ فاسدة. والله الموفق.

(١)**قال** الله - تعالىٰ -: **﴿ياأيُّها الَّذينَ آمَنُوا تُوبُوا إلىٰ الله تَوبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ويُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ﴾** [التحريم:٨] فجعل وقاية شر السيئات - وهو تكفيرها - بزوال ما يكره العبد. ودخول الجنات - وهو حصول ما يحب العبد - منوطاً بحصول التوبة النصوح. و«النصوح» على وزن فعول، المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة. كالشَّكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة. وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنَصَح إذا خلص. فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح ضد الغش.

**وقد** اختلفت عبارات السلف عنها. ومرجعها إلىٰ شيء واحد. فقال عمر بن

(١) ٣٠٩ مدارج جـ١.

الخطاب، وأبي بن كعب ـ رضي الله عنهما ـ: «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلىٰ الضَّرْع» وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبد نادماً على ما مضىٰ، مجمعاً على أن لا يعود فيه» وقال الكلبي: «أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن» وقال سعيد بن المسيب: «توبة نصوحاً، تنصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنىٰ ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب. وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنىٰ المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يَشُبْها بغش. فهي إما بمعنىٰ منصوح فيها، كركوبة وحَلوبة، بمعنىٰ مركوبة ومحلوبة، أو بمعنىٰ الفاعل. أي ناصحة كخالصة وصادقة.

**وقال** محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان.

**قلت:** النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

**الأول:** تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

**والثاني:** إجماع العزم والصدق بكليته عليها. بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

**الثالث:** تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل. فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها. ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب. وهي أكمل ما يكون من التوبة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١)...**وذكر** ابن أبي داود في تفسيره عن وهب بن منبه قال: إن الملائكة حين

---

(١) ٣٩٥ روضة المحبين.

دخلوا على لوط ظن أنهم أضياف ضافوه فاحتفل لهم، وحرص على كرامتهم. وخالفته امرأته إلى فساق قومه، فأخبرتهم أنه ضاف لوطاً أحسن الناس وجهاً وانضرهم جمالاً وأطيبهم ريحاً. فكانت هذه خيانتَها التي ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه. [وفيه] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[التحريم: ١٠] قال: والله ما زَنتا ولا بغت امرأة نبيّ قطّ. فقيل له: فما كانت خيانة امرأة نوح وامرأة لوطٍ؟ فقال: أما امرأة نوحٍ فكانت تخبر أنه مجنون، وأما امرأة لوطٍ فإنها كانت تَدُلّ عَلَى الضيف.

**وقال** أبو مسلم الليثي في مسنده: حدَّثنا سليمان بن داود، حدّثنا عبد الوارث، حدّثنا القاسم بن عبد الرحمن، حدّثنا عبد الله بن محمد بن عقيل قال: سمعت جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أخْوَفَ مَا أخَافُ عَلَى أمَّتِي مِنْ بَعْدِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ**»[١].

**وقال** هشام بن عمّار: حدثنا عبد العزيز الدَّراوَرْدِي عن عمرو بن أبي عمرو، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**لعن الله من وقع على بهيمة، ولعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط**» رواه الإمام أحمد.

**وقال** القعنبي: حدَّثنا عبد العزيز هو الدَّرَاوَرْدي، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لعن الله من تولى غير مواليه، ولعن الله من غير تخوم الأرض، ولعن الله من كمه أعمىٰ عن السبيل، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط: ثلاثاً، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من وقع على بهيمة**»[٢]. هذا الإسناد على شرط البخاري.

**وقال** أبو داود الطيالسي حدثنا بشر بن المفضَّل، عن خالد الحَذّاء، عن محمد بن سيرين، عن أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله

(١) قال السيوطي: رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

(٢) قال ابن حجر الهيثمي في الزواجر: رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي.

ﷺ: «**إذا باشر الرجلُ الرجلَ فهما زانيان**» وفي لفظٍ: «**إذا أتى الرجلُ الرجلَ**»[١].

**وفي** المسند والسنن من حديث عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتلوا الفاعل والمفعول به**». وفي لفظ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[٢]. وإسناده على شرط البخاري.

**وروى** سهيل بن أبي صالح [عن أبيه]، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فارجموه**» أو قال: «**فاقتلوا الفاعل والمفعول به**».

**وحرق** اللوطية بالنار أربعة من الخلفاء: أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك[٣]. . . .

[٤] **قوله** تعالىٰ: ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِيْنَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ كانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِن عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِين * وضَرَبَ اللهُ مَثَلا لِلَّذِيْنَ آمَنُوا امْرأَةَ فِرْعَوْنَ إذ قَالَتْ ربِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً في الجَنَّةِ ونَجِّنِي من فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ ونَجِّني من القَوْمِ الظَّالِمِين * وَمَرْيَمَ ابنةَ عِمْرَانَ الَّتي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ**﴾ [التحريم: ١٠-١٢] فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكفار، ومثلين للمؤمنين، فتضمن مثلُ الكفار أن الكافر يُعَاقَبُ على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لُحْمَةِ نسب أو وُصْلَة صهر أو سبب من أسباب الاتصال؛ فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وُصْلَةُ القرابة والمصَاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوُصْلَةُ التي كانت بين لوط ونوح وامرأتيهما، فلما لم يُغْنِيا عنهما من الله شيئاً ﴿**وقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾ [التحريم: ١٠] قطعت الآيةُ حينئذٍ طمعَ من ركب معصية الله وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاحُ غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد

(١) قال السيوطي: رواه البيهقي في السنن.
(٢) قال ابن حجر في الزواجر: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي.
(٣) ذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب وغيرهُ.
(٤) ١٨٨ أعلام جـ١.

الاتصال، فلا اتصال فَوْقَ اتصال البُنُوة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبـراهيمُ عن أبيه، ولا نوح ولا لوط عن امـرأتيهـما من الله شيئاً، قال الله ـ تعـالى ـ: ﴿لن تَنْفَعَكُمْ أَرْحَـامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم يَوْمَ القِيَـامَـةِ يَفْصِـلُ بَيْنَكُم﴾ [الممتحنة: ٣]. وقـال ـ تعـالى ـ: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً﴾ [الانفطار: ١٩] وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ [البقرة: ٤٨] وقال: ﴿واخْشَـوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِه وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَن وَالِدِه شيئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣] وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة أن مَنْ تعلقوا به من دون الله من قَرَابة أو صهر أو نكاح أو صُحْبة ينفعهم يوم القيامة، أو يُجيرُهم من عذاب الله، أو هو يشفع لهم عند الله، وهذا أصل ضلالِ بني آدم وشِرْكِهم، وهو الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الذي بعث الله جميعَ رسله، وأنزل جميعَ كتبه بإبطاله، ومُحَاربة أهله ومُعَاداتهم.

## فصــل

**وأما** المثلان اللذان للمؤمنين، فأحدهما امرأةُ فرعونَ، ووَجْهُ المثلِ أن اتصال المؤمن بالكافر لا يَضُرُّه شيئاً إذا فارقه في كفره وعمِله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المـطيع شيئاً في الآخرة، وإن تَضَرَّرَ بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمرَ الله فتأتي عامةً؛ فلم يَضُرَّ امرأةَ فرعونَ اتصالُها به وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأةَ نوحٍ ولوطٍ اتصالُهما بهما وهما رسولا رب العالمين.

**المثل** الثاني للمؤمنين مريمُ التي لا زَوْجَ لها، لا مؤمن ولا كافر، فذكر ثلاثة أصناف من النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها وُصْلَة بالرجل الكافر، والمرأة العَزَبُ التي لا وُصْلَة بينها وبين أحد: فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً.

**ثم** في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة؛ فإنها سِيقَتْ في ذكر أزواج النبي ﷺ، والتحذير من تظاهرهن عليه، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويُرِدْنَ الدارَ الآخرةَ لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة.

**قال** يحيىٰ بن سلام: ضرب الله المثلَ يحذر عائشة وحَفْصَة، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة.

**وفي** ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً اعتبارٌ آخَرُ، وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً قَذْفُ أعداء الله: اليهود لها، ونسبتُهم إياها وابنها إلىٰ ما بَرَّأهما الله عنه، مع كونها الصديقَةَ الكبرىٰ المصطفاة على نساء العالمين؛ فلا يضر الرجل الصالح قَدْحُ الفجار والفساق فيه، وفي هذا تَسْلِية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإِفْكِ، وتَوْطِين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها، كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذيرٌ لها ولحفصة مما اعتمدَتَاه في حق النبي ﷺ؛ فتضمنت هذه الأمثال التحذيرَ لهن والتخويف، والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد، والتسليةَ وتوطينَ النفس لمن أوذِيَ منهن وكذب عليه! وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التحريم

والحمد لله رب العالمين




## بسم الله الرحمن الرحيم

[1](**وأما** البركة) فكذلك نوعان أيضاً. أحدهما بركة هي فعله - تبارك وتعالىٰ - والفعل منها بارك، ويتعدىٰ بنفسه تارة وبأداة [على] تارة وبأداة [في] تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركاً بجعله تعالىٰ. والنوع الثاني بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة. والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له - عز وجل - فهو- سبحانه - المبارك وعبده ورسوله المبارَك كما قال المسيح: ﴿**وَجَعَلَنِيْ مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ**﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارَك. وأما صفته تبارك فمختصة به - تعالىٰ - كما أطلقها على نفسه بقوله ﴿**تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿**تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾ [الملك: ١] ﴿**فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون: ١٤] ﴿**وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وعِنْدَه عِلْمُ السَّاعَةِ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٥] ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ**﴾ [الفرقان: ١] ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَآءَ جَعَلَ لَكَ خيراً مِن ذٰلِكَ**﴾[الفرقان: ١٠] ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً**﴾ [الفرقان: ٦١] **أفلا** تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها. وهذا معنىٰ قول من قال من السلف تبارك: تعاظم. وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه. وقال غيره: كثرّ خيره وإحسانه إلىٰ خلقه. وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء، وتعالىٰ عنه في صفاته وأفعاله.

---

**(١) ١٨٥ بدائع جـ٣.**

**ومن** هنا قيل معناه: تعالىٰ وتعاظم. وقيل تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة. وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء. وقيل: تبارك ارتفع، والمبارك المرتفع، ذكره البغوي. وقيل: تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره. وقال ابن عباس: بكل بركة. وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضاً.

**وحقيقة** اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلاً منه تبارك وتعالىٰ.

**وتفسير** السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنىٰ الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل: تعالىٰ وتقدس وتعاظم. ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالى المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنىٰ؟ هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنىٰ ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركاً، فتبارك من باب مجد والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطىٰ وأنعم.

**ولما** كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فَسَّرَ من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين فقال مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه. وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب الفتح المكي وبينا هناك أن البركة كلها له تعالىٰ ومنه، فهو المبارك ومن ألقى عليه بركته فهو المبارَك، ولهذا كان كتابه مباركاً ورسوله وبيته مباركاً والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة: فليلة القدر مباركة وما حول المسجد الأقصىٰ مبارك وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة.

**وتدبر** قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: **«اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام»**.

**فتأمل** هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعنى: ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنىٰ، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفاً وملكاً.

**وقد** تقدم بيان هذا في وصفه ـ تعالىٰ ـ بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفاً وملكاً فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محموداً فيهبه حمداً من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفاً وملكاً، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عزّ من عباده فبإعزازه له. وكذلك الرحمة كلها له وصفاً وملكاً. وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته، الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركاً ﴿**فَتَبَارَكَ الله رَبُّ العَالَمِينَ**﴾ [غافر: ٦٤] ﴿**وتَبَارَكَ الَّذِي له مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ وما بَيْنَهُما وعِنْدَه عِلْمُ السَّاعةِ وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه. وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلىٰ الله وأعظمهم عنده جاهاً: «**لا أحصي ثناءاً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» وقال في حديث الشفاعة الطويل: «**فأخرّ ساجداً لربي فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن**» وفي دعاء الهم والغم: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» فدل على أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ له أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه، لا يعلمها ملك مقرّب ولا نبي مرسل. وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلوا فيه ولا نجفوا عنه، وبالله التوفيق.

(١)**الوجه** الثالث والسبعون: إن العلم إمام العمل وقائد له والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه.

**كما** قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح. والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود، فالعلم هو الميزان وهو المحك.

---

(١) ٨٢ مفتاح جـ١.

**قال** تعالىٰ: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ والحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ**﴾ [الملك: ٢].

**قال** الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه. قالوا: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتىٰ يكون خالصاً صواباً. فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. وقد قال تعالىٰ: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَداً**﴾ [الكهف: ١١٠]. فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه، وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ مراداً به وجه الله.

**ولا يتمكن** العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً، فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧].

**وأحسن** ما قيل في تفسير الآية: إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله والله أعلم.

(١)**الوجه** الأربعون أن الله ـ تعالىٰ ـ وصف أهل النار بالجهل وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم، فقال ـ تعالى ـ حكاية عنهم: ﴿**وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ مَا كُنَّا في أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١٠] فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون، والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال.

**وقال** تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ**

(١) ٥٩ مفتاح جـ١.

**بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾** [الأعراف: ١٧٩] فأخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث وهي: العقل والسمع والبصر. كما قال في موضع آخر ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٧١].

**وقال** تعالىٰ: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾

**وقال** تعالىٰ: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ [الأحقاف: ٢٦] فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالأنعام تارة، وتارة بالحمار الذي يحمل الأسفار، وتارة جعلهم أضل من الأنعام وتارة جعلهم شر الدواب عنده، وتارة جعلهم أمواتاً غير أحياء، وتارة أخبر أنهم في ظلمات الجهل والضلال، وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقراً وعلى أبصارهم غشاوة، وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله وبغضه لهم، كما أنه يحب أهل العلم ويمدحهم ويثني عليهم كما تقدم، والله المستعان.

(١)**واعلم** أنه إن لم يكن حسن التوحيد وقبح الشرك معلوماً بالعقل، مستقراً في الفطر، فلا وثوق بشيء من قضايا العقل. فإن هذه القضية من أجل القضايا البديهيات، وأوضح ما ركب الله في العقول والفطر. ولهذا يقول ـ سبحانه ـ عقيب تقرير ذلك: ﴿**أفلا تعقلون**﴾ ﴿**أفلا تذكرون**﴾.

**وينفي** العقل عن أهل الشرك، ويخبر عنهم بأنهم يعترفون في النار: أنهم لم يكونوا يسمعون ولا يعقلون. وأنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل.

**وأخبر** عنهم أنهم ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٧١].

**وأخبر** عنهم أن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغن عنهم شيئاً. وهذا **إنما** يكون في حق من خرج عن موجب العقل الصريح والفطرة الصحيحة.

**ولو** لم يكن في صريح العقل ما يدل على ذلك لم يكن في قوله تعالىٰ: ﴿**انظروا**﴾ و﴿**فاعتبروا**﴾ و﴿**سيروا في الأرض فانظروا**﴾ فائدة. فإنهم يقولون: **عقولنا**

---

(١) ٤٩١ مدارج جـ٣.

لا تدل على ذلك. وإنما هو مجرد إخبارك. فما هذا النظر والتفكر والاعتبار والسير في الأرض؟ وما هذه الأمثال المضروبة، والأقيسة العقلية والشواهد العيانية؟ أفليس في ذلك أظهر دليل على حسن التوحيد والشكر؟

**وقبح** الشرك والكفر مستقر في العقول والفطر. معلوم لمن كان له قلب حي، وعقل سليم، وفطرة صحيحة؟ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]. وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

**ومن** بعض الأدلة العقلية: ما أبقاه الله ـ تعالىٰ ـ من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم، وما حل بهم، وما أبقاه من نصر أهل التوحيد وإعزازهم. وجعل العاقبة لهم. قال تعالىٰ: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وقال في ثمود: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٢، ٥٣]. وقال في قوم لوط: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٥، ٧٩]. وقال تعالىٰ في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

[(1)]**اعتراف** العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان. أطاع أم عصىٰ. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذٰلك إليه، وتمكنه من العلم به. سواء علم أو جهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهىٰ عنه. فقصر عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه. فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه. قال الله تعالىٰ: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال ﴿**كُلَّمَا أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَم يَأْتِكُمْ نَذير * قالوا بَلىٰ قَدْ جاءَنَا نَذيرٌ فَكَذَّبنَا وقلنا ما نَزَّلَ الله من شيءٍ**﴾ [الملك: ٨، ٩].

[(2)]**ومن** ذٰلك احتجاجه ـ سبحانه ـ على إثبات علمه بالجهات كلها بأحسن دليل وأوضحه وأصحه، حيث يقول: ﴿**وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ ثم قرر علمه بذلك بقوله: ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤] وهذا من أبلغ التقرير. فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه، وإذا كنتم مقرين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه؟ وهذا التقرير مما يصعب على القدرية فهمه، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور. فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها. ولهذا طرد غلاة القوم ذٰلك ونفوا علمه، فكفَّرهم السلف قاطبة. وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين، أعني تقدير أن يكون [من] في محل رفع على الفاعلية أو في محل نصب على المفعولية. فعلىٰ التقدير الأول ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه؟ ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتىٰ عجزت عنه الأفهام. والخبير الذي انتهىٰ علمه إلىٰ الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها، فكيف يخفى علىٰ اللطيف الخبير ما تخفيه الضمائر وتجنه الصدور.

[(3)]**قوله** تعالىٰ: ﴿**وأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أو اجْهَرُوا به إنهَ عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدُورِ ألا**

---

(١) ٢١٠ مدارج جـ١.  (٢) ٥٥ شفاء.  (٣) ١٠٩ مختصر الصواعق جـ١.

**يَعْلَمُ من خَلَقَ وهو اللطيفُ الخبيرُ﴾** [الملك: ١٣-١٤] وذات الصدور كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض أي صاحبة الصدور فإنها لما كانت فيها قائمة بها نسبت إليها نسبة الصحبة والملازمة.

**وقد** اختلف في إعراب (من خلق) هو النصب أو الرفع.

**فإن** كان مرفوعاً فهو استدلال على علمه بذلك لخلقه له، والتقدير أنه يعلم ما تضمنته الصدور، كيف لا يعلم الخالق ما خلقه، وهذا الاستدلال في غاية الظهور والصحة، فإن الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته.

**وإن** كان منصوباً فالمعنىٰ ألا يعلم مخلوقه وذكر لفظة (من) تغليباً ليتناول العلم العاقل وصفاته على التقديرين، فالآية دالة على خلق ما في الصدور كما هي دالة على علمه سبحانه به.

**وأيضاً** فإنه ـ سبحانه ـ خلقه لما في الصدور دليلاً على علمه بها، فقال: **﴿ألَا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ﴾** [الملك: ١٣] أي كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه، فلو كان ذلك غير مخلوق له لبطل الاستدلال به على العلم، فخلقه ـ سبحانه ـ للشيء من أعظم الأدلة على علمه به، فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم، فلم يبق ما يدل على علمه بما ينطوي عليه الصدر إذا كان غير خالق لذلك، وهذا من أعظم الكفر برب العالمين وجحد لما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم، وعلم بالضرورة إنهم ألقوه إلىٰ الأمم كما ألقوا إليهم أنه إلـه واحد لا شريك له.

(١)**نبه** سبحانه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول. فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية، واستمرت على رقادها العقول الميتة، فقال في صفة العلم **﴿ألَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** [الملك: ١٤] فتأمل صحة هذا الدليل مع غاية إيجاز لفظه واختصاره. وقال: **﴿أفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أفَلا تَذَكَّرُونَ﴾** [النحل: ١٧] فما أصح هذا الدليل وما أوجزه. وقال ـ تعالىٰ ـ في صفة الكلام: **﴿واتَّخَذ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا**

---

(١) ١٥٩ مختصر الصواعق جـ١.

يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٨] نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي لا يصلح أن يكون إلهاً. وكذلك قوله في الآية الأخرىٰ عن العجل ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ لاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩] فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع دليلاً على عدم الإلهية. وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم ويملك لعباده الضر والنفع وإلا لم يكن إلهاً، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠] نبه بهذا الدليل العقلي القاطع أن الذي جعلك تتصرف وتتكلم وتعلم أولىٰ أن يكون بصيراً متكلماً عالماً، وأي دليل عقلي قطعي أقوىٰ من هذا وأبين وأقرب إلىٰ العقول؟ وقال تعالىٰ: في آلهة المشركين المعطلين ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أم لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بها﴾ [الأعراف: ١٩٥] فجعل ـ سبحانه ـ عدم البطش والسمع والمشي والبصر لهم دليلاً على عدم إلهية من عدمت منه هذه الصفات، وقد وصف الله ـ سبحانه ـ نفسه بضد صفة أوثانهم وبضد ما وصفه به المعطلة والجهمية، فوصف نفسه بالسمع والبصر والفعل باليدين والمجيء والإتيان. وذكر ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات فيها دليلاً على عدم إلهيتها. فتأمل آيات التوحيد والصفات في القرآن على كثرتها وتفننها واتساعها وتنوعها تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شبيه ولا مثيل. وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره وملك السموات والأرض وقيومهما؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع الكمال له فأي قضية تصح في العقل بعد هذا؟ ومن شك في أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضىٰ والفرح والرحمة كمال فهو ممن سلب خاصة الإنسانية وانسلخ من العقل، بل من شك أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمال فهو مصاب في عقله. ومن شك أن كونه يفعلَ باختياره ما شاء ويتكلم إذا شاء، وينزل إلىٰ حيث يشاء، ويجيء إلىٰ حيث شاء غير كمال فهو جاهل بالكمال. والجماد عنده أكمل من الحي الذي تقوم به الأفعال الاختيارية.

(١) **قوله تعالى** : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وكُلُوا من رِّزْقِـهِ وإِلَيْه النُّشُورُ**﴾ [الملك: ١٥] أخبر - سبحانه - أنه جعل الأرض ذلولاً منقادة للوطء عليها، وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها. وأخبر - سبحانه - أنه جعلها مهاداً وفراشاً، وبساطاً وقراراً وكفاتاً. وأخبر أنه دحاها وطحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق، وأجرى فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها. ومن بركتها أن الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها.

**ومن** بركتها أنك تودع فيها الحب، فتخرجه لك أضعافَ أضعاف ما كان.

**ومن** بركتها أنها تحمل الأذىٰ على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مليح.

**ومن** بركتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها وتضمه وتؤويه، وتخرج له طعامه وشرابه؛ فهي أحمل شيء للأذىٰ وأعوده بالنفع، فلا كان من التراب خير منه وأبعد من الأذىٰ وأقرب إلىٰ الخير.

**والمقصود** أنه - سبحانه - جعل لنا الأرض كالجمل الذلول، الذي كيفما يُقاد يَنقـاد، وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولاً؛ فالماشي عليها يطأ على مناكبها، وهو أعلى شيء فيها، ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان، وهي أعاليه. قالوا وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر. وقالت طائفة، بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه.

**والذي** يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي. وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له، فإن سطح الكرة أعلاها، والمشي إنما يقع في سطحها. وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول. ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها، فذللها لهم ووطأها وفتق فيها السبل والطرق التي يمشون فيها وأودعها رزقهم، فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن.

(١) ١٧ فوائد.

**ثم** نبه بقوله: ﴿وإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] على أنّا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل. فلا يحسن أن نتخذه وطناً ومستقراً، وإنما دخلناه لنتزود منه إلىٰ دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر.

**فتضمنت** الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته، وقدرته وحكمته ولطفه، والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلىٰ الدنيا واتخاذها وطناً ومستقراً، بل نسرع فيها السير إلىٰ داره وجنته. فلله ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه، والحث على السير إليه والاستعداد للقائه والقدوم عليه، والإعلام بأنه ـ سبحانه ـ يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعد ما أماتهم، وإليه النشور.

(١)**قال** الله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠-٢١] فجمع ـ سبحانه ـ بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلىٰ من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برِزْقه، فلا بد له من ناصر ورازق. والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين. ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره. وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

**ويذكر** أن الله ـ تعالىٰ ـ أوحى إلىٰ بعض أنبيائه «**أدرك لي لطيف الفطنة، وخفيَّ اللطف، فإني أحب ذلك. قال: يا رب وما لطيف الفطنة؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أنا أوقعتها فاسألني أرفعها. قال: وما خفي اللطف؟ قال: إذا أتتك حَبَّة فاعلم أني أنا ذكرتك بها**» وقد قال تعالىٰ عن السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهو ـ سبحانه ـ وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويَكْلَؤُه.

---

(١) ٣٣ إغاثة جـ١.

(١)**كتاب** لوجع الضرس: يكتب على الخد الذي يلي الوجع: بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿**قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُم وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأفئِدَةَ قليلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ [الملك: ٢٣] وإن شاء كتب ﴿**وَلَهَ مَا سَكَنَ في الليل والَّنهار وهو السميعُ العليمُ**﴾ [الأنعام: ١٣].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الملك
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٣٨٣ زاد المعاد جـ٣.




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالىٰ: ﴿**نٓ والقَلَمِ وما يَسْطُرُون * ما أنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّك بِمَجْنُونٍ**﴾ [القلم: ١-٢] الصحيح أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب ـ سبحانه ـ بعض السور، وهي أحادية، وثنائية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسماً به، وإما مخبراً عنه، ما خلا سورتين سورة «كهيعص» و«ن» كقوله: ﴿**آلم ذٰلك الكتاب**﴾ [البقرة: ١] ﴿**آلم الله لا إله إلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّوم نَزَّلَ عليك الكتابَ**﴾ [آل عمران: ١] ﴿**آلمص كِتَابٌ أُنزِل إليك**﴾ [الأعراف: ١] ﴿**آلمر تلك آياتُ الكتاب**﴾ [الرعد: ١] وهكذا إلىٰ آخره.

**ففي** هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها. إذ هي مباني كلامه وكتبه، التي تكلم - سبحانه ـ بها، وأنزلها على رسله، وهدىٰ بها عباده، وعرفهم بواسطتها نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووعيده، ووعده، وعرفهم بها الخير والشرّ، والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصىٰ ما في أنفسهم. بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة، وأوصله إلىٰ المقصود، وأدلّه عليه.

**وهذا** من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته. ولهذا عاب ـ سبحانه ـ على من عبد إلـٰهاً لا يتكلم، وامتن على عباده بأن أقدرهم علىٰ البيان بها بالتكلم. **فكان** في ذكر هذه الحروف التنبيه علىٰ كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه، فهي أولىٰ أن يقسم بها من الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والنجوم، وغيرها

---

(١) ١٢٦ التبيان.

من المخلوقات. فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته، وحكمته وكماله وكلامه، وصدق رسله.

**وقد** جمع سبحانه بين الأمرين - أعني القرآن ونطق اللسان - وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿**الرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَه الْبَيَانَ**﴾ [الرحمن: ١-٤].

**فبهذه** الحروف علّم القرآن، وبها علّم البيان. وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان. وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت. وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل. والصحيح من الفاسد، وبها جمع أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان؛ وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة؟ وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدىٰ بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل؟ فآياته ـ سبحانه ـ في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان.

**ولولا** عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب.

**فسبحان** من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصىٰ الحلق، ووسطه. وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا، وفي الشفتين، والخيشوم. فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له. فإذا هو حرف.

**فألهم** ـ سبحانه ـ الإنسان بضم بعضها إلىٰ بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها. ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلىٰ بعض وإذا هي كلام دال علىٰ أنواع المعاني، أمراً ونهياً، وخبراً، واستخباراً ونفياً، وإثباتاً. وإقراراً، وإنكاراً وتصديقاً، وتكذيباً، وإيجاباً واستحباباً. وسؤالاً، وجواباً. إلىٰ غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه ونثره، ووجيزه، ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق، كل ذلك صنعته ـ تبارك وتعالىٰ ـ في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلىٰ ظاهره، في مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين. فهذا شأن الحرف المخلوق.

**وأما** الحرف الذي به تكون المخلوقات فشأنه أعلىٰ وأجل.

**وإذا** كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور. كما افتتحت بالإقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية. فهي دالة علىٰ كمال قدرته سبحانه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال رحمته، وعنايته بخلقه، ولطفه وإحسانه.

**وإذا** أعطيت الاستدلال بها حقه استدللت بها على المبدأ والمعاد، والخلق والأمر، والتوحيد والرسالة. فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. وأن القرآن كلام الله. تكلم به حقًّا، وأنزله على رسوله وحياً. وبلغه كما أوحى إليه صدقاً، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف. واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها. وبالله التوفيق.

**ثم** أقسم سبحانه بـ ﴿**الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ [القلم: ١]. فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدىٰ آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي. وقيد به الدين. وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم. وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد فوطدت به الممالك. وأمنت به السبل والمسالك. وأقام في الناس أبلغ خطيب وأنصحه. وأنفعه لهم وأنصحه. وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم. وطبيباً يبريء بإذنه من أنواع الألم: يكسر العساكر العظيمة علىٰ أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك. والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشي المرقوم. ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم، والأقلام نظام للأفهام. وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت.

**والأقلام** متفاوتة في الرتب. فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق.

**كما** في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما اكتب؟**

**قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة».**

**واختلف** العلماء. هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟ على قولين. ذكرهما الحافظ أبو يعلىٰ الهمداني. أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر. قال: قال رسول الله ﷺ «**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام، وعرشه على الماء**» فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش. والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا.

**ولا يخلو** قوله: «**إن أول ما خلق الله القلم**» إلىٰ آخره. إما أن يكون جملة أو جملتين. فإن كان جملة - وهو الصحيح - كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: اكتب. كما في لفظ «**أول ما خلق الله القلم قال له اكتب**» بنصب أول، والقلم فإن كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، ليتفق الحديثان. إذ حديث عبد الله بن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم وفي اللفظ الآخر «**لما خلق الله القلم قال له اكتب**».

**فهذا** القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها. وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به.

**القلم** الثاني قلم الوحي، وهو الذي يكتب به وحي الله إلىٰ أنبيائه ورسله. وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم. والعالم خدم لهم. وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدم لأقلامهم.

**وقد** رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء إلىٰ مستوىٰ يسمع فيه صريف الأقلام: فهذه **الأقلام** هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالىٰ من الأمور التي يدبر بها أمر العالم **العلوي** والسفلي.

**والقلم** الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله. وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه. فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق. وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده وأصحابه

حكام وملوك على أرباب الأقلام. وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

**القلم** الرابع قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان. وحاجة الناس إلىٰ أهله تلتحق بالضرورة.

**القلم** الخامس التوقيع عن الملوك ونوابهم، وسياس الملك، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، والمشاركون للملوك في تدبير الدول. فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

**القلم** السادس قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل. الذي تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب. ومبناه على الصدق والعدل فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة.

**القلم** السابع قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلىٰ اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم و خصوص، فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

**القلم** الثامن قلم الشهادة، وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويشهد للمحق بحقه، وعلى المبطل بباطله. وهو الأمين على الدماء، والفروج، والأموال، والأنساب، والحقوق، ومتىٰ خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد، وباستقامته يستقيم أمر العالم. ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

**القلم** التاسع قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام، وتفسيره، وتعبيره، وما أريد منه. وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي، كاشف له، وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته، وأمانته، وتحريه

للصدق، والطرائق الحميدة، والمناهج السديدة، مع علم راسخ، وصفاء باطن، وحس مؤيد بالنور الإلـٰهي، ومعرفة بأحوال الخلق وهيآتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام، وأعمها جولاناً، وأوسعها تصرفاً، وأشدها تشبثاً بسائر الموجودات: علويها وسفليها، وبالماضي والحال والمستقبل، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه.

**القلم** العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه. وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلىٰ أمة، ومن قرن إلىٰ قرن فيحصر ما مضىٰ من العالم وحوادثه في الخيال، وينقشه في النفس، حتىٰ كأن السامع يرىٰ ذٰلك ويشهده. فهو قلم المعاد الروحاني، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فترّاه بقلبك، وتشاهده ببصيرتك.

**القلم** الحادي عشر قلم اللغة، وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها، وما يتبع ذٰلك من أحوالها ووجوهها، وأنواع دلالتها علىٰ المعاني، وكيفية الدلالة وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها. وهذا القلم واسع التصرف جدًّا بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

**القلم** الثاني عشر القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ورفع سنة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم، وتهافتهم، وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم. وهم الداعون إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال. وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل، وعدو لكل مخالف للرسل. فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن.

**فهذه** الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله ـ سبحانه ـ أقسم به في كتابه، وتعرف إلىٰ غيره

بأن علّم بالقلم، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم. ولقد أبدع أبو تمام، إذ يقول في وصفه:

لك القلم الأعلىٰ الذي بشباته		يصاب من الأمر الكلي والمفاصل
له ريقة طل، ولكن وقعها		بآثاره في الغرب والشرق وابل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه		وأرىٰ الجنا اشتارته أيد عواسل
له الخلوات اللاء لولا نجيها		لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنقطته وهو راكب		وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطىٰ الخمس اللطاف وأفرغت		عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا، وتقوضت		لنجواه - تقويض الخيام - الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت		أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران وسددت		ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف		ضنا وسمينا خطبه وهو ناحل

**والمقسم** عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: ﴿**مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾ [القلم: ٢].

**وأنت** إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالًّا عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر المكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلىٰ درجات العلوم؟ بل العلوم التي تضمنها ليس في قوىٰ البشر الإتيان بها، ولا سيما من أمي لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلىٰ أنواع الفصاحة، سليماً من الاختلاف، بريًّا من التناقض، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتىٰ ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثيراً من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك.

**فتأمل** شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة.

**ولو** أن رجلاً أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر متساوية الأجزاء

يصدق بعضها بعضاً، أو قال قصيدة كذلك. أو صنف كتاباً كذلك، لشهد له العقلاء بالعقل. ولما استجاز أحد رميه بالجنون مع إمكان - بل وقوع - معارضتها ومشاكلتها والاتيان بمثلها أو أحسن منها، فكيف يرمىٰ بالجنون من أتىٰ بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته، وعرفهم من الحق ما لا تهتدى عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الأولياء، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسمعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان، طائعة مختارة وهي ترىٰ عقولها أشد فقراً وحاجة إلىٰ ما جاء به، ولا كمال لها إلا بما جاء به؟. فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي. ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق. وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها. ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوب بالإيمان والتقوىٰ. فكيف يكون متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه وهديه، وسيرته، وحال أتباعه؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم. فنفىٰ عنه الجنون بنعمته عليه.

**وقد** اختلف في تقدير الآية، فقالت فرقة: الباء في ﴿**بِنِعْمَةِ رَبِّكَ**﴾ باء القسم، فهو قسم آخر اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه، كما يقول. ما أنت بالله بكاذب. وهذا التقدير ضعيف جدًّا؛ لأنه قد تقدم القسم الأول، فكيف يقع القسم الثاني في جوابه؟ ولا يحسن أن تقول: والله ما أنت بالله بقائم، وليس هذا من فصيح الكلام ولا عهد في كلامهم. وقالت فرقة: العامل في (بنعمة ربك) أداة معنىٰ النفي، أو معنىٰ أنفي عنك الجنون بنعمة ربك.

**ورد** أبو عمر بن الحاجب، وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها، وإنما تعمل ألفاظها.

**وقال** الزمخشري يتعلق ﴿**بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾ منفيًّا كما يتعلق بعاقل مثبتاً، في قولك: أنت بنعمة الله عاقل، يستويان في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمراً، وما ضرب زيد عمراً، يعمل الفعل مثبتاً ومنفيًّا إعمالاً واحداً، ومحله النصب على الحال، أي ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك. ولم

تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي. واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط على محكوم به وله معمول فإنه يجوز فيه وجهان:

**أحدهما** نفي ذٰلك المعمول فقط، نحو قولك: ما زيد بذاهب مسرعاً، فإنه ينتفي الإسراع دون القيام، ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب في غير إسراع. والثاني ينفي المحكوم به، فينتفي معموله بإنتفائه، فينتفي الذهاب في هذه الحال، فينتفي الإسراع بإنتفائه. فإذا جعل ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ معمولاً لمجنون لزم أحد الأمرين. وكلاهما منتف جزماً.

**وهذا** الاعتراض هنا فاسد؛ لأن المعنىٰ إذا حصل ما أنت بمجنون منعماً عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعاً، ولا يصح نفي المعمول وثبوت العامل في هذا الكلام، ولا يفهم منه من له آلة الفهم، وإنما يفهم الآدمي من هذا الكلام أن الجنون انتفىٰ عنك بنعمة الله عليك، وانتفىٰ عنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا.

**ثم** أخبر سبحانه عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وأخراه فقال: ﴿وإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣] أي غير مقطوع، بل هو دائم مستمر. ونكَّر الأجر تنكير تعظيم. كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [النازعات: ٢٦] و﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَةً﴾ [هود: ١٠٣] [الشعراء: ٨] و﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق: ٣٧] و﴿إِن لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً﴾ [النبأ: ٣١] و﴿وإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَىٰ وحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٠] وهو كثير، وإنما كان التنكير للتعظيم لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف، ولا يناله التعبير.

**ثم** قال: ﴿وإِنَّـكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، لمن منحه الله فهماً. ولقد سئلت أم المؤمنين(١) عن خلقه ﷺ، فأجابت بما شفىٰ وكفىٰ، فقالت: كان خلقه القرآن. فهم سائلها أن يقوم لا يسألها شيئاً بعد ذلك. ومن هذا قال ابن عباس وغيره: أي علىٰ دين عظيم.

**وسمى** الدين خلقاً، لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة، وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة، موافقة للعدل والحكمة، والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق،

---

(١) هي عائشة ـ رضي الله عنها ـ سألها سعد بن هشام بن عامر عن وتر النبيِّ ﷺ وعن خلقه. وحديثها أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وهو في المنتقىٰ رقم (١٢٠٢).

تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقاً، هي أزكىٰ الأخلاق، وأشرفها، وأفضلها.

**فهذه** كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن. فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً له، وتبييناً وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، وتبليغه. والجهاد في إقامته، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن. وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنىٰ، فاكتفىٰ به واشتفىٰ.

**فإذا** كانت أخلاق العباد، وعلومهم، وإراداتهم، وأعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون، وكان في خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم، إذ وصلوا به إلىٰ ذٰلك، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلىٰ الأخلاق، وأفضل العلوم، والأعمال، والإرادات، التي لا تهتدي العقول إلىٰ تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أم هم؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا. ويزداد علمهم في البرزخ، وينكشف، ويظهر كل الظهور في الآخرة، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به.

(1)**قال** تعالىٰ: ﴿**نٓ والقَلَمِ وما يَسْطُرُون * ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وإنَّ لك لأجراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وإنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عظيمٍ**﴾ [القلم: ١-٤].

**قالت** عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: **كان** خلقه القرآن. فاكتفىٰ بذلك السائل، وقال فهمت(2) أن أقوم ولا أسأل عن **شيء** بعدها فهذه الأخلاق ونحوها هي ثمرة شجرة العلم.

**وأما** شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاء

---

(١) ١١٦ مفتاح جـ١.

(٢) كذا بالأصل ولعل الصواب (فهممت). المراجع.

والشح والبخل، ولهذا قيل في حد البخل (جهل مقرون بسوء الظن)، ومن ثمرته الغش للخلق والكبر عليهم والفخر والخيلاء والعجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب وإخلاف الوعد والغلظة على الناس، والانتقام ومقابلة الحسنة بالسيئة والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وترك القبول من الناصحين، وحب غير الله ورجائه والتوكل عليه وإيثار رضاه على رضا الله، وتقديم أمره على أمر الله، والتهاوت عند حق الله والوثوق بها عند حق نفسه والغضب لها، والانتصار لها فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتىٰ ينتقم بأكثر من حقه، وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضباً لله، فلا قولا في أمره ولا بصيرة في دينه.

**ومن** ثمرتها الدعوة إلىٰ سبيل الشيطان وإلىٰ سلوك طرق البغي واتباع الهوىٰ وإيثار الشهوات على الطاعات، وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ووأد البنات وعقوق الأمهات وقطيعة الأرحام وإساءة الجوار وركوب مركب الخزي والعار.

**وبالجملة** فالخير بمجموعه ثمر يجتنى من شجرة العلم، والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل، فلو ظهرت صورة العلم للأبصار لزاد حسنها على صورة الشمس والقمر، ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر، بل كل خير في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسل ومسبب عنه. وكذلك كل خير يكون إلىٰ قيام الساعة وبعدها في القيامة، وكل شر وفساد حصل في العالم ويحصل إلىٰ قيام الساعة وبعدها في القيامة فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل في العلم والعمل.

**ولو** لم يكن للعلم أب ومرب وسائس ووزير إلا العقل الذي به عمارة الدارين، وهو الذي أرشد إلىٰ طاعة الرسل وسلم القلب والجوارح ونفسه إليهم وانقاد لحكمه وعزل نفسه وسلم الأمر إلىٰ أهله لكفىٰ به شرفاً وفضلاً.

**وقد** مدح الله ـ سبحانه ـ العقل وأهله في كتابه في مواضع كثيرة منه وذم من لا عقل له وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل، فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه، والمرآة التي يعرف بها الحسن من القبيح. وقد قيل العقل ملك، والبدن روحه وحواسه. وحركاته كلها

رعية له، فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل إليها كلها. ولهذا قيل: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه. وروى أنه لما أهبط آدم من الجنة أتاه جبريل. فقال: إن الله أحضرك: العقل والدين والحياء، لتختار واحداً منها. فقال: أخذت العقل. فقال الدين والحياء: أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان فانحازا إليه.

**والعقل:** عقلان: عقل غريزة وهو أب العلم ومربيه ومثمره، وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واستقام له أمره، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب، وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالاً منه، وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما. ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزي. ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب.

**والتحقيق** أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتىٰ منها الإحجام وترك انتهاز الفرصة، لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها.

**وصاحب** العقل المكتسب يؤتىٰ من الإقدام، فإن علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة إليها، وعقله الغريزي لا يطيق رده عنها فهو غالباً يؤتىٰ من إقدامه، والأول من إحجامه، فإذا رزق العقل الغريزي عقلاً إيمانيًّا مستفاداً من مشكاة النبوة لا عقلاً معيشيًّا نفاقيًّا يظن أربابه أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون، فإنهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ويسالموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم، وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إيثار للراحة والدعة، ومؤنة الأذىٰ في الله والموالاة فيه والمعاداة فيه، وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك في الآجلة، فإنه ما ذاق طعم الإيمان من لم يوال في الله ويعاد فيه، فالعقل كل العقل ما أوصل إلىٰ رضا الله ورسوله، والله الموفق المعين.

(1)**قال** الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وإنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

---

(١) ٣٠٤ مدارج جـ٢.

**قال** ابن عباس ومجاهد: لعلي دين عظيم، لا دين أحب إليّ ولا أرضىٰ عندي منه. وهو دين الإسلام. وقال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: هو آداب القرآن. وقال قتادة: هو ما كان يأمر به من أمر الله. وينهي عنه من نهي الله.

**والمعنى**: إنك لعلىٰ الخلق الذي آثرك الله به في القرآن.

**وفي** الصحيحين. أن هشام بن حكيم «سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً».

(١)**قوله** تعالىٰ: ﴿**وإنك لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيْمٍ**﴾ [القلم: ٤] قال الإمام أحمد: عن ابن عبينة قال ابن عباس: «لعلي دين عظيم» وسئلت عائشة عن خلق النبي ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» والدين فيه معنىٰ الإذلال والقهر وفيه معنىٰ الذل والخضوع والطاعة، فلذلك يكون من الأعلىٰ إلىٰ الأسفل كما يقال دنته فأدان أي قهرته فذل، قال الشاعر:

هو أدنى الزمان أذكر هذا الدين    فأصبحوا بغرة وصيان

**ويكون** من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ كما يقال دنت الله ودنت لله، وفلان لا يدين الله ديناً ولا يدين الله بدين. فدان الله أي أطاع الله وأحبه وأخافه، ودان لله أي خشع له وخضع وذل وانقاد. والدين الباطن لا بد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر، وسمىٰ الله تعالى يوم القيامة يوم الدين لأنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب.

(٢)**وقد** اختلف في تقدير قوله: ﴿**بأيِّكُمُ المفتُون**﴾ [القلم: ٦] فقال أبو عثمان المازني: هو كلام مستأنف، والمفتون عنده مصدر، أي: بأيكم الفتنة. والاستفهام عن أمر دائر بين أثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعاً، فتعين حصوله للآخر. والجمهور على خلاف هذا التقدير. وهو عندهم متصل بما قبله، ثم لهم فيه أربعة أوجه:

---

(١) ٢٧٩ الجواب الكافي.    (٢) ١٣٦ التبيان.

**(أحدها)** أن الباء زائدة، والمعنى: أيكم المفتون. وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك: بحسبك أن تفعل. قاله أبو عبيد.

**(الثاني)** أن المفتون بمعنىٰ الفتنة، أي ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة. والباء على هذا ليست بزائدة. قاله الأخفش.

**(الثالث)** أن المفتون مفعول على بابه، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره بأيكم فتون المفتون، وليست الباء زائدة قاله الأخفش أيضاً.

**(الرابع)** أن الباء بمعنىٰ في، والتقدير في أي فريق منكم النوع المفتون، والباء على هذا ظرفية. وهذه الأقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة إلىٰ شيء منه. و(ستبصر) مضمن معنىٰ تشعر وتعلم، فعدى بالباء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وإذا دعاك اللفظ إلىٰ المعنىٰ من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد.

(١)**وأما** قوله [تعالىٰ]: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]. فقيل: الباء زائدة. وقيل: المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

**والصواب** أن يبصر مضمّن معنىٰ يشعر ويعلم قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «**المؤمن أخو المؤمن، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان**». يروى بفتح الفاء وهو واحدٌ وبضمها وهو جمع فاتن كتاجر وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون فما فتن من فتن إلا بالمحبة.

(٢)**المداراة** صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتىٰ يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق.

**وقد** ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة وقد آلمته فجاءه الطبيب المداري الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ في تليينها حتىٰ إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتىٰ أخرج ما فيها ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده

---

(١) ٤٩ روضة المحبين. (٢) ٢٨١ الروح.

ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم ثم يذر عليها بعذنبات اللحم ما ينشف رطوبتها ثم يشد عليها الرباط ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت، والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء فاسترها عن العيون بخرقة، ثم اله عنها فلا تزال مادتها تقوىٰ وتستحكم حتىٰ عظم فسادها. وهذا المثل أيضاً مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة فتأمله. . .

(١)**وأما** تقديم هماز على مشاء بنميم ففيه معنىٰ آخر غير ما ذكره وهو أن همزه عيب للمهموز وإزراء به وإظهار لفساد حاله في نفسه فإن قاله يختص بالمهموز لا يتعداه إلىٰ غيره.

**والمشي** بالنميمة يتعداه إلىٰ من ينم عنده، فهو ضرر متعد. والهمز ضرره لازم للمهموز إذا شعر به ما ينقل من الأذىٰ اللازم إلىٰ الأذىٰ المتعدي المنتشر.

(٢)**قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * ولا يَسْتَثْنُونَ﴾** [القلم: ١٧، ١٨] أي لم يقولوا إن شاء الله؛ فمن حلف فقال إن شاء الله فقد استثنى؛ فإن الاستثناء استفعال من ثنيت الشيء، كأن المستثنىٰ بإلَّا قد عاد على كلامه فثنى آخره على أوله بإخراج ما أدخله أولاً في لفظه، وهكذا التقيد بالشرط سواء؛ فإن المتكلم به قد ثَنَى آخر كلامه على أوله فقيد به ما أطلقه أولاً، وأما تخصيص الاستثناء بإلا وأخواتها فعرفٌ خاص للنحاة. . .

(٣)**ومن ذلك**: أن جداد النخل عملٌ مباح أيَّ وقت شاء صاحبه، لكن لما قصد به أصحابه في الليل حرمان الفقراء عاقبهم الله تعالىٰ بإهلاكه. ثم قال: **﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾** [القلم: ٣٣] ثم جاءت السنة بكراهة الجداد بالليل، لكونه ذريعة إلىٰ هذه المفسدة. ونصّ عليه غير واحدٍ من الأئمة. كأحمد بن حنبل وغيره.

(٤)**النوع** الثاني عشر إنكاره ـ سبحانه ـ أن يسوي بين المختلفين أو يفرق بين المتماثلين وأن حكمته وعدله يأبىٰ ذلك.

---

(١) ٦٩ بدائع جـ١. (٢) ٧٣ أعلام جـ٤. (٣) ٣٧٨ إغاثة جـ١. (٤) ١٩٩ شفاء.

**أما** الأول فكقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. فأخبر أن هذا حكم باطل جائر يستحيل نسبته إليه كما يستحيل نسبة الفقر والحاجة والظلم إليه.

**ومنكرو** الحكمة والتعليل يجوزون نسبة ذلك إليه بل يقولون بوقوعه.

**وقال** تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. فجعل ـ سبحانه ـ ذلك حكماً سيئاً يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه فضلاً عن أن ينسب إليه.

**بل** أبلغ من هذا أنه أنكر على من حسب أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يبين به صبره وشكره، وإن حكمته تأبىٰ ذلك.

**كما** قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].

**فأنكر** عليهم هذا الظن والحسبان لمخالفته لحكمته.

**وأما** الثاني وهو أن لا يفرق بين المتماثلين فقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. وقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. وقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]. وقوله: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[محمد: ١٠].

وقوله: ﴿سنَّةَ من قد أرسلنا قَبلكَ من رسُلنا ولا تجد لسنَّتِنَا تحويلاً﴾ [الإسراء: ٧٧].
وقوله: ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣].
وقوله: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الذين خلو مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

**فسنته** سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم وإهانة أولئك وإذلاهم وكبتهم.

**وقال** تعالىٰ: ﴿إنَّ الذين يحادُّون الله ورسوله كبتُوا كما كُبِتَ الذين منْ قبْلهِمْ﴾ [المجادلة: ١٥].

**والقرآن** مملوء من هذا يخبر تعالىٰ أن حكم الشيء في حكمته وعدله حكم نظيره ومماثله، وضد حكم مضاده ومخالفه، وكل نوع من هذه الأنواع لو استوعبناه لجاء كتاباً مفرداً.

(1)**قال** الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أفنجْعَلُ المُسلِمِينَ كالمُجْرِمِين * ما لكمْ كيْفَ تحكمُون﴾ [القلم: ٣٥-٣٦] فأنكر عليهم الحكم بهذا وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار لينبه العقول على أن هذا مما تحيله الفطر وتأباه العقول السليمة، وقال تعالىٰ: ﴿لا يستوي أصحابُ النَّار وأصحابُ الجنَّة أصحابُ الجنَّة هم الفائزون﴾ [الحشر: ١٩] وقال تعالىٰ: ﴿أمْ نجعلُ الَّذين آمنُوا وعملُوا الصالحات كالمُفْسدين في الأرض أمْ نجعلُ المتَّقين كالفجَّار﴾ [صٓ: ٢٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ هلْ يستوي الذين يعلمُون والَّذين لا يعلمُون إنَّما يتذكَّروا أُولوا الألْباب﴾[الزمر: ٩] بل الواحد من الخلق لا تستوي أعاليه وأسافله. فلا يستوي عقبه وعينه، ولا رأسه ورجلاه. ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر. فالله عز وجل قد خلق الخبيث والطيب والسهل والحزن والضار والنافع. وهذه أجزاء الأرض: منها ما يصلح جلاء للعين، ومنها ما يصلح للأتون والنار. وبهذا ونحوه يعرف كمال القدرة وكمال الحكمة: فكمال القدرة بخلق الأضداد، وكمال الحكمة تنزيلها منازلها ووضع كل منها في موضعه. والعالم من لا يلقي الحرب بين قدرة الله وحكمته - فإن آمن بالقدرة قدح في الحكمة وعطلها، وإن آمن بالحكمة قدح في القدرة ونقصها - بل يربط القدرة

---

(١) ١٠٤ طريق الهجرتين.

بالحكمة، ويعلم شمولها لجميع ما خلقه الله ويخلقه، فكما أنه لا يكون إلا بقدرته ومشيئته فكذلك لا يكون إلا بحكمته. وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلىٰ الإحاطة بهذا تفصيلاً، فيكفيها الإيمان بما تعلم وتشاهد منه، ثم تستدل على الغائب بالشاهد وتعتبر ما علمت بما لم تعلم.

(١)**قال** أبو محمد بن حزم: وقد جاء عن عمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن من ترك صلاة فرض واحدة متعمداً حتىٰ يخرج وقتها فهو كافر مرتد. قالوا: ولا نعلم لهؤلاء مخالفاً من الصحابة، وقد دل على كفر تارك الصلاة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة.

**أما** الكتاب فقد قال تعالىٰ: ﴿**أفنجْعلُ المُسلمين كالمُجرمِيْنْ، ما لكُمْ كيفَ تحْكُمُون. أم لكُمْ كتابٌ فيه تدْرسُون. إن لكم فيه لما تخيرُّون. أم لكم أيْمانٌ علينا بالغةٌ إلىٰ يوم القيامة**﴾ إلىٰ قوله ﴿**يوم يُكْشفُ عن ساقٍ ويدْعون إلىٰ السُّجود فلا يستطيعُون. خاشعةً ابصارهم ترهقهم ذلَّةٌ، وقد كانُوا يُدْعون إلىٰ السُّجود وهُمْ سالمُون**﴾ [القلم: ٣٥-٤٣].

**فوجه** الدلالة من الآية أنه سبحانه أخبر أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، وأن هذا الأمر لا يليق بحكمته ولا بحكمه.

**ثم** ذكر أحوال المجرمين الذين هم ضد المسلمين فقال: ﴿**يومَ يُكشفُ عن ساقٍ**﴾ [القلم: ٤٢] وأنهم يدعون إلىٰ السجود لربهم تبارك وتعالىٰ فيحال بينهم وبينه فلا يستطيعون السجود مع المسلمين عقوبة لهم علىٰ ترك السجود له مع المصلين في دار الدنيا. وهذا يدل على أنهم مع الكفار والمنافقين الذين تبقىٰ ظهورهم إذا سجد المسلمون كصياصي البقر. ولو كانوا من المسلمين لأذِن لهم بالسجود كما أذن للمسلمين.

(٢)**فإن قيل**: فالآخرة دار جزاء، وليست دار تكليف، فكيف يمتحنون في غير دار التكليف؟

**فالجواب**: أن التكليف إنما ينقطع بعد دخول دار القرار، وأما في البرزخ

---

(١) ١٥ الصلاة. (٢) ٤٠٠ طريق الهجرتين.

وعرصات القيامة فلا ينقطع، وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسألة الملكين في البرزخ وهي تكليف.

**وأما** في عرصة القيامة فقال تعالىٰ: **﴿يوْم يكْشفُ عنْ ساقٍ ويدْعون إلىٰ السجود فلا يستطيعُون﴾** [القلم: ٤٢].

**فهذا** صريح في أن الله يدعو الخلائق إلىٰ السجود يوم القيامة، وأن الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك، ويكون هذا التكليف بما لا يطاق حينئذ حسًّا عقوبة لهم، لأنهم كلفوا به في الدنيا وهم يطيقونه فلما امتنعوا منه وهو مقدور لهم كلفوا به وهم لا يقدرون عليه حسرة عليهم وعقوبة لهم.

**ولهذا** قال تعالىٰ: **﴿وقدْ كانُوا يدْعون إلىٰ السجُود وهمْ سالِمُون﴾** [القلم: ٤٢] دعوا إليه في وقت حيل بينهم وبينه كما في الصحيح من حديث زيد بن أسلم عن عطاء عن أبي سعيد رضي الله عنه «أن ناساً قالوا: يارسول الله، هل نرىٰ ربنا» - فذكر الحديث بطوله، إلىٰ أن قال: فيقول: «**تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيقول المؤمنون: فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً - مرتين أو ثلاثاً - حتىٰ إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون نعم. فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقىٰ من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقاً واحداً كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رءوسهم**» وذكر الحديث.

**وهذا** التكليف نظير تكليف البرزخ بالمسألة، فمن أجاب في الدنيا طوعاً واختياراً أجاب في البرزخ، ومن امتنع من الإجابة في الدنيا منع منها في البرزخ، ولم يكن تكليفه في الحال وهو غير قادر قبيحاً، بل هو مقتضىٰ الحكمة الإلـٰهية، لأنه مكلف وقت القدرة وأبىٰ، فإذا كلف وقت العجز وقد حيل بينه وبين الفعل كان عقوبة له وحسرة.

**والمقصود** أن التكليف لا ينقطع إلا بعد دخول الجنة أو النار.

**وقد** تقدم أن حديث الأسود بن سريع صحيح، وفيه التكليف في عرصة القيامة، فهو مطابق لما ذكرنا من النصوص الصحيحة الصريحة. فعلم أن الذي تدل عليه الأدلة الصحيحة وتأتلف به النصوص ومقتضىٰ الحكمة هذا القول. والله أعلم.

(١)**وحدثنا** عبدالله بن داود عن سفيان في قوله: **﴿سَنَسْتَدْرِجُهم مِنْ حيثُ لا يَعْلَمُون﴾** قال يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر.

**وقال** غير سفيان: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة. وسئل ثابت البناني عن الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين.

**وقال** يونس في تفسيرها: إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقىٰ عليها ثم شكر الله بها أعطاه أشرف منها، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله وكان تضييعه الشكر استدراجاً.

**وقال** أبو حازم: نعمة الله فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها إني رأيته أعطاها أقواماً فهلكوا. وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية، وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

(٢)**ونهاه** سبحانه أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولي العزم فقال: **﴿فاصْبرُ لِحُكْم ربِّك ولا تكُنْ كصاحب الحُوت إذ نادىٰ وهو مكظُوم﴾** [القلم: ٤٨]. وهاهنا سؤال نافع وهو أن يقال: ما العامل في الظرف وهو قوله: **﴿«إذ نادىٰ﴾** ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه إذ يصير المعنىٰ لا تكن مثله في ندائه.

**وقد** أثنىٰ الله ـ سبحانه ـ عليه في هذا النداء فأخبر أنه نجاه به فقال: **﴿وذَا النُّون إذْ ذهَب مُغاضباً فظنَّ أن لنْ نقْدر عليه فنادَىٰ في الظُّلُمات أن لَّا إلـه إلَّا أنتْ سبْحانكَ إنِّي كنُت من الظَّالمينْ فاسْتجبْنا له ونجيَّناه من الغمِّ وكذٰلك نُنْجي المُؤْمنين﴾** [الأنبياء: ٨٧]. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ قال: **«دعوة أخي ذي النـون إذ دعا بها في بطن الحوت ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله عنه: لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»**.

---

(١) ١٣٩ عدة الصابرين. (٢) ٣٢ عدة الصابرين.

**فلا** يمكن أن ينهي عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء الذي نادىٰ به ربه. وإنما نهىٰ عن التشبه به في السبب الذي أفضىٰ به إلىٰ هذه المناداة وهي مغاضبته التي أفضت به إلىٰ حبسه في بطن الحوت وشدة ذٰلك عليه حتىٰ نادىٰ ربه وهو مكظوم. والكظيم والكاظم الذي قد امتلأ غيظاً وغضباً أو همًّا وحزناً عليه فلم يخرجه.

(١)**وكثير** من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية وقد قال تعالى لنبيه: ﴿**وإن يكادُ الَّذين كفرُوا ليُزلقونَك بأبْصارهم لما سمعُوا الذكْر**﴾ [القلم: ٥١].

**وقال:** ﴿**قل أعوذُ بربِّ الفلقِ. من شرِّ ما خلقَ. ومنْ شرِّ غاسقٍ إذا وقبَ. ومن شرِّ النفَّاثات في العُقد. ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسدَ**﴾ [الفلق: ١-٥].

**فكل** عائن حاسد. وليس كل حاسد عائناً. فلما كان الحاسد أعم من العائن: كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين، تصيبه تارة، وتخطئه تارة. فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه ولا بد وإن صادفته حَذِراً شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام: لم تؤثر فيه، وربما رُدَّت السهام علىٰ صاحبها. وهذا بمثابة الرمي الحسيِّ سواء. فهذا من النفوس والأرواح، وذاك من الأجسام والأشباح. وأصله: من إعجاب العائن بالشيء ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سُمهِّا بنظرها إلىٰ المعين.

**وقد** يَعين الرجل نفسه. وقد يَعين بغير إرادته، بل بطبعه. وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني. وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: إن من عُرِفَ بذلك حبسه الإمام، وأجرىٰ له ما ينفق عليه إلىٰ الموت. وهذا هو الصواب قطعاً.

**والمقصود** العلاج النبوي لهذه العلة. وهو أنواع.

**وقد** روىٰ أبو داود في سننه عن الرّباب - جدة عثمان بن حكيم الأنصاري - عن سهل بن حنيف قال: مررنا بسيل. فدخلتُ فاغتسلت فيه، فخرجت محموماً، فنما ذلك إلىٰ رسول الله ﷺ. فقال: «**مروا أبا ثابت يتعوذ**». قالت: فقلت: يا سيدي، والرقى صالحة؟ فقال: «**لا رقية إلا في نفس، أو حُمَةٍ، أو**

(١) ٢٤٨ زاد المعاد جـ٣.

**لَدْغة**». و«النفس» العين. يقال: أصابت فلاناً نفسٌ، أي عين. والنافس: العائن. و«اللدغة» بدال مهملة وغين معجمة وهي ضربة العقرب ونحوها.

**فمن** التعوذات والرقى: الإكثار من قراءة المعوذتين وفاتحة الكتاب، وآية الكرسي. ومنها: التعوذات النبوية، نحو: **«أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»** ونحو **«أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامَّة»** ونحو **«أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر: من شر ما خلق، وذرأ، وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن»**.

**ومنها: «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن هَمَزات الشياطين، وأن يحضرون»**.

**ومنها: «اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتك التامات، من شر ما أنت آخذ بناصيته. اللهم أنت تكشف المأثم والمغرم. اللهم إنه لا يُهزم جندك، ولا يُخلف وعدك. سبحانك وبحمدك»**.

**ومنها:** «أعوذ بوجه الله العظيم، الذي لا شيء أعظم منه، وبكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر. وأسماء الله الحسنىٰ، ما علمت منها وما لم أعلم: من شر ما خلق، وذرأ وبرأ، ومن شر كل ذي شر لا أطيق شره، ومن شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته. إن ربي على صراط مستقيم».

**ومنها: «اللهم أنت ربي لا إلـه إلا أنت، عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا بالله، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً: وأحصىٰ كل شيء عدداً**[1].

[2]**ويندفع** شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.

(١) استمر المؤلف في ذكر الرقى وأحكام العائن قرابة كراسة وسيأتي قريبًا إن شاء الله في تفسير سورة الفلق في بدائع الفوائد بحثاً موسعاً حول الحسد والسحر وغيرها من ذكر سحر اليهود وغيرهم.

(٢) ٢٣٨ بدائع جـ٢.

**أحدها**: التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجأ إليه وهو المقصود بهذه السورة والله تعالىٰ سميع لاستعاذته عليم بما يستعيذ منه.

**والسمع** هنا المراد به سمع الإجابة لا السمع العام فهو مثل قوله: سمع الله لمن حمده. وقول الخليل ﷺ: ﴿**إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ**﴾ [إبراهيم: ٣٩].

**ومرة** يقرنه بالعلم ومرة بالبصر لاقتضاء حال المستعيذ ذلك فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه ويعلم كيده وشره فأخبر الله ـ تعالىٰ ـ هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته أي مجيب عليم بكيد عدوه يراه ويبصره لينبسط أمل المستعيذ ويقبل بقلبه على الدعاء.

**وتأمل** حكمة القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ السميع العليم في الأعراف وحم السجدة وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في سورة حٓم المؤمن فقال: ﴿**إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سُلْطان أتاهم إن في صُدُورهم إلا كبْر ما هم ببالغيْهِ فاسْتعْذ بالله إنَّهُ هو السميْعُ البصيرُ**﴾ [غافر: ٥٦] لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترىٰ بالبصر، وأم نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية والله أعلم.

(**السبب** الثاني) تقوىٰ الله وحفظه عند أمره ونهيه فمر اتقىٰ الله تولىٰ الله حفظه ولم يكله إلىٰ غيره قال تعالى: ﴿**وإنْ تصْبرُوا وتتَّقوُا لا يضرُكم كيدُهم شيئاً**﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**» فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر.

(**السبب** الثالث) الصبر على عدوه وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بإذاه أصلًا فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل علىٰ الله ولا يستطل تأخيره وبغيه فإنه كلما بغىٰ عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر فبغيه سهام يرميها من نفسه إلىٰ نفسه. ولو رأى

المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه ولكن لضعف بصيرته لا يرىٰ إلا صورة البغي دون آخره ومآ له وقد قال تعالىٰ: ﴿**ومنْ عاقبَ بمْثلِ ما عُوقبَ بهِ ثمَّ بُغيَ عليْهِ لينْصرنَّهُ الله**﴾ [الحج: ٦٠].

**فإذا** كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفىٰ حقه أولاً فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه، بل بغىٰ عليه وهو صابر، وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله أنه لو بغىٰ جبل على جبل جعل الباغي منهما دكًا.

(**السبب** الرابع) التوكل على الله فمن يتوكل على الله فهو حسبه والتوكل من أقوىٰ الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذىٰ الخلق وظلمهم وعدوانهم وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً.

**وفرق** بين الأذىٰ الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه وبين الضرر الذي يتشفىٰ به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال: ﴿**وَمن يَتوكَّلُ عَلَىٰ الله فهُو حسْبُه**﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك وكفاه ونصره.

**وقد** ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في (كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلىٰ التوكل أعظم وأشد وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

(**السبب** الخامس) فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوىٰ الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومنامًا لا يفتر عنه وهو يتمنىٰ أن يتماسك الروحان ويتشبثا.

**فإذا** تعلقت كل روح منهما بالأخرىٰ عدم القرار ودام الشر حتىٰ يهلك أحدهما فإذا جبذ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به وأن لا يخطره بباله فإذا خطر بباله بادر إلىٰ محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولىٰ به بقىٰ الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية[1].

[2]**أخبر** ـ تعالىٰ ـ عن القرآن بأنه ذكر للعالمين. وفي موضع آخر تذكرة للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق. وفي موضع آخر ذكر مبارك. وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

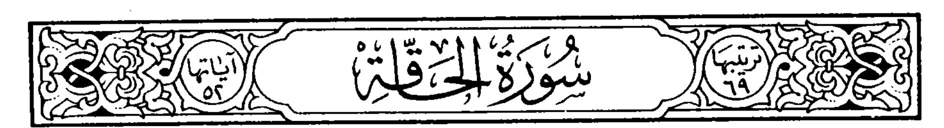
**ويجمع** هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عامًّا وخاصًّا، وكونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم. ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب ـ تعالىٰ ـ وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه. ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالها وآفاتها، وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم. ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً. ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلىٰ نعم أخرىٰ أكبر منها ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصىٰ أمره، وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القلم

والحمد لله رب العالمين

---

(١) بقية البحث في سورة الفلق. (٢) ٨٠ التبيان.




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**ووكّل** بالرياح ملائكةً تصرّفها بأمره وهم خزنتها. قال الله تعالى: ﴿**وأما عادٌ فأهلكوا بريح صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ**﴾ [الحاقة: ٦] وقال غير واحد من السلف عتت على الخُزَّان فلم يقدروا على ضبطها «ذكره البخاري في صحيحه».

(٢)**قوله** تعالىٰ: ﴿**إنا لمّا طغىٰ المآء حمَلْناكُمْ في الجاريةِ لِنجْعلهَا لكم تذكرَةً وتعيها أُذنٌ وَّاعيةٌ**﴾ [الحاقة: ١١-١٢].

**قال** قتادة: أذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت.

**وقال** الفراء: لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتي بعد، فالوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب، يقال: قلب واع، وأذن واعية، لما بين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلم يدخل من الأذن إلىٰ القلب، فهي بابه والرسول والموصل إليه العلم، كما أن اللسان رسوله المؤدىٰ عنه، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعى وأنها إذا وعت وعي القلب.

**وفي** حديث جابر في المثل الذي ضربته الملائكة للنبي ﷺ ولأمته، وقول الملك له: أسمع سمعت أذنك وعقل قلبك، فلما كان القلب وعاءاً والأذن مدخل ذلك الوعاء وبابه، كان حصول العلم موقوفاً على حسن الاستماع وعقل القلب، والعقل هو ضبط ما وصل إلىٰ القلب وإمساكه حتى لا يتفلت منه.

**ومنه** عقل البعير والدابة والعقال لما يعقل به.

**وعقل** الإنسان يسمىٰ عقلاً لأنه يعقله عن اتباع الغي والهلاك، ولهذا يسمىٰ حجراً لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ما حواه فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفته لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا يدعه يذهب كما تعقل الدابة التي يخاف شرودها.

---

(١) ٦٥ روضة المحبين.		(٢) ١٢٥ مفتاح جـ١.

**وللإدراك** مراتب بعضها أقوىٰ من بعض، فأولها الشعور، ثم الفهم، ثم المعرفة، ثم العلم، ثم العقل.

**ومرادنا** بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التي ركبها الله في الإنسان.

**فخير** القلوب ما كان واعياً للخير ضابطاً له، وليس كالقلب القاسي الذي لا يقبله. فهذا قلب حجري، ولاكالمائع الأخرق الذي يقبل، ولكن لا يحفظ ولا يضبط، فتفهيم الأول كالرسم في الحجر، وتفيهم الثاني كالرسم على الماء، بل خير القلوب ما كان ليناً صلباً يقبل بلينه ما ينطبع فيه، ويحفظ صورته بصلابته، فهذا تفهيمه كالرسم في الشمع وشبهه.

## فصل[1]

**ومن** ذلك قوله: ﴿فلا أُقْسِمُ بِمَا تُبصِرُونَ * وما لا تُبصِرُونَ * إنه لقولُ رَسُولٍ كريمٍ﴾ [الحاقّة: ٣٨-٤٠] إلىٰ آخرها.

**قال** مقاتل: بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه. وقال قتادة: أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر. وقال الكلبي: تبصرون من شيء وما لا تبصرون من شيء.

**وهذا** أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة، وما يرىٰ وما لا يرىٰ، ويدخل في ذلك الملائك كلهم والجن والإنس، والعرش والكرسي، وكل مخلوق، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته، وهو سبحانه يصرف الأقسام كما يصرف الآيات.

**ففي** ضمن هذا القسم أن كل ما يرىٰ وما لا يرىٰ آية، ودليل علىٰ صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامه، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن. ومن تأمل المخلوقات، ما يراه منها ومالا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت. كما أن سائر الموجودات ما يرىٰ منها وما لا يرىٰ حق.

---

(١) ١٠٩ التبيان.

**كما** قال تعالىٰ: **﴿فَوربِّ السَّماءِ والأرْضِ إنَّه لحقٌ مثْل ما أنكُمْ تَنْطِقُونَ﴾** [الذاريات: ٢٣] أي إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، كما في الحديث: «**إنه لحق مثل ما أنك ههنا**» فكأنه ـ سبحانه ـ يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق.

**ويكفي** الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه، ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

**ثم** ذكر ـ سبحانه ـ المقسم عليه فقال: **﴿إنَّه لقولُ رسُولٍ كَرِيم﴾** [الحاقة: ٤٠] وهذا رسوله البشري محمد ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل. فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً، ولناقض ذلك إضافته إلىٰ رسوله الملكي في سورة التكوير.

**ثم** بيّن ـ سبحانه ـ كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالىٰ إلىٰ غيره، وأنه لم يتكلم به، بل قاله، من تلقاء نفسه، كما بين كذب من قال: **﴿إنْ هذا إلاَّ قوْلُ البَشر﴾** [المدثر: ٢٥]. فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر، وسيصليه الله سقر.

**ثم** أخبر سبحانه أنه تنزيل من رب العالمين، وذلك يتضمن أموراً:

**(أحدها)** أنه تعالىٰ فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده.

**(والثاني)** أنه تكلم به حقيقة، لقوله: **﴿مِن رَّبِّ العالَمين﴾** [الواقعة: ٨٠] ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير. ونظير هذا قوله: **﴿ولٰكن حقَّ القولُ منِّي﴾** [السجدة: ١٣]. ونظيره قوله: **﴿قل نزَّله رُوحُ القُدُس من رَّبِّكَ بالحقِّ﴾** [النحل: ١٠٢]. وقوله: **﴿تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزِيْزِ الحْكيمِ﴾** [الزمر: ١].

وقوله: ﴿**تنزْيلٌ منْ حكيم حمْيد**﴾ [فصلت: ٤٢]. وما كان من الله فليس بمخلوق، ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما في السموات والأرض جميعاً منه، وهو مخلوق؛ لأن ذلك كله أعيان قائمة بنفسها وصفات وأفعال لتلك الأعيان، فإضافتها إلىٰ الله ـ سبحانه ـ وأنها منه إضافة خلق، كإضافة بيته، وعبده، وناقته، وروحه، وبابه - إليه.

**بخلاف** كلامه فإنه لا بد أن يقوم بمتكلمه؛ إذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع، وبصر من غير مبصر، وذلك عين المحال، فإذا أضيف إلىٰ الرب كان بمنزلة إضافة سمعه، وبصره، وحياته، وقدرته، وعلمه، ومشيئته إليه.

**ومن** زعم أن هذه إضافة مخلوق إلىٰ خالق فقد زعم أن الله لا سمع له، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا مشيئة تقوم به. وهذا هو التعطيل الذي هو شر من الإشراك. وإن زعم أن إضافة السمع، والبصر، والعلم، والحياة والقدرة إضافة صفة إلىٰ. موصوف، وإضافة الكلام إليه إضافة مخلوق إلىٰ خالق فقد تناقض، وخرج عن موجب العقل والفطرة والشرع ولغات الأمم، وفرّق بين متماثلين حقيقة، وعقلاً، وشرعاً، وفطرة، ولغة.

**وتأمل** كيف أضافه ـ سبحانه ـ إلىٰ الرسول بلفظ القول، وأضافة إلىٰ نفسه بلفظ لكلام في قوله: ﴿**حتَّى يسمعَ كلامَ اللهِ**﴾ [التوبة: ٦].

**فإن** الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت كذا وكذا. وقلت له: ما أمرتني أن أقوله كما قال المسيح: ﴿**ما قُلتُ لهم إلا ما أمرْتني به**﴾ [المائدة: ١١٧]. والمرسِل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا. كما قال تعالىٰ: ﴿**قُل لعِبادِي الذَّين آمنُوا يُقيْمُوا الصلاَة**﴾ [إبراهيم: ٣١] ﴿**وقُل لِّعبادي يقُولُوا التَّي هي أحْسن**﴾ [الإسراء: ٥٣] ﴿**قُل للْمؤْمنين يغُضُّوا منْ أبصْارِهِم**﴾ [النور: ٣٠] ونظائره.

**فإذا** بلغ الرسول ذلك صحّ أن يقال: قال الرسول كذا. وهذا قول الرسول - أي قاله مبلغاً - وهذا قوله مبلغاً عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في

موضع واحد، بل قيل للصديق - وقد تلا آية - هذا كلامك وكلام صاحبك فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي. هذا كلام الله.

# فصل

**الأمر** الثالث ما تضمنه قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠] أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبىٰ أن يتركهم سدىٰ: لا يأمرهم، ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلىٰ ما ينفعهم، ويحذرهم ما يضرهم. بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة.

**فمن** زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره، ونسبه إلىٰ ما لا يليق به تعالىٰ: ﴿فَتَعَالَىٰ اللهُ الْمَلِكُ الحَقُّ لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

**ثم** أقام ـ سبحانه ـ البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقوّل عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه لما أقره، ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبىٰ أن يقر من تَقَوّل عليه، وافترىٰ عليه، وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب، وخالف الخلق. فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره علىٰ ذلك؟

**بل** كيف يليق به أن يؤيده، وينصره، ويعليه، ويظهره، ويظفره، بأهل الحق: يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلاً: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟.

**بل** كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر. ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها. فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها. ثم يعجز الخلق عن معارضته، ثم يصدقه بكلامه وقوله، ثم يقيم الدلالة القاطعة علىٰ أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله.

**فمن** أعظم المحال، وأبطل الباطل، وأبين البهتان أن يجوز علىٰ أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفتري عليه، الذي هو شر الخلق

على الإطلاق. فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعاً، ولا عرف الله، ولا هذا هو رب العالمين، ولا يحسن نسبة ذلك إلىٰ من له مسكة من عقل، وحكمة، وحجىٰ. ومن فعل ذلك فقد أزرىٰ بنفسه، ونادىٰ على جهله.

**وأذكر** في هذا مناظرة جرت لي مع بعض اليهود.

**قلت** له - بعد أن أقضىٰ في نبوة النبي ﷺ - إلىٰ أن قلت له: إنكار نبوته يتضمن القدح في رب العالمين وتنقصه بأقبح التنقص، فكان الكلام معكم في الرسول، والكلام الآن في تنزيه الرب تعالىٰ.

**فقال:** كيف تقول مثل هذا الكلام؟ فقلت له: بيانه عليّ.

**فأسمع** الآن: أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولاً وإنما كان ملكاً قاهراً قهر الناس بسيفه «حتىٰ دانوا له، ومكث ثلاثاً وعشرين سنة يكذب على الله، ويقول: أوحي إلي ولم يوح إليه، وأمرني ولم يأمره، ونهاني ولم ينهه، وقال الله كذا ولم يقل ذلك، وأحل كذا وحرم كذا، وأوجب كذا، وكره كذا، ولم يحل ذلك ولا حرمه ولا أوجبه، بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذباً مفترياً على الله وعلىٰ أنبيائه، وعلىٰ رسله وملائكته. ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة يستعرض عباده: يسفك دماءهم، ويأخذ أموالهم، ويسترق نساءهم وأبناءهم، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته، وهو في ذلك كله يقول: الله أمرني بذلك، ولم يأمره.

**ومع** ذلك فهو ساع في تبديل أديان الرسل، ونسخ شرائعهم، وحل نواميسهم فهذه حاله عندكم. فلا يخلو إما أن يكون الرب ـ تعالىٰ ـ عالماً بذلك مطلعاً عليه من حاله، يراه ويشاهده أم لا.

**فإن** قلتم: إن ذلك جميعه غائب عن الله لم يعلم به قدحتم في الرب تعالىٰ، ونسبتموه إلىٰ الجهل المفرط، إذ لم يطلع علىٰ هذا الحادث العظيم ولا علمه ولا رآه.

**وإن** قلتم: بل كان ذلك بعلمه وإطلاعه ومشاهدته.

**قيل** لكم: فهل كان قادراً على أن يغير ذلك ويأخذ على يده، ويحول بينه وبينه أم لا؟.

**فإن** قلتم: ليس قادراً على ذلك نسبتموه إلىٰ العجز المنافي للربوبية، وكان هذا الإنسان هو وأتباعه أقدر منه على تنفيذ إرادتهم.

**وإن** قلتم: بل كان قادراً، ولكن مكنه ونصره وسلطه على الخلق، ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله نسبتموه إلىٰ أعظم السفه والظلم والإخلال بالحكمة.

**هذا** لو كان مخلي بينه وبين ما فعله، فكيف وهو في ذلك كله ناصره ومؤيده، ومجيب دعواته ومهلك من خالفه وكذبه، ومصدقه بأنواع التصديق، ومظهر الآيات على يديه التي لو اجتمع أهل الأرض كلهم علىٰ أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم ولعجزوا عن ذلك. وكل وقت من الأوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور والعلو وكثرة الأتباع أمراً خارجاً عن العادة. فظهر أن من أنكر كونه رسولاً نبيًّا فقد سب الله وقدح فيه، ونسبه إلىٰ الجهل والعجز والسفه.

**قلت** له: ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم الله في الأرض وقتاً ما، ثم قطع دابرهم، وأبطل سنتهم، ومحا آثارهم وجورهم. فإن أولئك لم يعيدوا شيئاً من هذا، ولا أيدوا. ونصروا، وظهرت علىٰ أيديهم الآيات، ولا صدقهم الرب تعالىٰ بإقراره ولا بفعله ولا بقوله، بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول، كفرعون ونمرود وأضرابهما.

**ولا ينتقص** هذا بمن ادعىٰ النبوة من الكذابين؛ فإن حاله كانت ضد حال الرسول من كل وجه. بل حالهم من أظهر الأدلة علىٰ صدق الرسول.

**ومن** حكمة الله ـ سبحانه ـ أن أخرج مثل هؤلاء إلىٰ الوجود ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين، وكان ظهورهم من أبين الأدلة على صدق الرسل.

**والفرق** بين هؤلاء وبينهم، فبضدها تتبين الأشياء، والضد يظهر حسنه الضد، فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه.

**فلما** سمع ذلك قال: معاذ الله لا نقول: إنه ملك ظالم، بل نبي كريم من اتبعه فهو من السعداء، وكذلك من اتبع موسىٰ فهو كمن اتبع محمداً.

**قلت** له: بطل كل ما تموهون به بعد هذا؛ فإنكم إذا أقررتم أنه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به، وقد علم أتباعه وأعداؤه بالضرورة أنه دعا

الناس كلهم إلىٰ الإيمان، وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار، وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب وسجل عليهم بالكفر، واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وأبناءهم. فإن كان ذلك عدواناً منه وجوراً لم يكن نبيًّا، وعاد الأمر إلىٰ القدح في الرب تعالىٰ، وإن كان ذلك بأمر الله ووحيه لم يسع أحداً مخالفته وترك أتباعه، ويلزم تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر.

(١)**قال** تعالىٰ: **﴿ولو تقوَّل علينْا بعْضَ الأقَّاويلِ * لأخذْنا منْهُ بالْيمِينِ * ثم لقطعْنا منْهُ الوتينُ﴾** [الحاقة: ٤٤-٤٦] أي لو أتىٰ بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاذه الله من الركون إلىٰ أعدائه بذرة من قلبه. ومن التقوّل عليه ـ سبحانه ـ. وكم من راكن إلىٰ أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به. كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه. وما ذكرتم في قصة يونس: هو من هذا الباب. فإنه لم يسامح بغضبة. وسجن لأجلها في بطن الحوت. ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة. وكانت سبب إخراجه من الجنة. . .

(٢)**وقد** أرشد ـ سبحانه ـ إلىٰ هذا المسلك في غير موضع من كتابه فقال: **﴿ولو تقوَّل علينْا بعضَ الأقاويل * لأخذْنا منه باليمينْ * ثم لقطعْنا منْهُ الوتينْ * فما منكم من أحدٍ عنْه حاجزين﴾** [الحاقة: ٤٤، ٤٧] يقول سبحانه: لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوحه إليه لما أقررناه، ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه. هذا أحدا لقولين. قال ابن قتيبة: في هذا قولان:

**أحدهما:** أن اليمين القوة والقدرة، وأقام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في ميامنه قلت: وعلىٰ هذا تكون اليمين من صفة الأخذ، وهذا قول ابن عباس في اليمين.

**قال:** ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهذا أن الكلام ورد علىٰ ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل خذ بيده، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خذ بيده، واسفع بيده فكأنه قال:

---

(١) **٣٣٣** مدارج جـ١ (٢) ١١٤ التبيان.

لو كذب علينا في شيء (مما بلغ) إليكم عنا لأخذنا بيمينه، ثم عاقبناه بقطع الوتين. وإلىٰ هذا المعنىٰ ذهب الحسن ا هـ.

**فقد** أخبر ـ سبحانه ـ أنه لو تقول عليه شيئاً من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة. فإن كذبا على الله ليس ككذب علىٰ غيره، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه.

**ويقوله:** ﴿**ثُمَّ لقطعْنا منْه الوتْين**﴾ [الحاقة: ٤٦] والوتين: نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتىٰ يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوىٰ ومات صاحبه، هذا قول جميع أهل اللغة.

**قال** ابن قتيبة: ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه، ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه.

**قال:** ومثله قوله ﷺ: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان قطع أبهري**»[(١)] والأبهر: عرق يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه، فكأنه قال: فهذا أوان قتلني السم، فكنت كمن انقطع أبهره[(٢)].

**ثم** قال تعالىٰ: ﴿**فَمَا منْكُمْ منْ أحدٍ عنْه حاجزين**﴾ [الحاقة: ٤٧] أي لا يحجزه مني أحد ولا يمنعه مني.

**الموضع** الثاني قوله تعالىٰ: ﴿**أم يقُولُون افْترىٰ عَلَى الله كذباً فإن يشَأ الله يخْتمْ علىٰ قلْبِك ويمْحُو الله الباطل ويُحقَّ الحق بكلماتِهِ إنه عليمٌ بذاتِ الصُّدور**﴾ [الشورىٰ: ٢٤] وفي معنىٰ الآية للناس قولان:

---

(١) رواه البخاري معلقاً: ووصله البزار وغيره عن عائشة رضي الله عنها. والأبهر عرق في الظهر. وفي النهاية: ما زالت أكلة خيبر تعادني - بضم التاء وتشديد الدال - وأتىٰ للأبهر بمعان كثيرة. وقال الحافظ في الفتح (٧: ٣٣٨) قال ابن إسحاق: لما اطمأن النبي ﷺ بعد فتح خيبر أهدت إليه زينب بنت الحارث. امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية كانت سألت: أي عضو من الشاة أحب إليه؟ قيل لها الذراع. فكثرت فيها من السم. فلما تناول الذراع لاك منها مضغة ولم يسقط. وأكل معه بشر بن البراء فأساغ لقمته فمات.

(٢) **تقدم في تفسير آية ﴿شهد الله أنه لا إلـه إلا هو﴾** الآية في سورة آل عمران بحث على هذه الآية قريباً من هذا (ج).

**أحدهما**: قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، حتىٰ لا يشق عليك.

**والثاني**: قول قتادة: إن يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي. وهذا القول أقوىٰ من الأول لوجوه:

**(أحدهما)** أن هذا خرج جواباً لهم وتكذيباً لقولهم: إن محمداً كذب علىٰ الله وافترىٰ عليه هذا القرآن. فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن الله تعالىٰ قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم علىٰ قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلىٰ ما فيه، فيعود المعنىٰ إلىٰ أنه لو افترىٰ عليّ لم أمكنه ولم أقره.

**ومعلوم** أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا الله والبيان التام، والجزالة، والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم علىٰ قلبه أن يأتي به ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته علىٰ قلبه ويسرته بلسانه - لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه. فأين هذا المعنىٰ إلىٰ المعنىٰ الذي ذكره الآخرون؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم؟ وكيف يتضمن الرد عليهم؟.

**(الوجه** الثاني) أن مجرد الربط علىٰ قلبه بالصبر علىٰ أذاهم يصدر من المحق والمبطل، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما، ولا يكون فيه رد لقولهم، فإن الصبر علىٰ أذىٰ المكذب لا يدل بمجرده علىٰ صدق المخبر.

**(الثالث)** أن الربط علىٰ قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب، ولا هو المعهود في القرآن، بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن كقوله: ﴿**خَتَمَ الله عَلىٰ قُلُوبِهِمْ**﴾ [البقرة: ٧] وقوله: ﴿**افرَأَيْت من اتَّخذ إلـهَهُ هواهُ وأضلهُ الله علىٰ علم وختمَ علىٰ سمْعهِ وقلْبه وجعَلَ علىٰ بصرهِ غِشاوةً**﴾ [الجاثية: ٢٣] ونظائره، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله: ﴿**وربطْنَا علىٰ قُلُوبِهمْ إذْ قامُوا فقالُوا ربَّنا ربُّ**

**السَّمـوات والأَرْض﴾** [الكهف: ١٤] وقـوله: **﴿وأَصْبحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسىٰ فارغاً إنْ كادتْ لتُبدي به لولآ أَنْ ربطْنا علىٰ قلْبها﴾** [القصص: ١٠].

**والإنسان** يسوغ له في الدعاء أن يقول: اللهم اربط على قلبي، ولا يحسن أن يقول: اللهم اختم علىٰ قلبي.

**(الرابع)** أنـه سبحانه حيث يحكي أقوالهم «إنه افتراه» لا يجيبهم عليه هذا الجواب، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئاً، بل كان يأخذه ولا يقـدرون علىٰ تخليصه كقوله: **﴿أم يقُولُون افْتراهُ قلْ إن افتريتُه فلاَ تمْلكُون لي من الله شيئاً﴾** [الأحقاف: ٤] وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه، وتارة بإقامة الأدلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترون، وهذا هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر.

**(الخامس)** أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره ولا مكّنه. وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير.

**(السادس)** أنه لا دلالة في سياق الآية علىٰ الصبر بوجه ما: لا بالمطابقة؛ ولا التضمن، ولا اللزوم. فمن أين يعلم أنه أراد ذلك، ولم يستمر هذا المعنىٰ في غير هذا المعنىٰ، فيحمل عليه، بخلاف كونه يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه، فقد ذكره في مواضع.

**(السابع)** أنه ـ سبحانه ـ أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه كما قال تعالىٰ: **﴿قُل لو شاء الله ما تلوتُه عليكُم ولا أدْراكم به﴾** [يونس: ١٦]. وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها، أي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي، ولا أقدر أن أفتريه على الله ولو كان ذلك مقدوراً لي لكـان مقـدوراً لمن هو من أهـل العلم والكتـابة ومخالطة الناس والتعلم منهم، ولكن الله بعثني به، ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني، فلم يدعني أتلوه عليكم وأن أعلمكم به ألبتة لا علىٰ لساني ولا علىٰ لسان غيري، ولكنه أوحاه إلىٰ وأذن لي في تلاوته عليكمُ، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به. فلو كان كذباً وافـتراءًا كما تقـولـون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم وتدرون به من جهته، لأن

الكذب لا يعجز عنه البشر، وأنتم لم تدروا بهذا ولم تسمعوه إلا مني ولم تسمعوه من بشر غيري.

**ثم** أجاب عن سؤال مقدر وهو أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه، فقال: ﴿**فقدْ لبثْتُ فيكُمْ عُمُراً من قَبْلِهِ**﴾ [يونس: ١٦] تعلمون حالي ولا يخفىٰ عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي. ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه ألبتة، ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم، ولا معاناة للأسباب التي أتمكن بها منه، ولا من بعضه، وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين أنه من عند الله أوحاه إليّ وأنزله عليّ ولو شاء ما فعل. فلم يمكني من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به، بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه، ولم أكن قبل أن يوحى إليّ تالياً له ولا لبعضه. فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته.

**ومن** هذا قوله ـ سبحانه ـ: ﴿**ولَئِن شئْنا لنذْهبنَّ بالَّذي أوْحيْنا إليك ثُمَّ لا تجدُ لك به علَيْنا وكيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٦] وهذا هو المناسب لقوله: ﴿**أمْ يقُولون افْترىٰ على الله كذباً فإن يشأ الله يخْتم على قلْبك**﴾ [الشورىٰ: ٢٤] ولقوله: ﴿**ولو تقوَّل علينا بعضَ الأقاويلِ لأخذْنا منْه باليَمين**﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥] وبرهان مستقل مذكور في القرآن علىٰ وجوه متعددة والله أعلم.

**(الثامن)** أن مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للإثبات، كقوله تعالىٰ: ﴿**ولئِن شئْنا لنذْهبنَّ بالَّذي أوْحيْنا إليك**﴾ [الإسراء: ٨٦] وقوله: ﴿**إن يشأْ يُذْهبْكُمْ أيُّها النَّاسُ ويأتِ بآخرين**﴾ [النساء: ١٣٣] وقوله: ﴿**إنْ يشأْ يُسْكن الرِّيْحَ فيظْللن رواكد علىٰ ظهْره**﴾ [الشورىٰ: ٣٣] وقوله: ﴿**إن نشأ نخْسِفْ بهِمُ الأرْض أو نُسْقطْ عليهمْ كسفاً من السَّماء**﴾ [سبأ: ٩] ونظائره لم يأت إلا فيما كان مابعد فعل المشيئة منفيًا.

**(التاسع)** أن الختم علىٰ القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف، بخلاف الربط على

القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالىٰ: ﴿ويُنزِّل عليكُمْ من السَّماء ماءً ليُطهِّرَكُمْ به ويُذْهبَ عنكُمْ رجْز الشَّيطان وليرْبطَ علىٰ قُلُوبكم﴾ [الأنفال: ١١] ومعنىٰ الربط في اللغة الشد. ولهذا يقال لكل من صبر علىٰ أمر: ربط قلبه، كأنه حبس قلبه عن الاضطراب.

**ومنه** يقال: هو رابط الجأش. وقد ظن الواحدي أن «على» زائدة، والمعنىٰ يربط قلوبكم، وليس كما ظن، بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر، فإنه يقال ربط الفرس والدابة ولا يقال ربط عليها. فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه. كأنه أحاط عليه بالربط. فلهذا قيل: ربط علىٰ قلبه، وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه.

**والمقصود** أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

**(العاشر)** أن الختم هو شد القلب، حتىٰ لا يشعر ولا يفهم، فهو مانع يمنع العلم والقصد. والنبي ﷺ كان يعلم قول أعدائه: إنه افترىٰ القرآن، ويشعر به، فلم يجعل الله علىٰ قلبه مانعاً من شعوره بذلك وعلمه به. فإذا قيل الأمر كذلك، ولكن جعل الله علىٰ قلبه مانعاً من التأذي بقولهم. قيل: هذا أولىٰ أن يسمىٰ ختماً، وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿قدْ نعْلمُ إنَّه ليحْزُنُك الَّذي يقُولُون﴾ [الأنعام: ٣٣] وكان وصول هذا الآذىٰ إليه من كرامة الله له، فإنه لم يؤذ نبي ما أوذيَ. فالقول في الآية هو قول قتادة. والله أعلم.

**ثم** أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقي، فيبصر ما ينفعه فيأتيه، وما يضره فيجتنبه، ويتذكر به أسماء الرب تعالىٰ وصفاته وأفعاله فيؤمن، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه، وما يزكيها ويطهرها ويعليها، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها. ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار، وعلم الخير والشر. فهو التذكرة على الحقيقة، تذكرة حجة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلمين.

**ثم** قال ـ سبحانه ـ: ﴿وإنَّا لنعْلمُ أنَّ منْكُمْ مُكذِّبينَ﴾ [الحاقة: ٤٩] أي لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم.

**ثم** أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات، حين لا ينفعهم التحسر. وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله، حتىٰ إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة.

**ثم** أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين، فقيل، هو من باب إضافة الموصوف إلىٰ صفته، أي الحق اليقين، نحو مسجد الجامع، وصلاة الأولىٰ. وهذا موضع يحتاج إلىٰ تحقيق فنقول، وبالله التوفيق:

**ذكر** الله ـ سبحانه ـ في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالىٰ: ؟﴿**كَلَّا لو تعْلَمُون علْم اليقينْ * لترونّ الجحيْمَ * ثُمَّ لترونَّها عَيْـنَ اليقِين**﴾ [التكاثر: ٥-٧] فهذه ثلاث مراتب لليقين: أولها علمه، وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلاً، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله، وتيقنهم صدق المخبر.

(**المرتبة** الثانية) عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ لترونَّها عينْ اليقيـنْ**﴾ [التكاثر: ٧] وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة: فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر.

**وفي** المسند للإمام أحمد مرفوعاً: «**ليس الخبر كالمعاين**» وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه، وطمأنينة لقلبه. فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان.

**وعلى** هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»(١) ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، معاينة بعد سماع.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة عن أبي هريرة.

**(المرتبة** الثالثة) مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به. كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتىٰ يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين. ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب، فلهذا قال: ﴿**وإنَّه لحقُّ اليقينْ**﴾ [الحاقة: ٥١] فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقىٰ لها حق اليقين، وهذه أعلى مراتب الإيمان وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين. وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاث مثالاً.

**فقال:** إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي عسل أريد أن أطعمك منه فصدقته كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين.

**وعلى** هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلىٰ صفته.

**بل** من إضافة الجنس إلىٰ نوعه فإن العلم والعين والحق أعم من كونها يقيناً فأضيف العام إلىٰ الخاص، مثل بعض المتاع وكل الدراهم. ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب يصدقان علىٰ ذات واحدة بخلاف قولك: دار عمرو وثوب زيد ظن من ظن أنها من إضافة الموصوف إلىٰ صفته، وليس كذلك، بل هي من باب إضافة الجنس إلىٰ نوعه، كثوب خز وخاتم فضة، فالمضاف إليه قد يكون مغاير للمضاف لا يصدقان علىٰ ذات واحدة، وقد يجانسه فيصدقان علىٰ مسمىٰ واحد والله أعلم.

**ثم** ختم السورة بقوله: ﴿**فسبِّحْ باسْم ربِّك العظيم**﴾ [الحاقة: ٥٣]. وهي جديرة بهذه الخاتمة، لما تضمنته من الأخبار عن عظمة الرب تعالىٰ وجلاله.

**وذكر** عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة.

**وذكر** عظمته تعالىٰ في إرسال رسوله وإنزال كتابه، وأنه تعالىٰ أعظم وأجل وأكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذاباً متقولاً عليه، مفتري عليه، يبدل دينه، وينسخ شرائعه، ويقتل عباده، ويخبر عنه بما لا حقيقة له، وهو سبحانه

مع ذلك يؤيده وينصره، ويجيب دعواته، ويأخذ أعداءه، ويرفع قدره، ويعلي ذكره. فهو سبحانه ـ العظيم ـ الذي تأبىٰ عظمته أن يفعل ذلك بمن أتىٰ بأقبح أنواع الكذب والظلم. فسبحان ربنا العظيم، وتعالىٰ عما ينسبه إليه الجاهلون علوًّا كبيراً.

[1]**(فإن قيل)**: فما الفائدة في دخول الباء في قوله: ﴿**فسبح باسم ربك العظيم**﴾ ولم تدخل في قوله ﴿**سبِّح اسْم ربِّك الأعلىٰ**﴾ [الأعلىٰ: ١] قيل: التسبيح يراد به التنزيه والذكر المجرد دون معنىٰ آخر.

**ويراد** به ذلك مع الصلاة وهو ذكر وتنزيه مع عمل؛ ولهذا تسمىٰ الصلاة تسبيحاً. فإذا أُريد التسبيح المجرد فلا معنىٰ للباء، لأنه لا يتعدىٰ بحرف جر، لا تقول: سبحت بالله.

**وإذا** أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة أدخلت الباء تنبيهاً علىٰ ذلك المراد كأنك قلت. سبح مفتتحاً باسم ربك أو ناطقاً باسم ربك كما تقول صلِّ مفتتحاً أو ناطقاً باسمه.

**ولهذا** السر والله أعلم دخلت اللام في قوله تعالىٰ: ﴿**سبَّح لله ما في السَّموات والأرضِ**﴾ [الحديد: ١] والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة ولم يقل في موضع: سبح الله ما في السموات والأرض. كما قال: ﴿**ولله يسْجُدُ منْ في السَّمواتِ والأرْضِ**﴾ [الرعد: ١٥].

**وتأمل** قوله تعالىٰ ﴿**إنَّ الذين عند ربِّك لا يستكبرُون عن عبادتِه ويسبِّحونه ولـهُ يسجُـدُون**﴾ [الأعراف: ٢٠٦] فكيف قال ويسبحونه لما ذكر السجود باسمه الخاص فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه.

[2]**وعبر** لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة. فقال: المعنى سبح ناطقا باسم ربك، متكلما به. وكذا ﴿**سبح اسم ربك**﴾ المعنى سبح ربك ذاكرا اسمه.

**وهذه** الفائدة تساوي رحلة لكن لمن يعرف قدرها. فالحمد لله المنان بفضله ونسأله تمام نعمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحاقة

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٠ بدائع جـ١.　(٢) ١٩ بدائع جـ١.




## بسم الله الرحمن الرحيم

[١]**قوله** ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وإذا مسَّه الخيرُ مَنُوعاً**﴾ [المعارج: ١٩-٢١] وهذا تفسير الهلوع، وهو شدة الحرص الذي يترتب عليه الجزع والمنع.

**فأخبر** ـ سبحانه ـ أنه خلق الإنسان كذلك، وذلك صريح في أن هلعه مخلوق لله، كما أن ذاته مخلوقة. فالإنسان بجملته: ذاته وصفاته وأفعاله وأخلاقه مخلوق لله، ليس في شيء خلق لله وشيء خلق لغيره، بل الله خالق الإنسان بجملته وأحواله كلها. فالهلع فعله حقيقة، والله خالق ذلك في حقيقة، فليس الله ـ سبحانه ـ بهلوع ولا العبد هو الخالق لذلك.

[٢]**ويضاد** الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة، والمنع عند ورود النعمة قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إذا مسَّهُ الشرُّ جَزُوعاً * وإذا مسَّه الخيرُ منُوعاً**﴾ [المعارج: ١٩-٢١]. وهذا تفسير الهلوع قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقد ولع بالكسر فهو هلع وهلوع.

**وفي** الحديث «**شر ما في العبد شح هالع وجبن خالع**» قلت: هنا أمران: أمر لفظي وأمر معنوي، فأما اللفظي فإنه وصف الشح بكونه هالعاً صاحبه، وأكثر ما يسمىٰ هلوعاً ولا يقال هالع له، فإنه لا يتعدىٰ، ففيه وجهان: أحدهما أنه علىٰ النسب: كقولهم: ليل نائم، وسر كاتم، ونهار صائم، ويوم عاصف. كله عند سيبويه علىٰ النسب، أي ذو كذا كما قالوا: تامر ولابن.

**والثاني** أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير. وأما المعنوي فإن الشح والجبن أردىٰ صفتين في العبد، ولا سيما إذا كان شحه هالعاً، أي ملق له في الهلع، وجبنه خالع أي قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة ولا شجاعة ولا

(١) ٦٠ شفاء.　　(٢) ٣٠٢ عدة الصابرين.

نفع بماله ولا ببدنه. كما يقال: لا طعنة ولا جفنة ولا يطرد ولا يشرد بل قد قمعه وصغّره وحقّره ودسّاه الشح والخوف والطمع والفزع.

**وإذا** أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستظامة والاستكانة وباء بها سريعاً، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعاً، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح فلا احتمال ولا إفضال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها وتدسيسها في البدن وإخفائها وتحقيرها، والله المستعان.

(١)**ذم** الإنسان وأنه خلق هلوعاً، لا يصبر على شر ولا خير، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع إلا من استثنىٰ بعد ذلك من الناجين من خلقه. فذكر منهم ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِم حَافِظُون * إِلَّا علىٰ أَزْوَاجِهِم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانُهُم فإنَّهم غيرُ ملومين * فَمَنِ ابْتغىٰ وَرَآءَ ذَلِكَ فأُوْلَئِكَ هُمُ العَادُون**﴾ [المعارج: ٢٩-٣١] وأمر الله ـ تعالىٰ ـ نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ [غافر: ١٩] ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج. فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر، ثم تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة. ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه. اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط على ثغورها فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار، ويُتبر ما علا تتبيراً.

(٢)**و«الأدب»** هو الدين كله، فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب؛ حتىٰ يقف بين يدي الله

---

(١) ٢٠٢ الجواب الكافي.　　(٢) ٣٨٤ مدارج جـ٢.

طاهراً. ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته. للوقوف بين يدي ربه.

**وسمعت** شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة. فقال ـ تعالى ـ: ﴿**خُذُوا زِينَتَكُم عِنْدَ كلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: ٣١] فعلق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيذاناً بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة.

**وكان** لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال. وكان يلبسها وقت الصلاة. ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

**ومعلوم:** أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يحب أن يرىٰ أثر نعمته على عبده. لا سيما إذا وقف بين يديه. فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهراً وباطناً.

**ومن** الأدب: نهي النبي ﷺ المصلي «أن يرفع بصره إلىٰ السماء».

**فسمعت** شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً، خافضاً طرفه إلىٰ الأرض. ولا يرفع بصره إلىٰ فوق.

**قال:** والجهمية - لما لم يفقهوا هذا الأدب، ولا عرفوه - ظنوا أن هذا دليل أن الله ليس فوق سمواته، على عرشه. كما أخبر به عن نفسه. واتفقت عليه رسله. وجميع أهل السنة.

**قال:** وهذا من جهلهم. بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول ﷺ على نقيض قولهم. إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلىٰ الأرض. ولا يرفع بصره إليهم. فما الظن بملك الملوك سبحانه؟.

**وسمعته** يقول - في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود - إن القرآن هو أشرف الكلام. وهو كلام الله. وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد. فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولىٰ به.

**ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة. كما**

ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة، وغيرهم. رضي الله عنهم. والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان. كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

**ومن** الأدب مع الله، في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنىٰ على اليسرىٰ حال قيام القراءة، ففي الموطإ لمالك عن سهل بن سعد «أنه من السنة» و «كان الناس يؤمرون به» ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء. فعظيم العظماء أحق به.

**ومنها:** السكون في الصلاة. وهو الدوام الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ هُمْ على صَلَاتِهِم دَائِمُون**﴾ [المعارج: ٢٣] أهم الذين يصلون دائماً؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه.

**قلت:** هما.

**أمران:** الدوام عليها. والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالىٰ: ﴿**والَّذِينَ هُمْ علىٰ صَلَاتِهِمْ يُحافِظُون**﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة.

**وأدبه** في استماع القراءة: أن يلقىٰ السمع وهو شهيد.

**وأدبه** في الركوع: أن يستوي. ويعظم الله تعالىٰ، حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه. ويتضاءل ويتصاغر في نفسه. حتىٰ يكون أقل من الهباء.

**والمقصود:** أن الأدب مع الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ: هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهراً وباطناً.

**ولا يستقيم** لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علماً وعملاً وحالاً. والله المستعان.

[1]**قال** ـ تعالىٰ ـ: ﴿**والَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ**﴾ [المعارج: ٣٣] فيكون قائماً

(١) ٢٦٦ الجواب الكافي.

بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت. ومنهم من تكون مضطجعة. ومنهم من تكون إلىٰ القيام أقرب. وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروح ميتة وروح مريضة إلىٰ الموت أقرب، وروح إلىٰ الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

**وفي** الحديث الصحيح عنه ﷺ «**إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت رُوحُه لها رَوْحاً**» فحياة هذا الروح بهذه الكلمة فكما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات علىٰ هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوىٰ وعيشها أطيب عيش، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه وَنَهَىٰ النَّفْسَ عن الهَوَىٰ * فإنَّ الجَنَّةَ هيَ المَأْوَىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلىٰ لقائه والفرح به والرضىٰ عنه وبه مأوىٰ روحه في هذا الدار.

**فمن** كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً. والأبرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ [النحل: ٩٧] وطيب الحياة: جنة الدنيا...

[1]**ينبه** ـ سبحانه ـ الإنسان علىٰ مبدأ خلقه الضعيف من الماء المهين، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره من حال إلىٰ حال حتىٰ جعله بشراً سويًا، يسمع ويبصر ويقول وينطق ويبطش ويعلم فنسىٰ مبدأه وأوله، وكيف كان، ولم يعترف بنعم ربه عليه، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**أَيَطْمَعُ كل امْرِيءٍ مِّنهُمْ أَن يُدْخَلَ جنَّةَ نَعِيمٍ * كلاَّ إنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يعلمُون**﴾ [المعارج: ٣٨-٣٩] وأنت إذا تأملت ارتباط إحدىٰ الجملتين بالأخرىٰ وجدت تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم، فأشار ـ سبحانه ـ بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلىٰ موضع الحجة والآية الدالة علىٰ وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به من ذلك أن يتركهم

---

(١) ٣٦ شفاء.

سدىً، لا يرسل إليهم رسولاً ولا ينزل عليهم كتاباً وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقاً جديداً أو بعثهم إلىٰ دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكفرون ويكذبون رسلي ويعدلون بي خلقي وهم يعلمون من أيّ شيء خلقتهم.

(1)**قوله** عز وجل: ﴿**فلاَ أُقْسِمُ بربِّ المشارقِ والمغاربِ إنَّا لقادرُون * علىٰ أن نُبدِّلَ خيراً مّنْهُمْ وما نَحْنُ بمسبُوقِينَ**﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١] أقسم ـ سبحانه ـ برب المشارق والمغارب. وهي إما مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها.

**وأن** كل موضع من الجهة مشرق ومغرب، فكذلك جمع في موضع، وأفرد في موضع، وثنىٰ في موضع آخر، فقال: ﴿**ربُّ المشرقينْ وربُّ المغربينْ**﴾ [الرحمن: ١٧] فقيل: هما مشرقا الصيف والشتاء، وجاء في كل موضع ما يناسبه، فجاء: في سورة الرحمن ﴿**ربُّ المشرقينْ وربُّ المغربينْ**﴾ [الرحمن: ١٧] لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات، فذكر فيها الخلق والتعليم، والشمس، والقمر، والنجوم، والشجر، والسماء، والأرض، والحب، والثمر والجن والإنس ومادة أبي البشر وأبي الجن، والبحرين والجنة والنار، وقسم الجنة إلىٰ جنتين عاليتين وجنتين دونهما، و أخبر أن في كل جنة عينين، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين، والمغربين.

**وأما** سورة ﴿**سأَلَ سائِلٌ**﴾ فإنه أقسم ـ سبحانه ـ علىٰ عموم قدرته وكمالها، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم. فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع؛ إذ هو أدل على المقسم عليه، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب. فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالىٰ على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين، وينشئهم فيما لا يعلمون. فيأتي بهم في نشأة أخرىٰ، كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع، ويذهب (بها) في مغرب.

**وأما** في سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد، لما كان المقصود ذكر ربوبيته، ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يجب

---

(١) ١٢١ التبيان.

أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رب سواه. فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إلـه ولا وكيل سواه.

**وكذلك** قال موسىٰ لفرعون حين سأله: ﴿وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] فقال: ﴿ربُّ المَشْرِقِ والمَغرِبِ وما بَيْنَهُما إنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

**وفي** ربوبيته ـ سبحانه ـ للمشارق والمغارب تنبيه علىٰ ربوبيته السموات وما حوته من الشمس، والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين. وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه.

**ثم** قال: ﴿إنَّا لَقَادِرُونَ * علىٰ أَنْ نُبَدِّل خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠-٤١] أي لقادرون علىٰ أن نذهب بهم ونأتي بأطوع لنا منهم وخيراً منهم، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيراً﴾ [النساء: ١٣٣] وقوله: ﴿وما نحن بمسْبوقين﴾ أي لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني. وعبر عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وما نحنُ بمسبوقين﴾ [الواقعة: ٦٠] لأن المغلوب يسبقه الغالب إلىٰ ما يريده فيفوت عليه. ولهذا عدّى بـ [على] دون [إلى] كما في قوله: ﴿وما نحنُ بمسبوقين * علىٰ أنْ نُبدِّلَ أَمْثَالَكُم﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] فإنه لما ضمّنه معنىٰ مغلوبين ومقهورين عداه بعلىٰ، بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنىٰ غلبته وقهرته عليه. والثاني بمعنىٰ وصلت إليه قبله.

## فصل

**وقد** وقع الإخبار عن قدرته ـ سبحانه ـ على تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم.

**فهذه** ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها في الجمع والفرق.

**فحيث** وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته علىٰ أن يذهب بهم ويأتي بأطوع وأتقىٰ له منهم في الدنيا. وذلك قوله: ﴿وإنْ تتولَّوا يستبدلْ قوماً غيركُمْ ثمَّ لا يكُونُوا أمثالَكم﴾ [محمد: ٣٨] يعني بل يكونوا خيراً منكم. قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيراً من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم.

**وأما** ذكره تبديل أمثالهم، ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان. فقال في الواقعة: ﴿**نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الموتَ وَمَا نَحْنُ بمسْبُوقِين * على أن نُبدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ونُنْشِئَكُمْ فِيما لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] وقال في سورة الإنسان: ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وإِذَا شِئْنَا بدَّلنا أَمْثَالَهُمْ تبْدِيلاً**﴾ [الإنسان: ٢٨]. قال كثير من المفسرين: المعنىٰ أنا إذا أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك.

**وفي** قوله: ﴿**وإذا شئنا بدَّلنا أَمْثَالَهُم تَبْدِيلاً**﴾ [الإنسان: ٢٨] إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم. فجعلناهم بدلاً منهم. قال المهدوي: قوماً موافقين لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل، ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول.

**وعلى** هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالىٰ: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّها النَّاسُ ويأتِ بآخَرِينَ**﴾ [النساء: ١٣٣] فيكون استدلالاً بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم علىٰ إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

**ثم** استدل ـ سبحانه ـ بالنشأة الأولىٰ فذكرهم بها فقال: ﴿**ولقد علمتُمُ النشأةَ الأُولىٰ فلولاَ تذكَّرُونَ**﴾ [الواقعة: ٦٢] فنبههم بما علموه وعاينوه علىٰ صدق ما أخبرتهم به رسله من النشأة الثانية.

**والذي** عندي في معنىٰ هاتين الآيتين، وهما آية الواقعة والإنسان أن المراد بتبديل أمثالهم الخلق الجديد والنشأة الآخرة التي وعدوا بها.

**وقد** وفق الزمخشري لفهم هذا من سورة الإنسان، فقال: وبدلنا أمثالهم في شد الأسر، يعني النشأة الأخرى. ثم قال: وقيل وبدلنا غيرهم ممن يطيع، وحقه أن يأتي بـ [إن] لا بـ [إذا]، كقوله: ﴿**وإنْ تتولَّوا يسْتبدلْ قوماً غيْركم**﴾ [محمد: ٣٨].

**قلت:** وإتيانه بـ [إذا] التي لا تكون إلا للمحقق الوقوع يدل علىٰ تحقق وقوع هذا التبديل وأنه واقع لا محالة. وذلك هو النشأة الأخرىٰ التي استدل علىٰ إمكانها بقوله: ﴿**ولقد علمتُم النشأة الأُولىٰ**﴾ [الواقعة: ٦٢] واستدل بالمثل علىٰ المثل، وعلى ما أنكروه بما عاينوه وشاهدوه، وكونهم أمثالهم هو إنشاؤهم خلقا جديدًا بعينه فهم هم بأعيانهم وهم أمثالهم فهم أنفسهم يعادون.

**فإذا** قلت: المعاد هذا هو الأول بعينه صدقت، وإن قلت: هو مثله صدقت،

فهو هو معاد أو هو مثل الأول. وقد أوضح هذا ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم. وقد سماه الله - سبحانه وتعالىٰ ـ إعادة، والمعاد مثل المبدأ، وسماه نشأة أخرىٰ وهي مثل الأولىٰ، وسماه خلقاً جديداً وهو مثل الخلق الأول كما قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لبس من خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وسماه أمثالاً وهم هم. فتطابقت ألفاظ القرآن وصدّق بعضها بعضاً، وبيّن بعضها بعضاً. ولهذا تزول إشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله.

**ولا يفهم** من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين: إنهم غيرهم من كل وجه. فهذا خطأ قطعاً - معاذ الله من اعتقاده -، بل هم أمثالهم وهم أعيانهم. فإذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة إلا ضيق العطن، صغير العقل، ضعيف العلم.

**وتأمل** قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أفرأيتم مَّا تُمْنُونَ أأنتم تَخْلُقُونه أَمْ نَحْنُ الخالِقُونَ نحْنُ قدَّرْنا بيْنكُمُ المَوْتَ﴾ [الواقعة: ٥٩، ٦٠] كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلاً بها على النشأة الثانية بقوله: ﴿وما نحنُ بمسبُوقين على أن نبدِّل أمثالكُم ونُنْشِئَكُمْ في مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون. فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم. وهذا من كمال قدرة الرب تعالىٰ ومشيئته، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها.

**فأي** استدلال وإرشاد أحسن من هذا وأقرب إلىٰ العقل والفهم، وأبعد من كل شبهة وشك؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان. وقال في سورة الإنسان: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُم وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ فهذه النشأة الأولىٰ ثم قال: ﴿وإذا شئنا بدَّلنا أَمْثَالَهُم تَبْدِيلاً﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأخرىٰ. ونظير هذا ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَىٰ * من نُّطْفَةٍ إذا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٥-٤٧] وهذا في القرآن كثير جدًّا، يقرن بين النشأتين مذكراً للفطر والعقول بإحداهما علىٰ الأخرىٰ. وبالله التوفيق.

# فصـــل

**فلما** أقام عليهم الحجة وقطع المعذرة قال: ﴿فَذَرْهُم يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُون﴾ [المعارج: ٤٢].

**وهذا** تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه. فالأول ضد العلم النافع. والثاني ضد العمل الصالح. فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب. وهذا شأن كل من أعراض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين.

**ثم** ذكر ـ سبحانه ـ حالهم عند خروجهم من القبور. فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

**أي** يسرعون. والنصب العلم والغاية التي تنصب فيؤمونها. وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه؛ فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلىٰ الداعي، يؤمون الصوت، لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨] أي يقبلون من كل أوب إلىٰ صوته وناحيته، لا يعرجون عنه. قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها. وقال الزجاج: المعنىٰ لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

**فإن قلت**: إذا كان المعنىٰ لا عوج لهم عن دعوتي، فكيف قال: (لا عوج له).

قيل: قالت طائفة: اللام بمعنىٰ [عن] أي لا عوج عنه.

**وقالت** طائفة: المعنىٰ لا عوج لهم عن دعائي، كما قال الزجاج وفي القولين تكلف ظاهر. ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه، كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما. والمعنىٰ لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له.

**ثم قال تعالىٰ**: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ [المعارج: ٤٤] فوصفهم بذل الظاهر، وهو خشوع الأبصار، وذل الباطن، وهو مايرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم.

**وقريب** من هذا قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥]. ونظيره قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ [يونس: ١٦].

**وضد** هذا قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨] فنفىٰ عنه الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو ذل الظاهر.

**وضده** أيضاً قوله: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة عزُّ الظاهر وجماله، والسرور عز الباطن وجماله.

**ومثله** أيضاً قوله: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوراً﴾. [الإنسان:٢١]. فجمع لهم بين زينة الظاهرة والباطن.

**ومثل** قوله: ﴿يابَنِي آدمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْآتِكُم وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن.

**ومثله** قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بزِينَةٍ الكَوَاكِبِ * وحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ [الصافات: ٦-٧] فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظُ من كل شيطان رجيم.

**ومثله** قوله أيضاً: ﴿وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر: ٦٤]. وقريب منه قوله تعالىٰ: ﴿وتزودُوا فإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾

**ومنه** قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُم فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]. فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن.

**ومنه** قول امرأة العزيز: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فيه وَلَقَدْ راودتُّهُ عن نَّفْسِهِ فاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة، فوصفته بجمال الظاهر والباطن، فكأنها قالت: هذا ظاهره، وباطنه أحسن من ظاهره.

**وهذا** كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن قدراً وشرعاً. والله أعلم بالصواب.

**هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المعارج**

**والحمد لله رب العالمين**




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**من** أعظم الظلم والجهل؛ أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿مَّالَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً﴾ [نوح: ١٣] أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه، والتوقير: العظمة. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وتوقّروهُ﴾

**قال** الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرونه. وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم. وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة، وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته.

**وهذه** الأقوال ترجع إلىٰ معنىً واحد؛ وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته، وحدوه وأطاعوه وشكروه. فطاعته سبحانه، واجتناب معاصيه، والحياء منه بحسب وقاره في القلب.

**ولهذا** قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره، فيقرن اسمه به؛ كما تقول: قبح الله الكلب والخنزير والنتن، ونحو ذلك؛ فهذا من وقار الله.

**ومن** وقاره أن لا تعدل به شيئاً من خلقه، لا في اللفظ، بحيث تقول: والله وحياتك، مالي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة، فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله؛ بل أعظم كما عليه أكثر الظلمة والفجرة.

**ولا في** الخوف والرجاء، ويجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه، ويقول: هو مبني علىٰ المسامحة، ولا يجعله علىٰ الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه.

**ولا يكون** الله ورسوله في حد وناحية، والناس في ناحية وحد، فيكون الحد والشق الذي فيه الناس، دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله.

---

(١) ١٨٧ فوائد.

**ولا يعطي** المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه، ويعطي الله في خدمته بدنه، ولسانه دون قلبه وروحه. ولا يجعل مراد نفسه مقدماً علىٰ مراد ربه.

**فهذا** كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقاراً ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره؛ فذاك وقار بغض، لا وقار حب وتعظيم.

**ومن** وقار الله أن يستحي من إطلاعه علىٰ سره وضميره؛ فيرىٰ فيه ما يكره. ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

**والمقصود** أن من لا يوقر الله وكلامه، وما آتاه من العلم والحكمة، كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه.

**القرآن** والعلم وكلام الرسول ﷺ صلات من الحق وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشيب زاجر ورادع وموقظ قائم بك. فلا ما ورد إليك وعظك، ولا ما قام بك نصحك، ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك، فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظاً وانزجاراً، وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزجر بالنظر إلىٰ مصابه. فالضرب لم يؤثر فيه زجراً، وهو يريد الانزجار ممن نظر إلىٰ ضربه. من سمع بالمثلات والعقوبات والآيات في حق غيره، ليس كمن رآها عياناً في غيره: فكيف بمن وجدها في نفسه؟ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] فآياته في الآفاق مسموعة معلومة، وآياته في النفس مشهودة مرئية، فعياذاً بالله من الخذلان. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

**والعاقل** المؤيد بالتوفيق يعتبر بدون هذا، ويتمم نقائص خلقته بفضائل أخلاقه وأعماله، فكلما امتحىٰ من جثمانه أثر، زاد إيمانه أثر، وكلما نقص من قوىٰ بدنه، زاد في قوة إيمانه ويقينه ورغبته في الله والدار الآخرة، وإن لم يكن هكذا فالموت خير له، لأنه يقف به على حد معين من الألم والفساد، بخلاف العيوب والنقائص مع

طول العمر، فإنها زيادة في ألمه وهمه وغمه وحسرته، وإنما حسن طول العمر ونفع ليحصل التذكر والاستدراك، واغتنام الفرص والتوبة النصوح؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فيه مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

**فمن** لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل علىٰ حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته؛ فإن العبد علىٰ جناح سفر؛ إما إلىٰ الجنة وإما إلىٰ النار.

**فإذا** طال عمره وحسن عمله، كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة؛ فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل.

**وإذا** طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلىٰ أسفل؛ فالمسافر إما صاعد وإما نازل. وفي الحديث المرفوع: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله**».

**فالطالب** الصادق في طلبه، كلما خرب شيء من ذاته، جعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئاً من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته، وكلما ناله همّ أو حزن أو غمّ، جعله في أفراح آخرته، فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده؛ كان رحمة به وخيراً له؛ وإلا كان حرماناً وعقوبة علىٰ ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب علىٰ هذه الأربعة، وبالله التوفيق.

(1)... **ومنها**: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف. فكل راج خائف، وكل خائف راج، ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لله وَقَاراً﴾ [نوح: ١٣]. قال كثير من المفسرين: المعنىٰ ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنىٰ الخوف.

**والتحقيق**: أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِيْنَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ الله﴾

---

(١) ٥١ مدارج جـ٢.

[الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

**ومنها:** أن العبد إذا تعلق فيه برجاء ربه، فأعطاه مارجاه: كان ذلك ألطف موقعاً، وأحلىٰ عند العبد. وأبلغ من حصول ما لم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكَم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذ الدار. فعلىٰ قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مَخُوفهم.

**ومنها:** أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضىٰ والإنابة وغيرها. ولهذا قَدَّر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه. فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

**ومنها:** أن في الرجاء - من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله - ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة كما تقدم بيانه.

(١)... **قال** تعالىٰ: ﴿**مَّالَكُمْ لا تَرْجُونَ لله وَقَاراً**﴾ [نوح: ١٣] قالن ابن عباس ومجاهد: لاترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: مالكم لاتعظمون لله حق عظمته؟ وقال الكلبي: لاتخافون لله عظمة.

**قال** البغوي: و«الرجاء» بمعنىٰ المَخُوف. و«الوقار» العظمة. اسم من التوقير. وهو التعظيم: وقال الحسن: لاتعرفون لله حقًا، ولاتشكرون له نعمة.

**وقال** ابن كيسان: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم علىٰ توقيركم إياه خيراً.

**وروح** العبادة: هو الإجلال والمحبة. فإذا تخلىٰ أحدهما عن الآخر فسدت. فإذا اقترن بهذين الثناء علىٰ المحبوب المعظم. فذلك حقيقة الحمد. والله سبحانه أعلم.

(٢)**ومن** أعظم مكايده التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالىٰ فتنته: ما أوحاه قديماً وحديثاً إلىٰ حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور. حتىٰ آل الأمر فيها إلىٰ أن عُبد أربابُها من دون الله، وعُبدتْ قَبورهم، واتُّخذت أوثاناً،

---

(١) ٤٩٥ مدارج جـ. (٢) ١٧٢ إغاثة جـ١.

وبُنيت عليها الهياكل، وصُوِّرت صورُ أربابها فيها، ثم جُعلت تلك الصور أجساداً لها ظل، ثم جُعلت أصناماً، وعبدت مع الله تعالىٰ.

**وكان** أولُ هذا الداء العظيم في قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي واتَّبَعُوا منْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلدُهُ إلاَّ خَسَاراً * ومَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا لاتذَرُنَّ آلهتَكُمْ ولاتذَرُنَّ ودّاً ولاَسُواعاً ولاَ يغُوثَ ويعُوقَ ونسْراً * وقَدْ أَضَلُّوا كثيراً﴾ [نوح: ٢١-٢٤].

**قال** ابن جرير: «وكان من خبر هؤلاء- فيما بلغنا -: ما حدثنا به ابن حُميد حدثنا مهْران عن سفيان عن موسىٰ عن محمد بن قيس: أن يَغوثَ ويَعوق ونَسرا كانوا قوماً صالحين من بني آدم. وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوقَ لنا إلىٰ العبادة إذا ذكرناهم. فصوّرهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم» قال سفيان عن أبيه عن عِكْرمة قال: «كان بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون، كلهم على الإسلام» حدثنا ابن عبد الأعلىٰ حدثنا عبد الرزاق(١) عن مَعْمر عن قتادة في هذه الآية قال: «كانت آلهةً يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك. فكان وَدٌّ لكَلْب بدَوْمَة الجَنْدَل، وكان سُواع لِهُذَيل. وكان يَغوث لبَني غُطَيف من مُراد. وكانَ يَعوقُ لِهَمْدَان. وكان نَسر لذي الكُلاع من حِمْير». وقالَ الوالِبي: عن ابن عباس «هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح عليه السلام».

**وقال** البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسىٰ حدثنا هشام عن ابن جُريج قال: قال عطاء عن ابن عباس «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ. أما وَدّ فكانت لكلب بدُومَة الجَنْدل. وأما سُواع فكانت لهذيل. وأما يَغُوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطَيف بالجُرْف عند سَبأ. وأما يعوق فكانت لهمْدان. وأما نَسْر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع؛ وكان أوّل ما كاد به عُبّاد الأصنام من جهة العكوف

---

(١) كذا في الأصول. والذي في تفسير ابن جرير – الطبعة الأميرية – حدثنا ابن عبد الأعلىٰ قال حدثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة.

علىٰ القبور، وتصاوير أهلها، ليتذكروهم بها، كما قَصَّ الله ـ سبحانه ـ قصصهم في كتابه، فقال: ﴿**وقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولَا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يغُوثَ ويَعُوقَ وَنَسْراً**﴾ [نوح: ٢٣].

**قال** البخاري في صحيحه: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكو أوحَىٰ الشيطانُ إلىٰ قومهم: أن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعْبَد حتىٰ إذا هلك أولئك ونُسخَ العلم عبُدتْ».

**وقال** ابن جرير عن محمد بن قَيْس قال «كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم، الذبن كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم، كان أشوقَ لنا إلىٰ العبادة، إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليسُ، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقَون المطَرَ، فعبدوهم».

**وقال** هشام بن محمد بن السائب الكلبي: أخبرني أبي قال: «أوّلُ ما عبُدت الأصنامُ أنّ آدم ـ عليه السلام ـ لما مات جعله بنو شَيْثٍ بن آدم في مَغارة في الجبل الذي أُهبط عليه آدم بأرض الهند، ويقال للجبل: نوذ[1]، وهو أخصب جبل في الأرض».

**قال** هشام: فأخبرني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «فكان بنو شيث ـ عليه السلام ـ يأتون جَسَدَ آدم في المغارة، فيعظمونه، ويَترَّحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل بن آدم: يابني قابيل، إن لبني شيث دَوَار[2] يدورون حولَه ويعظمونه وليس لكم شيء فنحتَ لهم صنماً، فكان أوّلَ من عملها».

**قال** هشام: وأخبرني أبي قال: «كان وَدٌّ، وسُواعُ، ويَغُوثُ، ويَعُوق، ونَسْر: قوماً صالحين، فماتوا في شهر، فجَزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني

(١) نوذ - بالنون المفتوحة - عن كتاب الأصنام طبعة دار الكتب. وبهامشه لطابعه أحمد زكي باشا: قال أبو عبيد البكري في معجم ما استعجم: الراهون جبل بالهند: وهو الذي أنزل عليه آدم. وإليه ينسب الحجر الراهوني. قال الهمداني: إنما هو جبل الراهوم بالميم - لأن الرهام لا تكاد تفارقه. قال: والعجم تسميه نوذ، أو يوذ: شكّ الهمداني.

(٢) الدوار - بتخفيف الواو مفتوحة - الطواف.

قابيل: ياقوم، هل لكم أن أعملَ لكم خمسة أصنام علىٰ صورهم؟ غير أني لا أقدرُ أن أجعل فيها أرواحاً، فقالوا: نعم. فنحت لهم خمسة أصنام علىٰ صورهم ونصبها لهم. . . .

[١] **وكان** من تلك الأصنام ذو الخلصة وكان مَرْوَةً بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكان له بيت بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة وكان سدنتها بنو أمامة من باهِلة بن أعْصُرَ[٢] وكانت تعظمها وتُهدِي لها خَثْعَمُ وبجيلة، [وأزْدُ السَّرَاةِ ومن قاربهم من بُطونَ العرب من هَوازن[٢]] فقال رسُول الله صلى الله تعالىٰ عليه وآله وسلم لجرير[٣]: «**ألا تكْفيني ذا الخَلَصَة؟**» فسار إليه بأحْمَس، فقاتلته خَثعَمُ وباهِلَة دونه، فظفر بهم[٤]. **وهَدَم بيتَ ذِي الخلصة وأضرم فيه النار فاحترق** [٥]. وذو الخلصة اليوم عَتبةُ باب مسجد تَبالَة.

**وكان** لدَوْس صَنمٌ يقال له: «ذو الكَفَّين» فلما أسلموا بعثَ رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وآله وسلم الطُّفيلَ بن عَمْرو فَحَرَّقه. وكان لبني الحارث بن يَشْكُرَ [بن مُبشر من الأزد[٦]] صنم يقال له «ذو الشَّرَى». وكان لقُضَاعةَ ولَخْمْ وجُذام. وعامِلةَ وغَطْفان، صَنمٌ في مَشارِف الشام يقال له «الأُقيصر». وكان لمُزَيْنة صَنمٌ يقال له «نُهم» وبه كانت تسمى عبدنُهْم [٧].

---

(١) ٢١٥ إغاثة جـ٢.

(٢) الزيادة من كتاب الأصنام.

(٣) في الأصنام - بعد أن ذكر قصة رجل قتل أبوه فاستقسم عند ذي الخلصة فخرج السهم ينهاه عن الأخذ بثأره فقال شعراً يهجو به ذا الخلصة، ثم قال هشام: فلما فتح رسول الله ﷺ مكة، وأسلمت العرب، ووفدت عليه وفودها. قدم عليه جرير بن عبد الله مسلماً. فقال له: يا جرير، ألا تكفيني ذا الخلصة؟ فقال: بلىٰ. فوجهه إليه. فخرج حتىٰ أتىٰ بني أحمس من بجيلة، فسار بهم إليه.

(٤) في الأصنام: فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مائة رجل. وأكثر القتل في خثعم. وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم. فظفر بهم.

(٥) قال هشام: وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تذهب الدنيا حتىٰ تصطك أليات نساء دوس علىٰ ذي الخلصة. يعبدونه كما كانوا يعبدونه**».

(٦) الزيادة من كتاب الأصنام.

(٧) ثم قال هشام: وكان سادن «نهم» يسمىٰ خزاعي بن عبدنهم من مزينة، ثم من بني عداء. فلما =

**وكان** لأزْدِ السراة صنم يقال له «عائم»[1]]. وكان لِعَنَزَة صنم يقال له «سُعَير»[2]. وكان لِطَيِّيءٍ صنم يقال له «الفَلْس» [3].

**وكان** لأهل كلِّ دار من مكة صنم في دارهم، كان يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخرَ ما يصنعُ في منزله: أنْ يتمسَّحَ به، وإذا قدِم من سفره، كان أولَ ما يَصْنع إذا دخلَ منزله: أنْ يتمسَّحَ به.

**قال** ابن إسحاق: وكان لخولان صنَمٌ يقال له: عَمّ أنَس[3] بأرض خَوْلان، يَقسمون له من أنعامهم، وحروثهم، قَسْماً بينه وبين الله، بزعمهم، فما دَخلَ في

= سمع بالنبي ﷺ ثار إلىٰ الصنم، فكسره، وأنشأ يقول:

ذهبتُ إلىٰ نُهْمٍ لأذْبحَ عنده		عَتِيْرَةَ نُسْكٍ، كالذي كنتُ أفعل
فقلت لنفسي حين، راجعتُ عَقْلَها		أهذا إلهٌ؟ أيُّكم ليس يعقل؟
أبَيْتُ، فديني اليوم دينُ محمد		إلهُ السماء الماجدُ المتفضِّل

ثم لحق بالنبي ﷺ. فأسلم وضمن له إسلام قومه مزيناً.

(١) ثم قال هشام: فخرج جعفر بن أبي خلاس الكلبي عن ناقته، فمرت به - وقد عترت عنزة عنده - فنفرت ناقته منه. فأنشأ يقول:

نَفَرَتْ قَلُوصِي من عَتَائرَ صرِّعتْ		حَوْل السُّعَيْرِ، تَزُوره ابنا يَقْدُمِ
وجموعُ يَذْكُرَ مُهْطِعين جنابَه		ما إن يُحِيْرُ إليهمُ بتكلُّمِ

قال أبو المنذر: «يقدم» و«يذكر» ابنا عنزة. فرأىٰ هؤلاء يطوفون حول السعير.

(٢) «الفلس» بفتح الفاء وسكون اللام، وضبط بهامش نسخة الأصنام عن الخازمي - بضم الفاء. وعن ابن دريد في الجمهرة بكسر الفاء. وذكر عن إجماع ثقات النسابين أنه بفتحها وسكون اللام.

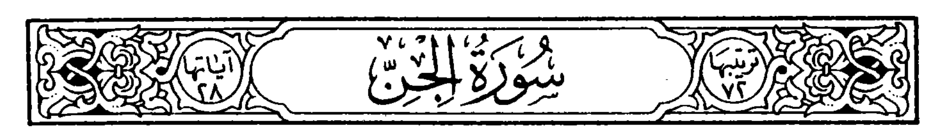
قال هشام أبو المنذر: وكان أنفاً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له «أجأ» أسود، كأنه تمثال إنسان وكانوا يعبدونه ويهدون إليه: ويعترون عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له ولم تخفر حويته، وكانت سدنته بنو بولان - بفتح الباء وسكون الواو - وبولان هو الذي بدأ بعبادته. فكان آخر من سدنه منهم رجل يقال له «صيفي» إلىٰ أن قال: فلم يزل الفلس يعبد حتىٰ ظهرت دعوة النبي ﷺ فبعث إليه علي بن أبي طالب فهدمه.

(٣) قال هشام: وكان لخولان صنم يقال له «عميانس» بضم العين ثم ميم ساكنة. ثم باء مفتوحة بعدها ألف ثم نون مضمومة - بأرض خولان. وفي الهامش مانصه: بهامش نسخة الخزانة الزكية عبارة هذا نصتها. «عم أنس» في السيرة. قال أحمد زكي باشا - طابع الأصنام والمعلق عليها - وقد حذا اليعمري حذو ابن هشام. ثم قال: لم يرد الاسم «عم أنس» في كتب اللغة المعتبرة التي وقعت لي اهـ. وقد ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (ج ٢ ص ١٩١) عن ابن إسحاق: قال وكان لخولان بأرضهم صنم يقال له «عم أنس» اهـ.

حق الله من حَقّ عم أنس[1] ردُّوه عليه، ومَا دخَل في حقِّ الصنم من حق الله الذي سَمَّوْ له تركوه له وفيهم أنزل الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَجَعَلُوا اللهِ مِمَّا ذَرأ مِنَ الحرْث والأَنعَامِ نصيباً فقالُوا هذا لله بِزَعْمِهِمْ وَهَذا لِشُركائِنا فَمَا كان لِشُركائهمْ فلا يَصِلُ إلىٰ اللهِ وما كانَ للهِ فهو يصلُ إلىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة نوح
والحمد لله رب العالمين

(١) في الأصنام «عميانس».




## بسم الله الرحمن الرحيم

[1]**الفصل** الثاني في المستعاذ به، وهو الله وحده رب الفلق * ورب الناس ملك الناس، إلـه الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

**وقد** أخبر - تعالىٰ - في كتابه عن من استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغياناً ورهقاً. فقال حكاية عن مؤمني الجن. ﴿**وأنَّه كانَ رجالٌ من الإنسِ يعوذونَ برجالٍ من الجنِّ فزادُوهُم رَهَقاً**﴾ [الجن: ٦].

**جاء** في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسىٰ في أرض قفر. قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتىٰ يصبح أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً أي طغياناً وإثماً وشرًّا يقولون: سدنا الإنس والجن.

**والرهق** في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

**واحتج** أهل السنة علىٰ المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات**» وهو ﷺ **لا يستعيذ بمخلوق أبداً**.

**ونظير** ذلك قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك**» فدل علىٰ أن رضاه وعفوه من صفاته وأنه غير مخلوق[2]. . .

[3]**قوله** تعالىٰ: ﴿**فإمَّا يأتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدىً**﴾ [البقرة: ٣٨] هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله: ﴿**اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عدُوٌّ**﴾ [طه: ١٢٣].

**ثم** قال: ﴿**فإمَّا يأتِيَنَّكُمْ مني هُدىً**﴾ [البقرة: ٣٨] وكلا الخطابين لأبوي الثقلين،

---

(١) ٢٠٣ بدائع جـ٢.		(٢) تتمة البحث في تفسير سورة الفلق نقلاً عن البدائع (ج).

(٣) ٣٧ مفتاح جـ١.

وهو دليل علىٰ أن الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة وأن نبينا بعث إليهم كما بعث إلىٰ الإنس كما لا خلاف بينهم أن مسيئهم مستحق للعقاب.

**وإنما** اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة فالجمهور علىٰ أن محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار.

**وقيل** بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة. وحُكِي هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ.

**واحتج** الأولون بوجوه. أحدها هذه الآية فإنه ـ سبحانه ـ أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى. وهذا مستلزم لكمال النعيم.

**ولا يقال:** إن الآية إنما تدل علىٰ نفي العذاب فقط.

**ولا خلاف** أن مؤمنيهم لا يعاقبون لأنا نقول لو لم تدل الآية إلا علىٰ أمر عدمي فقط لم يكن مدحاً لمؤمني الإنس ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدمي وهو عدم الخوف والحزن.

**ومعلوم** أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به أن من اتبع هدىٰ الله الذي أنزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء، وعبر عن هذا المعنىٰ المطلوب بنفي الأمور المذكورة لاقتضاء الحال لذلك، فإنه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره ـ سبحانه ـ أنه معطيه وذريته عهداً من اتبعه منهم انتفىٰ عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء. ومعلوم أنه لا ينتفي ذلك كله إلا بدخول دار النعيم ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات أولىٰ.

**الثاني** قوله تعالىٰ: **﴿وإذْ صرَفْنَا إليْكَ نَفراً من الجنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فلمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أنصِتُوا فلمَّا قُضِيَ ولَّوا إلىٰ قومِهم مُّنْذِرينَ * قالُوا ياقَوْمَنا إنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِن بعْدِ مُوسىٰ مُصدِّقاً لِّمَا بيْنَ يَدَيْه يَهْدِي إلىٰ الحَقِّ وإلىٰ طَريقٍ مُّسْتَقِيمٍ * ياقَوْمَنَا أجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لكُمْ مِّن ذُنُوبِكُم ويُجِرْكُمْ منْ عذابٍ**

أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١]. فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم إخباراً مقرراً أن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب، ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلاً بقوله: ﴿ويُجِرْكُمْ منْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة.

**الثالث** قوله ـ تعالىٰ ـ في الحور العين: ﴿لَمْ يطْمثْهُنَّ إنْسٌ قبْلهُمْ ولا جانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤] فهذا يدل علىٰ أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور فدل علىٰ أن مؤمنيهم يتأتىٰ منهم طمث الحور العين بعد الدخول كما يتأتىٰ من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الإخبار عنهم بذلك.

**الرابع** قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فإنْ لَّمْ تفعلُوا ولنْ تفعلُوا فاتَّقُوا النَّارَ الَّتي وقُودُها النَّاسُ والحجارةُ أُعدَّتْ للكافرين * وبشِّرِ الذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أنَّ لهم جنَّاتٍ تجْرِي من تحْتها الأنْهارُ كُلَّما رُزقُوا منْها من ثَمرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذي رُزقْنا منْ قبلُ وأُتُوا به مُتَشَابهًا ولهُمْ فيها أزْواجٌ مُطهَّرةٌ وهُمْ فيْها خالدُون﴾ [البقرة: ٢٤-٢٥] والجن منهم مؤمن ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: ﴿وأنَّا منَّا المُسْلِمُون ومنَّا القاسِطُونَ﴾ فكما دخل كافرهم في الآية الثانية وجب أن يدخل مؤمنهم في الأولىٰ.

**الخامس** قوله عن صالحيهم. ﴿فمَنْ أسْلَم فأُولَئكَ تحرَّوا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤] والرشد هو الهدىٰ والفلاح وهو الذي يهدي إليه القرآن ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد، بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم.

**السادس** قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿سَابقُوا إلىٰ مغْفرةٍ من رَّبِّكُمْ وجنَّةٍ عرضُها كعرْضِ السَّمآءِ والأرْضِ أُعدَّتْ للَّذِين آمنُوا بالله ورُسُله ذٰلك فضلُ الله يؤْتيه من يشاءُ والله ذو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة.

**السابع** قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿والله يدْعو إلىٰ دارِ السَّلام ويهْدِي من يشآءُ إلىٰ صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]. عم ـ سبحانه ـ بالدعوة وخصّ بالهداية المفضية إليها فمن

هداه إليها فهو ممن دعاء إليها فمن اهتدىٰ من الجن فهو من المدعوين إليها.

**الثامن** قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً يا مَعْشَرَ الجنِّ قد استكْثَرْتُم من الإِنْسِ وقالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنْسِ ربَّنا اسْتَمْتَعَ بعضُنا ببَعْضٍ وبَلَغْنَا أجلَنا الَّذي أَجَّلْتَ لنا قال النَّارُ مثْواكم خالدين فيها إلَّا ما شآءَ اللهُ إنَّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بعضَ الظَّالمين بعْضاً بما كانُوا يكْسِبُونَ * يامعْشَرَ الجنِّ والإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنكُم يقُصُّونَ عليكُمْ آياتي ويُنْذِرُونكُمْ لقآءَ يومِكُمْ هذا قالوا شهِدْنَا علىٰ أَنْفسِنَا وغرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا وشهدُوا علىٰ أنفسِهِم أنهُم كانُوا كافرين * ذٰلك أَن لَّمْ يَكُن ربُّكَ مُهْلِكَ القُرَىٰ بظُلْمٍ وأهلُها غافلُونَ * ولكُلٍّ درجاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا**﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٣٢]. وهذا عام في الجن والإنس، فأخبرهم ـ تعالىٰ ـ أن لكلهم درجات من عمله فاقتضىٰ أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الإنس.

**التاسع** قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إنَّ الَّذين قالُوا ربُّنا اللهُ ثُمَّ اسْتقامُوا تتنزَّلُ عليهِمُ الْمَلآئكةُ ألَّا تخافُوا ولا تحْزنُوا وأبشِرُوا بالجنَّةِ التي كنْتُمْ تُوعدون**﴾ [فصلت: ٣٠] وقوله تعالىٰ: ﴿**إنَّ الَّذينَ قالُوا ربُّنا اللهُ ثُمَّ استقامُوا فلَا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزْنُون * أُولَئك أصحْابُ الجنَّةِ خالدِيْن فيها جزآءً بِمَا كانُوا يعْملُونَ**﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

**ووجه** التمسك بالآية من وجوه ثلاثة. أحدها عموم الاسم الموصول فيها.

**الثاني** ترتيبه الجزاء المذكور علىٰ المسألة ليدل علىٰ أنه مستحق بها، وهو قول: ربنا الله، مع الاستقامة، والحكم يعم بعموم علته فإذا كان دخول الجنة مرتباً علىٰ الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة علىٰ أمره فمن أتىٰ ذلك استحق الجزاء.

**الثالث** أنه قال: ﴿**فلَا خوفٌ عليهِمْ ولا هم يحْزنُون * أولَئك أصحْابُ الجنَّةِ خالدِين فيهَا جزآءً بمَا كانُوا يعْملُون**﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤] فدل علىٰ أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة، وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالىٰ: ﴿**فمنْ تبِعَ هُدايَ فلَا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنُونَ**﴾ [البقرة: ٣٨] وأنه متناول للفريقين، ودلت هذه الآية علىٰ أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

**العاشر** أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله، فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولىٰ، فإن رحمته سبقت غضبه، والفضل أغلب من العدل، ولهذا لا يدخل

النار إلا من عمل أعمال أهل النار. وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيراً قط، بل ينشيء لها أقواماً يسكنهم إياها من غير عمل عملوه، ويرفع بها درجات العبد من غير سعي منه، بل بما يصل إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها إليه بخلاف أهل النار، فإنه لا يعذب فيها بغير عمل أصلاً. وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون.

**لكن** قيل: إنهم يكونون في ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده، فإن ثبتت حجة يجب اتباعها، وإلا فهو مما يحكى ليعلم، وصحته موقوفة على الدليل، والله أعلم.

(١)**الطبقة** الثامنة عشرة: طبقة الجن.

**وقد** اتفق المسلمون على أن منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر. قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿**وأنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ ومنَّا دُونَ ذٰلك كُنَّا طرائقَ قِدَداً**﴾ [الجن: ١١].

**قال** مجاهد: يعنون مسلمين وكافرين: وقال الحسن والسدي: أمثالكم، فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وقال سعيد بن جبير: ألواناً شتى. وقال ابن كيسان: شيعاً وفرقاً. ومعنى الكلام: أصنافاً مختلفة ومذاهب متفرقة. ثم قيل في إعراب الآية ﴿**ومنَّا دُونَ ذٰلك**﴾ [الجن: ١١] قوم دون ذلك فحذف الموصوف وأقام صفته مقامه كقوله: ﴿**وَما مِنَّا إلَّا لهُ مقامٌ معْلُومٌ**﴾ [الصافات: ١٦٤] أي إلا من له مقام معلوم، وكقوله: ﴿**ومنَ الَّذينَ هادُوا سمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**﴾ [المائدة: ٤١] أي فريق سماعون، وكقوله: ﴿**من الَّذينَ هادُوا يُحرِّفُونَ الْكلِمَ عن مواضعه**﴾ [النساء: ٤٦] أي فريق يحرفون، وكقوله على أظهر القولين: ﴿**ومنَ الَّذِينَ أشْرَكُوا يَوَدُّ أحَدُهُمْ**﴾ [البقرة: ٩٦] أي فريق يودّ أحدهم، وقال الشاعر:

فظلوا ومنهم دمعه سابق لهم     وآخر يذري دمعة العين بالمهل

**أي** ومنهم من دمعه. وقولهم: ﴿**كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً**﴾ [الجن: ١١] بيان لقولهم:

---

(١) ٤١٤ طريق الهجرتين.

﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ ومِنَّا دُون ذٰلك﴾ [الجن: ١١] أي كنا ذوي طرائق - وهي المذاهب - واحدها طريقة وهي المذهب، والقدد جمع قدة، كقطعة وقطع وزنا ومعنىٰ. وهي من القد وهو القطع.

**وقيل:** كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة في اختلافها، وعلىٰ هذا فالمعنىٰ: كنا طرائق قدداً وليس بشيء.

**وأضعف** منه قول من قال: إن طرائق منصوب علىٰ الظرف، أي كنا في طرق مختلفة كقوله: عسل الطريق الثعلب. وهذا مما لا يحمل عليه أفصح الكلام. وقيل: المعنىٰ كانت طرائقنا طرائق قدداً، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

**وقال** تعالىٰ إخباراً عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُون ومنَّا القاسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤] فالمسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله منهم، والقاسطون الجائرون العادلون عن الحق، قال ابن عباس: هم الذين جعلوا لله أنداداً، يقال: أقسط الرجل إذا عدل، فهو مقسط. ومنه: ﴿وأقسِطْوا إنَّ الله يحبُّ المُقسِطين﴾ [الحجرات: ٩]، وقسط إذا جار فهو قاسط ﴿وأمَّا القاسِطُونْ فكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن: ١٥].

**قد** تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلىٰ ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار. وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار. فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار.

**وهذا** كما قسّم - سبحانه - بني إسرائيل إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وقَطَّعْناهمْ في الأرْضِ أُمماً منهُمُ الصَّالحونَ ومنهُمْ دُونَ ذٰلك﴾ [الأعراف: ١٦٨] فهؤلاء الناجون منهم، ثم ذكر الظالمين، وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم.

**ولما** كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولاً ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أخر ليس شيء منها للجن، وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون. فليس في الجن صنف من هؤلاء، بل حليتهم الصلاح.

**وذهب** شذاذ من الناس إلىٰ أن فيهم الرسل والأنبياء محتجين علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿يامعْشرَ الجْنِّ والإنْسِ ألمْ يأْتكُمْ رسُلُ منكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وبقوله:

﴿وَإِذْ صرَفْنا إليْكَ نفرًا منَ الجْنِّ إلىٰ قوله مُنذرين﴾ **وقد قال الله تعالىٰ**: ﴿رُسلاً مُبشِّرينَ ومنـذْرينَ﴾ [النساء: ١٦٥] وهذا قول شاذ لا يلتفت إليه، ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام، وقوله تعالىٰ: ﴿ألَمْ يأْتكُمْ رسلٌ منكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] لايدل علىٰ أن الرسل من كل واحدة من الطائفتين، بل إذا كانت الرسل من الإنس، وقد أمرت الجن باتباعهم صح أن يقال للإنس والجن: ألم يأتكم رسل منكم.

**ونظير** هذا أن يقال للعرب والعجم: ألم يجئكم رسل منكم يامعشر العرب والعجم، فهـذا لايقتضي أن يكـون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء. وقال تعالىٰ: ﴿وجعَلَ القمَرَ فيهنَّ نوراً﴾ [نوح: ١٦] وليس في كل سماء قمر وقوله تعالىٰ: ﴿ولَّوْا إلىٰ قومهِمْ مُنْـذرين﴾ [الأحقاف: ٢٩] فالإنذار أعم من الرسالة والأعم لايستلزم الأخص، قال تعـالىٰ: ﴿فلوْلاَ نفرَ منْ كلِّ فرْقةٍ منهُمْ طائفةٌ ليتفقَّهُوا في الدِّين ولينذرُوا قومهُمْ إذا رجعُوا إليهـمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] فهؤلاء نذر وليسوا برسل. قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم النذر قال تعالىٰ: ﴿وَما أرسلْنا من قبلكَ إلاَّ رجالاً نُوحيْ إليهمْ منْ أهلِ القُرىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩] فهذا يدل علىٰ أنه لم يرسل جنيًّا ولا امرأة ولا بدويًّا.

**وأما** تسميته تعالىٰ الجن رجالاً في قوله: ﴿وأنَّهُ كان رجالٌ من الإنْسِ يعوذُون برجـالٍ منَ الجنِّ﴾ [الجن: ٦] فلم يطلق عليهم الرجال، بل هي تسمية مقيدة بقوله: ﴿منَ الجْنِّ﴾ فهم رجال من الجن ولا يستلزم ذلك دخولهم في الرجال عند الإطلاق كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب ونحوه.

**(فصل)** وقد اتفق المسلمون علىٰ أن كفار الجن في النار، وقد دلَّ علىٰ ذلك القرآن في غير موضع كقوله تعالىٰ: ﴿ولـٰكن حقَّ القولُ منِّي لأملأنَّ جهنَّمَ من الجنَّةِ والنَّاس أجْمعِين﴾ [السجدة: ١٣] وقوله تعالىٰ: ﴿لأملأنَّ جهنَّمَ منْك وممَّنْ تبعكَ منهُمْ أجمعِين﴾ [صٓ: ٨٥] الآية فلمؤها منه به وبكفار ذريته. وقال تعالىٰ: ﴿ادْخُلُوا في أُممٍ قدْ خلتْ منْ قبلكُمْ من الجنِّ والإنسِ في النَّار﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقال تعالىٰ حكايةً عن مؤمنهم: ﴿وأنَّا منَّا المُسلمُونَ ومنَّا القاسطُون﴾ - إلىٰ قوله - ﴿حطباً﴾

[الجن: ١٤، ١٥]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ولقدْ ذرأنا لجهنَّمَ كثيراً منَ الجنِّ والإنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال الله تعالىٰ: ﴿فكُبْكِبُوا فيها هُمْ والغاوُون وجُنودُ إبْليس أجْمعون﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥] وجنوده إن لم يختص بالشياطين فهم داخلون في عمومه.

**وبالجملة** فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع الأنبياء ووجوب اتباعهم لهم.

**فأما** شريعتنا فأجمع المسلمون علىٰ أن محمدًا ﷺ بعث إلىٰ الجن والإنس، وأنه يجب علىٰ الجن طاعته، كما يجب علىٰ الإنس. وأما قبل نبينا ﷺ فقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا في أمم قدْ خلَتْ منْ قبْلكُمْ من الجنِّ والإنْس في النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] يدل علىٰ أن الأمم الخالية من كفار الجن في النار، وذلك إنما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة.

**وقد** دلت سورة الرحمٰن علىٰ تكليفهم بالشرائع كما كلف الإنس، ولهذا يقول في إثر كل آية (الرحمٰن): ﴿فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان﴾ فدل ذلك علىٰ أن السورة خطاب للثقلين معاً، ولهذا قرأها رسول الله ﷺ علىٰ الجن قراءة تبليغ، وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردًّا منهم، فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكذِّبان﴾: لا نكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد.

**ولما** كان أبوهم هو أول من دعا إلىٰ معصية الله، وعلىٰ يده حصل كل كفر وفسوق وعصيان، فهو الداعي إلىٰ النار، وكان أول من يكسى حلة من النار يوم القيامة يسحبها وينادي «واثبوراه» فأتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون «واثبوراهم، حتىٰ قيل: إن كل عذاب يقسم علىٰ أهل النار يبدأ به فيه، ثم يصير إليهم.

**(فصل)** وأما حكم مؤمنيهم في الدار الآخرة: فجمهور السلف والخلف علىٰ أنهم في الجنة. وترجم علىٰ ذلك البخاري في صحيحه(١) فقال: (باب ثواب الجن وعقابهم) لقوله تعالىٰ: ﴿يا معْشر الجنِّ والإنْس ألمْ يأْتكُمْ رسلٌ منكُمْ يقصُّون عليكُمْ آياتي﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية. بخساً نقصاً.

**قال** مجاهد: ﴿وجَعَلُوا بينَهُ وبيْنَ الجنَّةِ نسباً﴾ [الصافات: ١٥٨] قال كفار قريش:

---

(١) كتاب بدء الخلق ٥٩ باب ١٢.

الملائكة بنات الله، وأمهاتهم بنات سروات الجن. قال الله تعالىٰ: ﴿ولقَدْ علمتِ الجنـةُ إنَّهمْ لمحْضرُون﴾ [الصافات: ١٥٨] ستحضر للحساب. ثم ذكر حديث أبي سعيد «إذا كنت في غنمك أو باديتك فأذَّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدىٰ صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة، سمعته من رسول الله ﷺ. هذا ما ذكره في الباب.

**وقد** ذهب جمهور الناس إلىٰ أن مؤمنيهم في الجنة. وحُكي عن أبي حنيفة وغيره أن ثوابهم نجاتهم من النار. واحتج لهذا بقوله تعالىٰ حكاية عنهم: ﴿ياقوْمنا أجيبُوا دَاعِيَ الله﴾ [الأحقاف: ٣١] الآية فجعل غاية ثوابهم إجارتهم من العذاب الأليم.

**وأما** الجمهـور فقالوا: مؤمنهم في الجنة كما أن كافرهم في النار. ثم اختلفوا فأطلق أكثر الناس دخول الجنة ولم يقيدوه. وقال سهل بن عبد الله: يكونون في ربض الجنة، يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم.

**فهذه** مذاهب الناس في أحكامهم في الآخرة.

**وأما** أحكامهم في الدنيا فاختلف الناس: هل هم مكلفون بالأمر والنهي، أم هم مضـطرون علىٰ أفعالهم؟ علىٰ قولين حكاهما أبو الحسن الأشعري في كتاب (المقالات) له فقال: واختلف الناس في الجن، هل هم مكلفون، أم مضطرون؟ فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم: هم مأمورون منهيون، وقد أمروا ونهوا، وهم مختارون. وزعم زاعمون أنهم مضطرون.

**قلت:** الصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنهم مأمورون منهيون مكلفون بالشريعة الإسلامية. وأدلة القرآن والسنة علىٰ ذلك أكثر من أن تحصر. فإضافة هذا القول إلىٰ المعتزلة بمنزلة أن يقال: ذهبت المعتزلة إلىٰ القول بمعاد الأبدان، ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الإسلام.

**وقـال** الله تعـالىٰ: ﴿أُولـئِكَ الَّذين حقَّ عليهْمُ القولُ في أُممٍ قدْ خلتْ منْ قبلهِمْ منَ الجنِّ والإِنْس إنَّهُمْ كانوا خاسرين﴾ [الأحقاف: ١٨] فأخبر أن منهم من حق عليه القول أي وجب عليه العذاب وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم.

**ثم** قال بعد ذلك ﴿**ولكُلٍّ درجاتٌ مِما عملُوا**﴾ [الأنعام: ١٣٢] أي في الخير والشر يوفونها، ولا يظلمون شيئاً من أعمالهم، وهذا ظاهر جدًّا في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئهم كما يستحق العذاب بإساءته، فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر. وقال الله تعالىٰ: ﴿**وقيَّضْنا لهُمْ قُرناءَ فزَيَّنُوا لهُمْ ما بينْ أيْديهمْ وما خلْفهُمْ وحقَّ عليهمُ القولُ في أممٍ قدْ خلتْ منْ قبلهمْ مِّن الجنِّ والإنس**﴾ [فصلت: ٢٥] الآية. ومعنىٰ الآية: أن الله قيض للمشركين - أي سبّب لهم - قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

**وقيل** عكس هذا وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة.

**وقال** الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

**وفي** الآية قول رابع وهو أن التزيين كله راجع إلىٰ أعمالهم فزينوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد. وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق.

**ومن** جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر، فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتىٰ لم يذكر البغوي غيره، وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سببّنا لهم قرناء: نظراء من الشياطين حتىٰ أضلوهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتىٰ آثروه علىٰ الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلىٰ التكذيب به وإنكار البعث.

**والمقصود** أن قوله تعالىٰ: ﴿**وحقَّ عليهمُ القولُ في أُممٍ قدْ خلتْ منْ قبلهمْ مِّن الجنِّ والإنْس إنَّهم كانُوا خاسِرِين**﴾ [فصلت: ٢٥] أي وجب عليهم العذاب مع

أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل علىٰ تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم، وقال تعالىٰ: ﴿ويوْم يحشُرُهمْ جميعاً يامعشرَ الجنِّ قدْ استكثرْتُمْ منَ الإنْس وقالَ أولياؤُهُمْ منَ الإِنْس ربَّنـا استمْتعَ بعضُنا ببعْضٍ وبلغنا أجلنا الَّذي أجَّلْت لنا﴾ - إلىٰ قوله تعالىٰ - ﴿إلاَّ ماشاءَ اللهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم دون الله، ليستعينوا بهم علىٰ شهواتهم وأغراضهم. فإنهم كانوا يستوحونهم، ويعوذون بهم، ويذبحون لهم وبأسمائهم، ويوالونهم من دون الله، كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان. فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض، ولهذا يقول تعالىٰ للملائكة يوم القيامة - وقد جمع العابدين والمعبودين -: ﴿أهؤُلاء إيَّاكُمْ كانُوا يعبُدُون قالُوا سُبْحانكَ أنْت وليُّنا منْ دُونهمْ بلْ كانُوا يعبُدُون الجنَّ أكْثرهُمْ بهمْ مؤمِنُون﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين. وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده. وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر. وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلىٰ هذا الشرك بالجن فقال:

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم		وأنت إلـٰهي ربنا ورجاؤنا

**ولهذا** يقولون: في القيامة: ﴿ربَّنا استمْتعَ بعضُنا ببعْضٍ وبلغنْا أجلنا الَّذي أجلْت لنـا﴾ [الأنعام: ١٢٨] قال الله تعالىٰ: ﴿النَّارُ مثْواكمْ خالدين فِيها إلاّ ما شاءَ اللهُ﴾ فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب. وهو كثير في القرآن. ومما يدل علىٰ تكليفهم أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿يـا معْشر الجنِّ والإِنْس ألمْ يأْتكُمْ رسـلُ منكُمْ يقصُّون عليكُمْ آيـاتي﴾ - إلىٰ قوله تعالىٰ - ﴿كـافرين﴾ [الأنعام: ١٣٠] فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا علىٰ أنفسهم بالكفر، دل ذلك علىٰ تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم. وقال تعالىٰ: ﴿وإذْ صرفْنـا إليكَ نفراً منَ الجنِّ يسْتمعُونَ القرْآن فلمَّا

**حضرُوه قالُوا أنصتُوا﴾** - إلىٰ قوله - **﴿أُولَـٰئِكَ في ضَلال مُبين﴾** [الأحقاف: ٢٩-٣٢] فهذا يدل علىٰ تكليفهم من وجوه متعددة:

**(أحدها)** أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ صرفهم إلىٰ رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه.

**(الثاني)** أنهم ولوا إلىٰ قومهم منذرين. والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

**(الثالث)** أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلىٰ الحق، وهذا القول منهم يدل علىٰ أنهم عالمون بموسىٰ وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلىٰ صراط مستقيم. وهذا يدل علىٰ تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون علىٰ امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

**(الرابع)** أنهم قالوا لقومهم: **﴿ياقوْمنا أجيبُوا داعِيَ اللهِ وآمنُوا به﴾** [الأحقاف: ٣١] وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

**(الخامس)** أنهم قالوا: **﴿يغْفرْ لكُمْ من ذُنوبكُمْ﴾** والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر.

**(السادس)** أنهم قالوا: **﴿منْ ذنُوبكُمْ﴾** والذنب مخالفة الأمر.

**(السابع)** أنهم قالوا: **﴿ويجركُمْ من عذابٍ أليمٍ﴾** [الأحقاف: ٣١] وهذا يدل علىٰ أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

**(الثامن)** أنهم قالوا: **﴿ومَن لا يُجبْ داعيَ الله فليْسَ بمُعجزٍ في الأرْضِ وليْسَ لهُ من دُونه أوْلياء﴾** [الأحقاف: ٣٢] وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم. وقد استدل بها علىٰ أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسىٰ كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن. والآية لا تستلزمه، ولكن قوله تعالىٰ: **﴿يامعْشرَ الجنِّ والإنْسِ ألمْ يأْتكُمْ رسلٌ منكُمْ﴾** [الأنعام: ١٣٠] الآية يدل علىٰ أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، والآيات المتقدمة تدل علىٰ ذلك أيضاً.

**وعلى** هذا فيكـون اختصـاص النبي ﷺ بالبعثة إلىٰ الثقلين هو اختصاصه بالبعثـة إلىٰ جميعهم لا إلىٰ بعضهم، ومن قبله كان يبعث إلىٰ طائفة مخصوصة. وأيضاً قال ـ تعالىٰ ـ عن نبيه سليمان: ﴿**ومنَ الجنِّ منْ يعملُ بينَ يديْه بإذْن ربِّهِ ومنْ يزغْ منهُمْ عنْ أمْـرنـا نذقـهُ منْ عذابِ السَّعـير**﴾ [سبأ: ١٢] وهـذا محض التكليف. وقد تقدم قوله حكاية عنهم: ﴿**وأنَّا منَّا المُسلِمُون ومنَّا القاسطُون فمنْ أسلَمَ**﴾ – إلىٰ قوله تعالىٰ – ﴿**لجهنَّمَ حطَباً**﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

**وقد** صح أن رسول الله ﷺ قرأ عليهم القرآن وأنهم سألوه الزاد لهم ولدوابهم فجعـل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه، وكل بعرة علف لدوابهم. ونهانا عن الاستنجاء بهما. ولو لم يكن في هذا إلا قوله تعالىٰ: ﴿**وَما كنَّا معذِّبينَ حتَّىٰ نبعَثَ رسُولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]. وقد أخبر أنه يعذب كفرة الجن لكفىٰ به حجة علىٰ أنهم مكلفون باتباع الرسل.

**ومما** يدل علىٰ أنهم مأمـورون منهيون بشريعـة الإسـلام ما تضمنته سورة الرحمٰن، فإنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ذكر خلق النوعين في قوله تعالىٰ: ﴿**خلَقَ الإنْسانَ منْ صلْصالٍ كالفخَّارِ * وخلقَ الجانَّ من مارجٍ منْ نار**﴾ [الرحمٰن: ١٤، ١٥].

**ثم** خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم، وإنكار تكذيبهم بالآية، وتـرغيبهم في وعـده، وتخـويفهم من وعيده، وتهـديدهم بقـوله تعالىٰ: ﴿**سنفرُغُ لكُمْ أيُّها الثَّقلان**﴾ [الرحمٰن: ٣١] وتخويفهم من عواقب ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام.

**ثم** ذكـر عقـاب الصنفـين وثـوابهم. وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون.

**وفي** الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمٰن من أولها إلىٰ آخرها فسكتوا **فقال: «لقد قرأتها علىٰ الجن ليلة الجن، وكانوا أحسن مردوداً منكم: كنت كلما أتيت علىٰ آية ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكذِّبانَ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب**

**فلك الحمد**» وهذا يدل علىٰ ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به. وقوله في هذه السورة ﴿**سنفرُغُ لكُمْ أيُّها الثَّقَلان**﴾ [الرحمٰن: ٣١] وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع.

**قال** قتادة: معناه فراغ الدنيا وانقضاؤها، ومجيء الآخرة والجزاء فيها، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء. والفراغ في اللغة علىٰ وجهين: فراغ من الشغل، وفراغ بمعنىٰ القصد. وهو في هذا الموضع بالمعنىٰ الثاني، وهو قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء. وقوله: ﴿**يامعْشرَ الجنِّ والإنْس إنِ استطَعْتُمْ أنْ تنفُذُوا مِنْ أقْطارِ السمٰوات والأرْض فانفُذُوا**﴾ [الرحمٰن: ٣٣] فيها قولان:

**أحدهما** إن استطعتم أن تنفذوا ما في السموات والأرض علماً - أي أن تعلموا ما فيها - فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي إلا ببينة من الله. وعلىٰ هذا فالنفوذ ههنا نفوذ علم الثقلين في السموات والأرض.

**الثاني** إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم، فإنكم تحت سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم. وقال الضحاك: معنىٰ الآية: إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فإنه مدرككم. وهذه الأقوال علىٰ أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا.

**وفي** الآية تقرير آخر، وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً. كما قال تعالىٰ: ﴿**وياقوْمِ إنِّي أخافُ عليكُمْ يوْم التَّنادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ**﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] قال مجاهد: فارّين غير معجزين، وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً، فيرجعون إلىٰ المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿**والْمَلَكُ عَلَىٰ أرْجائِها**﴾ [الحاقة: ١٧] وقوله تعالىٰ: ﴿**يامعْشر الجنِّ والإنْس إن استطعتُمْ أنْ تنفُذُوا منْ أقطارِ السمٰوات والأرْض فانفُذُوا**﴾ [الرحمٰن: ٣٣] وهذا القول أظهر. والله أعلم.

**فإذا** بده الخلائق ولوا مدبرين يقال لهم: ﴿**إن استطعتُم أن تَنْفُذُوا من أقطار**

**السموات والأرض فانفذوا﴾** أي إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتىٰ لا يقدر علىٰ عذابكم فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل علىٰ هذا القول، فإن قبلها ﴿**سنفرُغُ**﴾ [الرحمٰن: ٣١] الآية وهذا في الآخرة، وبعدها: ﴿**فإذا انشقَّتِ السَّماءُ فكانتْ وردةً كالدِّهان**﴾ [الرحمٰن: ٣٧] وهذا في الآخرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتىٰ فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالىٰ: ﴿**يا معْشر الجنِّ والإنْس**﴾ [الأنعام: ١٣٠] فلابد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه. وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وقال تعالىٰ: ﴿**إن استطَعْتُمْ**﴾ ولم يقل إن استطعتما. لإرادة الجماعة كما في آية أخرىٰ: ﴿**يامعْشرَ الجنِّ والإنْس ألمْ يأْتكُمْ**﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿**يُرسلُ عليْكُما**﴾ [الرحمٰن: ٣٥] ولم يقل يرسل عليكم لإرادة الصنفين أي لا يختص به صنف عن صنف، بل يرسل ذلك علىٰ الصنفين معاً. وهذا وإن كان مراداً بقوله تعالىٰ: ﴿**إن استَطْعْتُمْ**﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن، أي من استطاع منكم.

**وحسن** الخطاب بالتثنية في قوله تعالىٰ: ﴿**عليْكُما**﴾ أمر آخر. وهو موافقة رءوس الآي، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما. والله أعلم. قال ابن عباس: الشواظ: اللهب الذي لا دخان فيه، والنحاس: الدخان الذي لا لهب فيه.

**وقوله** تعالىٰ: ﴿**فيوْمَئِذٍ لا يُسْألُ عنْ ذنبهِ إنْسٌ ولا جانٌ**﴾ [الرحمٰن: ٣٩] فأضاف الذنوب إلىٰ الثقلين، وهذا دليل علىٰ أنهما سويًّا في التكليف. واختلف في هذا السؤل المنفي، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلىٰ الموقف، لا يسألون حينئذ ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلىٰ الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك. وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها.

**فصل** فإذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها، وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب، علم أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئهم في النار.

**وقد** دل علىٰ ذلك قوله ـ تعالىٰ ـ حكاية عن مؤمنهم: ﴿**وأنَّا لمَّا سمعْنا الهُدىٰ آمنَّا بهِ فمنْ يؤْمن بربِّه**﴾ [الجن: ١٣] الآية. وبهذه الحجة احتج البخاري. ووجه الاحتجاج بها أن البخس المنفي هو نقصان الثواب، والرهق الزيادة في العقوبة علىٰ ما عمل، فلا ينقص من ثواب حسناته ولا يزداد في سيئاته.

**ونظير** هذا قوله تعالىٰ: ﴿**ومنْ يعملْ منَ الصَّالحاتِ وهُو مؤْمنٌ فلا يخافُ ظُلماً ولا هضْماً**﴾ [طه: ١١٢] أي لا يخاف زيادة سيئاته ولا نقصان حسناته.

**وأيضاً** فقد قال ـ تعالىٰ ـ في سورة الرحمٰن: ﴿**ولمنْ خافَ مقامَ ربِّه جنَّتانِ * فبأيِّ آلاءِ ربِّكُم تُكذِّبان**﴾ [الرحمٰن: ٤٦، ٤٧] وذكر ما في الجنتين إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**لمْ يطْمثْهُنَّ إنْسٌ قبلهُمْ ولا جانٌ**﴾ [الرحمٰن: ٧٤]، وهذا يدل علىٰ أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه:

**أحدها:** أن «من» من صيغ العموم، فتناول كل خائف.

**الثاني:** أنه رتب الجزاء المذكور علىٰ خوف مقامه، فدل علىٰ استحقاقه به.

**وقد** اختلف في إضافة المقام إلىٰ الرب هل هي من إضافة المصدر إلىٰ فاعله، أو إلىٰ مفعوله؟ على قولين:

**أحدهما:** أن المعنىٰ ولمن خاف مقامه بين يدي ربه، فعلىٰ هذا هو من إضافة المصدر إلىٰ المفعول.

**والثاني** أن المعنىٰ ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه، فهو من باب إضافة المصدر إلىٰ فاعله.

**وكذلك** القولان في قوله تعالىٰ: ﴿**وأمَّا منْ خافَ مقامَ ربِّه ونهىٰ النفْسَ عنِ الهوىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠]. ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿**ذٰلك لمنْ خافَ مقامِي وخافَ وعيدِ**﴾ [إبراهيم: ١٤] فهذه ثلاثة مواضع. وقد يقال: الراجح هو الأول، وأن المعنىٰ خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه:

**أحدهما:** أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر، فإذا

خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم. كقوله تعالىٰ: ﴿فَلا تخافُوهُمْ وخافُون﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقوله تعالىٰ: ﴿ذٰلكَ لمنْ خشيَ ربَّهُ﴾ [البينة: ٨] وقوله تعالىٰ: ﴿يخافُون ربهُمْ منْ فوقِهمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالىٰ: ﴿إنَّ الَّذين يخْشونَ ربَّهُمْ بالغيْب لهُمْ مغفِرة وأجرٌ كَبير﴾ [الملك: ١٢].

**ففي** هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم، وإنما مدحهم بخوفه وخشيته. وقد يذكر الخوف متعلقاً بعذابه كقوله تعالىٰ: ﴿يرْجُون رحْمتهُ ويخافُونَ عذابهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن.

**الثاني:** أن هذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿وأنْذِرْ به الَّذينَ يخافُون أنْ يُحشرُوا إلىٰ ربِّهمْ﴾ [الأنعام: ٥١] فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه. والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

**الثالث:** أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر والبعث بعد الموت. وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين، فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل، وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل.

**وأما** مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه، فهذا يقرّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه.

**وأما** مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل.

**فإن** قيل: إذا كان المعنىٰ أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوىٰ التقديران، فمن أين رجحتم أحدهما؟

**قيل:** التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد، ولهذا خوفنا تعالىٰ في قوله: ﴿يوْم يقومُ النَّاسُ لربِّ الْعالَمين﴾ [المطففين: ٦]، ولأنه مقام مخصوص مضاف إلىٰ الله وذلك في يوم القيامة، بخلاف مقام الله علىٰ العبد فإنه كل وقت.

**وأيضاً** فإنه لا يقال لقدرة الله علىٰ العبد واطلاعه عليه وعلمه به: مقام الله، ولا هذا من المألوف إطلاقه علىٰ الرب.

**وأيضاً** فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق علىٰ المكان كقوله: ﴿**عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً**﴾ [الإسراء: ٧٩] وقوله تعالىٰ: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ**﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿**خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً**﴾ [مريم: ٧٣]. والمقصود أن قوله تعالىٰ: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن: ٤٦] يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان.

**(الثالث)** قوله عقيب هذا الوعد ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾.

**(الرابع)** أنه ذكر في وصف نسائهم أنهن: ﴿**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**﴾ [الرحمن: ٧٤] وهذا والله أعلم معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم. ومما يدل علىٰ أن ثوابهم الجنة قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ**﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١] وأمثال هذه من العمومات.

**وقد** ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون في العموم، كما أن كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد. ودخول مؤمنهم في آيات الوعد أولىٰ من دخول كافرهم في آيات الوعيد، فإن الوعد فضله والوعيد عدله، وفضله من رحمته وهي تغلب غضبه.

**وأيضاً** فإنه لا دار للمكلفين سوىٰ الجنة والنار، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه. وأيضاً فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعي الله غفر لهم وأجارهم من عذابه، وكل من غفر له دخل الجنة ولابد، وليس فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار.

**وأيضاً** فإنه قد ثبت أن الرسول مبعوث إليهم، وأنهم مكلفون باتباعه، وأن مطيعهم لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم، لقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً**﴾ [النساء: ٦٩].

**وقد** أخبر ـ سبحانه ـ عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا وأنهم يقولون: ﴿**فاغْفرْ للذَّينَ تابُوا واتَّبعُوا سبيلكَ وقهِمْ عذابَ الجحيمِ * ربَّنا وأدْخلهُمْ جنَّاتِ عدْنِ الَّتي وعدْتهُمْ**﴾ [غافر: ٧، ٨].

**فدل** علىٰ أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنّة. وقد ثبت في حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم فتعين دخولهم الجنة، والله أعلم.

**وإذا** ثبت تكليفهم بانقسامهم إلىٰ المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك، فهم في الموازنة علىٰ نحو طبقات الإنس المتقدمة، إلا أنهم ليس فيهم رسول. وأفضل درجاتهم درجة الصالحين ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها، فقد دل القرآن علىٰ انقسامهم إلىٰ ثلاثة أقسام: صالحين، ودونهم، وكفار. وزاد عليهم الإنس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين. والله أعلم.

**فهذا** ما وصل إليه الإحصاء من طبقات المكلفين في الدار الآخرة، وهي ثمان عشرة طبقة، وكل طبقة منها لها أعلىٰ وأدنىٰ ووسط. وهم درجات عند الله.

**والله** تعالىٰ يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره ويقرن بينهما في الدرجة. قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**احْشرُوا الَّذينَ ظلمُوا وأزْواجهُمْ وما كانُوا يعْبُدُونَ منْ دونِ الله**﴾ [الصافات: ٢٢]. قال الإمام أحمد وقبله عمر بن الخطاب: ﴿**أزواجهم**﴾ أشباههم ونظراءهم، وقال تعالىٰ: ﴿**وإذا النُّفُوسُ زُوِّجتْ**﴾ [التكوير: ٧].

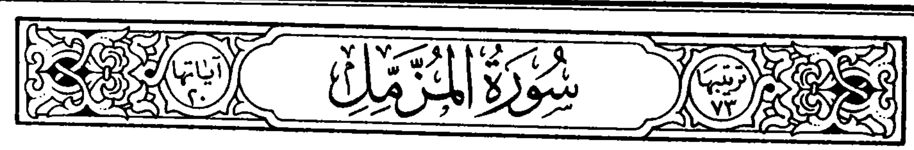
**روى** النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال: يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار. وقال الحسن وقتادة: يلحق كل امريء بشيعته، اليهودي باليهودي، والنصراني بالنصراني. وقال الربيع بن خيثم: يحشر الرجل مع صاحب عمله.

**وفي** الآية ثلاثة أقوال أخر: أحدها: أن تزويج النفوس اقترانها بأجسادها وردها إليها. الثاني: تزويجها اقترانها بأعمالها. الثالث: أنه تزويج المؤمنين الحور العين، وتزويج الكفار بالشياطين. والقول الأول أظهر الأقوال. ، والله أعلم.

**والحمد** لله رب العالمين، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجن

والحمد لله رب العالمين




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**سئل** عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله - عز وجل -: **﴿إنا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾** [المزمل: ٥]. فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة وقال: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهلٌ لذلك. وقال: لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلاً لشيء حتى يسأل مَن هو أعلم منه، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، ولو نهياني انتهيت. قال: وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل، ولا يجيب أحد منهم عن مسألة حتى يأخذ رأي صاحبه مع ما رزقوا من السَّداد والتوفيق والطهارة، فكيف بنا الذين غَطَّت الذنوب والخطايا قلوبنا؟

**وكان** رحمه الله إذا سئل عن مسألة فكأنه واقف بين الجنة والنار. وقال عطاء بن أبي رباح: أدركت أقوامًا إن كان أحدهم لَيُسأل عن شيء فيتكلم وإنه ليُرعد. وسئل النبي ﷺ: أيُّ البلادِ شر؟ فقال: «**لا أدري حتى أسأل جبريل**». فسأله فقال: أسواقها. وقال الإمام أحمد: مَن عرض نفسه للفُتيا فقد عرضها لأمر عظيم، إلا أنه قد تلجيء الضرورة. وسئل الشعبي عن مسألة، قال: لا أدري، فقيل: ألا تستحي من قولك لا أدري وأنت فقيه أهل العراق؟ فقال: لكن الملائكة لم تستح حين قالوا: **﴿لا عِلم لَنا إلا ما عَلَّمتنا﴾** [البقرة: ٣٢].

**وقال** بعض أهل العلم: تَعلّم: لا أدري، فإنك إن قلت: لا أدري علّموك حتى تدري، وإن قلت أدري سألوك حتى لا تدري. وقال عتبة بن مسلم: صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهرًا، فكان كثيرًا ما يُسْأَل فيقول: لا أدري.

---

(١) ٢١٨ أعلام جـ٤.

وكان سعيد بن المسيب لا يكاد يفتي فتيا ولا يقول شيئًا إلا قال: اللهم سلمني وسلم مني . . .

[1]**وناشئة** الليل أول ساعاته. قلت: هذا قد قاله غير واحد من السلف: إن ناشئة الليل أوله التي منها ينشأ الليل. والصحيح أنها لا تختص بالساعة الأولى، بل هي ساعاته ناشئة، بعد ناشئة كلما انقضت ساعة نشأت بعدها أخرى. وقال أبوعبيدة ناشئة الليل ساعاته وآناؤه ناشئة بعد ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كلما نشأ منه أي حدث منه فهو ناشئة. قال ابن قتيبة: هي آناء الليل وساعاته مأخوذة من نشأت تنشأ نشأ، أي ابتدأت وأقبلت شيئًا بعد شيء، وأنشأها الله فنشأت. والمعنى أن ساعات الليل الناشئة. وقول صاحب الصحاح منقول عن كثير من السلف قال علي بن الحسين: ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء. وهذا قول أنس وثابت وسعيد بن جبير والضحاك والحكم واختيار الكسائي قالوا: ناشئة الليل: أوله. وهؤلاء راعوا معنى الأولية في الناشئة.

**وفيها** قول ثالث: إن الليل كله ناشئة وهذا قول عكرمة وأبي مجلز ومجاهد والسدى وابن الزبير وابن عباس في رواية قال ابن أبي مليكة سألت ابن الزبير وابن عباس عن ناشئة الليل فقالا: الليل كله ناشئة. فهذه أقوال من جعل ناشئة الليل زمانًا. وأما من جعلها فعلاً ينشأ بالليل فالناشئة عندهم اسم لما يفعل بالليل من القيام وهذا قول ابن مسعود ومعاوية بن قرة وجماعة، قالوا: ناشئة الليل: قيام الليل. وقال آخرون: منهم عائشة إنما يكون القيام ناشئة إذا تقدمه نوم، قالت عائشة ناشئة الليل القيام بعد النوم، وهذا قول ابن الأعرابي قال: إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة، ومنه ناشئة الليل فعلى قول الأولين ناشئة الليل بمعنى (من) إضافة نوع إلى جنسه أي ناشئة منه وعلى قول هؤلاء إضافة بمعنى (في) أي طاعة ناشئة فيه. والمقصود أن الإنشاء ابتداء سواء تقدمه مثله كالنشأة الثانية أو لم يتقدمه كالنشأة الأولى.

---

(١) ١٣٣ شفاء.

(١)**قال الله ـ تعالى ـ: ﴿واذكر اسم ربِّك وتبتَّل إليه تبتيلا﴾** [المزمل: ٨].
و«التبتل» الانقطاع. وهو تفعل من البَتل وهو القطع. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفًا وفضلاً. وقطعت منهن. ومصدر «بتَّل» «تبتلاً» كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل ـ مصدر تفعل ـ لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذانًا بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بَتِّل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن. وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.

(٢)**وأما** في سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد، لما كان المقصود ذكر ربوبيته، ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده. فليس للمشرق والمغرب رب سواه. فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إلـه ولا وكيل سواه، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله: **﴿وَمَا ربُّ العالمين﴾** [الشعراء: ٢٣] فقال: **﴿ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقِلون﴾** [الشعراء: ٢٨].

**وفي** ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته السموات وما حوته من الشمس، والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين. وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه. ثم قال: **﴿إنَّا لقادِرون على أن نُبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين﴾** [المعارج: ٤٠، ٤١]. أي لقادرون على أن نذهب بهم، ونأتي بأطوع لنا منهم وخيراً منهم، كما قال تعالى: **﴿إن يشأ يذهِبكم أيها الناس ويأتِ بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا﴾** [النساء: ١٣٣]. وقوله: **﴿وما نحن بِمسبوقين﴾** أي لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني.

**وعبر** عن هذا المعنى بقوله: **﴿وما نحن بمسبوقين﴾** لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه. ولهذا عدى بـ [على] دون [إلى]، كما في قوله:

(١) ٢٩ مدارج جـ٢. (٢) ١٢٢ التبيان.

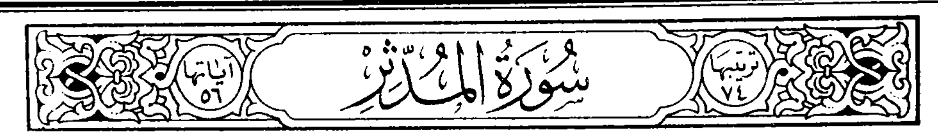
﴿وما نحن بمسبوقين على أن نبدِّل أمثالكم﴾ [الواقعة: ٦٠] فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بـ[على]، بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه. والثاني بمعنى وصلت إليه قبله.

(١)**قوله** تعالى: ﴿**إنَّا أرسلنا إليكم رسُولاً شاهدًا عليكم كما أرسلْنا إلى فِرعون رَسُولاً فعصى فِرعونُ الرسولَ * فأخذناه أَخْذًا وَبِيلاً**﴾ [المزمل: ١٥، ١٦] فأخبر سبحانه أنه أرسل محمدًا ﷺ إلينا كما أرسل موسى إلى فرعون، وأن فرعون عصى رسوله فأخذه أخذًا وبيلاً، فهكذا مَن عصى منكم محمدًا ﷺ، وهذا في القرآن كثير جدًّا فقد فتح لك بابه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المزمل
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٣٨ أعلام جـ١.




## بسم الله الرحمن الرحيم

## (١)فصل في ترتيب الدعوة ولها مراتب

**المرتبة** الأولى: النبوة. الثانية: إنذار عشيرته الأقربين. الثالثة: إنذار قومه. الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله. وهم العرب قاطبة. الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

**فصل** وأقام ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفيًا، ثم نزل عليه: ﴿فاصدَعْ بما تؤمَرُ وأعرِضْ عن المشركِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فأعلن ﷺ بالدعوة، وجاهر قومه بالعداوة، واشتد الأذي عليه وعلى المسلمين، حتى أذن الله لهم بالهجرتين.

(٢)**ترتيب** سياق هديه مع الكفار والمنافقين، من حين بُعث إلى حين لقي الله ـ عز وجل ـ أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق. وذلك أولُ نبوته. فأمره أن يقرأه في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه: ﴿ياأَيُّها المُدَّثرُ * قُمْ فأنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢] فنبَّأه بقوله (اقرأ) وأرسله بـ(يا أيها المدثر) ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر مَن حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بِضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمَر بالكَفِّ والصبر والصفح، ثم أُذِنَ له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزَله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله الله. . .

(٣)**فصل** في مبعثه ﷺ، وأول ما نزل عليه: بعثه الله على رأس أربعين، وهي سِنُّ الكمال. وقيل: ولها تبعث الرسل. وأما ما يذكر عن المسيح: أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة، فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه.

---

(١) ٣٨ زاد المعاد جـ١. (٢) ٢٠٧ زاد المعاد جـ٢. (٣) ٣٧ زاد المعاد جـ١.

**وأول** ما بُدِىءَ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة: الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة: ثلاث وعشرون سنة. فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة والله أعلم.

**ثم** أكرمه الله ـ تعالى ـ بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار حراء، وكان يحب الخلوة فيه. فأول ما أنـزل عليه: ﴿**اقرأ باسم ربِّك الذي خَلَقَ**﴾ [العلق: ١] هذا قول عائشة والجمهور. وقال جابر: «أول ما أنزل عليه يا أيها المدثر» والصحيح قول عائشة، لوجوه.

**أحدها**: أن قوله «ما أنا بقارىء» صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئًا.

**الثاني**: الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإنذار، فإنه إذا قرأ في نفسه أنذر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولًا ثم بالإنذار بما قرأه ثانيًا.

**الثالث**: أن حديث جابر، وقوله «أول ما أنزل من القرآن (يا أيها المدثر)» قول جابر، وعائشة أخبرت عن خبره ﷺ عن نفسه بذلك.

**الرابع**: أن حديث جابر ـ الذي احتج به ـ صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولًا، قبل نزول (يا أيها المدثر) فإنه قال: «**فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، فرجعت إلى أهلي، فقلت: زملوني، دثروني، فأنزل الله** ﴿**ياأيُّها المُدَّثرُ**﴾ [المدثر: ١]. وقد أخبر: أن الملك الذي جاءه بحراء أنزل عليه: ﴿**اقرأ باسم ربِّك الذي خَلق**﴾ [العلق: ١] فدل حديث جابر على تأخر نزول (يا أيها المدثر) والحجة في روايته، لا في رأيه والله أعلم.

(١)**أكمل** الخلق عند الله عز وجل: من كَمَّل مراتب الجهاد كلها. والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد. ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله خاتمُ أنبيائه ورسله. فإنه كمل مراتب الجهاد، وجاهد في الله حق جهاده. وشرع في الجهاد من حين بُعث إلى أن توفاه الله عز وجل. فإنه لما نزّل الله عليه: ﴿**ياأيُّها المدَّثرُ * قمْ فأنذرْ * وربَّك فكبِّرْ * وثِيابَك فطهِّرْ**﴾ [المدثر: ١-٤] شمَّر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلًا

(١) ١٠٨ زاد المعاد جـ١.

ونهارًا، وسرًّا وجهارًا. ولما نزل عليه: ﴿فاصدع بما تُؤمر﴾ [الحجر: ٩٤] فصَدع بأمر الله، لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى والأحمر والأسود والجن والإنس. . .

(١)**وسئل** ﷺ: متى وجبت لك النبوة؟ فقال: «**وآدم بين الروح والجسد**» صححه الترمذي. وسئل ﷺ: كيف كان بَدْء أمرك؟ فقال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي، رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قُصُور الشام**» ذكره أحمد.

**وسأله** ﷺ أبوهريرة: يارسول الله، ما أول ما رأيت من النبوة؟ قال: «**إني لَفِي الصحراء ابن عشرين سنة وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا برجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لأحد قط، وأرواح لم أجدها لخلق قط وثياب لم أرها على خلق قط، فأقبلا يَمشيان حتى أخذ كل منهما بِعضُدي لا أجد لأخذهما مسًّا، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قصر ولا هَصْر، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فحوى أحدهما صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئًا كهيئة العَلقة ثم نبذها فطرحها، ثم قال له: أدخِل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هزَّ إبهام رجلي اليمنى فقال: اغدُ سليمًا، فرجعت بها رقة عَلى الصغير ورَحمة على الكبير**» ذكره أحمد.

(٢)**فلما** كمل له أربعون أشرق عليه نور النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده. ولا خلاف أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين.

**واختلف** في شهر المبعث، فقيل: لثمان مضين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. هذا قول الأكثرين. وقيل: بل كان ذلك في رمضان. واحتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿**شَهر رَمضان الذي أنزِل فيه القُرآن**﴾ [البقرة: ١٨٦].

---

(١) ٤١١ أعلام جـ٤.

(٢) ٣٣ زاد المعاد جـ١.

قالوا: أول ما أكرمه الله ـ تعالى ـ بنبوته أنزل عليه القرآن. وإلى هذا ذهب جماعة، منهم يحيى الصَّرصري، حيث يقول في نونيته:

وأتت عليه أربعون، فأشرقت شمس النبوة منه في رمضان

**والأولون** قالوا: إنما كان إنزال القرآن في رمضان جملة واحدة، في ليلة القدر، إلى بيت العزة، ثم أنزل منجمًا ـ بحسب الوقائع ـ في ثلاث وعشرين سنة. وقالت طائفة: «أنزل فيه القرآن» أي: في شأنه وتعظيمه وفرضَ صومه. وقيل: كان ابتداء المبعث في شهر رجب. وكمّل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة.

**إحداها**: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

**المرتبة** الثانية: ما كان يلقيه الملك في رُوعه وقلبه، من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي: أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله. فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته**».

**المرتبة** الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له. وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا.

**الرابعة**: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشدَّه عليه، فيتلبس به الملك، حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت تَرُضُّها.

**الخامسة**: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم.

**السادسة**: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السموات ليلة المعراج: من فرض الصلاة وغيرها.

**السابعة**: كلام الله له منه إليه، بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن

عمران. وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن. وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء.

**وقد** زاد بعضهم مرتبة ثامنة، وهي تكليم الله له كفاحًا من غير حجاب. وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربه - تبارك وتعالى - وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف، وإن كان جمهور الصحابة - بل كلهم - مع عائشة، كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعًا للصحابة.

(١)**وقال** تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]. قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب. فكني عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك، والشعبي، والزهري، والمحققين من أهل التفسير. قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني - بحمد الله - لا ثوبَ غادرٍ لبستُ. ولا مِن غَدرَةٍ أتقَنع

**والعرب** تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب. وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب. وقال أبي بن كعب: لا تلبسها على الغدر، والظلم والإثم. ولكن البسها وأنت بَرٌّ طاهر.

**وقال** الضحاك: عملك فأصلح. قال السدى: يقال للرجل، إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب. وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب. وقال سعيد بن جبير: وقلبك وبيتك فطهر. وقال الحسن والقرطبي: وخلقك فحسن. وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها. لأن المشركين كانوا لا يتطهرون، ولا يطهرون ثيابهم. وقال طاوس: وثيابك فقصر. لأن تقصير الثياب طهرة لها. والقول الأول: أصح الأقوال.

**ولاريب** أن تطهيرها من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق. لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن. ولذلك أمر القائم بين يدي الله - عز وجل - بإزالتها والبعد عنها.

**والمقصود**: أن «الورع» يطهر دنس القلب ونجاسته. كما يطهر الماء دنس

(١) ٢٠ مدارج جـ٢.

الثوب ونجاسته. وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة. ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله. ويؤثر كل منهما في الآخر. ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب، وجلود السباع، لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع. وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي. يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها، حتى إن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر، وليسا عليهما.

**وقد** جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة. فقال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

**قال** إبراهيم بن أدهم: الورع ترك كل شبهة، وترك مالا يعنيك هو ترك الفضلات. وفي الترمذي مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «**ياأبا هريرة! كن ورعاً تكن أعبد الناس**».

## [1] الباب التاسع
## في طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه

**هذا** الباب، وإن كان داخلاً فيما قبله، كما بينا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة، ولكنا أفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته، وشدة الحاجة إليها، ودلالة القرآن والسنة عليها. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**ياأيُّها المدثِّر * قم فأنذِر * ورَبَّك فكبِّر * وثِيابك فطهِّر**﴾ [المدثر: ١-٤]. وقال تعالى: ﴿**أولئِك الذين لم يُرِدِ الله أن يطهرَ قلوبهُم لَهم في الدُّنيا خِزْيٌ ولَهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ**﴾ [المائدة: ٤١]. وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق.

**قال** الواحدي: اختلف المفسرون في معناه، فروى عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «يعني من الإثم، ومما كانت الجاهلية تجيزه». وهذا قول قتادة ومجاهد، قالا «نفسك فطهرها من الذنب» ونحوه قول الشَّعبي وإبراهيم

---

(١) ٥٢ إغاثة جـ١.

والضحاك والزُّهري. وعلى هذا القول: «الثياب» عبارة عن النفس، والعرب تَكْنِي بالثياب عن النفس. ومنه قول الشَّمَّاخ:

رموها بأثواب خفاف، فلا ترى لها شَبهًا إلا النعام المُنَفَّرا

**رموها** يعني الركاب[1] بأبدانهم. وقال عنترة:

فشككتُ بالرمح الأصمِّ ثيابه ليس الكريم على القَنَى بمُحَرَّم

**يعني** نفسه.

**وقال** في رواية الكلبي: يعني لا تغدر، فتكون غادرًا دنس الثياب، وقال سعيد بن جبير: «كان الرجل إذا كان غادرًا قيل: دنس الثياب، وخبيث الثياب». وقال عكرمة: «لا تلبس ثوبك على معصية، ولا على فُجْرَة» وروي ذلك عن ابن عباس، واحتج بقول الشاعر:

وإني بحمد الله لا ثوب غادر لبست، ولا من خِزية أتقنع[2]

**وهذا** المعنى أراد من قال في هذه الآية: «وعملك فأصلح» وهو قول أبي رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي رَوْق، وقال السُّدى: «يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيث الثياب» قال الشاعر:

لَا هُمَّ إنَّ عامِرَ بن جَهْمِ أَوْذَم حَجًّا في ثِياب دُسْمِ[3]

**يعني** أنه متدنس بالخطايا، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب وصفوا الصالح بطهارة الثوب، قال امرؤ القيس:

ثيابُ بَني عَوف طَهارىٰ نَقيَّة

**يريد** أنهم لا يغدرون، بل يفون، وقال الحسن: «خُلقُك فحسنهُ»، وهذا قول القرطبي، وعلى هذا: الثياب عبارة عن الخلق، لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه.

---

(١) وفي نسخة «يغني الإبل».

(٢) الذي في تفسير ابن جرير: «ولا من غدرة أتصنع» وسمى الشاعر: غيلان بن سلمة.

(٣) أو ذم الحج: أوجبه على نفسه. والدسم: جمع دسم، أي دنس. يقول: أحرم بالحج وهو متلطخ بالذنوب.

**وروى** العَوفي عن ابن عباس في هذه الآية: «لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب» والمعنى طهرها من أن تكون مغصوبة، أو من وجه لا يحل اتخاذها منه، وروي عن سعيد بن جبير: «وقلبك. ونيتك فطهر» وقال أبوالعباس: الثياب اللباس، ويقال: القلب، وعلى هذا ينشد:

فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنسلي

**وذهب** بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين، وابن زيد. وذكر أبوإسحاق: «وثيابك فقصر»، قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجرَّ على الأرض لم يُؤمَن أن يصيبه ما ينجسه، وهذا قول طاوس. وقال ابن عرفة: «معناه: نساءك طهرهن» وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس. قال تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُم ليلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكُم هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وأنتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ**﴾ [البقرة: ١٨٧]. ويكنى عنهن بالإزار، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلغ أبا حَفْصٍ رسولاً ... فِدًى لك من أخي ثقةٍ: إزاري

أي أهلي، ومنه قول البراء بن معرور للنبي ﷺ ليلة العَقَبة، «**لَنمنعَنَّك مِمَّا نمنع منهُ أُزُرَنَا**» أي نساءنا.

**قلت**: الآية تعمُّ هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظًا فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يُكسب القلب هَيئة خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك، ولذلك حرم لبس جلود النُّمور والسِّباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها، لما تُكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابسة الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء.

**والمقصود**: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى

أن يكون مأمورًا به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا.

(١)**وكذلك** إخباره - سبحانه - بأن عِدة الملائكة الموكَّلين بالنار تسعة عشر، كان فتنة للكفار، حيث قال عدو الله أبو جهل: أيخوفكم محمدٌ بتسعة عشر، وأنتم الدُّهْمُ، أفيعجِزُ كل مائة منكم أن يبطِشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فقال أبو الأسد: يامعشر قريش، إذا كان يومُ القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضِي فندخل الجنة. فكان ذكر هذا العدد فتنة لهم في الدنيا، وفتنة لهم يوم القيامة.

(٢)**قال** تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّار إلا ملائكةً وما جَعلنا عِدَّتَهُم إلَّا فتنةً للذينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ ويَزْدَادَ الّذينَ آمنوا إيمانًا ولا يَرْتَابَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ والمُؤْمِنُونَ وليقولَ الذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ والكافِرُونَ ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً**﴾ [المدثر: ٣١]. أخبر الله - سبحانه - عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر - سبحانه - خمس حكم: فتنة الكافرين. فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم. وقوة يقين أهل الكتاب، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله ﷺ، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه. وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به. وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

**فهذه** أربعة حكم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب. والخامسة: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعمي قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿**مَاذا أرادَ اللهُ بهذا مثلاً**﴾.

**وهذا** حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمًى، فلا يدري ما يراد به.

---

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢. (٢) ١٤ إغاثة جـ١.

**واليقين** وعدم الريب في هذا الموضع، إن رجعا إلى شيء واحد، كان ذكر عدم الريب مقررًا لليقين ومؤكدًا له، ونافيًا عنه ما يضاده بوجه من الوجوه، وإن رجعَا إلى شيئين، بأن يكون اليقين راجعًا إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة، وعدم الريب عائدًا إلى عموم ما أخبر الرسول به. لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهـة الرسل على صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد صدق الرسول ﷺ، ظهرت فائدة ذكره. والمقصود: ذكر مرض القلب وحقيقته. . .

(1)**قـوله** ـ تعالى ـ: ﴿**كلَّا والقمر * والليل إذ أدبر * والصُّبح إذا أسفر * إنها لَإحدى الكبر * نذيرًا للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر**﴾ [المدثر: ٣٢، ٣٧].
أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه. وحكمته وعلمه، وعنايته بخلقه، ما هو معلوم بالمشاهدة.

**وهو** سبحانه أقسم بالسماء وما فيها، مما لا نراه من الملائكة، وما فيها مما نراه من الشمس والقمـر والنجوم، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر: من الليل والنهار، وكل ذلك آية من آياته، ودلالة من دلائل ربوبيته.

**ومن** تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما، وجرمهما، ونورهما، وحركتهما على نهج واحد، لا ينيان ولا يفتران دائبين، ولا يقع في حركتهـما اختلاف بالبطء، والسرعة، والرجوع، والاستقامة، والانخفاض، والارتفاع، ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمس القمر، ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار، بل لكلٍّ حركة مقدرة، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر. كما أن له تأثيرًا ومنفعة لا يشركه فيها الآخر.

**وذلك** مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر، وأمر آمر، وتدبير مدبر، بهرت حكمته العقول، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل، وفوق ما علمه الناس من الحكم التي في خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم، ولا تنتهي إلى مباديها أوهامهم. فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما، وكمال حكمته، ولطف تدبيره، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا: ﴿**ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلًا سُبحَانَكَ فقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾

---

(١) ١٠٢ التبيان.

**ولو** أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق، يبدو فيه النور كخيط متسخن، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره، فيصير أضوأ شيء وأحسنه وأجمله، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين، وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم، وصلاتهم، ومواقيت أجائرهم، ومداييناتهم، ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة.

**وقد** ذكر ـ سبحانه ـ ذلك في ثلاث آيات من كتابه. أحدها قوله: ﴿**يسألونك عن الأهلة قُلْ هي مواقيتُ للنَّاس والحجِّ**﴾ [البقرة: ١٨٩]. والثانية قوله: ﴿**هو الذي جعلَ الشَّمسَ ضياءً والقمرَ نورًا وقدَّرَه منازلَ لِتَعْلَمُوا عددَ السِّنينَ والحسابَ ما خلقَ اللهُ ذلك إلا بالحقِّ يفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمونَ**﴾ [يونس: ٥]. والثالثة قوله: ﴿**وجَعَلْنَا الليلَ والنهارَ آيتين فَمَحَوْنَا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهارِ مُبْصِرَةً لتبتَغُوا فضلاً من ربِّكُم ولتعْلَمُوا عدَدَ السنينَ والحسابَ وكلَّ شيءٍ فَصَّلْنَاه تَفْصَيلاً**﴾ [الإسراء: ١٢]. فلولا ما يحدثه الله ـ سبحانه ـ في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، مدة الحمل، ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.

**فإن** قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس، قيل: هذا وإن كان ممكنا إلا أنه يعسر ضبطه ولا يقف عليه إلا الأحاد من الناس، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس، وأقل اضطرابًا واختلافًا، ولا يحتاج إلى تكلف حساب، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه.

**فالحكمة** البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر، وأنفع، وأصلح، وأقل اختلافًا من تقديرها بسير الشمس. فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره. فشهادة الحق

بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها. فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين: بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها.

**فإذا** تأمل البصير القمر مثلاً، وافتقاره إلى محل يقوم به، وسيره دائبًا لا يفتر، مسيَّر، مسخر، مدبر، وهبوطه تارة، وارتفاعه تارة، وأفوله تارة، وظهوره تارة، وذهاب نوره شيئًا فشيئًا، ثم عوده إليه كذلك. وسبب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف. علم قطعًا أنه مخلوق مربوب مسخر، تحت أمر خالق قاهر مسخر له. كما يشاء. وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلاً، وأن هذه الحركة فيه لابد أن تنتهي إلى الانقطاع والسكون. وأن هذا الضوء والنور لابد أن ينتهي إلى ضده. وأن هذا السلطان لابد أن ينتهي إلى العزل.

**وسيجمع** بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين، ويذهب بهما حيث شاء، ويرى المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه. كما يرى عباد الكواكب انتشارها، وعباد السماء انفطارها، وعباد الشمس تكويرها، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها في النار أحقر شيء وأذله وأصغره. كما أرى عباد العجل في الدنيا حاله ومبارد عباده تسحقه وتمحقه. والريح تمزقه وتذروه وتنسفه في اليم. وكما أرى الأصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردلة ملقاة بالأمكنة القذرة، ومعاول الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه، وكسرت تلك الرءوس، وقطعت تلك الأيدي والأرجل، التي كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام. وهذه سنة الله التي لا تبدل، وعادته التي لا تحول: أنه يُرِي عابد غيره حال معبوده في الدنيا والآخرة، وإن كان المعبود غير راض بعبادة غيره ويريه تبريه منه، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه: ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة**﴾ [الأنفال: ٤٢]. ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها ـ لو تأملت خطها ـ ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

**ولو** شاء ـ تعالى ـ لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير، وجعل التغيير في

الشمس. ولو شاء لغيرهما معًا، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة. ولكن يُري عباده آياته في أنواع تصاريفها ليدلهم على أنه الله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين، الفعال لما يريد: ﴿ألا له الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤]. وأما تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات، وفي المياه، وجزر البحر ومده، وبحرانات الأمراض، وتنقلها من حال إلى حال، وغير ذلك من المنافع، فأمر ظاهر.

## فصل

**وأما** إقسامه ـ سبحانه ـ بـ ﴿والليلِ إذ أدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] فلما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان، بينما الحيوان في سكون الليل قد هدأت حركاتهم، وسكنت أصواتهم، ونامت عيونهم، وصاروا إخوان الأموات، إذ أقبل من النهار داعيه، وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور، يقول قائلهم «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»[1]. فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذي يبدئ ويعيد. فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهّار.

**فمن** تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأسفر، فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفل كتائب الكواكب بعساكره، وأضحك نواحي الأرض بتباشيره وبشائره. فيالهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما، وكمال ربوبيته، وعظم قدرته وحكمته. فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيمًا لسلطان الليل والنهار. فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فكيف كان الناس يسعون في معاشهم؟ ويتصرفون في أمورهم؟ والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه؟ وأي ثمار ونبات

---

(١) روى البخاري في صحيحه في باب وضع اليد تحت الخد اليمنى عن حذيفة قال: كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: «**اللهم باسمك أموت وأحيا**» وإذا استيقظ قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ماأماتنا وإليه النشور**».

وحيوان كان يوجد؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات؟ ولولا غروبها لم يكن للنـاس هدو ولا قرار، مع علم حاجتهم إلى الهدو لراحة أبدانهم وجموم حواسهم. فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ما هدأوا ولا قروا ولا سكنوا، بل جعله أحكم الحاكمين سكنًا ولباسًا، كما جعل النهار ضياءً ومعاشًا.

**ولولا** الليل وبرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليها، وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلهـا سراجًـا يطلع على العـالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه. فطلوعه لمصلحتهم، وغيبته لمصلحتهم، وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه. فلو جعل الله سبحانه النهار سرمدًا إلى يوم القيامة، والليل سرمدًا إلى يوم القيامة لفاتت مصالح العالم، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده.

**وتأمل** حكمته ـ سبحانه ـ في ارتفاع الشمس، وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما في ذلك من مصالح الخلق. ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجـر والنبات، فيتولد منها مواد الثمار، ويكثف الهواء، فينشأ منه السحاب، وينعقد فيحدث المطر الذي به حياة الأرض ونماء أبدان الحيوان والنبات، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع. وفي الصيف يخرم الهواء، فينضج الثمار، وتشتد الحبوب، ويجفف وجه الأرض، فيتهيأ العمل. وفي الخريف يصفو الهواء، وتبرد الحرارة، ويمتد الليل، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين؛ ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي.

**والمقصود** أن بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم، وبذلك يظهر الزمان، فإن الزمان مقدار الحركة. فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل إلى مثلهـا. والسنة القمرية مقدرة بسير القمر، وهو أقرب إلى الضبط. واشترك الناس في العلم به، وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما، لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير. فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا

تتعداه لما وصل ضوؤها وشعاعها إلى كثير من الجهات، فكان نفعها يفقد هناك فجعل الله - سبحانه - طلوعها دولاً بين الأرض لينال نفعها وتأثيرها البقاع، فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها. واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة، ويأخذ كل منهما من صاحبه، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة.

**فلو** زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً أو أكثر لاختل نظام العالم وفسد أكثر الحيوان والنبات، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضًا وتعطلت المصالح، ولو استويا دائمًا لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان. فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم.

**ولهذا** يذكر - سبحانه - هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه، كما قال - تعالى -: ﴿وآيةٌ لهُمُ الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا هُمْ مُّظلمون * والشمسُ تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيزِ العليم﴾ [يس: ٣٧-٣٨]. وقال تعالى: ﴿قُل أئنَّكُم لَتَكفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرضَ في يومين وتجعلون له أندادًا ذلك ربُّ العالمين * وجعلَ فيها رواسِيَ من فوقِهَا وبَارَكَ فيها وقدَّر فيها أقواتَها في أربعةِ أيامٍ سواءٍ للسَّائلين * ثم استوى إلى السَّماءِ وهي دُخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعًا أو كَرْهًا قالتا أتينا طائِعين * فقضاهُنَّ سَبْعَ سموات في يومين وأَوْحَى في كلِّ سماءٍ أَمْرَهَا وزيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بمصابيحَ وحِفْظاً ذلك تقديرُ العزيزِ العليم﴾ [فصلت: ٩-١٢].

**وقال** تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وجَعَلَ الليلَ سَكَنًا والشَّمسَ والقمرَ حُسبانًا ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية وما ينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه، وأنه قدره بهاتين الصفتين. وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره، وعلمه بالمغيبات.

## فصل

**وأقسم** سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهي : القمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتها، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته. فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه.

**فصرف** ـ سبحانه ـ الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها، وجعلها للفطر تارة، وللسمع تارة، وللمشاهدة تارة، فجعلها آفاقية، ونفسية، ومنقولة، ومعقولة، ومشهودة بالعيان، ومذكورة بالجنان. فأبى الظالمون إلا كفورا ﴿**واتخذوا من دونه آلهة لا يَخْلُقُونَ شيئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ولا يَمْلِكُونَ لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا يملكون مَوْتًا ولا حَيَاةً ولا نُشُورًا**﴾ [الفرقان: ٣].

**ولما** أقام الحجة وبيّن المحجة ارتهن كل نفس بكسبها، وآخذها بذنبها، واستثنى من أولئك من قبل هداه واتبع رضاه، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين. وسلكوا غير سبيل المجرمين، الذين ليسوا من المصلين، ولا من مطعمي المسكين، وهم من أهل الخوض مع الخائضين، المكذبين بيوم الدين. فهذه أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة الهالكين: (الأولى): ترك الصلاة، وهي عمود الإخلاص للمعبود. (الثانية): ترك إطعام المسكين الذي هو من مراتب الإحسان للعبيد، فلا إخلاص للخالق ولا إحسان للمخلوق، كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ يراءون * ويَمْنَعُونَ المَاعُونَ**﴾ [الماعون: ٦، ٧]. وقال: ﴿**لا يأتون الصلاةَ إلا وَهُم كُسَالىٰ ولا يُنفِقُونَ إلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾ [التوبة: ٥٤]. وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله: ﴿**الذين**

**يُقِيمُونَ الصلاةَ ومِمّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾** [الأنفال: ٣]. وقال: **﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عن المضَاجِعِ يَدْعُونَ ربَّهُم خَوْفًا وَطَمَعًا ومما رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾** [السجدة: ١٦]. وقرن ـ سبحانه ـ بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه: فأمر بهما تارة، وأثنى على فاعليهما تارة، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة، فإن مدار النجاة عليهما، ولا فلاح لمن أخل بهما.

**الصفة** الثالثة والرابعة: الخوض بالباطل والتكذيب بالحق، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق، واجتمع لأصحاب (اليمين) الإخلاص، والإحسان والتصديق بالحق، والتكلم به، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ويقينهم وكلامهم. واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركًا، وبالإحسان إساءة، وباليقين شكًّا وتكذيبًا، وبالكلام النافع خوضًا في الباطل. فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين، أي لم يكن لهم من شفيع فيهم، لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسًا، وجفلوا عن سماعها كما تجفل حمر الوحش من الأسد أو من الرماة.

**ثم** ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره، وإقامة الحجة عليهم بإثبات المشيئة لهم، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية، وأن ذلك إليه لا إليهم، فالأول عدله، والثاني فضله، فالأول يوجب السعي والطلب والحرص على ما ينجيهم، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم، بل أشد. والثاني يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم. والله المستعان وعليه التكلان.

## فصل(١)

**لله** على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة؛ فإن قام لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطّل أمر الله ونهيه فيه، عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته، وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقر به منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت، تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة، تأخر، فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوف في الطريق البتة. قال تعالى: ﴿**لمن شاء منكم أن يتقدَّمَ أو يتأخَّرَ**﴾ [المدثر: ٣٧].

(٢)**والقصد**: أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال. فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص. فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد. فالعبد سائر لا واقف. فإما إلى فوق. وإما إلى أسفل. إما إلى أمام وإما إلى وراء. وليس في الطبيعة، ولا في الشريعة وقوف البتة. ماهو إلا مراحل تطوى أسرع طَيٍّ إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطىء. ومتقدم ومتأخر. وليس في الطريق واقف البتة. وإنما يتخالفون في جهة المسير. وفي السرعة والبطء: ﴿**إنَّها لإحدى الكُبَر * نَذِيرًا للبشرِ * لمن شاءَ مِنْكُم أن يَتَقَـدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ**﴾ [المدثر: ٣٥-٣٧] ولم يذكر واقفًا. إذ لا منزل بين الجنة والنار. ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة. فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة، فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

**فإن** قلت: كل مجد في طلب شيء لابد أن يعرض له وقفة وفتور. ثم ينهض إلى طلبه، قلت: لابد من ذلك. ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجِمَّ نفسه، ويعدها للسير. فهذا وقفته سير. ولا تضره الوقفة. فإن «لكل عمل شِرَّة، ولكل شرة فترة».

---

(١) ١٩٢ فوائد. (٢) ٢٦٧ مدارج جـ١.

**وإما** أن يقف لداع دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه. فإن أجابه أخَّره ولابد. فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع. ووثب وجمز واشتد سعيًا ليلحق الركب. وإن استمر مع داعي التأخر، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دَرَكًا. وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض. فإنها أخطر منه وأصعب.

**وبالجملة**: فإن تدارك الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه، وتخليصه. وإلا فهو في تأخر إلى الممات. راجع القهقرى، ناكص على عقيبه، أو مول ظهره. ولا قوة إلا بالله. والمعصوم من عصمه الله.

(1)**الدليل** الثاني قوله تعالى: ﴿**كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رهينةٌ إلاّ أصحابَ اليمين * في جنَّاتٍ يتساءلون * عن الْمجْرمينَ ماسَلَكَكُم في سَقَرَ * قالوا لم نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * ولم نَكُ نُطْعِمُ المِسكِينَ * وكُنَّا نخُوضُ مَعَ الخائِضِين * وكُنَّا نُكذِّبُ بيوم الدِّينِ * حتّى أتانا اليَقِيْنَ**﴾ [المدثر: ٣٨-٤٧] فلا يخلو إما أن يكون كل واحد من هذه الخصال هو الذي سلكهم في سقر وجعلهم من المجرمين أو مجموعها. فإن كان كل واحد منها مستقلاً بذلك فالدلالة ظاهرة، وإن كان مجموع الأمور الأربعة فهذا إنما هو لتغليظ كفرهم وعقوبتهم، وإلا فكل واحد منها مقتض للعقوبة، إذ لا يجوز أن يضم مالا تأثير له في العقوبة إلى ما هو مستقل بها.

**ومن** المعلوم أن ترك الصلاة وما ذكر معه ليس شرطًا في العقوبة على التكذيب بيوم الدين، بل هو وحده كاف في العقوبة. فدل على أن كل وصف ذكر معه كذلك، إذ لا يمكن قائلاً أن يقول: لا يعذب إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة، فإذا كان كل واحد منها موجبًا للإجرام ـ وقد جعل الله سبحانه المجرمين ضد المسلمين ـ كان تارك الصلاة من المجرمين السالكين في سقر.

**وقد** قال: ﴿**إنَّ المُجرِمينَ في ضَلاَل وسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ في النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم ذُوقُوا مسَّ سَقَرَ**﴾ [القمر: ٤٧-٤٨]. وقال تعالى: ﴿**إنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانوا**

(١) ١٦ الصلاة.

من **الَّذِينَ** آمنوا **يَضْحَكُونَ﴾** [المطففين: ٢٩]. فجعل المجرمين ضد المؤمنين المسلمين.

(١)**ونظير** هذا قول أهل النار لأهل الجنة وقد سألوهم كيف دخلوها؟ **﴿قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الـدين﴾** فذكروا الأصلين الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين. وإيثـار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات وإطعام ذوي الحاجات فهذان الأصلان هما ما هما، والله ولي التوفيق.

(٢)**قوله** ـ تعالى ـ في تشبيه مَن أعرض عن كلامه وتدبُّره: **﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾** [المدثر: ٤٩، ٥١] شبههم في إعراضهم ونُفورهم عن القرآن بحُمر رأت الأسد أو الرُّماة ففرَّت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحُمر، وهي لا تعقل شيئًا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عن ما يهلكها ويعقرها، وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضًا وحَضَّه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدرًا زائدًا على الفعل المجرد فكأنها تواصَت بالنفور، وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى أن القَسْوَرة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته.

---

(١) ٤١ مفتاح جـ١.　　(٢) ١٦٤ أعلام جـ١.




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله**: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامةِ * ولا أُقْسِمُ بالنَّفسِ اللوامةِ﴾ [القيامة: ١، ٢] فقد تضمن الإقسام ثبوت الجزاء، ومستحق الجزاء، وذلك يتضمن إثبات الرسالة، والقرآن، والمعاد. وهو ـ سبحانه ـ يقسم على هذه الأمور الثلاثة، ويقررها أبلغ التقرير، لحاجة النفوس إلى معرفتها، والإيمان بها. وأمر رسوله أن يقسم عليها، كما قال تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لَحَقٌّ﴾ **وقال** تعالى: ﴿وقال الذين كَفَرُوا لا تأتينا الساعةُ قُلْ بَلى وربي لتأتِيَنَّكُم﴾ [سبأ: ٣]. وقال تعالى: ﴿زعم الذين كفروا إن لن يُبْعَثُوا قُلْ بَلىَ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بما عملتم وذلك عَلَى اللهِ يسيرٌ﴾ [التغابن: ٧]. فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها، يأمر نبيه ﷺ أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد.

**فأقسم** سبحانه لعباده، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه، فأبىٰ الظالمون إلا جحودًا وتكذيبًا.

**واختلف** في النفس المقسم بها ههنا، هل هي خاصة أو عامة؟ على قولين، بناء على الأقوال الثلاثة في اللوامة. فقال ابن عباس: كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا. ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته، واختاره الفراء. قال: ليس من نفس، برة ولا فاجرة، إلا وهي تلوم نفسها. إن كانت عملت خيرًا قالت: هلا ازددت خيرًا؟ وإن كانت عملت سوءًا قالت: يا ليتني لم أفعل.

**والقول** الثاني، أنها خاصة، قال الحسن: هي النفس المؤمنة، وأن المؤمن ـ والله ـ لا تراه إلا يلوم نفسه على كل حالة، لأنه يستقصرها في كل ما تفعل، فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر يمضي قدمًا، لا يعاتب نفسه.

---

(١) ١٠ التبيان.

**والقول** الثالث: أنها النفس الكافرة وحدها، قاله قتادة ومقاتل. وهي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله.

**قال** شيخنا[١]: والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقًا. فإن نفس كل إنسان لوامة، كما أقسم بجنس النفس في قوله: ﴿**ونَفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها**﴾ [الشمس: ٧، ٨] فإنه لابد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره. ثم هذا اللوم قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا، كما قال تعالى: ﴿**فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا يا ويلنا إنا كنَّا طاغين**﴾ [القلم: ٣٠، ٣١]. وقال تعالى: ﴿**يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذا اللوم غير محمود. وفي الصحيحين في قصة احتجاج آدم وموسى «أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن أخلق؟» فحج آدم موسى فهو ـ سبحانه ـ يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله: ﴿**إن الإنسان لربه لكنود**﴾ [العاديات: ٦]. وعلى جزائها كقوله: ﴿**فوربك لنسألنهم أجمعين**﴾ [الحجر: ٩٢]. وعلى تباين عملها كقوله: ﴿**إن سعيكم لشتى**﴾ [الليل: ٤]. وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك.

**وجمع** سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة ومحل الكسب، وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر، ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه. ولأنها متلومة مترددة، لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يعرفها ماهو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره، وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لومًا بحق، قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه، ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن، وأنها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح، ولا فلاح

---

(١) أي شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ.

بدونه البتة، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر.

(١)**قال** ابن عبدالبر: هذا الحديث أصل عظيم لأهل الحق في إثبات القدر، وأن الله قضى أعمال العباد، فكل أحد يصير لما قدر له مما سبق في علم الله، وليس فيه حجة للجبرية وإن كان في بادىء الرأي يساعدهم، وقال القرطبي: إنما غلبه بالحجة، لأنه علم من التوراة أن الله تاب عليه. فكان لومه على ذلك نوع جفاء، قال الحافظ: وقد أنكر القدرية الحديث، لأنه صريح في إثبات القدر السابق وتقرير النبي ﷺ لآدم على الاحتجاج به وشهادته بأنه غلب موسى، وقد أطال الحافظ في الجواب على ذلك من وجوه عدة: منها ما قال ابن عبدالبر: هذا مخصوص بآدم، لأن المناظرة وقعت بينهما بعد أن تاب الله عليه، قال ـ تعالى ـ: ﴿**فتلقّى آدمُ من رَّبِّه كلماتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾ [البقرة: ٣٧] فحسن منه أن ينكر على موسى لومه، وإلا فلا يجوز لأحد أن يقول لمن لامه على ارتكاب المعصية: هذا سبق في علم الله وقدره قبل أن يخلقني، فإن الأمة اجتمعت على لوم من وقعت منه المعصية.

(٢) **قوله** ـ تعالى ـ: ﴿**لا أقسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ**﴾ [القيامة: ١، ٢]. وقد تقدم ذكر هذين القسمين ومناسبة الجمع بينهما في الذكر، وكون الجواب غير مذكور، وأنه يجوز أن يكون مما حذف لدلالة السياق عليه والعلم به، ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به، وكونه آية، ولم يقصد به مقسمًا عليه معينًا. فكأنه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسمًا بها لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا.

(٣) **وقع** في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿**ياأيتُها النفس المطمئنة**﴾ [الفجر: ٢٧] وبقوله تعالى: ﴿**لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللّوامة**﴾

---

(١) (٢) ٩٢ التبيان. (٣) ٢٦٧ الروح.

[القيامة: ١-٢]وبقوله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ [يوسف: ٥٣]. والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه . . .

[1]**أما** اللوامة فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة، هل هي من التلوم، وهو التلون والتردد، أو هي من اللوم؟ وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين. قال سعيد بن جبير: «قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: هي النفس اللؤوم». وقال مجاهد: «هي التي تُندِّم على ما فات وتلوم عليه». وقال قتادة: «هي الفاجرة» وقال عكرمة: «تلوم على الخير والشر» وقال عطاء عن ابن عباس: «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا، وتلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته». وقال الحسن: «إن المؤمن ـ والله ـ ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليَمْضِي قُدُمًا لا يعاتب نفسه». . . فهذا عبارات من ذهب إلى أنها من اللوم.

**وأما** من جعلها من التلوم فلكثرة ترددها وتلومها، وأنها لا تستقر على حال واحدة. والأول أظهر؛ فإن هذا المعنى لو أريد لقيل: المتلومة. كما يقال: المتلونة والمترددة. ولكن هو من لوازم القول الأول، فإنها لتلومها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه. فالتلوّم من لوازم اللوم.

**والنفس** قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا. والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنة وصف مدح لها. وكونها أمَّارة بالسوء وصف ذم لها. وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه.

**والمقصود**: ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه. وله علاجان: محاسبتها، ومخالفتها، وهلاك القلب من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها

---

(١) ٧٧إغاثة جـ١

واتباع هواها، وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله**» دان نفسه: أي حاسبها.

**وذكر** الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيّنوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية».

**وذكر** أيضًا عن الحسن قال: لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه: وماذا أردت تعملين؟ وماذا أردت تأكلين؟ وماذا أردت تشربين، والفاجر يمضي قُدُماً لا يحاسب نفسه».

## فصل[1]

**وأما** النفس اللوامة وهي التي أقسم بها ـ سبحانه ـ في قوله: ﴿**ولا أقسِم بالنَّفس اللَّوامة**﴾ [القيامة: ٢]. فاختلف فيها فقالت طائفة: هي التي لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلوم، وهو التردد، فهي كثيرة التقلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب، وتتلون في الساعة الواحدة فضلاً عن اليوم والشهر والعام، والعمر ألوانًا متلونة، فتذكر، وتغفل، وتقبل، وتعرض، وتلطف، وتكشف، وتنيب، وتجفو، وتحب، وتبغض، وتفرح، وتحزن، وترضى، وتغضب، وتطيع، وتعصي، وتتقي، وتفجر، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها فهي تتلون كل وقت ألوانًا كثيرة فهذا قول.

**وقالت** طائفة اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا، فقالت فرقة: هي نفس المؤمن، وهذا من صفاتها المجردة، قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا يقول: ماأردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى، أو نحو هذا من الكلام.

---

(١) ٢٧٤ الروح.

**وقال** غيره: هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه، فهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فواته. وقالت طائفة: بل هذا اللوم للنوعين فإن كل أحد يلوم نفسه برًّا كان أو فاجرًا فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

**وقالت** فرقة أخرى هذا اللوم يوم القيامة، فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئًا على إساءته وإن كان محسنًا على تقصيره.

**وهذه** الأقوال كلها حق، ولا تنافي بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة. لكن اللوامة نوعان: لوامة ملومة وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته، ولوامة غير ملومة وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله واحتملت ملام اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم. فهذه قد تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله عز وجل[1].

[2]**ثم** أنكر على الإنسان بعد هذه الآية حسبانه وظنه: أن الله لا يجمع عظامه بعد مافرقها البلى. ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه. وعلى هذا فيكون ـ سبحانه ـ قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه. وأخبر عن فعله بأنه لا يلزمهم من القدرة وقوع المقدور. والمعنى: بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه. ودل على هذا المعنى المحذوف قوله (بلى) فإنها حرف إيجاب لما تقدم من النفي. فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه. فدلت الآية على الفعل، وذكرت القدرة لإبطال قول المكذبين.

**وفي** ذكر البنان لطيفة أخرى، وهي أنها أطرافه، وآخر ما يتم به خلقه. فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه، مع دقتها وصغرها ولطافتها، فهو على ما دون ذلك أقدر، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل: إنا

---

(١) تقدم البحث في سورة يوسف في الكلام على النفس الأمارة (ج).　　(٢) ٩٣ التبيان.

**نجمع** ونسوي أكثرها تفرقًا، وأدقها أجزاء، وآخر أطراف البدن، وهي **عظام الأنامل** ومفاصلها.

**وقالت** طائفة: المعنى قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير، وحافر الحمار لا نفرق بينهما، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئًا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتي لما يريد من الحوائج. وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين. والمعنى على هذا القول: إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها.

**فهذا** وجه من الاستدلال غير الأول، وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التي فرقها. ولم يجمعها، والأول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها، وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه، فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو اذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده، ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سبق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت. ويرجح القول الثاني ـ ولعله قول جمهور المفسرين، حتى أن فيهم من لم يذكر غيره ـ وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد. وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة، وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف، ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها. ففي هذا أعظم الأدلة عى قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت.

**ثم** أخبر ـ سبحانه ـ عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور، وأنه **لا** يرعوي ولا يخاف يومًا يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيًّا، بل هو مريد للفجور **ما عاش**، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده. وهذا **ضد الذي** يخاف الله والدار الآخرة فهذا لا يندم على **ما مضى** منه ولا **يقلع في الحال**، **ولا**

يعزم في المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، وهذا ضد التائب المنيب.

ثم نبه ـ سبحانه ـ على الحامل له على ذلك، وهو استبعاده ليوم القيامة وليس هذا استبعادًا لزمته مع إقراره بوقوعه، بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه في موضع آخر قوله: ﴿ذلك رجعٌ بعيد﴾ [ق: ٣] أي بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه. هذا قول جماعة من المفسرين، منهم ابن عباس وأصحابه. قال ابن عباس: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. وقال قتادة، وعكرمة: قدما قدما في معاصي الله، لا ينزع عن فجوره.

وفي الآية قول آخر، وهو أن المعنى بل يريد الإنسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة. وهذا قول ابن زيد، واختيار ابن قتيبة وأبي إسحاق قال هؤلاء: ودليل ذلك قوله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٦] ويرجع هذا القول لفظة (بل) فإنها تعطي أن الإنسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة، بل هو مريد التكذيب به، ويرجحه أيضًا أن السياق كله في ذم المكذب بيوم القيامة لا في ذم العاصي والفاجر، وأيضًا فإن ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد. فإنه قال: ﴿أيحسبُ الإنسانُ أن لن نجمعَ عِظَامَه بلىٰ قَادِرِين على أن نُسوِّيَ بَنَانَه﴾. فأنكر ـ سبحانه ـ عليه حسبانه أن الله لا يجمع عظامه. ثم قرر قدرته على ذلك. ثم أنكر عليه إرادة التكذيب بيوم القيامة. فالأول حسبان منه لا يحييه بعد موته، والثاني تكذيب منه بيوم البعث وأنه يريد أن يكذب بما وضح وبان دليل وقوعه وثبوته فهو مريد للتكذيب به.

ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال: ﴿يسأل أيَّانَ يومَ القيامةِ﴾ [القيامة: ٦]. فالأول إرادة التكذيب، والثاني نطق بالتكذيب وتكلم به. وهذا قول قوي كما ترى. لكن ينبغي إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى. فإن لفظة (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب وحذف الموصول مع ماجره وإبقاء الصلة خلاف الأصل. فإن أصحاب هذا القول قالوا تقديره ليكفر بما أمامه. وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبينة.

**فالجواب** أن الأمر كذلك لكن الفعل إذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم إعطاؤه حكمه من جميع الوجوه، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلاً، وما يضمنه معنى فعل آخر ويجري على المضمن أحكامه لفظًا وأحكام الفعل الآخر معنى، فيكون في قوة ذكر الفعلين مع غاية الاختصار. ومن تدبر هذا وجده كثيرًا في كلام الله تعالى.

**فلفظ** (يفجر) اقتضت (أمامه) بلا واسطة حرف ولا اسم موصول، فأعطيت ما اقتضته لفظًا واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول، فأعطيته معنى. فهذا وجه هذا القول لفظًا ومعنى. والله أعلم.

**ثم** أخبر سبحانه عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم الذي كذب به، فقال: **﴿فإذا بَرِقَ البصرُ وخَسَفَ القمرُ وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ يقولُ الإنسانُ يومئذ أينَ المفرُّ﴾** [القيامة: ٧-١٠] فبرق بصره أي يشخص بها يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها، وخسف القمر ذهب ضوؤه وانمحى، وجمع الشمس والقمر، ولم يجتمعا قبل ذلك، بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعد ما فرقها البلى ومزقها، ويجمع للإنسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وأخره من خير أو شر. ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسوله. ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر إليه، ويجمع المكذبين في دار الهوان، وهو قادر على ذلك كله، كما جمع خلق الإنسان من نطفة من مني يمنى، ثم جعله علقة مجتمعة الأجزاء بعد ما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الإنسان، وكما يجمع بين الإنسان وملك الموت، ويجمع بين الساق والساق: إما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر، ومن يجهز روحه من الملائكة، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة. فكيف (أنكر) هذا الإنسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه، وأن يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع، وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه، وعبوديته فلا يترك سدى مهملاً معطلاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب فلا يجمع عليه ذلك.

**فما** أجمع هذه السورة لمعان الجمع، والضم. وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين. وبالنفس اللوامة التي اجتمع فيها

همومها وغمومها، وإرادتها، واعتقاداتها. وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد، والقيامة الصغرى، والكبرى، وأحوال الناس في المعاد، وانقسام وجوههم إلى ناظرة منعمة، وباسرة معذبة. وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان إلى مكان. فتجمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراق، ويقول الحاضرون: ﴿**من راقٍ؟**﴾ [القيامة: ٢٧]. أي من يرقى من هذه العلة التي أعيت على الحاضرين، أي التمسوا له من يرقيه. والرقية آخر الطب.

**وقيل**: من يرقى بها ويصعد، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى الأول تكون من رقى يرقي: كرمى يرمي. وعى الثاني من رقي يرقى: كشقي يشقى. ومصدره الرقاء ومصدر الأول الرقية. والقول الأول أظهر لوجوه (أحدها) أنه ليس كل ميت يقول حاضروه. من يرقى بروحه وهذا إنما يقوله من يؤمن برقي الملائكة بروح الميت، وأنهم ملائكة رحمة، وملائكة عذاب بخلاف التماس الرقية وهي الدعاء فإنه قل ما يخلو منه المحتضر. (الثاني) أن الروح إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال من يرقى بها. وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها إلى الله. (الثالث) أن فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع، وأما الراقي إلى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه، و(من) إنما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه. (الرابع) أن مثل هذا السؤال إنما يراد به تحضيض وإثارة اهتمام إلى فعل يقع بعد (من) نحو قوله: ﴿**مَن ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا**﴾ [البقرة: ٢٤٥]. أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها كقوله: ﴿**مَن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفعل الراقي إلى الله لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا بخلاف فاعل الرقية، فإنه يحسن فيه الأول. (الخامس) أن هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرقية لمن وصل إلى مثل تلك الحال، فحكى الله - سبحانه - ما جرت عادتهم بقوله وحذف فاعل القول، لأنه ليس الغرض متعلقًا بالقائل بل بالقول، ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا من يرقى بروحه، فكان حمل الكلام على ما ألف وجرت العادة بقوله أولى، إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه

ويسمعونه. (السادس) أنه لو أريد هذا المعنى لكان وجه الكلام أن يقال: من هو الراقي، ومن الراقي؟ ولا وجه للكلام غير ذلك، كما يقال: من هو القائل منكما كذا وكذا؟ وفي الحديث «من القائل كلمة كذا». (السابع) أن كلمة من إنما يسأل بها عن التعيين كما يقول: من الذي فعل كذا، ومن ذا الذي قاله. فيعلم أن فاعلا وقائلاً فعل وقال، ولا يعلم تعيينه، فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأي تارة وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقي بالروح إلى الله.

**فإن** قيل: بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه، ولم يعلموا تعيينه فيسأل عن تعيين أحدهما. قيل: هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن، فكيف يسألون عن تعيين مالا سبيل للسامع إلى تعيينه. ولا إلى العلم به. (الثامن) أن الآية إنما سيقت لبيان يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق أسباب الموت، وأنه قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه ولا مخلص منه، بل هو قد ظن أنه مفارق لا محالة. فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لأسباب الحياة المعتادة تأثير في بقائه، فطلبوا أسبابًا خارجة عن المقدرو تستجلب بالرقى والدعوات، فقالوا: من راق؟ أي من يرقى هذا العليل من أسباب الهلاك. والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدي الدواء. (التاسع) أن مثل هذا إنما يراد به النفي والاستبعاد، وهو أحد التقديرين في الآية، أي لا أحد يرقى من هذه العلة بعد ما وصل صاحبها إلى هذه الحال. فهو استبعاد لنفي الرقية لا طلب لوجودالراقي، كقوله: ﴿**قال من يحيي العظام وهي رميم**﴾ [يس: ٧٨] أي لا أحد يحييها، وقد صارت إلى هذه الحال. فإن أريد بها هذا المعنى استحال أن يكون من الرقى، وإن أريد بها الطلب استحال أيضًا أن يكون منه. وقد بينا أنها في مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو للإنكار. وحينئذ فتقول في (الوجه العاشر) إنها إما أن يراد بها الطلب أو الاستبعاد، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين، ولا سبيل إلى حمل واحد من هذه المعاني على الرقي لما بيناه. والله أعلم.

[1]**وفي** الصحيحين من حديث أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**جنَّتان من ذهب آنيتها وحِليتها وما فيها، وجنَّتان من فِضة آنيتها وحِليتها وما فيها وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلَّا رِداء الكِبرياء على وجهه في جنَّة عدنٍ**». وذكر عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا أبو الربيع، حدَّثنا جرير بن عبدالحميد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبدالله بن الحارث، عن كعب قال: ما نظر الله إلى الجنة إلا قال: طيبي لأهلك فزات طيبًا على ما كانت، وما من يومٍ كان عيدًا في الدُّنيا إلا يخرجون في مقداره إلى رياض الجنة، ويبرز لهم الربُّ تبارك وتعالى وينظرون إليه، وتسفي عليهم الريح بالطيب والمسك فلا يسألون ربهم - تبارك وتعالى - شيئًا إلا أعطاهم، فيرجعوه إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضِعفًا. وقال عبد بن حُميد: أخبرني شبابة عن إسرائيل، حدثنا ثوير بن أبي فاختة سمعت ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر [إلى] خدمه ونعيمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية**» ثم تلا هذه الآية: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] رواه الترمذي في جامعه عنه.

**وذكر** عثمان بن سعيد الدَّارمي، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - رفعه [إلى] النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنَّة إذا بلغ منهم النَّعيم كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلَّى لهم الرَّبُّ - تبارك وتعالى - فنظروا إلى وجه الرَّحمن فنسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجه الرَّحمن**». وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. قال: حسَّنها الله - تعالى - بالنظر إليه - سبحانه - وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى ربها - عز وجل -: قال أبو سليمان الدَّاراني: لو لم يكن لأهل المحبة أو قال المعرفة إلا هذه الآية: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] **لاكتفوا بها**[2].

---

(١) ٤٥٢ روضة المحبين.

(٢) ذكر المؤلف - رحمه الله - آثارًا كثيرة في هذا الكتاب وغيره اكتفينا بما ذكرناه اختصاراً (ج).

[(١)]**ومن** أسرار هذه السورة أنه ـ سبحانه ـ جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن: فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر إليه. فلا أجمل لبواطنهم. ولا أنعم، ولا أحلى من النظر إليه، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه، وهي إشراقه، وتحسينه، وبهجته، وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿**ولقَّاهم نضرة وسرورا**﴾ [الإنسان: ١١].

**ونظيره** قوله: ﴿**يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوآتكم وريشا**﴾ [الأعراف: ٢٦] هذا جمال الظاهر وزينته ثم قال: ﴿**ولباس التقوى ذلك خير**﴾ فهذا جمال الباطن. ونظيره قوله: ﴿**إنّا زينا السماء الدُّنيا بزينة الكواكب**﴾ فهذا جمال ظاهرها، ثم قال: ﴿**وحفظًا من كل شيطان مارد**﴾ [الصافات: ٦، ٧] فهذا جمال باطنها.

**ونظيره** قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ليوسف ﴿**اخرُجْ عليهنَّ فلمَّا رأينَهُ أكْبَرَنْه وقطَّعن أيديهنَّ وقُلْنَ حاشَ لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملكٌ كريمٌ قالتْ فذلكُنَّ الذي لُمتُنَني فيه وَلَقَدْ راودتُّهُ عن نَّفْسِهِ فاستَعْصَمَ**﴾ [يوسف: ٣٠-٣١]. فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه، وأنه في غاية المحاسن ظاهرًا وباطنًا، وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه قوله: ﴿**إنَّ لكَ أن لاَ تجوعَ فيها ولا تَعْرَىٰ وأنك لا تظمأُ فِيهَا ولاَ تَضْحَىٰ**﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] فقابل بين الجوع والعري، لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر. وقابل بين الظمأ، وهو حر الباطن، والضحى، وهو حر الظاهر بالبروز للشمس وقريب من هذا قوله: ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾ [البقرة: ١٩٧] في ذكر الزاد الظاهر الحسي والزاد الباطن العنوي. فهذا زاد سفر الدنيا. وهذا زاد سفر الآخرة. ويلم به قوله هود: ﴿**يا قوم استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه يرسِلِ السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوة إلى قوتِكم**﴾ [هود: ٥٢]. فالأول القوة الظاهرة المنفصلة عنهم والثاني الباطنة المتصلة بهم. ويشبهه قوله: ﴿**فما له من قوة ولا ناصر**﴾ [الطارق: ١٠] فنفى عنهم الدافعين: الدافع من أنفسهم والدافع من خارج، وهو الناصر.

---

(١) ٩٨ التبيان.

**ومن** أسرارهـا أنها تضمنت إثبات قدرة الرب على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله، وهـذا على أحـد القـولين في قوله: ﴿**بلى قادرين على أن نسوي بنانه**﴾ [القيامة: ٤] فأخبر أنه قادر عليه، ولم يفعله ولم يرده، وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا من السماءِ ماءً بقدرٍ فأسكنّاه في الأرضِ وإنَّا على ذهاب به لقَادِرُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٨] وهذا أيضًا على أحد القولين، أي تغور العيون في الأرض فلا يقدر على الماء قال ابن عباس: يريد أن سيغيض فيذهب. فلا يكون من هذا الباب، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله.

**وأصرح** من هذين الموضعين قوله ـ تعالى ـ: ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم**﴾ [الأنعام: ٦٥] وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «**أعوذ بوجهك**» ولكن قد ثبت عنه ﷺ أنه لابد أن يقع في أمته خسف، ولكن لا يكون عامًّا، وهذا عذاب من تحت الأرجل. وروي أنه كان في الأمة قذف أيضًا. وهذا عذاب من فوق، فيكون هذا من باب الأخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال، فهو من القدرة على مالا يريده، وقد صرح ـ سبحانه ـ بأنه لو شاء لفعل مالم يفعله في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا**﴾ [يونس: ٩٩] وقوله: ﴿**ولو شئنا لآتينا كُلَّ نفسٍ هُدَاهَا**﴾ [السجدة: ١٣] ونظائره. وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه تبين فساد قول من قال: إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله، وأن الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقًا خطأ. والله أعلم.

**ومن** أسرارها أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته، ثم يقرأه بعد فراغه عليه. فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه. أو يسأل عما أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

**وقد** ذكر الله - تعالى - هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه هذا أحدها، والثاني قوله: ﴿**وكذلك أنزلناه قُرءانًا عربيًّا وصرَّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذِكرًا * فتعالىٰ اللهُ الملكُ الحقُّ ولا تعجلْ بالقرآنِ من قبلِ أن يُقْضَىٰ إليك وحيُهُ وقل رب زدني علمًا**﴾ [طه: ١١٣، ١١٤]. والثالث قوله: ﴿**سنُقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله**﴾ [الأعلى: ٦، ٧] فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقرأه إياه. وهذا يتناول القراءة وما بعدها.

**وقد** ذم الله سبحانه في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة، وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وإيثاره ما يبقى، ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة، فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة، وإثاره لها، واستعجاله بنصيبه، وتمتعه به قبل أوانه، ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون. وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة، والرب - سبحانه - وصف نفسه بضد ذلك، فلم يعجل على عبده، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي، وأيقن بالموت، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولي، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله، ويحدث له الذكر شيئًا بعد شيء، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال، وينبهه على مبدئه: من كونه نطفة من مني يمنى، ثم علقة، ثم خلقا سويًّا، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ولا بالعقوبة إذ كذب خبره، وعصى أمره. بل كن خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناة ولهذا ذم الإنسان بالعجلة بقوله: ﴿**وكان الإنسانُ عَجُولاً**﴾ [الإسراء: ١١] وقال: ﴿**خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلٍ سَأُورِيكُم آياتي فلا تَسْتَعْجِلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٧].

**ومن** أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل. وهذا أحد القولين، لأصحابنا وغيرهم، وهو الصواب، فإن الله - سبحانه - أنكر على من حسب أنه يترك سدى: فلا يؤمر، ولا ينهى، ولايثاب، ولا يعاقب. ولم ينف - سبحانه - ذلك بطريق الخبر المجرد، بل نفاه نفي مالا يليق نسبته إليه، ونفى منكر على من حكم

به وظنه. ثم استدل ـ سبحانه ـ على فساد ذلك، وبين أن خلقه الإنسان في هذه الأطوار، وتنقله فيها طورًا بعد طور حتى بلغ نهايته، يأبى أن يتركه سدى، فإنه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب والنقص.

**وهذه** طريقة القرآن في غير موضع كما قال تعالى: **﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا تُرْجَعُونَ فتعالى اللهُ الملكُ الحقُّ لا إله إلا هو ربُّ العرشِ الكريمِ﴾** [المؤمنون: ١١٦] فجعل كمال ملكه، وكونه ـ سبحانه ـ الحق، وكونه لا إله إلا هو، وكونه رب العرش المستلزم لربوبيته لكل ما دونه، مبطلاً لذلك الظن الباطل، والحكم للكاذب، وإنكار هذا الحسبان عليهم مثل إنكاره عليهم حسبانهم أنه لا يسمع سرهم ونجواهم، وحسبان أنه لا يراهم ولا يقدر عليهم، وحسبان أنه يسوي بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم، وغير ذلك مما هو منزه عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص، وأن نسبة ذلك كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق: من اتخاذ الولد، والشريك، ونحو ذلك، مما ينكره ـ سبحانه ـ على من حسبه أشد الإنكار. فدل على أن ذلك قبيح ممتنع نسبته إليه، كما يمتنع أن ينسب إليه سائر ما ينافي كماله المقدس.

**ولو** كان نفي تركه سدى إنما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك: **﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾** [القيامة: ٣٧] إلى آخره، مما يدل أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنع، وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها، فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، وكذلك يستلزم إرسال رسله وإنزال كتبه، وبعث العباد ليوم يجزى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك الحق، ولذلك كان منكر ذلك كافرًا بربه، وإن زعم أنه يقر بصانع العالم، فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال، والمستحق لنعوت الكمال. كما أن المعطل لكلامه وعلوه على خلقه لم يؤمن به سبحانه، فإنه آمن برب لا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يصعد إليه قول، ولا عمل، ولا ينزل من عنده ملك، ولا أمر، ولا نهي، ولا ترفع إليه الأيدي. ومعلوم أن هذا الذي آمن به رب مقدر في ذهنه، ليس هو رب العالمين وإله المرسلين.

**وكذلك** إذا اعتبرت اسمه الحي وجدته مقتضيًا لصفات كماله من علمه، وسمعه وبصره، وقدرته، وإرادته، ورحمته، وفعله ما يشاء. واسمه القيوم مقتض لتدبير أمر العالم العلوي والسفلي، وقيامه بمصالحه. وحفظه له، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحي القيوم، وإن أقر بذلك ألحد في أسمائه، وعطل حقائقها، حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها، وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القيامة

والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**الخامس** والثلاثون أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه، وهذا شأنه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ في كل من خانه في أمر من الأمور، فإنه يفسده عليه. وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه: يافلان إذا نُصر الهوىٰ ذهب الرأي. وسمعت رجلاً يقول لشيخنا: إذا خان الرجلُ في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد أو قال نَسيهَ، فقال الشيخ: هكذا من خان الله [تعالىٰ] ورسوله في مسائل العلم.

**السادس** والثلاثون أن من فسح لنفسه في اتباع الهوىٰ ضيّق عليها في قبره ويوم مَعاده، ومن ضيّق عليها بمخالفة الهوىٰ وسع عليها في قبره ومعاده، وقد أشار الله ـ تعالىٰ ـ إلىٰ هذا في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وجزاهُمْ بِمَ صَبَرُوا جنَّةً وحَريراً**﴾ [الإنسان: ١٢] فلما كان في الصبر الذي هو حبسُ النفس عن الهوىٰ خشونةٌ وتضييقٌ جازاهم علىٰ ذلك نعومة الحرير وسعةَ الجنة. وقال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ في هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات

(٢)**وقد** تقدم الكلام علىٰ ـ قوله تعالىٰ ـ: ﴿**إنَّ الأبْرارَ يَشْرَبُونَ من كَأْسٍ كَانَ مزَاجُها كَافُورًا * عيْناً يشْرَبُ بها عبادُ الله يفجّرُونها تفْجيراً**﴾ [الإنسان: ٥، ٦] وعلىٰ قوله: ﴿**ويُسقُونَ فيها كَأْساً كان مِزاجُها زنجبيْلاً * عيْناً فيها تُسمَّىٰ سَلْسَبِيلاً**﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨] فقالت فرقة: سلسبيلاً جملة مركبة من فعل وفاعل وسبيلاً منصوب علىٰ المفعول أي سل سبيلاً إليها، وليس هذا بشيء، وإنما السلسبيل كلمة مفردة وهي اسم للعين نفسها باعتبار صفتها.

**ولقد** شفىٰ قتادة ومجاهد في اشتقاق اللفظة، فقال قتادة سلسة فهم يصرفونها حيث شاءوا وهذا من الاشتقاق الأكبر. وقال مجاهد: سلسة السيل حديدة

(١) ٥١٢ روضة المحبين. (٢) ١٣٦ حادي الأرواح.

الجرية، وقال أبو العالية والمقابلان تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، وهذا من سلاستها وحدة جريتها. وقال آخرون: معناها طيبة الطعم والمذاق، وقال أبو إسحاق: سلسبيل صفة لما كان في غاية السلاسة فسميت العين بذلك. وقال ابن الأنباري: الصواب في سلسبيل أنه صفة للماء، وليس باسم للعين. واحتج علىٰ ذلك بحجتين:

**إحداهما** أن سلسبيلاً مصروف ولو كان اسماً للعين لم يصرف للتأنيث والعلمية.

**الثانية** أن ابن عباس قال: معناه أنها تنسل في حلوقهم انسلالاً.

**قلت:** ولا حجة له في واحدة منهما، أما الصرف فلاقتضاء رءوس الآي له كنظائره؛ وأما قول ابن عباس فإنما يدل علىٰ أن العين سميت بذلك باعتبار صفة السلالة والسهولة.

**فقد** تضمنت هذه النصوص أن لهم فيها الخبز واللحم والفاكهة والحلوىٰ وأنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء. وأما المسميات فبينها من التفاوت مالا يعلمه البشر.

**فإن** قيل: فأين يشوي اللحم وليس في الجنة نار؟.

**فقد** أجاب عن هذا بعضهم بأنه يشوي بـ «كن». وأجاب آخرون بأنه يشوىٰ خارج الجنة ثم يؤتىٰ به إليهم.

**والصواب** أنه يشوىٰ في الجنة بأسباب قدرها العزيز الحكيم لإنضاجه وإصلاحه كما قدر هناك أسباباً لإنضاج الثمر والطعام علىٰ أنه لا يمتنع أن يكون فيها نار تصلح لاتفسد شيئاً وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**مجامرهم الألوة**» و(المجامر) جمع مجمر وهو البخور الذي يتبخر بإحراقه (والألوة) العود المطري **فأخبر** أنهم يتجمرون به أي يتبخرون بإحراقه لتسطع لهم رائحته.

**وقد** أخبر سبحانه أن في الجنة ظلالاً والظلال لابد أن تفيء مما يقابلها فقال: ﴿**هم وأزواجهم في ظلال علىٰ الأرائك متكئون**﴾. وقال: ﴿**إن المتقين في ظلال وعيون**﴾ وقال: ﴿**وندخلهم ظلاً ظليلاً**﴾ فالأطعمة والحلوىٰ والتجمر تستدي

أسباباً تتم بها والله ـ سبحانه ـ خالق السبب والمسبب وهو رب كل شيء ومليكه **لا** إلـه إلا هو.

**وكذلك** جعل لهم ـ سبحانه ـ أسباباً تصرف الطعام من الجشاء والعرق الذي يفيض من جلودهم، فهذا سبب إخراجه وذاك سبب إنضاجه.

**وكـذلك** جعـل في أجوافهم من الحرارة ما يطبخ ذلك الطعام ويلطفه ويهيئه لخروجه رشحاً وجشاءًا.

**وكذلك** ماهناك من الفواكه والثمار يخلق لها من الحرارة ما ينضجها ويجعل سبحانه أوراق الشجـر ظلالهـا فرب الدنيا والآخرة واحد، وهو الخالق للأسباب والحكم مايخلقه في الدنيا والآخرة، والأسباب مظهر أفعاله وحكمته، ولكنها تختلف، ولهذا يقع التعجب من العبد لورود أفعاله ـ سبحانه ـ علىٰ أسباب غير الأسباب المعهودة المألوفة، وربما حمله ذلك علىٰ الإنكار والكفر، وذلك محض الجهل والظلم، وإلا فليست قدرته ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مقصورة عن أسباب أخر ومسببات ينشئها منها كما لا تقصر قدرته في هذا العالم المشهود عن أسبابه ومسبباته، وليس هذا بأهون عليه من ذلك.

**ولعل** النشأة الأولىٰ التي أنشأها الرب سبحانه ـ وتعالىٰ ـ فيها بالعيان والمشاهدة أعجب من النشأة الثانية لتي وعدنا بها إذا تأملها اللبيب.

**ولعل** إخراج هذه الفواكه والثمار من بين هذه التربة الغليظة والماء والخشب والهواء المناسب لها أعجب عند العقل من إخراجها من بين تربة الجنة ومائها وهوائها.

**ولعل** إخراج هذه الأشربة التي هي غذاء ودواء وشراب ولذة من بين فرث ودم ومن قيء ذباب أعجب من إجرائها أنهاراً في الجنة بأسباب أخر.

**ولعل** إخراج جوهري الذهب والفضة من عروق الحجارة من الجبال **وغيرها** أعجب من إنشائها هناك من أسباب أخر.

**ولعـل** إخـراج الحرير من لعاب دود القز وبنائها علىٰ أنفسها القباب البيض والحمر والصفر أحكم بناء أعجب من إخراجه من أكمام تنشق عنه شجر هناك **قد** أودع فيها وأنشىء منها.

**ولعل** جريان بحار الماء بين السماء والأرض علىٰ ظهور السحاب أعجب من جريانها في الجنة في غير أخدود.

**وبالجملة** فتأمل آيات الله التي دعا عباده إلىٰ التفكر فيها وجعلها آيات دالة علىٰ كمال قدرته وعلمه ومشيئته وحكمته وملكه وعلىٰ توحده بالربوبية والإلهية.

**ثم** وازن بينها وبين ما أخبر به من أمر الآخرة والجنة والنار تجد هذه أدل شيء علىٰ تلك، شاهدة لها وتجدهما من مشكاة واحدة ورب واحد وخالق واحد ومالك واحد فبعداً لقوم لا يؤمنون.

(١)**قال تعالىٰ:** ﴿**ويُسقَوْنَ فيْها كأساً كان مزاجُها زنجبيْلاً**﴾ [الإنسان: ١٧] وذكر أبو نعيم في كتاب الطب النبوي، من حديث أبي سعيد الخدري قال: «أهدىٰ ملك الروم إلى رسول الله ﷺ جَرَّة زنجبيل، فأطعم كل إنسان قطعة، وأطعمني قطعة».

**الزنجبيل:** حار في الثانية، رطب في الأولىٰ، مسخن معين علىٰ هضم الطعام ملين للبطن تليينا معتدلاً. نافع من سدد الكبد العارض عن البرد والرطوبة، ومن ظلمة البصر الحادثة عن الرطوبة: أكلا، واكتحالا. معين علىٰ الجماع، وهو محلل للرياح الغليظة الحادثة في الأمعاء والمعدة.

**وبالجملة:** فهو صالح للكبد والمعدة الباردتي المزاج، وإذا أخذ منه مع السكر وزن درهمين بالماء الحار أسهل فضولاً لزجة لعابية، ويقع في المعجونات التي تحلل البلغم وتذيبه، والمزي منه: حار يابس يهيج الجماع، ويزيد في المني، ويسخن المعدة والكبد، ويعين علىٰ الاستمراء، وينشف البلغم الغالب علىٰ البدن، ويزيد في الحفظ ويوافق برد الكبد والمعدة ويزيل بلتها الحادثة عن أكل الفاكهة، ويطيب النكهة ويدفع به ضرر الأطعمة الغليظة الباردة.

---

(١) ٣٥٤ زاد المعاد جـ٣.

## ذكر خدمهم وغلمانهم(١)

**قال** تعالىٰ: ﴿يَطُوفُ عليهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ بأكوَابٍ وأبارِيْقَ وكأسٍ من مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ويَطُوفُ عليهِم ولدانٌ مخلَّدونَ إذَا رأيْتَهم حسبْتُهم لُؤلُؤاً منْثُوراً﴾ [الإنسان: ١٩]. قال أبو عبيدة والفراء: مخلدون لا يهرمون ولا يتغيرون. قال والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يمشط: إنه لمخلد، وإذا لم تذهب أسنانه من الكبر قيل: هو مخلد. وقال آخرون: مخلدون: مقرطون مسورون أي في آذانهم القرطة وفي أيديهم الأساور. وهذا اختيار ابن الأعرابي، قال: مخلدون: مقرطون بالخلدة. وجمعها خلد وهي القرطة.

**وروى** عمرو عن أبيه: خلد جاريته إذا حلاها بالخلد وهي القرطة، وخلد إذا أسن ولم يشب، وكذلك قال سعيد بن جبير مقرطون.

**واحتج** هؤلاء بحجتين: إحداهما أن الخلود عام لكل من دخل الجنة فلابد أن تكون الولدان موصوفين بتخليد مختص بهم وذلك هو القرطة.

**الحجة** الثانية: قول الشاعر:

ومخلدات باللجين كأنما أعجازهن رواكد الكثبان

**وقال** الأولون: الخلد هو البقاء قال ابن عباس غلمان لا يموتون، وقول ترجمان القرآن في هذا كاف، وهو قول مجاهد والكلبي ومقاتل. قالوا: لا يكبرون ولا يهرمونولا يتغيرون.

**وجمعت** طائفة بين القولين، وقالوا: هم ولدان لا يعرض لهم الكبر والهرم وفي آذانهم القراطة فمن قال مقرطون أراد هذا المعنىٰ أن كونهم ولدان أمر لازم لهم وشبههم سبحانه باللؤلؤ المنثور لما فيه من البياض وحسن الخلقة.

**وفي** كونه منثوراً فائدتان (إحداهما) الدلالة علىٰ أنهم غير معطلين بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.

**و(الثاني)** أن اللؤلؤ إذا كان منثوراً ولاسيما علىٰ بساط من ذهب أو حرير كان

(١) ١٥٣ حادي الأرواح.

أحسن لمنظره وأبهىٰ من كونه مجموعاً في مكان واحد.

**وقد** اختلف في هؤلاء الولدان هل هم من ولدان الدنيا أم أنشأهم الله في الجنة إنشاء علىٰ قولين؟ فقال علىٰ بن أبي طالب والحسن البصري: هم أولاد المسلمين الذين يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم يكونون خدم أهل الجنة وولدانهم إذ الجنة لا أولاد فيها.

**قال** الحاكم أنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا إبراهيم بن الحسين ثنا آدم ثنا المبارك ابن فضالة عن الحسن في قوله: ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩] قال لم يكن لهم حسنات ولا سيئات فيعاقبون عليها فوضعوا بهذا الموضع. ومن أصحاب هذا القول من قال: هم أطفال المشركين فجعلهم الله خدماً لأهل الجنة.

**واحتج** هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبد الرحمن الفاري عن أبي حازم قال المديني عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم فهم خدم أهل الجنة**» يعني الأطفال قال الدارقطني ورواه عبد العزيز الماجشون عن ابن المنكدر عن يزيد الرقاشي عن النبي ﷺ انتهىٰ. ورواه فضيل بن سليمان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن أنس وهذه الطرق ضعيفة. فيزيد: واهٍ وفضيل بن سليمان: متكلم فيه، وعبد الرحمن بن إسحاق: ضعيف.

**قال** ابن قتيبة واللاهون من لهيت عن الشيء إذا غفلت عنه وليس هو من لهوت. وأصحاب القول الأول لا يقولون إن هؤلاء أولاد ولدوا لأهل الجنة فيها وإنما يقولون هم غلمان أنشأهم الله في الجنة كما أنشأ الحور العين.

**قالوا**: وأما ولدان أهل الدنيا فيكونون يوم القيامة أبناء ثلاث وثلاثين لما رواه ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبداً وكذلك أهل النار**» رواه الترمذي.

**والأشبه** أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنة كالحور العين خدماً لهم وغلماناً كما

قال تعالىٰ: ﴿ويطُوفُ عليهم غلْمانٌ لّهُمْ كأنهُمْ لُؤلُؤ مكْنُون﴾ وهؤلاء غير أولادهم فإن من تمام كرامة الله تعالىٰ لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم ولا يجعلهم غلماناً لهم.

**وقد** تقدم في حديث أنس عن النبي ﷺ: «**أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وفيه يطوف علىٰ ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون**» والمكنون المستور المصون الذي لم تبتذله الأيادي. وإذا تأملت لفظة الولدان ولفظة ويطوف عليهم واعتبرتها بقوله: ﴿ويطُوفُ عليهُم غلْمانٌ لّهُمْ﴾ وضممت ذلك إلىٰ حديث أبي سعيد المذكور آنفاً علمت أن الولدان غلمان أنشأهم الله تعالىٰ في الجنة خدماً لأهلها والله أعلم.

(1)**قال** تعالىٰ: ﴿وإذا رأيْتَ ثمَّ رأيْتَ نَعِيماً وملْكاً كَبيراً﴾ [الإنسان: ٢٠] قال ابن أبي نجيح عن مجاهد «ملكاً كبيراً قال: عظيماً: وقال استئذان الملائكة عليهم لاتدخل الملائكة عليهم إلا بإذن.

**وقال** كعب في قوله تعالىٰ: ﴿وإذا رأيْتَ ثمَّ رأيتَ نعيْماً ومُلْكاً كبيراً﴾ [الإنسان: ٢٠] يرسل إليهم ربهم الملائكة فتأتي الملائكة فتستأذن عليهم الملائكة.

**وقال** بعضهم الخدم ولا يدخل عليهم الملائكة إلا بإذن.

**وقال** الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أنه ذكر مراكب أهل الجنة ثم تلا ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾.

**وقال** ابن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول في قوله عز وجل: ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾. قال الملك الكبير أن رسول الله يأتيه بالتحفة واللطف فلا يصل إليه حتىٰ يستأذن له عليه فيقول للحاجب استأذن علي ولي الله، فإني لست أصل إليه، فيعلم ذلك الحاجب حاجباً آخر وحاجباً بعد حاجب، ومن داره إلىٰ دار السلام باب يدخل منه علىٰ ربه إذا شاء بلا إذن، فالملك الكبير أن رسول رب العزة لايدخل عليه إلا بإذن وهو يدخل علىٰ ربه بلا إذن.

**وقال** ابن أبي الدنيا حدثنا صالح بن مالك حدثنا صالح المري حدثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك يرفعه: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة من يقوم علىٰ رأسه عشرة آلاف خادم»...

(١) ١٩٤ حادي الأرواح.

(1)**وقال**: ﴿**عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وإستبرقٌ**﴾ [الإنسان: ٢١] وتأمل ما دلت عليه لفظة «عاليهم» من كون ذلك اللباس ظاهراً بارزاً يجمل ظواهرهم ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال.

**وقد** اختلف القراء السبعة في نصب «عاليهم» ورفعه على قراءتين.

**واختلف** النحاة في وجه نصبه هل هو على الظرف أو على الحال على قولين.

**واختلف** المفسرون هل ذلك للولدان الذين يطوفون عليهم فيطوفون وعليهم ثياب السندس والإستبرق أو للسادات الذين يطوفون عليهم الولدان فيطوفون على ساداتهم وعلى السادات هذه الثياب، وليس الحال ههنا بالبين ولا تحته ذلك المعنى البديع الرائع. فالصواب أنه منصوب على الظرف، فإن عالياً لما كان بمعنى فوق أجرى مجراه، قال أبو علي: وهذا الوجه أبين وهو أن عالياً صفة فجعل ظرفاً كما كان قوله: ﴿**والرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُم**﴾ [الأنفال: ٤٢] كذلك.

**وكما** قالوا هو ناحية من الدار، وأما من رفع عاليهم فعلى الابتداء وثياب سندس خبره، ولا يمنع من هذا إفراد عال وجمع الثياب، لأن فاعلاً قد يراد به الكثرة كما قال:

ألا إن جيراني العشية رائح     دعتهم دواع من هوى ومناوح

**وقال** تعالى: ﴿**مستكبرين به سامراً تهجرون**﴾.

**ومن** رفع خضراً أجراه صفة للثياب وهو الأقيس من وجوه: أحدها المطابقة بينهما في الجمع. الثاني موافقته لقوله تعالى: ﴿**ويَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً**﴾ [الكهف: ٣١]. الثالث تخلصه من وصف المفرد بالجمع، ومن جر أجراه صفة للسندس على إرادة الجنس، كما يقال: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض.

**وتترجح** القراءة الأولى بوجه رابع أيضاً وهو أن العرب تجيء بالجمع الذي هو في لفظ الواحد فيجرونه مجرى الواحد كقوله تعالى: ﴿**الذي جعلَ لكُم من الشَّجر الأخْضَرِ ناراً**﴾ [يس: ٨٠] وكقوله: ﴿**كأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ**﴾ [الحاقة: ٧] فإذا

(1) ١٤٢ حادي الأرواح.

كانوا قد أفردوا صفات هذا النوع من الجمع فإفراد صفة الواحد وإن كان في معنىٰ الجمع أولى. وفي استبرق قراءتان الرفع عطفاً علىٰ ثياب والجر عطفاً علىٰ سندس.

**وتأمل** كيف جمع لهم بين نوعي الزينة الظاهرة من اللباس والحلي، كما جمع لهم بين الظاهرة والباطنة كما تقدم قريباً فجمل البواطن بالشراب الطهور، والسواعد بالأساور، والأبدان بثياب الحرير.

## قاعدة[1]

**للعبد** بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة. وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول، هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف. قال تعالىٰ: ﴿**ومِنَ الَّيْلِ فاسْجُدْ له وسبِّحْه لَيْلاً طويلاً * إنّ هٰؤلآءِ يُحِبُّون العاجلةَ ويذَرُون ورآءهم يوماً ثقيْلاً**﴾ [الإنسان: ٢٦-٢٧].

[2] **قوله** تعالىٰ: ﴿**نحْنُ خلقناهم وشدَدْنا أسْرَهم**﴾ [الإنسان: ٢٨] قال ابن عباس: أي خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر. شدة الخلق يقال: فرس شديد الأسر. قال: وكل شيء شددته: من قتب أو غيره، فهو مأسور. وقال المبرد: الأسر القوى كلها. وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال. وشد الله أسر فلان، أي قوىّ خلقه. وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر. وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلىٰ بعض، بالعروق والعصب. . . .

[3] **وقال** في سورة الإنسان: ﴿**نحْنُ خلقْناهمُ وشددْنا أسْرهم**﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأولىٰ ثم قال: ﴿**وإذا شْئِنا بدَّلْنا أمثالهُمْ تبْديلاً**﴾ [الإنسان: ٢٨] فهذه النشأة الأخرىٰ. ونظير هذا ﴿**وأنَّه خلقَ الزوُجيْنِ الذَّكر والأُنْثىٰ * منْ نُّطْفةٍ إذا تُمْنَىٰ وأنَّ عليهِ النَّشْأة الأُخْرىٰ**﴾ [النجم: ٤٥-٤٦] وهذا في القرآن كثير جدًّا، يقرن بين النشأتين مذكراً للفطر والعقول بإحداهما علىٰ الأخرىٰ. وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإنسان
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٠٠ فوائد.		(٢) ٢٣ التبيان.		(٣) ١٢٤ التبيان.



بسم الله الرحمن الرحيم

## فصـــل(1)

**ومن** ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**والمرسلات عرفاً * فالعاصفات عصفاً * والناشرات نشراً * فالفارقات فرقاً * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً * إنما توعدون لواقع**﴾ [المرسلات: ١-٧] فسرت المرسلات بالملائكة، وهو قول أبي هريرة، وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة، وفسرت بالرياح، وهو قول ابن مسعود وإحدىٰ الروايتين عن ابن عباس وقول قتادة. وفسرت بالسحات، وهو قول الحسن، وفسرت بالأنبياء، وهـو رواية عطاء عن ابن عبـاس. قلت: الله سبحانه يرسل الملائكة، ويرسل الأنبياء، ويرسـل الـرياح، ويرسـل السحـاب، فيسـوقـه حيث يشاء، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، فإرساله واقع علىٰ ذلك كله، وهو نوعان: إرسال دين يحبـه ويرضاه، كإرسال رسله وأنبيائه، وإرسال كون وهو نوعان: نوع يحبه ويرضه، كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه. ونوع لا يحبه، بل يسخطه ويبغضه كإرسال الشيطان علىٰ الكفار.

**فالإرسال** المقسم به ههنا مقيد بالعرف.

**فإما** أن يكون ضد المنكر، فهو إرسال رسله من الملائكة، ولا يدخل في ذلك إرسال الرياح، ولا الصواعق، ولا الشياطين. وأما إرسال الأنبياء فلو أريد لقال: والمرسلين، وليس بالفصيح تسمية الأنبياء مرسلات. وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ، فلم يطلق في القرآن جمع ذلك إلا جمع تذكير لا جمع تأنيث، وأيضـاً فاقتران اللفظة بما بعدها من الأقسام لا يناسب تفسيرها بالأنبياء، وأيضاً فإن الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقوله: ﴿**تالله لقـد أرسلنـا إلىٰ أمم من قبلك**﴾ وقوله: ﴿**وإنك لمن المرسلين**﴾ وقوله: ﴿**يٰس**

---

(١) ٨٩ التبيان.

**والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين﴾** وإن كان العرف من التابع، كعرف الفرس وعرف الديك، والناس إلىٰ فلان عرف واحد، أي سابقون في قصده والتوجه إليه.

**جاز** أن تكون المرسلات الرياح. ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات. وجاز أن تكون الملائكة. وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفاً عليهما. ويؤيده أن الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها.

**ويؤيد** كونها الرياح عطف العصافات عليها بفاء التعقيب والتسبب، فكأنها أرسلت، فعصفت. ومن جعل المرسلات الملائكة قال: هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح، والأكثرون علىٰ أنها الرياح. وفيها قول ثالث أنها تعصف بروح الكافر، يقال عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه. قال الأعشىٰ: تعصف بالدراع والحاسر * حكاه أبو إساحق. وهو قول متكلف.

**فإن** المقسم به لابد أن يكون آية ظاهرة تدل علىٰ الربوبية، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن بها فإنما يقسم عليه، وإنما يقسم سبحانه بملائكته وكتابه، لظهور شأنهما، ولقيام الأدلة والأعلام الظاهرة الدالة علىٰ ثبوتهما.

**وأما** (الناشرات نشراً) فهو استئناف قسم آخر، ولهذا أتىٰ به بالواو وما قبله معطوف علىٰ القسم الأول بالفاء. قال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة: هي الرياح تأتي بالمطر.

**ويدل** علىٰ صحة قولهم قوله تعالىٰ: ﴿**وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته**﴾ يعني أنها تنشر السحاب نشراً، وهو ضد الطي. وقال مقاتل: هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم. وقاله مسروق، وعطاء عن ابن عباس. وقالت طائفة: هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها ـ وقيل: تنشر أوامر الله في الأرض والسماء. وقيل: تنشر النفوس، فتحييها بالإيمان.

**وقال** أبو صالح: هي الأمطار تنشر الأرض، أي تحييها.

**قلت:** ويجوز أن تكون الناشرات لازماً لا مفعول له، ولا يكون المراد أنهن نشرن كذا، فإنه يقال: نشر الميت: حي، وأنشره الله: إذا أحياه، فيكون المراد بها الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به المرسلات، أو الأشباح والأرواح

والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات. فإن الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات، والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها.

**لكن** هنا أمراً ينبغي التفطن له، وهو أنه سبحانه جعل الأقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر، وجعل العاصفات معطوفاً علىٰ المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد، ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتىٰ فيه بالواو، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء، فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات مرتبط بالناشرات، وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات.

**وقد** اختلف في الفارقات والأكثرون علىٰ أنها الملائكة. ويدل عليه عطف الملقيات ذكراً عليها بالفاء، وهي الملائكة بالاتفاق.

**وعلى** هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل، فألقت الذكر علىٰ الرسل إعذاراً وإنذارًا.

**ومن** جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها. وقال: هي تفرق السحاب ههنا وههنا، ولكن يأبىٰ ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها.

**ومن** قال: الفارقات أي القرآن يفرق بين الحق والباطل فقوله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل: إنها الرياح.

**ومن** قال: هي جماعات الرسل فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر. وإن أراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول.

**ويظهر** - والله أعلم بما أراد من كلامه - أن القسم في هذه الآية وقع علىٰ النوعين: الرياح، والملائكة. ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله، وقد جعله الله تعالىٰ نشوراً.

**وحياة** القلوب والأرواح بالملائكة. فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة. ولهذا - والله أعلم - فصل أحد النوعين من الآخر بالواو، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء.

**وتأمل** كيف موقع القسم في هذه السورة علىٰ المعاد والحياة الدائمة الباقية، وحال السعداء والأشقياء فيها، وقررها بالحياة الأولىٰ في قوله: **﴿ألم نخلقكم من**

ماء مهين﴾ فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحسن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة. وهو الرياح، والملائكة. فكان في القسم بذلك أبين دليل وأظهر آية علىٰ صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة.

**ولهذا** كان المكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر، فاستحق الويل. بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

**فلا** أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع، ولا أعظم منه موقعاً فإنه تكرر عشر مرات، ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه عقيب مايوجب التصديق ومايوجب التصديق به فتأمله.

(1)**قال** تعالىٰ: **﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾** وقال: **﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾** فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، فإذا عدلتم عن الهدىٰ والحق، فأين العدول، وأين المذهب؟!

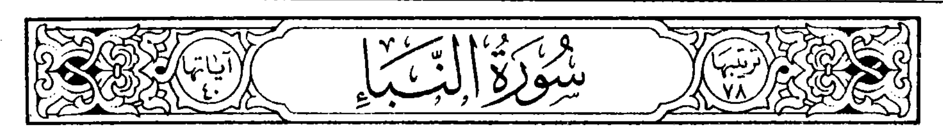
**ونظير** هذا قوله: **﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾** أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم. ونظيره قوله تعالىٰ: **﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾** لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئاً لا كان باطلاً، ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلىٰ المقصود، ونظيره قوله تعالىٰ: **﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾** وقد كشف هذا المعنىٰ كل الكشف بقوله عز- وجل -: **﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنىٰ تصرفون﴾**.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المرسلات

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٨٠ مفتاح جـ١.




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**فائدة:** في النوم فائدتان: إحداهما: انعكاس الحرارة إلى الباطن فينهضم الطعام. والثانية: استراحة الأعضاء التي قد كلّت بالأعمال.

(٢)**وضابط** الانقطاع أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل في نفسه. ولم يتناوله لفظه. كقوله تعالى: ﴿**لا يَسْمَعُونَ فيها لغْوًا إلاّ سَلامًا**﴾ [مريم: ٦٢]. فإن «السلام» داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام. وكذلك قوله: ﴿**لا يذُوقُون فيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا إلاَّ حَمِيمًا وغسَّاقًا**﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]. فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم. فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئًا إلا سلامًا. وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئًا إلا حميمًا وغساقًا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحًا، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص، لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد. وكذلك قوله تعالى: ﴿**مَالَهُم بِه مِن عِلْمٍ إلاَّ اتِّباعَ الظنِّ**﴾ [النساء: ١٥٦]. فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

**وأدق** من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى: ﴿**ولاَ تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤكُم مِنَ النِّساء إلاَّ ماقَد سَلَف**﴾ [النساء: ٢٢]. إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو. وكذلك: ﴿**وأنْ تَجْمعوا بين الأختَيْنِ إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ**﴾ [النساء: ٢٣]. وإن كان المراد به: ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله، فحسن أن يقال «إلا ما قد سلف». فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

(٣)**حمل** ابن عباس قوله تعالى: ﴿**هَذا فلْيَذُوقُوه حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ**﴾ [صٓ: ٥٧]. وقوله: ﴿**لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا إلاَّ حَمِيًا وغَسَّاقًا**﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]. قال:

---

(١) ٢٠٩ بدائع جـ٤. (٢) ٣١٨ مدارج جـ١. (٣) ٢١٦ بدائع جـ٢.

هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرها. وكذلك قال مقاتل ومجاهد هو الذي انتهى برده. . .

(١)**وقال** تعالى: ﴿**إنَّ للمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِق وأعْنَابًا وكَواعِبَ أتْرَابًا**﴾ [النبأ: ٣١-٣٣]. فالكواعب جمع كاعب وهي الناهد. قال قتادة ومجاهد والمفسرون. قال الكلبي: هن الفلكات اللواتي تكعب ثديهن وتفلكت، وأصل اللفظة من الاستدارة، والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلية إلى أسفل، ويسمين نواهد وكواعب.

(٢) **وقال** الإمام أحمد: حدثنا هشيم أنبأنا حصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿**وكأسًا دِهَاقا**﴾ [النبأ: ٣٤] قال: هي المتتابعة الممتلئة. قال: وربما سمعت العباس يقول اسقنا وادهق لنا.

(٣) **الدليل** على حشر الوحوش وجوه (أحدها) قوله تعالى: ﴿**وإذا الوُحُوشُ حُشِرَت**﴾ [التكوير: ٥]. (الثاني) قوله تعالى: ﴿**ومامِن دآبَّةٍ في الأرض ولاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بجَنَاحَيهِ إلاَّ أممٌ أمثَالُكم مَا فَرَّطنَا في الكِتَابِ مِن شَيءٍ ثمَّ إلى رَبِّهم يُحْشَرُون**﴾ [الأنعام: ٣٨]. (الثالث) حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها. وهو متفق على صحته. (الرابع) حديث أبي ذر أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: «**ياأبا ذر أتدري فيما ينتطحان؟**» قال: قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري وسيقضي بينهما**» رواه أحمد في مسنده. (الخامس) الآثار الواردة في قوله تعالى: ﴿**يَومَ يَنْظُرُ المَرْءُ مَا قَدَّمَت يَدَاهُ وَيَقُولُ الكَافِرُ يَالَيْتَني كُنتُ تُرابا**﴾ [النبأ: ٤٠]. وأن الله - تعالى - يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني ترابًا. فتكون ترابا فعندها يقول الكافر: ﴿**يَا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا**﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النبأ
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٦٣ حادي الأرواح. (٢) ١٣٦ حادي الأرواح. (٣) ١٨٣ بدائع جـ٣.




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** ـ تعالى ـ: ﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * والنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * والسَّابِحَاتِ سبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرات أَمْرًا**﴾ [النازعات: ١ـ٥] فهذه خمسة أمور. وهي صفات الملائكة.

**فأقسم** ـ سبحانه ـ بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال، إذ ذلك من أعظم آياته، وحذف مفعول النزع والنشط؛ لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد به، وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول. كقوله: ﴿**فأمَّا مَن أعْطى واتَّقى**﴾ [الليل: ٦] ونظائره، فكان نفس النزع هو المقصود لاعين المنزوع.

**وأكثر** المفسرين على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، وهم جماعة كقوله: ﴿**توَفَّته رُسُلُنَا**﴾ [الأنعام: ٦١]. وقوله: ﴿**إنَّ الذين توَفَّاهُم الملائِكَةُ**﴾ [النساء: ٩٧]. وأما قوله: ﴿**قُل يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوتِ الذي وُكِّلَ بِكُم**﴾ [السجدة: ١١]. فإما أن يكون واحدًا، وله أعوان، وإما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة كقوله: ﴿**وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّها وكُتُبِهِ**﴾ [التحريم: ١٢]. وقوله: ﴿**وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا**﴾ [النحل: ١٨].

**والنزع** هو اجتذاب الشيء بقوة، والإغراق في النزع هو أن يجتذبه إلى آخره، ومنه إغراق النزع في جذب القوة، بأن يبلغ بها غاية المد، فيقال: أغرق في النزع، ثم صار مثلاً لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره.

**والغرق** اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام، أقيم مقامه الإعطاء والتكلم.

---

(١) ٨٣ التبيان.

**واختلف** الناس: هل النازعات متعد أو لازم؟ فعلى القول الذي حكيناه يكون متعديًا، وهذا قول علي، ومسروق، ومقاتل، وأبي صالح، وعطية عن ابن عباس. وقال ابن مسعود: هي أنفس الكفار، وهو قول قتادة، والسدى، وعطاء عن ابن عباس. وعلى هذا فهو فعل لازم، وغرقًا على هذا معناه: نزعا شديدًا أبلغ ما يكون وأشده.

**وفي** هذا القول ضعف من وجوه:

**أحدها**: أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة، فهي السابحات والمدبرات، والنازعات.

**الثاني**: أن الإقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين، ولا في اللفظ ما يدل عليه.

**الثالث**: أن النزع مشترك بين نفوس بني آدم، والإغراق لا يختص بالكافر. وقال الحسن: النازعات هي النجوم، تنزع من المشرق إلى المغرب. وغرقًا هو غروبها قال: تنزع من ههنا وتغرق ههنا. واختاره الأخفش وأبوعبيد.

**وقال** مجاهد: هي شدائد الموت وأهواله، التي تنزع الأرواح نزعًا شديدًا، وقال عطاء، وعكرمة: هي القسى، والنازعات على هذا القول بمعنى النسب أو ذوات النزع التي ينزع بها الرامي، فهو النازع.

**قلت**: النازعات اسم فاعل من نزع، ويقال: نزع كذا. إذا اجتذبه بقوة، ونزع عنه إذا خلاه وتركه، بعد ملابسته له، ونزع إليه إذا ذهب إليه ومال إليه. وهذا إنما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل إلى الشيء أو الميل عنه، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة، لأن هذه القوة فيها أكمل، وموضع الآية فيها أعظم. فهي التي تغرق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه، والنفس الإنسانية أيضًا لها هذه القوة، والنجوم أيضًا تنزع من أفق إلى أفق. فالنزع حركة شديدة، سواء كانت من ملك، أو نفس إنسانية، أو نجم، والنفوس تنزع إلى أوطانها، وإلى مألفها، وعند الموت تنزع إلى ربها، والمنايا تنزع النفوس. والقسي تنزع بالسهام، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان، وتنزع ما وكلت بنزعه، والخيل تنزع في أعنتها نزعًا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها.

**فالصفة** واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب تعالى، فإنه هو الذي خلقها وخلق محلها، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك. ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل. وإن كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف.

**فأقسم** بطوائف الملائكة وأصنافهم: فهم النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد، والناشطات التي تنشطها أي: تخرجها بسرعة وخفة، من قولهم: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وأنا أنشط بكذا أي أخف له وأسرع. والسابحات التي تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء. فالسَّابقات التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به لا تبطىء عنه ولا تتأخر. فالمدبِّرات أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها. وهذا أولى الأقوال.

**وقد** روي عن ابن عباس: أن (النَّازعات) الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف. (والنَّاشِطَاتِ) الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة. واختار الفراء هذا القول، فقال: هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها، وتنزع نفس الكافر. قال الواحدي: إنما اختار ذلك، لما بين النشط والنزع من الفرق في الشدة واللين، فالنزع الجذب بشدة، والنشط الجذب برفق ولين. (والناشطات) هي النفوس التي تنشط لما أمرت به، والملائكة أحق الخلق بذلك، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به.

**وقيل**: (السَّابِحَاتِ) هي النجوم تسبح في الفلك، كما قال تعالى: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس: ٤٠] وقيل: هي السفن تسبح في الماء، وقيل: هي نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة إلى ربها.

**قلت**: والصحيح أنها الملائكة، والسياق يدل عليه، وأما السفن والنجوم فإنما تسمى جارية وجواري كما قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلَامِ**﴾ [الشورى: ٣٢]. وقال: ﴿**حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**﴾ [الحاقة: ١١]. وقال: ﴿**الْجَوَارِ الْكُنَّسِ**﴾ [التكوير: ١٦] ولم يسمها سابحات وإن أطلق عليها فعل السباحة، كقوله: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس: ٤٠]. ويدل عليه ذكره السابقات بعدها

والمـدبـرات بالفـاء، وذكره الثلاثة الأول بالواو، لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله، فإنها نزعت ونشطت وسبحت فسبقت إلى ما أمرت به فدبرته. ولو كانت السابحات هي السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء فتأمله.

**قال** مسروق، ومقـاتـل، والكلبي: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات: ٤] هي المـلائكـة قال مجاهد وأبوروق: سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق. قال مقاتل: تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. وقال الفراء، والزجاج: هي المـلائكـة تسبق الشياطـين بالـوحي إلى الأنبياء إذ كانت الشياطين تسترق السمـع. وهـذا القـول خطأ لا يخفى فساده، إذ يقتضي الاشتراك بين الملائكة والشياطين في إلقائهم الوحي، وأن الملائكة تسبقهم به إلى الأنبياء. وهذا ليس بصحيح. فإن الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء لا تسترقه الشياطين، وهم معزولون عن سماعه وإن استرقوا بعض ما يسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث، فالله سبحانه صان وحيه إلى الأنبياء أن تسترق الشياطين شيئًا منه، وعزلهم عن سمعه.

**ولو** أن قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التي تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل إلقاء الكلمة التي استرقها لكان له وجه، فإن الشيطان يبدر مسرعًا بإلقائه إلى وليه، فتسبقه الملائكة في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه، وربما ألقى الكلمة قبل إدراك الشهاب له.

**وفسرت** ﴿السَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ بالأنفس السابقات إلى طاعة الله ومرضاته. وأما ﴿الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ فأجمعوا على أنها الملائكة، قال مقاتل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك المـوت: يدبـرون أمر الله تعالى في الأرض، وهم ﴿الْمُقَسِّمَاتِ أَمْـرًا﴾. قال عبدالرحمن بن سابط: جبريل موكل بالرياح وبالجنود، وميكائيل موكـل بالقـطر والنبـات، وملك المـوت موكل بقبض الأنفس، وإسرافيل ينزل بأمر الله عليهم. وقال ابن عباس: هم الملائكة، وكّلهم الله بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها، بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون، وبعضهم وكلوا بالأمطار

والنبات والخسف والمسخ، والرياح والسحاب، انتهى.

**وقد** أخبر أن الله وكل بالرجم ملكًا، وللرؤيا ملك موكل بها، وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها، وعمل آلاتها، وأوانيها، وغراسها وفرشها، ونمارقها وأرائكها، وللنار ملائكة موكلة بعمل مافيها وإيقادها، وغير ذلك.

**فالدنيا** وما فيها، والجنة والنار، والموت وأحكام البرزخ ـ قد وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ماشاء الله من ذلك. ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم الإيمان إلا به.

**وأما** من قال: إنها النجوم فليس هذا من قول أهل الإسلام، ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئًا من الخلق، بل هي مدبرة ومسخرة. كما قال الله تعالى: ﴿**وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ**﴾ [الأعراف: ٥٤] فالله سبحانه هو المدبر بملائكته لأمر العالم العلوي والسفلي.

**قال** الجرجاني: وذكر السابقات والمدبرات بالفاء وما قبلها بالواو، لأن ما قبلها أقسام مستأنفة، وهذان القسمان منشآن عن الذي قبلهما كأنه قال: فاللاتي سبحن فسبقن. كما نقول قام فذهب، أوجب الفاء أن القيام كان سببًا للذهاب ولو قلت: قام وذهب لم تجعل القيام سببًا للذهاب.

**واعترض** عليه الواحدي، فقال: هذا غير مطرد في هذه الآية، لأنه يبعد أن يجعل السبق سببًا للتدبير، مع أن السابقات ليست الملائكة في قول المفسرين.

**قلت:** الملائكة داخلون في السابقات قطعًا. وأما اختصاص السابقات بالملائكة فهذا محتمل. وأما قوله: يبعد أن يكون السبق سببًا للتدبير فليس كما زعم، بل السبق المبادرة إلى تنفيذ ما يؤمر به الملك، فهو سبب للفعل الذي أمر به، وهو التدبير، مع أن الفاء دالة على التعقيب، وأن التدبير يتعقب السبق بلا تراخ. بخلاف الأقسام الثلاثة. والله أعلم.

**وجواب** القسم محذوف يدل عليه السياق، وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن. أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة، والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسمًا عليه بعينه. وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه

وإن لم يذكر لفظًا، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به، لكن هذا الوجه ألطف مسلكًا. فإن المقسم به إذا كان دالًا على المقسم عليه مستلزمًا استغنى عن ذكره بذكره. وهذا غير كونه محذوفًا لدلالة مابعده عليه فتأمله.

**ولعل** هذا قول من قال: إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء، وحذف المضاف. فإن معناه صحيح، لكن على غير الوجه الذي قدروه. فإن إقسامه ـ سبحانه ـ بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمله.

(١)**إن** الملائكة موكَّلة بالعالم العُلوي والسفلي، تدبّره بأمر الله ـ عز وجل ـ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**فالمُدبِّرات أمْرًا**﴾ [النازعات: ٥]. وقال: ﴿**فالمقسِّماتِ أمرًا**﴾. وقال تعالى: ﴿**والْمُرْسلاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا**﴾ [المرسلات: ١-٥]. وقال: ﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * والسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**﴾

**وقد** وكَّل الله ـ سبحانه ـ بالأفلاك والشمس والقمر ملائكة تحرّكها، ووكل بالرياح ملائكة تصرّفها بأمره وهم خَزنتها. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وأمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**﴾ [الحاقة: ٦]. وقال غير واحد من السلف: عَتت على الخُزَّان فلم يقدروا على ضبطها (ذكره البخاري في صحيحه). ووكّل بالقطر [ملائكة، وبالسحاب] ملائكة تسوقه إلى حيث أمرت [به].

**وقد** ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**بَينَا رَجُلٌ بفلاةٍ مِن الأرض إذ سَمِع صَوتًا في سحَابَةٍ يقول: اسْقِ حديقَة فُلانٍ فتتبعَ السَّحابَة حَتَّى انتهت إلى حَديقةٍ فأفرَغت ماءَها فيها، فنظر فإذا رجلٌ في الحديقة يُحَوِّل الماءَ بِمِسحَاةٍ، فقال له: ما اسمك ياعبدالله؟ فقال فُلَانٌ. الاسم الذي سَمعه في السَّحابة: فقال: إنِّي سَمِعت قَائِلًا يَقُول في هذه السَّحابة اسْقِ حَديقةَ فُلانٍ، فما تصنَعُ في هذه الحديقة؟ فقال: إنّي أنظُر ما يَخرُجُ منها فأجعله ثلاثة أثلاثٍ: ثُلُثٌ أتصَدَّق به، وثُلُث أُنْفِقُه عَلَى عِيَالي، وثُلُثٌ أرُدُّه فِيهَا**».

---

(١) ٦٤ روضة المحبين.

**ووكل** الله ـ سبحانه ـ بالجبال ملائكة، وثبت عن النبي ﷺ أنه جاءه ملك الجبال يسلّم عليه ويستأذنه في هلاك قومه إن أحبّ، فقال: بَل أستأني لَهم لعل الله أن يُخرج من أصلابهم مَن يَعْبد الله لا يُشرِك به شَيئًا. ووكّل بالرَّحم ملكًا يقول: يا رب نطفة؟ يارب علقة؟ يا رب مضغة؟ يا رب ذكرٌ أم أنثى؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ وشقيٌّ أم سعيد؟. ووكّل بكل عبدٍ أربعةً من الملائكة في هذه الدنيا: حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومعقباتٌ من بين يديه ومن خلفه أقلُّهم اثنان يحفظونه من أمر الله، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بمساءلة الموتى ملائكة في القبور. ووكّل بالرحمة ملائكة، وبالعذاب ملائكة، وبالمؤمن ملائكة يثبتونه ويؤزونه إلى الطاعات أزًا، ووكّل بالنار ملائكة يبنونها ويوقدونها، ويصنعون أغلالها وسلاسلها، ويقُومون بأمرها، ووكّل بالجنة ملائكة يبنونها ويفرشوها، ويصنعون أرائكها وسُررها وصحافها ونمارِقها وزرابيها. فأمر العالم العُلوي والسُّفلي والجنة والنار بتدبير الملائكة بإذن ربهم ـ تبارك وتعالى ـ وأمره: ﴿لا يَسْبِقُونَه بِالقَوْلِ وَهُم بِأمْرِه يَعْمَلونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. و﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أمَرَهُم وَيَفْعَلُون مَا يُؤمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره، وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره ليس بهم عجزٌ عنها، بخلاف من يترك ما أمِر به عجزًا فلا يعصي الله ما أمره، وإن لم يفعل ما أمره به.

**وكذلك** البحار قد وُكِّلت بها ملائكة تسجرها وتمنعها أن تفيض على الأرض فتغرق أهلَها، وكذلك أعمال بني آدم خيرُها وشرُّها قد وُكّلت بها ملائكة تحصيها وتحفظها وتكتبها، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتِم إلا به. وهي خمس: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

**وإذا** عُرف [ذلك عرف] أن كل حركةٍ في العالم فسببها الملائكة، وحركتُهم طاعةُ الله بأمره وإرادته، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب تعالى شرعًا وقدَرًا، والملائكة هم المنفذون ذلك بأمره، ولذلك سُمُّوا ملائكةً من الألوكة وهي الرسالة، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره.

[1]**عذاب** القبر حق، وقد قيل: ولابد من انقطاعه، لأنه من عذاب الدنيا، والدنيا وما فيها فانٍ منقطع، فلابد أن يلحقهم الفناء والبلاء، ولا يعرف مقدار مدة ذلك. يجوز أن يحشر الله العباد يوم القيامة عراة في وقت خروجهم من قبورهم يوم البعث، ثم يكسوا الله المؤمن حلل الجنان ويجعل على الكافر والعصاة سرابيل القطران. والتعبد في الآخرة بترك التكشف زائل.

**المحشر** هل هو في أرض من أراضي الجنة، أو في أرض من أراضي الدنيا، أو في موضع لا من الجنة ولا من النار، فقد قيل أول حشر الناس عند قيامهم من قبورهم في هذه الأرض التي ماتوا ودفنوا فيها، ثم يحولون إلى الأرض التي تسمى الساهرة، فهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]. والساهرة هي التي يحاسبون عليها، فإذا فرغوا من الحساب، وجازوا على الصراط، وميّز بين المجرمين والمؤمنين، ضرب بينهم بسور، فكان ما وراء السور مما يلي الجنة من أرض الجنة، وصار مادون السور مما يلي النار من أرض جهنم وموضع الحساب يصير من جهنم.

[2]**كثير** من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التي كان يعامله بها قبل الرياسة فلا يصادفها، فينتقض ما بينهما من المودة، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي، وذلك غلط، فإن للرياسة سكرة: كسكرة الخمر أو أشد. ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية، فسكرتها فوق سكرة القهوة بكثير.

**ومحال** أن يرى من السكران أخلاق الصاحي وطبعه، ولهذا أمر الله ـ تعالى ـ أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعًا وعقلًا وعرفًا، ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه، وهكذا كان النبي ﷺ يخاطب رءوساء العشائر والقبائل.

**وتأمل** امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ *

(١) ١٠٥ بدائع جـ٣.	(٢) ١٣٢ بدائع جـ٣.

وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]. فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر. وقال ـ تعالى ـ: ﴿إلى أن تزكى﴾ [النازعات: ١٨] ولم يقل: إلى أن أزكيك. فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره لما فيه من البركة والخير والتمام. ثم قال: ﴿وأهديك إلى ربك﴾ [النازعات: ١٩]. أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك. وقال: إلى ربك، استدعاء لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيراً ويافعًا وكبيراً..

[1]**ثم** قرر سبحانه بعد هذا القسم أمر المعاد، ونبوة موسى المستلزمة لنبوة محمد ﷺ، إذ من المحال أن يكون موسى نبيًّا ومحمد ليس نبيًا مع أن ما يثبت نبوة موسى فلمحمد نظيره أو أعظم منه. وقرر ـ سبحانه ـ تكليمه لموسى بندائه له بنفسه. فقال: ﴿إذ نَادَاه ربُّه﴾ [النازعات: ١٦]. فأثبت المستلزم للكلام والتكليم. وفي موضع آخر أثبت النجاء والنداء. والنجاء نوع من التكليم، ومحال ثبوت النوع بدون الجنس.

**ثم** أمره أن يخاطبه بألين خطاب فيقول له: ﴿هَل لَكَ إلى أن تَزكى * وأهدِيك إلى ربِّك فتخشَى﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

**(أحدها)** إخراج الكلام مخرج العرض ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام وهو ألطف. ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين: ﴿ألاَّ تأكُلون﴾ [النازعات: ٢٧] ولم يقل: كلوا.

**(الثاني)** قوله: ﴿إلى أن تزكى﴾ والتزكي: النماء، والطهارة، والبركة، والزيادة. فعرض عليه أمرًا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

**(الثالث)** قوله: ﴿تزكى﴾ ولم يقل: أزكيك، فأضاف التزكية إلى نفسه. وعلى هذا يخاطب الملوك.

**(الرابع)** قوله: ﴿وأهدِيكَ﴾ أي أكون دليلاً لك. وهاديًا بين يديك. فنسب الهداية إليه، والتزكي إلى المخاطب. أي أكون دليلاً لك وهاديًا فتزكى أنت كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ماشئت؟ وهذا أحسن من قوله أعطيك.

---

(١) ٨٨ التبيان.

**(الخامس)** قوله: ﴿إلى ربّك﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول مادل عليه، وهو أنه يدعوه ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه: جنينًا، وصغيرًا وكبيرًا، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام. كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك؟ وتقول للولد: ألا تطيع أباك الذي رباك.

**(السادس)** قوله: ﴿فتخشى﴾ أي إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته. لأن من عرف الله خافه. ومن لم يعرفه لم يخفه. فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته. وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

**(السابع)** أن في قوله: ﴿هل لَّك﴾ فائدة لطيفة. وهي أن المعنى هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك، لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعي. فكأنه يقول: الحاجة لك وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد. وادعى أنه رب العالمين: هذا. وهو يعلم أنه ليس بالذي خلق فسوى، ولا قدّر فهدى، فكذب الخبر، وعصى الأمر، ثم أدبر يسعى بالخديعة والمكر، فحشر جنوده فأجابوه، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى، واستخفهم فأطاعوه، فبطش به جبار السموات والأرض بطشة عزيز مقتدر، وأخذه نكال الآخرة والأولى، ليعتبر بذلك من يعتبر، فاعتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين، وحق القول على الكافرين.

**ثم** أقام ـ سبحانه ـ حجته على العالمين بخلق ماهو أشد منهم وأكبر، وأعظم وأعلى وأرفع، وهو خلق السماء وبناؤها، ورفع سمكها وتسويتها، وإظلام ليلها، وإخراج ضحاها، وخلق الأرض ومدها وبسطها وتهيئتها لما يراد منها، وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم، وأرسى الجبال فجعلها رواسي للأرض، لئلا تميد بأهلها، وأودعها من المنافع ما يتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم. فمن قدر على ذلك كله كيف يعجز عن إعادتكم خلقًا جديدًا؟

**فتأمل** دلالة المقسم به المذكور في أول السورة على المعاد والتوحيد وصدق

الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور. وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجًا إلى جواب. والله أعلم.

(١)**فارجع** الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانيًا، وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعًا أو بصرًا أو عقلاً أو قدرة أو علمًا أو روحًا، بل عظمًا واحدًا من أصغر عظامها، بل عرقًا من أدق عروقها، بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك.

**بل** ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين، فمن هذا صنعه في قطرة ماء! فكيف صنعه في ملكوت السموات، وعلوها، وسعتها، واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها، وقمرها، وكواكبها، ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقًا، وأتقن صنعًا، وأجمع العجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**أأنتم أشد خلقًا أم السماء * بناها رفع سمكها فسواها**﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**﴾ إلى قوله: ﴿**لآيات لقوم يعقلون**﴾ [البقرة: ١٦٤]. فبدأ بذكر خلق السموات. وقال تعالى: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾ [آل عمران: ١٩٠].

**وهذا** كثير في القرآن: فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر، ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخبارًا عن عظمها وسعتها، وإما إقساماً بها، وإما دعاءًا إلى النظر فيها، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالاً منه ـ سبحانه ـ بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته.

---

(١) ١٩٦ مفتاح جـ١.

(١)**من** تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣]. واللوامة في قوله: ﴿**وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة: ٢]. وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿**وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى**﴾ [النازعات: ٤٠]. وأما الشيطان فذُكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة. فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره؛ فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركبُه وموضع شره، ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله ﷺ: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**» كما تقدم ذلك في الباب الذي قبله.

**وقد** جمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين الاستعاذة من الأمرين في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «أن أبابكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: يارسول الله! علمني شيئًا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «**قل: اللهم عالمَ الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشِرْكِه، وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجُرَّه إلى مسلم، قُلْه إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك**».

(٢) **وقد** اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يُدخَلُ عليه ـ سبحانه ـ ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها.

**فإن** الناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعًا لها تحت أوامرها. وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها، فصارت طوعًا لهم منقادة لأوامرهم. قال بعض العارفين: انتهى سفرالطالبين إلى الظفر بأنفسهم. فمن

(١) ٩٠ إغاثة. (٢) ٧٥ إغاثة جـ١.

ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك. قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وآثر الحَيَاةَ الدُّنْيَا * فإنَّ الجَحِيمَ هِيَ المأوَى * وأمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه وَنَهَى النَّفسَ عَنِ الهَوى * فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المأوَى**﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

**فالنفس** تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهى النفس عن الهوى. والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة. وهذا موضع المحنة والابتلاء، وقد وصف ـ سبحانه ـ النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة، والأمَّارة بالسوء، واللوّامة.

**فاختلف** الناس: هل النفس واحدة، وهذه أوصاف لها. أم للعبد ثلاث أنفس؟ نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة.

**فالأول** قول الفقهاء والمتكلمين. وجمهور المفسرين، وقول محققي الصوفية، والثاني قول كثير من أهل التصوف.

**والتحقيق**: أنه لا نزاع بين الفريقين؛ فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها. فإذا اعتبرت بنفسها فهي واحدة، وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى فهي متعددة، وما أظنهم يقولون: إن لكل أحد ثلاث أنفس: كل نفس قائمة بذاتها، مساوية للأخرى في الحدّ والحقيقة، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفس، كل واحدة مستقلة بنفسها.

**وحيث** ذكر ـ سبحانه ـ النفس، وأضافها إلى صاحبها؛ فإنما ذكرها بلفظ الإفراد، وهكذا في سائر الأحاديث، ولم يجيء في موضع واحد «نفوسك» و«نفوسه» ولا «أنفسك» و«أنفسه» وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم، كقوله: ﴿**وإذَا النُّفوسُ زُوِّجَتْ**﴾ [التكوير: ٧]. أو عند إضافتها إلى الجمع؛ كقوله ﷺ: «**إنما أنفسنا بيد الله**». ولو كانت في الإنسان ثلاث أنفس لجاءت مجموعة إذا أضيفت إليه ولو في موضع واحد.

[1]**وأما** الهوى فهو ميلُ النَّفس إلى الشيء، وفعله هوِي يَهْوَى هوًى، مثل عَمِي يَعْمَى عمىً. وأما هوى يَهْوَى بالفتح فهو السقوط، ومصدره الهُوِيُّ، ويقال:

(١) ٢٦ روضة المحبين.

الهوى أيضًا على نفس المحبوب قال الشاعر:

إن التي زعمت فؤادك ملَّها　　خُلقت هواك كما خُلِقْت هوًى لها

**ويقال:** هذا هوى فلان　وفلانةٌ هواه أي مهويَّته ومحبوبته، وأكثر ما يُستعمل في الحب المذموم، كما قال الله تعالى: ﴿**وأمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأوَى**﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

**ويقال:** إنما سمي هوًى لأنه يهوى بصاحبه. وقد يستعمل في الحب الممدوح استعمالاً مقيَّدًا. ومنه قول النبي ﷺ: «**لَا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاه تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**». وفي الصحيحين عن عُروة قال: كانت خولةُ بنت حكيم من اللائي وهبْن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أما تستحي المرأة أن تهبَ نفسها للرجل؟ فلما نزلت ﴿**تُرْجِي مَنْ تَشاء مِنْهُنَّ**﴾ [الأحزاب: ٥١]. قلت: يارسول الله ماأرى ربَّك إلا يسارع هواك. . .

(١)**الخامس** والأربعون: أن أعدَى عدوٍّ للمرء شيطانُه وهواه، وأصدق صديق له عقلُه والملك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده للعدو، واستأسر له، وأشمته به وساء صديقَه ووليّه، وهذا هو بعينه هو جَهدُ البلاء، ودركُ الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

**السادس** والأربعون: أن لكل عبدٍ بداية ونهاية، فمن كانت بدايتُه اتباعَ الهوى، كانت نهايته الذلَّ والصغارَ والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يُعَذَّب به في قلبه كما قال القائل:

مآرب كانت في الشباب لأهلها　　عِذابًا فصارت في المشيب عَذابا

**فلو** تأمَّلت [حال] كل ذي حال سيئةٍ زَرِية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايتُـه مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايتُه العزَّ والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس. قال أبو علي الدّقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته أعزَّه الله ـ تعالى ـ في حال كهولته. وقيل للمهلب بن أبي صُفْرة. بمَ نلتَ ما نلت؟ **قال:** بطاعة الحزم وعصيان الهوى، فهذا في بداية الدُّنيا

---

(١) ٥١٦ روضة المحبين.

ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الجنة نهايةَ من خالف هواه، والنارَ نهايةَ من اتَّبع هواه.

(١)**فأما** مخالفة الهوى فلم يجعل الله للجنة طريقًا غير مخالفته، ولم يجعل للنار طريقًا غير متابعته، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**فأمَّا مَنْ طَغى * وآثرَ الحياةَ الدُّنيا * فإنَّ الجَحِيمَ هِيَ المأوَى * وأمَّا مَن خَافَ مقامَ ربِّه ونَهى النَّفس عن الهَوى * فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المـأوَى**﴾[النازعات: ٣٧-٤١]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ ربِّه جَنَّتانِ**﴾[الرحمن: ٤٦]. قيل: هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقامَ ربه عليه في الدُّنيا، ومقامَه بين يديه في الآخرة فيتركها لله.

(٢)**كتاب** لعسر الولادة: قال الخلال: حدثني عبدالله بن أحمد قال: رأيت أبي يكتب للمرأة إذا عسر عليها ولادتها في جام أبيض، أو شيء نظيف، يكتب حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «**لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، كأنهم يوم يرون ما يوعدون، لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلى عشية أو ضحاها**».

**قال** الخلال: أنبأنا أبوبكر المروزي: أن أباعبدالله جاءه رجل، فقال: ياأباعبدالله، تكتب لامرأة قد عسرت عليها ولادتها منذ يومين، فقال: قل له يجيء بجام واسع وزعفران. ورأيته يكتب لغير واحد.

**ويذكر** عن عكرمة عن ابن عباس قال: مرَّ عيسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم على بقرة قد اعترض ولدها في بطنها، فقالت: ياكلمة الله! ادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، فقال: يا خالق النفس من النفس، ويا مخلص النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس، خلصها، قال: فرمت بولدها، فإذا هي قائمة تشمه. قال: فإذا عسر على المرأة ولدها. فاكتبه لها. وكما تقدم من الرقى، فإن كتابته نافعة، ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعله الله فيه.

---

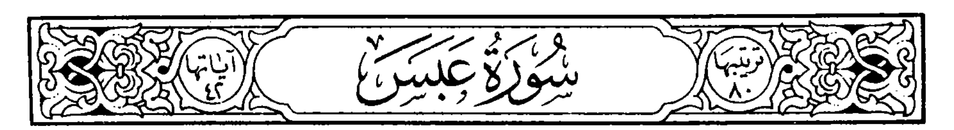
(١) ٤٢٨ روضة.

(٢) ٣٨١ زاد المعاد جـ٣.

**كتاب** آخر لذلك: يكتب في إناء نظيف: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّت * وأذِنَت لِرَبِّهَا وَحُقَّت * وإذَا الأرْضُ مُدَّتْ * وألْقَتْ مَا فِيها وَتَخَلَّتْ**﴾ [الانشقاق: ١-٤] وتشرب منه الحامل، ويرش على بطنها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النازعات

والحمد لله رب العالمين




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** تعالى: ﴿وأمَّا مَن جَاءَكَ يَسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهّى﴾ [عبس: ٨، ١٠]. يقال: لهى عن الشيء يَلهى: كغَشِيَ يَغْشَى إذا غفل، ولها به يَلهو، إذا لعب؛ وفي الحديث: «**فلها رسول الله ﷺ بشيء كان في يديه**» أي اشتغل به، ومنه الحديث الآخر: «**إذا استأثر الله بشيء فالْهَ عنه**». وسئل الحسن: عما يجده الرجل من البلة بعد الوضوء والاستنجاء؟ فقال: الْهَ عنه. وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد لها عن حديثه، وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ لرجل بعثه بمال إلى أبي عبيدة، ثم قال للرسول: «تَلهَّ عنه، ثم انظر ماذا يصنع به» ومنه قول كعب بن زهير:

وقال كُلُّ صَديق كنت آمله		لا ألهينَّك؛ إني عنك مشغولُ

أي لا أشغلك عن شأنك وأمرك، وفي المسند «**سألت ربي أن لا يعذب اللاهين من أمتي**» وهم البُلهُ الغافلون الذين لم يتعمدوا الذنوب، وقيل: هم الأطفال الذين لم يقترفوا ذنباً.

(٢)**وإذا** تأملت ما دعا الله ـ سبحانه ـ في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به ـ سبحانه وتعالى ـ وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته، وعلمه، وكمال حكمته، ورحمته، وإحسانه، وبره، ولطفه، وعدله، ورضاه، وغضبه، وثوابه، وعقابه. فبهذا تعرَّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته. ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله ـ سبحانه ـ في كتابه ليستدل بها على غيرها، فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب ـ سبحانه ـ إلى التفكر، فيه والنظر في غير موضع من كتابه: كقوله تعالى: ﴿**فَلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ**﴾ [الطارق: ٥] وقوله تعالى: ﴿**وفي أنفُسِكم أفَلا تُبصِرُون**﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالى: ﴿**ياأيُّها النَّاسُ**

(١) أعلام جـ٤.		(٢) ١٨٧ مفتاح جـ١.

إن كُنْتُم فِي رَيبٍ مِنَ البعثِ فإنَّا خَلقناكُم من تُرابٍ ثُمَّ مِن نطفةٍ ثُمَّ من علقَةٍ ثمَّ من مُضغةٍ مُخلَّقةٍ وغَيرِ مُخلَّقةٍ لِنُبيِّنَ لكم ونُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ إلى أجلٍ مُسمًّى ثُمَّ نُخرجكم طِفلاً ثُمَّ لِتَبلغوا أشُدَّكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يُردُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ [الحج: ٥]. وقال تعالى: ﴿أيَحسَبُ الإنسان أن يُترَكَ سُدًى ألم يَكُ نطفة من مَني يُمنى ثم كان علقة فَخَلَقَ فَسَوَّى فجَعَلَ منه الزَّوْجَيْنِ الذَكَرَ والأنثى ألَيْسَ ذلك بقادرٍ على أن يُحْيِيَ الموتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠]. وقال تعالى: ﴿ألم نَخلقكم من ماءٍ مهينٍ فجعلنَاه في قرارٍ مكينٍ إلى قدرٍ معلومٍ فقَدَرنَا فَنِعْمَ القادِرُون﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣]. وقال تعالى: ﴿أو لم ير الإنسانُ أنا خَلقناه من نُطفةٍ فإذا هو خَصيمٌ مُبينٌ﴾ [يسٓ: ٧٧]. وقال: ﴿ولقد خَلقنا الإنسان من سُلالةٍ من طِينٍ ثُمَّ جَعلناه نُطفةً في قَرارٍ مكينٍ ثُمَّ خَلقنَا النُّطفةَ علَقةً فخلقْنا العَلقَـةَ مُضغَـةً فَخلقنا المُضغة عظامًا فكسَونا العِظامَ لَحمًا ثُمَّ أنشأناه خَلقًا آخر فتَبَارَكَ اللهُ أحسنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره. إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره. قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره من أيِّ شيءٍ خَلَقَه من نُطفةٍ خَلَقَه فقدَّره ثُمّ السَّبِيلَ يَسَّره ثُمّ أماتَهُ فأقبَرَه ثُمَّ إذَا شَاءَ أَنْشَرَه﴾ [عبس: ١٧-٢٢]. فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ: النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث (**فانظر الآن إلى النطفة**) بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت. كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها.

**وكيف** جمع ـ سبحانه ـ بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف **قادهما** بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه. وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قرارًا مكينًا، لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه.

**ثم** قلّب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء، تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم، مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظامًا مجردة لا كسوة عليها، مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها.

**(وانظر)** كيف قسّم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك. ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال، وكيف كساها لحمًا ركبه عليها، وجعله وعاء لها، وغشاء وحافظًا، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها. وهي محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها، وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ.

(1)**وقال** تعالى: ﴿**فَلْيَنْظُر الإنسان إلى طَعامِه * أَنَّا صَبَبْنا الماءَ صبًّا * ثم شَقَقْنَا الأرضَ شقًّا * فأنبتنا فيها حبًّا * وعِنبًا وقَضبًا * وزيتُونًا ونَخلاً * وحَدائِقَ غُلبًا * وفَاكِهةً وأبًّا**﴾ [عبس: ٢٤-٣١]. فجعل ـ سبحانه ـ نظره في إخراج طعامه من الأرض دليلاً على إخراجه هو منها بعد موته، استدلالاً بالنظير على النظير.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة عبس

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ١٤٧ أعلام جـ١.




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قرأ** قارىء: ﴿**إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وإذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ**﴾ [التكوير: ١-٣]. وفي الحاضرين أبو الوفاء بن عقيل. فقال له قائل: يا سيدي هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب، وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلم هدم الأبنية، وسير الجبال، ودكّ الأرض، وفطر السماء، ونثر النجوم، وكوّر الشمس؟! فقال: إنما بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها، وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر، فلما انقضت مدة السكنى، وأجلاهم من الدار خربها لانتقال الساكن منها. فأراد أن يعلمهم بأن السكونين كانت معمورة بهم، وفي إحالة الأحوال، وإظهار تلك الأهوال، وبيان المقدرة بعد بيان العزة وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت، وأن معبوداتهم قد انتثرت وانفطرت، ومحالها قد تشققت. ظهرت فضائحهم، وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر، له رب يصرفه، كيف يشاء، تكذيبًا للملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم. فكم لله من حكمة في هدم هذه الدار، ودلالة على عظم عزته وقدرته وسلطانه وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها لمشيئته، فتبارك الله رب العالمين(٢).

(٣)**الدليل** على حشر الوحوش وجوه: (أحدها) قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وإذا الوُحوشُ حُشِرَتْ**﴾ [التكوير: ٥]. (الثاني) قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ومَا من دابّة في الأرضِ ولا طائِرٍ**

---

(١) ١٨٢ بدائع جـ٣.

(٢) ساق المؤلف ـ رحمه الله ـ هذه القصة في كتابه مفتاح دار السعادة ٢/١٦٣ قريبًا من هذا السياق.

(٣) ١٨٣ بدائع جـ٣.

يطيرُ بجناحيه إلا أممٌ أمثالُكم ما فرَّطْنا في الكتابِ من شيءٍ ثُمَّ إلى ربهم يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. (الثالث) حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وإنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، وهو متفق على صحته. (الرابع) حديث أبي ذر أن النبي، ﷺ، رأى شاتين ينتطحان فقال: «يا أبا ذر! أتدري فيما ينتطحان؟!» قال: قلت: لا. قال: «لكن الله يدري وسيقضي بينهما» رواه أحمد في مسنده. (الخامس) الآثار الواردة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظرُ المَرءُ ما قَدَّمتْ يَداه ويقولُ الكَافِرُ يا لَيتَني كُنتُ تُرابًا﴾ [النبأ: ٤٠]. وأن الله ـ تعالى ـ يجمع الوحوش، ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني ترابًا. فتكون ترابًا؛ فعندها يقول الكافر: ﴿يا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا﴾.

[1]**قوله** سبحانه: ﴿فلا أقسِم بِالخُنَّسِ * الجَوارِ الكُنَّس * واللَّيلِ إذا عَسْعَسَ * والصُّبحِ إذا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٥-١٨]. أقسم ـ سبحانه ـ بالنجوم في أحوالها الثلاثة. من طلوعها، وجريانها، وغروبها. هذا قول علي، وابن عباس، وعامة المفسرين. وهو الصواب.

**والخنس** جمع خانس. والخنس الانقباض والاختفاء، ومنه سمي الشيطان خناسًا، لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه. ومنه قول أبي هريرة فانخنست[2]. والكنس جمع كانس، وهو الداخل في كناسه، أي في بيته. ومنه تكنست المرأة إذا دخلت في هودجها، ومنه كنست الظباء، إذا أوت إلى أكناسها.

**والجواري** جمع جارية، كغاشية وغواش. قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل. وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم قالوا: الكواكب تخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى، وتكنس في وقت غروبها. ومعنى تخنس ـ على هذا القول ـ تتأخر عن البصر، وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها، وفيه

---

(١) ٧٢ التبيان.

(٢) روى أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة أن النبي ﷺ لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب، فانخنس منه فذهب فاغتسل. ثم جاء، فقال له: «**أين كنت يا أبا هريرة؟ فقال: كنت جنبًا، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة. فقال: سبحان الله، إن المؤمن لا ينجس**».

قول آخر، وهو أن خنوسها رجوعها، وهي حركتها الشرقية، فإن لها حركتين حركة بفعلها وحركة بنفسها، فخنوسها حركتها بنفسها راجعة، وعلى هذا فهو قسم بنوع من الكواكب، وهي السيارة، وهذا قول الفراء. وفيه قول ثالث، وهو أن خنوسها وكنوسها واختفاءها وقت مغيبها، فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها، وهذا قول الزجاج.

**ولما** كان للنجوم حال ظهور، وحال اختفاء، وحال جريان، وحال غروب أقسم ـ سبحانه ـ بها في أحوالها كلها. ونبه بخنوسها على حال ظهورها؛ لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفيًا: إنه قد خنس، فذكر ـ سبحانه ـ جريانها وغروبها صريحًا، وخنوسها وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع، فالطلوع أول جريانها. فتضمن القسم طلوعها، وغروبها وجريانها، واختفاؤها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته.

**وليس** قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه: (أحدها) أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة. (الثاني) اشتراك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان. (الثالث) أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقًا، بل لاتزال ظاهرة في الفلوات. (الرابع) إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء. قال الواحدي: هو من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خنس، والبقرة خنساء، والظبي أخنس. ومنه سميت الخنساء[1] لخنس أنفها، ومعلوم أن هذا أمر خفي يحتاج إلى تأمل، وأكثر الناس لا يعرفونه، وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق، وليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم، فالآية فيه أظهر. (الخامس) أن كنوسها في أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوي فيه ولا أظهر منه، حتى يتعين للقسم. (السادس) أنه لو كان جمعًا للظبي لقال الخُنْس ـ بالتسكين ـ لأنه جمع أخنس، فهو كأحمر وحمر، ولو أريد به

(١) هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة الصحابية رضي الله عنها.

جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء أيضًا، كحمراء وحمر، فلما جاء جمعه على فعل ـ بالتشديد ـ استحال أن يكون جمعًا لواحد من الظباء والبقر؛ وتعين أن يكون جمعًا لخانس، كشاهد وشهد، وصائم وصوم، وقائم وقوم، ونظائرها. (السابع) أنه ليس بالبين إقسام الرب ـ تعالى ـ بالبقر والغزلان، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه.

**كما** أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس الإنسانية. ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله، وهو القرآن. ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء، وشمسها وقمرها، ونجومها. ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، وهو الليالي العشر.

**وإذا** أراد ـ سبحانه ـ أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم، كقوله: ﴿**فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون**﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وقوله: ﴿**الذكر والأنثى**﴾ في قراءة رسول الله، ﷺ، ونحو ذلك. (الثامن) أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد. وبهذا احتج أبوإسحاق على أنها النجوم. فقال: هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش. (التاسع) أنه لو أراد ذلك ـ سبحانه ـ لبينه وذكر ما يدل عليه، كما أنه لما أراد بالجواري السفن قال: ﴿**ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام**﴾ [الشورى: ٣٢]. وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق مايدل على أنها البقر والظباء. وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها. (العاشر) أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين ورجوم للشياطين وبين المقسم عليه ـ وهو القرآن، الذي هو هدىً للعالمين، وزينة للقلوب، وداحض لشبهات الشيطان ـ أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن. والله أعلم[١].

---

(١) تعرض المؤلف لهذا البحث في مفتاح دار السعادة، ص١٩٠ جـ٢.

## فصـــل

**واختلف** في عسعسة الليل، هل هي إقباله أم إدباره؟ فالأكثرون على أن عسعس بمعنى: ولى وذهب وأدبر. هذا قول علي وابن عباس وأصحابه. قال الحسن: أقبل بظلامه، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد.

**فمن** رجح الإقبال قال: أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإقبال الليل وإقبال النهار. فقوله: ﴿**والصُّبحِ إذا تَنفَّس**﴾ [التكوير: ١٨] مقابل لليل إذا عسعس. قالوا: ولهذا أقسم الله بـ﴿**اللَّيـل إذا يَغشى والنَّهار إذا تجلَّى**﴾ [الليل: ١، ٢] وبالضحى. قالوا: فغشيان الليل نظير عسعسته، وتجلي النهار نظير تنفس الصبح، إذ هو مبدؤه وأوله.

**ومن** رجح أنه إدباره احتج بقوله ـ تعالى ـ: ﴿**كلَّا والقَمر * واللَّيل إذ أدبر * والصُّبح إذا أسفر**﴾ [المدثر: ٣٢-٣٤] فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح، وذلك نظير عسعسة الليل، وتنفس الصبح.

**قالوا**: والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل، وإقبال النهار. فإنه عقيبه من غير فصل. فهذا أعظم في الدلالة والعبرة، بخلاف إقبال الليل وإقبال النهار، فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما، ولأن بينهما زمنًا طويلاً. فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ. فذكر سبحانه حالة ضعف هذا، وإدباره، وحالة قوة هذا وتنفسه. وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه. وهذا هو القول. والله أعلم.

## فصـل

**ثم** ذكر ـ سبحانه ـ المقسم عليه، وهو القرآن، وأخبر أنه قول رسول كريم، وهو ههنا جبريل قطعًا. لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به. وأما الرسول الكريم في الحاقة فهو محمد، ﷺ، لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه أنه قوله. فقال: ﴿**وما هُو بِقول شَاعِرٍ قَليلًا ما تُؤمنون * ولا بِقول كَاهِنٍ قَليلًا ما تَذَكَّرون**﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢] فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري تارة، وإضافته إلى كل

واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده، وإلا تناقضت النسبتان. ولفظ الرسول يدل على ذلك. فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله.

**وهذا** صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمدًا، ﷺ، وأن كلًّا منهما بلغه عن الله، فهو قوله مبلغًا، وقول الله الذي تكلم به حقًّا. فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلمًا بالقرآن وهو كلامه حقًّا في هاتين الآيتين، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى، وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ، فجبريل سمعه من الله، ومحمد، ﷺ، سمعه من جبريل[١].

**ووصف** رسوله الملكي في هذه السورة بأنه: كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السموات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن تذكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين. فناهيك بهذا السند علوًّا وجلالة: قول الله سبحانه بنفسه تزكيته.

**الصفة** الأولى كون الرسول الذي جاء به إلى محمد ﷺ كريمًا ليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث، لئيم، قبيح المنظر، عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيء عن الكرم.

**والرسول** الذي ألقى القرآن إلى محمد ﷺ كريم، جميل المنظر، بهي الصورة، كثير الخير، طيب مطيب، معلم الطيبين. وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر، فهو مما أجراه ربه على يده، وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

**الوصف** الثاني أنه ذو قوة كما قال في موضع آخر: ﴿عَلَّمه شَدِيدُ القُوىٰ﴾ [النجم: ٥] وفي ذلك تنبيه على أمور:

**أحدها**: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئًا، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

**الثاني**: أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه، ومعاضد له، ومواد له وناصر،

(١) تقدم في سورة الحاقة بحث قريب من هذا، (ج).

كما قال تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعدَ ذَلِكَ ظَهيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره، وأعوانه، ومعلمه، فهو المهدي المنصور، والله هاديه، وناصره.

**الثالث**: أن من عادى هذا الرسول، فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

**الرابع**: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤد له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة، أو ولاية، أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليه، الأمين على فعله، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قويًّا أمينًا معظمًا ذا مكانة عنده، مطاعًا في الناس، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات. وهذا يدل على عظمة شأن المرسل، والرسول، والرسالة، والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف، ذوي الأقدار والرتب العالية.

(1)**وقد** أثنى الله ـ سبحانه ـ على عبده جبريل في القرآن أحسن الثناء، ووصفه بأجل الصفات فقال: ﴿فلا أقسم بالخُنَّس * الجَوارِ الكُنَّس * واللَّيل إذا عَسْعَسَ * والصُّبح إذا تَنَفَّس * إنَّه لقولُ رسولٍ كريمٍ * ذِي قُوة عِنْدَ ذِي العَرْش مَكِينٍ * مُطاعٍ ثَمَّ أمينٍ﴾ [التكوير: ١٥-٢١]. فهذا جبريل، فوصفه بأنه رسوله، وأنه كريم عنده، وأنه ذو قوة ومكانة عند ربه ـ سبحانه ـ، وأنه مطاع في السموات. وأنه أمينٌ على الوحي.

**فمن** كرمه على ربه: أنه أقرب الملائكة إليه. قال بعض السلف: منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك.

**ومن** قوته: أنه رفع مدائن قوم لوط على جناحه، ثم قلبها عليهم. فهو قويّ على تنفيذ ما يؤمر به، غير عاجز عنه، إذ تطيعه أملاك السموات فيما يأمرهم به عن الله تعالى. قال ابن جرير في تفسيره، عن إسماعيل بن أبي خالد عن

---

(١) ١٢٨ إغاثة جـ٢.

أبي صالح: أمينٌ على أن يدخل سبعين سُرادقًا من نور بغير إذن.

**ووصفه** بالأمانة يقتضي صدقه ونصحه، وإلقاؤه إلى الرسل ما أُمِرَ به من غير زيادة ولا نقصان ولا كتمان. وقد جمع له بين المكانة والأمانة والقوة والقرب من الله.

**ونظير** الجمع له بين المكانة والأمانة: قول العزيز ليوسف عليه السلام: ﴿**إنَّك اليَوم لدَينَا مَكِين أمينٌ**﴾ [يوسف: ٥٤] والجمع بين القوة والأمانة: نظير قول ابنة شعيب في موسى عليه السلام: ﴿**إن خير من استأجرت القوي الأمين**﴾...

(١)**وقوله**: ﴿**عِند ذي العرش مَكين**﴾ [التكوير: ٢٠] أي له مكانة ووجاهة عنده، وهو أقرب الملائكة إليه، وفي قوله: ﴿**عِند ذِي العَرشِ**﴾ إشارة، إلى علو منزلة جبريل، إذ كان قريبًا من ذي العرش سبحانه.

**وفي** قوله: ﴿**مُطَاعٍ ثَمَّ**﴾ [التكوير: ٢١] إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد ﷺ. وفيه إشارة أيضًا إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعًا في الأرض، كما أن جبريل مطاع في السماء، وأن كلا من الرسولين مطاع في محله وقومه. وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع.

**وفي** وصفه بالأمانة إشارة إلى حفظه ما حمله، وأدائه له على وجهه.

**ثم** نزه رسوله البشري وزكاه عما يقول فيه أعداؤه. فقال: ﴿**ومَا صَاحِبكم بِمجنون**﴾ [التكوير: ٢٢]. وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين.

**ثم** أخبر عن رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل. وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج، يرى بالعيان، ويدركه بالبصر، لا كما يقول المتفلسفة، ومن قلدهم: إنه العقل الفعال، وأنه ليس مما يدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان، وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل.

---

(١) ٧٧ التبيان.

**ولهذا** كان تقرير رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى. فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها. ومن أنكرها كفر قطعًا. وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق.

**وقد** صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره. وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك[1] فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى. وإن كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه. فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة.

**ثم** نزه رسوليه كليهما - أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم - عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل، والتبديل، والتغيير، الذي يوجب التهمة، فقال: ﴿**وما هو على الغيب بضَنين**﴾ [التكوير: ٢٤]. فإن الرسالة لايتم مقصودها إلا بأمرين: أدائها من غير كتمان، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان. والقراءتان كالآيتين، فتضمنت إحداهما - وهي قراءة الضاد - تنزيهه عن البخل. فإن الضنين هو البخيل، يقال ضننت به أضن، بوزن بخلت به أبخل ومعناه؛ ومنه قول جميل بن معمر:

أجود بمضنون التلاد وإنني　　بسرك عمن سألني لضنين

**قال** ابن عباس - رضي الله عنهما -: ليس بخيلاً بما أنزل الله. وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم.

**وأجمع** المفسرون على أن الغيب ههنا القرآن والوحي. وقال الفراء، يقول تعالى: يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم، وهذا معنى حسن جدًا، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ويذمه ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله.

---

(١) في كتاب الرد على بشر المريسي الجهمي. وهو من أنفس ما كتب في بيان عقيدة أهل السنة من السلف. وفي الرد على الجهمية وغيرهم من أهل العقائد الزائغة الضالة.

**وقال** أبوعلي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده، ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانًا. وفيه معنى آخر، وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن ينتقض، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به، كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب. فإن كذبهم أضعاف صدقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه، بل هو خائف من ظهور كذبه، فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب واثقًا به، مقيمًا عليه، مبديًا له في كل مجمع، ومعيدًا مناديًا به على صدقه، مجلبًا به على أعدائه من أعظم الأدلة على صدقه.

**وأما** قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء، فمعناه المتهم، يقال: ظننت زيدًا بمعنى اتهمته، وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين، ومنه ما أنشده أبو عبيدة:

أما وكتاب الله لا عن شناءة هجرت، ولكن المحب ظنين

**والمعنى**: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص؛ وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة. ثم قال: ﴿**وما صاحِبكم بمجنُون**﴾ [التكوير: ٢٤]. ثم قال: (وماهو) أي وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل.

**واختار** أبوعبيدة قراءة الظاء لمعنيين: أحدهما: أن الكفار لم يبخلوه. وإنما اتهموه، فنفى التهمة أولى من نفى البخل. الثاني: أنه قال: ﴿**على الغيب**﴾ ولو كان المراد البخل لقال بالغيب، لأنه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا.

**قلت**: ويرجحه أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكي، من الأمانة، فنفى عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين. ويرجحه أيضًا أنه ـ سبحانه ـ نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب. فإن ذلك لو كان كذبًا، فإما أن يكون منه، أو ممن علمه، وإن كان منه، فإما أن يكون تعمده أو لم يتعمده، فإن كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم. وإن كان منه مع التعمد فهو المتهم، ضد الأمين.

**وإن** كان عن غير تعمد فهو المجنون. فنفى ـ سبحانه ـ عن رسوله ذلك كله،

وزكى سند القرآن أعظم تزكية. فلهذا قال ـ سبحانه ـ: **﴿وما هُو بِقولِ شيطَانٍ رَّجِيمٍ﴾** [التكوير: ٢٥]. ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه، ولا يحسن منه كما قال تعالى: **﴿وما تنـزَّلت به الشَّياطين * وما ينبغي لهم وما يستطِيعون﴾** [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. فنفى فعله وابتغاءه منهم، وقدرتهم عليه. وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين، وأحوال الرسل يعلم علمًا لا يماري فيه ولا يشك، بل علمًا ضروريًّا، كسائر الضروريات ـ منافاة أحدهما للآخر. ومضادته له. كمنافاة أحد الضدين لصاحبه، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر.

**ولهذا** وبخ ـ سبحانه ـ من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين. فقال: **﴿أينَ تَذْهبُون﴾** [التكوير: ٢٦]. قال أبو إسحاق: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟.

**قلت**: هذا من أحسن اللازم وأبينه، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالى: **﴿فَبأي حديثٍ بعده يؤمِنون﴾** [المرسلات: ٥٠]. وقال: **﴿فبأي حديثٍ بعد الله وآياته يُؤمِنون﴾** [الجاثية: ٦]. فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق، فأين العدول؟، وأين المذهب؟.

**ونظير** هذا قوله: **﴿فهل عَسيتُم إن تولَّيتم أن تُفسِدوا في الأرضِ وتُقَطِّعوا أرحَامَكم﴾** [محمد: ٢٢] أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم.

**ونظيره** قوله ـ تعالى ـ: **﴿بَل كذَّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمرٍ مَريج﴾** [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا إلا كان باطلًا ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود.

**ونظيره** قوله ـ تعالى ـ: **﴿فإن لَّم يستجيبُوا لك فاعلم أنَّما يتَّبعون أهواءهم﴾** [القصص: ٥٠]. وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله ـ عز وجل ـ:

﴿فذَلِكم الله ربُّكم الحقُّ فماذا بعد الحق إلا الضَّلال فأنَّى تُصرَفُون﴾ [يونس: ٣٢].

## فصل

**ثم** أخبر ـ تعالى ـ عن القرآن بأنه ذكر للعالمين. وفي موضع آخر تذكرة للمتقين. وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق. وفي موضع آخر ذكر مبارك. وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

**وبجمع** هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرًا عامًّا وخاصًّا، وكونه ذا ذكر. فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم. ويذكرهم بالمبدأ والمعاد. ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده. ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه. ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالهم وآفاتها، وما تكمل به. ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم. ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفسًا واحدًا. ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها. ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره، وكذب رسله. ويذكرهم بثوابه وعقابه.

**ولهذا** يأمر ـ سبحانه ـ عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال: ﴿خُذوا ما آتيناكم بقوَّة واذكروا ما فيه لعَلَّكم تتَّقون﴾ [الأعراف: ١٧١]. وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكرًا له من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين. وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

**وأما** وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر، ومنه الذكر. فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدى وفيه الهدى، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة.

**وقوله** سبحانه: ﴿لمن شاء مِنكم أن يستقِيم﴾ [التكوير: ٢٨] بدل من العالمين. وهو بدل بعض من كل. وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين، فإن جهة كونه ذكرًا للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكرًا لأهل

الاستقامة، فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع، فكما أن البدل أخص من المبدل منه، فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه. ولابد من هذا فتأمله.

**وقوله**: ﴿لمن شَاءَ مِنكم﴾ رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له، أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سببًا فيه.

**وقوله**: ﴿ومَا تَشاءون إلا أن يَشاء الله﴾ [التكوير: ٢٩] ردّ على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفْعله بدون مشيئة الله.

**فالآيتان** مبطلتان لقول الطائفتين. فإن قال الجبري: هو سبحانه لم يقل: إن الفعل واقع بمشيئة العبد، بل أخبر أن الاستقامة تحصل عند المشيئة، ونحن قائلون بذلك، وقال القدري قوله: ﴿ومَا تَشاءون إلا أن يَشَاء الله﴾ مختلفة، فمشيئة العبد هي الموجبة للفعل التي بها يقع، ومشيئة الله لفعله هو أمره بذلك، ونحن لا ننكر ذلك.

**فالجواب** أن هذا من تحريف الطائفتين. أما الجبري فيقال له: اقتران الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر أغراضه التي لا تأثير لها في الفعل. فإن نسبة جميع أغراضه إلى الفعل في عدم التأثير نسبة إرادية عندك، والاقتران حاصل بجميع أغراضه، فما الذي أوجب تخصيص المشيئة؟ سوى الله - سبحانه - في فطر الناس أو عقولهم، أو شرائعهم، بين نسبة المشيئة والإرادة إلى الفعل، ونسبة سائر أغراض الحي إذا كان عندك ليس إلا مجرد الاقتران عادة؟ والاقتران العادي حاصل مع الجميع.

**وأما** القدري فتحريفه أشد، لأنه حمل المشيئة على الأمر وقال: المعنى وما تشاءون إلا بأمر الله، وهذا باطل قطعًا، فإن المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك، وإنما استعملت في مشيئة التكوين كقوله: ﴿ولو شاء ربُّك ما فَعلوه﴾ [الأنعام: ١١٢]. وقوله:

**﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾** [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: **﴿ولو شِئنا لآتينا كلَّ نَفس هُداها﴾** [السجدة: ١٣]. وقوله: **﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى النَّاس جميعًا﴾** [الرعد: ٣١]. ونظائر ذلك، مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الأمر ألبتة.

**والذي** دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد، وأدلة العقل الصريح، أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فما لم يشأ لم يكن ألبتة، كما أن ما شاء كان ولابد.

**ولكن** ههنا أمرًا يجب التنبيه عليه، وهو أن مشيئة الله ـ سبحانه ـ تارة تتعلق بفعله، وتارة تتعلق بفعل العبد، فتعلقها بفعله وهو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده، دون أن يشاء فعله. فإنه ـ سبحانه ـ قد يشاء من عبده المشيئة وحدها، فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله، لأنه لم يشأ من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

**وقد** دل على هذا قوله تعالى: **﴿وما تَشاءون إلاَّ أن يشاءَ اللهُ ربُّ العَالَمين﴾** [التكوير: ٢٩]. وقوله: **﴿وما يذكرون إلاَّ أن يشاء الله﴾** [المدثر: ٥٦].

**وهاتان** الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب، ولكل منهما عبودية مختص بها: فعبودية الآية الأولى: والاجتهاد، واستفراغ الوسع، والاختيار، والسعي. وعبودية الثانية: الاستعانة بالله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، واستنزال التوفيق، والعون منه، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء، ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

**وقوله**: **﴿ربُّ العالَمين﴾**. ينتظم ذلك كله، ويتضمنه، فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها. وبالله التوفيق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التكوير

والحمد لله رب العالمين




بسم الله الرحمن الرحيم

[1]**إذا** أذنب العبد الموحد المتبع سبيل الله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله. إذا نام العبد المؤمن بات في شعاره[2] ملك، فملك المؤمن من يرد عليه، ويحارب، ويدافع عنه، ويعلمه، ويثبته، ويشجعه. فلا يليق به أن ينسىٰ جواره، ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده. فإنه ضيفه وجاره. وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لزوم الإيمان وموجباته. فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟

**وإذا** آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه[3] وقال: «لا جزاك الله خيراً» كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان. قال بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: «إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم». ومن ألأم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره.

**وقد** نبه ـ سبحانه ـ على هذا المعنى بقوله: ﴿**وإنَّ عليكُم لحَافِظِين * كِرامًا كاتِبين * يعلَمون ما تَفعلون**﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم. والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم. وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان.

[4]**من** نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه. كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم ألبتة. بل التفاوت الذي بين النعيمين:

---

(١) ١٤٦ الجواب الكافي.

(٢) الشعار ما يلي الجسم من الثياب.

(٣) أي دعا الملك على العبد.

(٤) ١٠١ الجواب الكافي.

كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿**إنَّ الأبرار لفِي نَعيمٍ * وإنَّ الفُجَّار لَفِي جَحيم**﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك: أعني دار الدنيا ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم. وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟

**وأي** عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدرو إعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله؟ بكل واد منه شعبة، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله، فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئًا غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع المعارضات، فإذا سلبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

**وأما** في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجى عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده. وألم الحجاب عن الله. وألم الحسرة التي تقطع الأكباد. فالهم والغم الحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم. بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله إلى أجسادها. فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر. . .

(١)... **فقلوب** أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي: في جحيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: ﴿**إنَّ الأبرار لَفي نعيم * وإنَّ الفُجَّار لَفِي جَحيم**﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] هذا في دورهم الثلاث. ليس مختصًا بالدار الآخرة. وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى: ﴿**وإنَّ للَّذين ظَلموا عَذابًا دُون ذلِك**﴾ [الطور: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿**ويَقولون مَتى هذا الوعدُ إن كنتم صادِقين قل**

---

(١) ٢٤٤ شفاء.

**عسى أن يكون رَدِف لكم بعضُ الذي تَستعجِلون﴾** [النمل: ٧١، ٧٢].

**وفي** هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكر فيه.

**والعبد** قد يصيبه ألم حِسيٍّ فيطرحه عن قلبه، ويقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره. لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

**وقد** جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثارًا محبوبة لذيذة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصي آلامًا وآثارًا مكروهة، وحزازات تُرْبِى على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة.

**قال** ابن عباس: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وأن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق. وهذا يعرفه صاحب البصيرة ويشهده من نفسه ومن غيره. فما حصل للعبد مكروه قط إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر. قال الله تعالى: **﴿وما أصابكم من مُصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفُو عن كثير﴾** [الشورى: ٣٠].

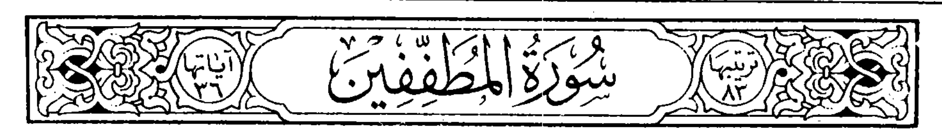
(١)**الوجه** الثلاثون أن يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها، ولهذا يقول ـ سبحانه ـ: **﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار﴾**. وقال: **﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾**. وقال: **﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله﴾** [الانفطار: ١٩]. حتى أن الله ـ سبحانه ـ ليتعرف إلى عباده ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفوها في هذه الدار، فهو يوم ظهور المملكة العظمى والأسماء الحسنى والصفات العلى. فتأمل ما أخبر به الله ورسوله من شأن ذلك اليوم وأحكامه وظهور عزته ـ تعالى ـ وعظمته وعدله وفضله ورحمته وآثار صفاته المقدسة التي لو خلقوا في دار البقاء لتعطلت، وكماله سبحانه ينفي ذلك.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الانفطار

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٤٤ شفاء.




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**وإذَا كالوهم أو وزَنوهم**﴾ [المطففين: ٣] أي بايعوهم كيلاً أو وزنًا. وأما قوله: ﴿**اكتالوا على الناس**﴾ [المطففين: ٢] فإنما دخلت (على) لتؤذن أن الكيل على البائع للمشتري، ودخلت التاء في اكتالوا، لأن افتعل في هذا الباب كله للأخذ، لأنها زيادة على الحروف الأصلية تؤذن بمعنى زائد على معنى الكلمة، لأن الآخذ للشيء: كالمبتاع والمكتال والمشتري ونحو ذلك يدخل فعله من التناول والاجترار إلى نفسه، والاحتمال إلى رحله مالا يدخل فعل المعطى والمبايع.

**ولهذا** قال ـ سبحانه ـ: ﴿**لها ما كسَبت وعليها ما اكتسبَت**﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني من السيئات، لأن الذنوب يوصل إليها بواسطة الشهوة والشيطان والهوى، والحسنة تنال بهبة الله من غير واسطة شهوة ولا إغراء عدو. فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي. وفيه فرق أحسن من هذا، وهو أن الاكتساب يستدعي التعمل والمحاولة والمعاناة، فلم يجعل على العبد إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمله.

**وأما** الكسب فيحصل بأدنى ملابسة حتى بالهَمِّ بالحسنة ونحو ذلك؛ فخص الشر بالاكتساب والخير بأعم منه، ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح: «**إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها، وإن هم بسيئة فلا تكتبوها**». وأما حديث الواسطة وعدمها فضعيف، لأن الخير أيضًا بواسطة الرسول والملك والإلهام والتوفيق، فهذا في مقابلة وسائط الشر، فالفرق ما ذكرناه، والله أعلم.

(٢)**قال** ـ تعالى ـ: ﴿**كلَّا بل ران على قُلوبهم ما كانوا يكسِبون**﴾ [المطففين: ١٤]. قال أبوعبيدة: غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرون على الميت، فيذهب به. ومن هذا حديث اسيفع جهينة، وقول عمر: فأصبح قدرين

(١) ٧٤ بدائع جـ٢. (٢) ٩٤ شفاء.

به أي غلب عليه وأحاط به الرين. وقال أبومعاذ النحوي: الرين أن يسود القلب من الذنوب. والطبع: أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين. والأقفال أشد من الطبع وهو أن يقفل على القلب.

**وقال** الفراء: كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. وقال أبو إسحاق: ران غطى يقال: ران على قلبه الذنب يرين رينًا أي غشيه، قال: والرين كالغشاء يغشى القلب ومثله الغين. قلت: أخطأ أبو إسحاق فالغين ألطف شيء وأرقه. قال: رسول الله، ﷺ، «**وإنه ليغان على قلبي، وأني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**».

**وأما** الرين والران فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها. وقال مجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب. وقال مقاتل: غمرت القلوب أعمالهم الخبيثة. وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة عن رسول الله، ﷺ، قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كلَّا بل رَان على قُلوبهم ما كانوا يكسبون﴾**» [المطففين: ١٤]. قال الترمذي: هذا حديث صحيح. وقال عبدالله بن مسعود كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله. فأخبر ـ سبحانه ـ أن ذنوبهم التي اكتسبوها أو جبت لهم رينا على قلوبهم، فكان سبب الران منهم وهو خلق الله فيهم، فهو خالق السبب ومسببه، لكن السبب باختيار العبد، والمسبب خارج عن قدرته واختياره.

[1]... **المكاشفة** الصحيحة علوم يحدثها الرب ـ سبحانه وتعالى ـ في قلب العبد، ويطلعه بها على أمور تخفى على غيره. وقد يواليها وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها، ويواريها عنه بالغين الذي يغشى قلبه. وهو أرق الحجب، أو بالغيم. وهو أغلظ منه، أو بالران، وهو أشدها.

---

(١) ٢٢٢ مدارج جـ٣.

**فالأول**: يقع للأنبياء - عليهم السلام -. كما قال النبي، ﷺ، : «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله أكثر من سبعين مرة**».

**والثاني**: يكون للمؤمنين. والثالث: لمن غلبت عليه الشقوة. قال الله - تعالى -: ﴿**كلَّا بل رانَ على قُلوبهم ما كَانوا يكْسِبون**﴾ [المطففين: ١٤]. قال ابن عباس وغيره: هو الذنب بعد الذنب يُغَطِّي القلب، حتى يصير كالران عليه.

**والحجب** عشرة: حجاب التعطيل، ونفي حقائق الأسماء والصفات. وهو أغلظها. فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله، ولا يصل إليه ألبتة إلا كما يتهيأ للحجَر أن يصعد إلى فوق.

**الثاني:** حجاب الشرك، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

**الثالث:** حجاب البدعة القوليّة: كحجاب أهل الأهواء، والمقالات الفاسدة على اختلافها.

**الرابع**: حجاب البدعة العملية. كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم.

**الخامس**: حجاب أهل الكبائر الباطنة، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد، والفخر والخيلاء ونحوها.

**السادس**: حجاب أهل الكبائر الظاهرة، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة، مع كثرة عباداتهم، وزهاداتهم واجتهاداتهم. فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك. فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة. فأهل الكبائر الظاهرة: أدنى إلى السلامة منهم. وقلوبهم خير من قلوبهم.

**السابع**: حجاب أهل الصغائر.

**الثامن**: حجاب أهل الفضلات، والتوسع في المباحات.

**التاسع**: حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته.

**العاشر**: حجاب المجتهدين السالكين، المشمرين في السير عن المقصود.

**فهذه** عشر حجب بين القلب وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ تحول بينه وبين هذا الشأن. وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر: عنصرالنفس، وعنصر الشيطان، وعنصر الدنيا، وعنصر الهوى. فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب ألبتة.

**وهذه** الأربعة العناصر: تفسد القول، والعمل، والقصد، والطريق، بحسب غلبتها وقلتها. فتقطع طريق القول والعمل والقصد: أن يصل إلى القلب. وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق: أن يصل إلى الرب. فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك. وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون. فإن حاربهم وخَلَص العملُ إلى قلبه دار فيه. وطلب النفوذ من هناك إلى الله. فإنه لا يستقر دون الوصول إليه: ﴿**وأنَّ إلى ربِّك المُنتهى**﴾ [النجم: ٤٢]. فإذا وصل إلى الله ـ سبحانه ـ أثابه عليه مزيدًا في إيمانه ويقينه، ومعرفته وعقله. وجَمَّل به ظاهره وباطنه. فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال. وصرف عنه به سيىء الأخلاق والأعمال. وأقام الله ـ سبحانه ـ من ذلك العمل للقلب جندًا يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه. فيحارب الدنيا بالزهد فيها، وإخراجها من قلبه، ولا يضره أن تكون في يده وبيته، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة. يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعي الهوى. فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه. ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق، والوقوف معه، بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص...

[1]**قوله** ـ تعالى ـ: ﴿**كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومَئِذٍ لمحجوبون**﴾ [المطففين: ١٥] ووجه الاستدلال بها أنه ـ سبحانه وتعالى ـ جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه، فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضًا محجوبين عنه. وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة فذكر الطبراني وغيره عن المزني قال: سمعت الشافعي يقول في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**كلَّا إنَّهم عن ربِّهم**

---

(١) ٢٠٧ حادي الأرواح.

يومئِذ لمحجـوبـون﴾ [المطففين: ١٥] فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامـة. وقـال الحـاكم: حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال. حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ماتقول في قول الله ـ عز وجـل ـ: ﴿كـلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومئِذٍ لَمحجـوبُـون﴾ [المطففين: ١٥]. فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى. قال الربيع فقلت: ياأباعبدالله وبه تقول؟ قال: نعم وبه أدين الله، ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبدالله عز وجل. ورواه الطبراني في شرح السنة من طريق الأصم أيضًا.

**وقـال** أبـوزرعـة الـرازي: سمعت أحمـد بن محمد بن الحسين يقول: سئل محمـد بن عبـدالله بن: الحكم هل يرى الخلق كلهم ربهم يوم القيامة المؤمنون والكفار؟ فقال محمد بن عبدالله: ليس يراه إلا المؤمنون. قال محمد وسئل الشافعي عن الرؤية فقال: يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿كلَّا إنهم عن ربِّهم يومئِذٍ لمحجوبون﴾. ففي هذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله عز وجل.

([1]**وذكر**) جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال: كنا جلوسًـا إلى كعب والربيع بن خثيم وخالد بن عرعرة في أناس فجاء ابن عباس فقال: هذا ابن عم نبيكم قال: فأوسع له فجلس. فقال: ياكعب كل ما في القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء، فأخبرني عنهن: ما سجين؟ وما عليون؟ وما سدرة المنتهى؟ ومـا قول الله لإدريس: ﴿ورَفعنـاه مكانًا عليًّا﴾ [مريم: ٥٧]؟ قال: أما عليون فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين، وأما سجين فالأرض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت جند إبليس، وأما قول الله سبحانه لإدريس: ﴿ورَفعناه مكانًا عليًّا﴾ فأوحى الله: إليه إني رافع لك كل يوم مثل أعمال بني آدم، وكلم صديقًا له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت فيؤخره حتى يزداد عملاً فحمله بين جناحيه فعرج به حتى إذا كان في السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه في حاجته فقال: وأين هو؟ قال: هو ذا بين جناحي قال: فالعجب إني أمرت أن أقبض روحه في

---

(١) ١٣٠ الروح.

السماء الرابعة. فقبض روحه. وأما سدرة المنتهى، فإنها سدرة على رءوس حملة العرش، ينتهى إليها علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم فلذلك سميت سدرة المنتهى.

[1]**قال** تعالى: ﴿**كَلَّا إنّ كِتاب الأبرارِ لَفِي علِّيين * وما أدراك ما عِلِّيُّون * كِتابٌ مرقـوم * يشهـده المقرَّبون**﴾ [المطففين: ١٨-٢١]. فأخبر ـ تعالى ـ أن كتابهم كتاب مرقوم تحقيقًا لكونه مكتوبًا كتابة حقيقة. وخص ـ تعالى ـ كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقـع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين. ولم يذكر شهـادة هؤلاء لكتـاب الفجار تنويهًا بكتاب الأبرار وما وقع لهم به، وإشهارًا له وإظهارًا بين خواص خلقه، كما يكتب الملوك تواقيع من تعظمه بين الأمراء وخواص أهـل المملكة تنويهًا باسم المكتوب له وإشادة بذكره، وهذا نوع من صلاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وملائكته على عبده.

**وروى** الإمام أحمد في مسنده وابن حبان وأبوعوانة الإسفراييني في صحيحيهما من حديث المنهال عن زاذان عن البراء بن عازب قال: **خرجنا مع رسول الله، ﷺ، إلى جنازة، فجلس رسول الله، ﷺ، على القبر، وجلسنا حوله، كأن على رءوسنا الطير، وهو يلحد له، فقال: أعوذ بالله من عذاب القبر ـ ثلاث مرات ـ ثم قال: إن المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، تنزلت إليه الملائكة: كأن على وجوههم الشمس مع كل واحد منهم حنوط وكفن، فجلسوا منه مد بصره، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة! أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين.** . الحديث.

[2]**ذكر** يعلى بن عبيد عن الأجلح عن الضحاك قال: إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء الدنيا، فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخـامسـة ثم السـادسـة ثم السـابعة حتى ينتهي به إلى سدرة المنتهى، قلت للضحاك: لم سميت سدرة المنتهى؟ قال: لأنه ينتهي إليها كل شيء من أمر الله ـ

---

(١) ٥٥ حادي الأرواح. (٢) ١٣٠ الروح.

عز وجل ـ لا يعدوها فيقول: ربي! عبدك فلان، وهو أعلم به منهم فيبعث الله إليه بصك مختوم يؤمنه من العذاب، قوله تعالى: **﴿كلَّا إنَّ كِتاب الأبْرارِ لَفِي عِليين * وما أدراك ما عِلِّيون * كِتابٌ مرقومٌ * يشهدُه المقَرَّبون﴾** [المطففين: ١٨، ٢١]. وهذا القول لا ينافي قول من قال: هم في الجنة، فإن الجنة عند سدرة المنتهى، والجنة عند الله، وكأن قائله رأى أن هذه العبارة أسلم وأوفق. وقد أخبر الله ـ سبحانه ـ أن أرواح الشهداء عنده، وأخبر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أنها تسرح في الجنة حيث شاءت.

(١)... **الأصل** الثاني كمال النعيم في الدار الآخرة أيضًا به سبحانه: برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه. لا كما يزعم من يزعم أنه لا لذة في الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق تعالى أعظم مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، وفي دعاء النبي، ﷺ، الذي رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان والحاكم في صحيحيهما: «**أسألُك لَذَّة النَّظر إلى وَجهك، والشَّوق إلى لِقائِك، في غير ضَرَّاء مُضِرَّة، ولا فِتنةٍ مُضِلَّة**» ولهذا قال ـ تعالى ـ في حق الكفار: **﴿كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومَئِذٍ لمحْجُوبُونَ * ثُمَّ إنَّهم لصالُوا الجَحيم﴾** [المطففين: ١٥، ١٦]. فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذب به أعداءه، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التي ينعم بها أولياءه، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه والدنو منه وقربه . . .

(٢)**الوجه** الرابع: أن أفضل نعيم الآخرة وأجلّه وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب عز وجل، وسماع خطابه، كما في صحيح مسلم عن صُهيب، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن يُنجِز كموه، فيقولون: ماهو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويُجرنا من**

---

(١) ٥٩ طريق الهجرتين.

(٢) ١٣٢ إغاثة جـ١.

**النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه»**.

**وفي** حديث آخر: «**فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه**» فبين عليه الصلاة والسلام أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يعطهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم لأن ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين البتة. ولهذا قال ـ سبحانه وتعالى ـ في حق الكفار: ﴿**كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومَئِذٍ لمحجُوبون * ثُمَّ إنَّهم لصَالوا الجَحيم**﴾ [المطففين: ١٥، ١٦]. فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه سبحانه، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة، ونعيم التمتع برؤيته.

**وذكر** ـ سبحانه ـ هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة، فقال في حق الأبرار: ﴿**إنَّ الأبْرار لَفِي نَعيم * على الأرائِك ينظُرُون**﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣]. ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون: ﴿**ثم إنهم لصالُوا الجحيم**﴾ [المطففين: ١٦]. وتأمل كيف قابل ـ سبحانه ـ ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿**وإذا رأوهم قالُوا إنَّ هؤلاء لَضالُّون**﴾ [المطففين: ٣٢]. فقال تعالى: ﴿**فاليوم الذين آمنوا من الكُفَّار يَضْحَكُونَ**﴾ [المطففين: ٣٤]. مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: ﴿**عَلى الأرائِك يَنظُرُون**﴾ [المطففين: ٣٥]. فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجله وأعظمه هو الله سبحانه، والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿**إنَّ هؤلاء لَضالُّون**﴾ فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولابد، إما بخصوصه

وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك، خصوصًا أو عمومًا.

(١)**ومن** أعظم الضر: حجاب القلب عن الرب. وهو أعظم عذابًا من الجحيم، قال ـ تعالى ـ: ﴿**كلَّا إنهم عن ربِّهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنَّهم لصالوا الجحيم**﴾ [المطففين: ١٥، ١٦].

(٢)... **وإضعاف** المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود. فإن العبد ـ كما جاء في الحديث ـ «**إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرى، حتى تعلو قلبه، وذلك الران الذي قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كلَّا بل ران على قُلوبهم ما كانوا يكسِبون﴾** [المطففين: ١٤]». فالقبائح تسود القلب. وتطفيء نوره. والإيمان هو نور في القلب. والقبائح تذهب به أو تقلله قطعًا.

**فالحسنات** تزيد نور القلب والسيئات تطفيء نور القلب. وقد أخبر الله ـ عز وجل ـ أن كسب القلوب سبب للران الذي يعلوها. وأخبر أنه أركس المنافقين بما كسبوا فقال: ﴿**والله أركسهم بما كسَبوا**﴾ [النساء: ٨٨]. وأخبر أن نقض الميثاق الذي أخذه على عباده سبب لتقسية القلب فقال: ﴿**فبما نقضِهم ميثاقهم لعَّناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يُحرِّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًّا مما ذُكِّروا به**﴾ [المائدة: ١٣]. فجعل ذنب النقض موجبًا لهذه الآثار: من تقسية القلب، واللعنة، وتحريف الكلم، ونسيان العلم.

**فالمعاصي** للإيمان: كالمرض والحمى للقوة، سواء بسواء. ولذلك قال السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت.

**فإيمان** صاحب القبائح كقوة المريض على حسب قوة المرض وضعفه.

**وهذه** الأمور الثلاثة ـ وهي صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان ـ هي أرفع من باعث العامة على الورع. لأن صاحبها أرفع همة، لأنه عامل على تزكية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلى ربها. فهو يصونها عما يشينها عنده.

---

(١) ٢٢٠ مدارج جـ٣.　(٢) ٢٤ مدارج جـ٢.

ويحجبها عنه. ويصون حسناته عما يسقطها ويضعها. لأنه يسير بها إلى ربه. ويطلب بها رضاه. ويصون إيمانه بربه: من حبه له، وتوحيده، ومعرفته به، ومراقبته إياه عما يطفيء نوره، ويذهب بهجته، ويوهن قوته.

(١)**ثلاث** فوائد من فوائد تجنب القبائح:

**إحداها:** صون النفس. وهو حفظها وحمايتها عما يشينها، ويعيبها ويزري بها عند الله ـ عز وجل ـ وملائكته، وعباده المؤمنين وسائر خلقه. فإن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعها في أعلى المحال. وزاحم بها أهل العزائم والكمالات. ومن هانت عليه نفسه وصغرت عنده ألقاها في الرذائل. وأطلق شِناقها، وحل زمامها وأرخاه. ودساها ولم يصنها عن قبيح. فأقل ما في تجنب القبائح: صون النفس.

**وأما** «توفير الحسنات» فمن وجهين:

**أحدهما:** توفير زمانه على اكتساب الحسنات. فإذا اشتغل بالقبائح نقصت عليه الحسنات التي كان مستعدًا لتحصيلها.

**والثاني:** توفير الحسنات المفعولة عن نقصانها، بموازنة السيئات وحبوطها، كما تقدم في منزلة التوبة: أن السيئات قد تحبط الحسنات، وقد تستغرقها بالكلية أو تنقصها. فلابد أن تضعفها قطعًا، فتجنبها يوفر ديوان الحسنات. وذلك بمنزلة من له مال حاصل. فإذا استدان عليه، فإما أن يستغرقه الدين أو يكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسيئات سواء.

(٢)**فبمحاسبتها** يطلع على عيوبها ونقائصها. فيمكنه السعي في إصلاحها.

**الثاني:** ملاطفة الخلق. وهي معاملتهم بما يحب أن يعاملوه به من اللطف. ولا يعاملهم بالعنف والشدة والغلظة. فإن ذلك ينفرهم عنه، ويغريهم به، ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته. فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف. فإن معاملة الناس بذلك: فإما أجنبي، فتكسب مودته ومحبته. وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته. وإما عدو ومبغض، فتطفيء بلطفك جمرته.

---

(١) ٢٤ مدارج جـ٢.	(٢) ٥١١ مدارج جـ٢.

وتستكفي شره. ويكون احتمالك لمضض لطفك به، دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

**الثالث:** مراقبة الحق سبحانه. وهي الموجبة لكل صلاح وخير عاجل وآجل. ولا تصح الدرجتان الأولتان إلا بهذه. وهي المقصود لذاته وما قبله وسيلة إليه، وعون عليه. فمراقبة الحق سبحانه وتعالى: توجب إصلاح النفس، واللطف بالخلق.

(1)**وقوله:** ﴿**رحيق مختوم**﴾ [المطففين: ٢٥]. يقول: الخمر ختم بالمسك. وقال علقمة عن ابن مسعود: ﴿**ختامه مسك**﴾ قال: خلطه وليس بخاتم ثم يختم. قلت: يريد والله أعلم أن آخره مسك يخالطه فهو من الخاتمة ليس من الخاتم. وقال زيد بن معاوية: سألت علقمة عن قوله تعالى: ﴿**خِتامه مسك**﴾ فقرأتها (خَاتمه مسك) فقال لي: ليست خاتمه ولكن اقرأه ﴿**خِتامه مسك**﴾ قال: علقمة: ختامه خلطه ألم تر أن المرأة من نسائكم تقول للطيب أن خلطه من مسك لكذا وكذا.

وذكر سعيد بن منصور حدثنا أبومعاوية عن الأعمش عن عبدالله بن مرة عن مسروق: الرحيق الخمر المختوم، يجدون عاقبتها طعم المسك.

**وبهذا** الإسناد عن مسروق عن عبدالله في قوله تعالى: ﴿**ومزاجه من تسنيم**﴾ قال تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفا. وكذلك قال ابن عباس يشرب منها المقربون صرفًا، وتمزج لمن دونهم. وقال مجاهد: ختامه مسك يقول طينة. وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير. ولفظ الآية أوضح منه، وكأنه والله أعلم يريد ما يبقى في أسفل الإناء من الدردي.

**وذكر** الحاكم من حديث آدم حدثنا شيبان عن جابر عن ابن سابط عن أبي الدرداء في قوله: ﴿**ختامه مِسك**﴾ قال: هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها. قال آدم وحدثنا أبو شيبة عن عطاء قال: التسنيم اسم العين التي يمزج بها الخمر.

(2)**قال تعالى:** ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ [المطففين: ٢٦]. ويين

---

(١) ١٣٥ حادي الأرواح. (٢) ٤٨ مدارج جـ٣.

«المنافسة» و«الغبطة» جمع وفرق، وبينهما وبين «الحسد» أيضًا جمع وفرق.

**فالمنافسة** تتضمن مسابقة واجتهادًا وحرصًا. والحسد: يدل على مهانة الحاسد وعجزه، وإلا فنافس من حسدته. فذلك أنفع لك من حسده، كما قيل:

إذا أعجبتك خلال امرىء		فكُنْه. يَكُنْ منك ما يعجبك
فليس على الجود والمكرما		ت إذا جئتها حاجب يحجبك

**و**«الغبطة» تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط، واستحسان لحاله.

(١)**والفرق** بين المنافسة والحسد أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهد من غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه، فهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر. قال تعالى: ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ [المطففين: ٢٦]. وأصلها من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلبًا ورغبة فينافس فيه كل من النفسين الأخرى. وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضًا عليه مع تنافسهم فيه. وهي نوع من المسابقة. وقد قال تعالى: ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾ [البقرة: ١٤٨].

**وقال** تعالى: ﴿**سابِقوا إلى مغفرة من ربِّكم وجنَّة عرضُها كعرض السَّماء والأرض**﴾ [الحديد: ٢١]. وكان عمر بن الخطاب يسابق أبابكر - رضي الله عنهما - فلم يظفر بسبقه أبدًا. فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا. وقال: والله ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني إليه. والمتنافسان كعبدين بين يدي سيدهما يتباريان ويتنافسان في مرضاته ويتسابقان إلى محابه، فسيدهما يعجبه ذلك منهما ويحثهما عليه. وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده.

**والحسد** خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها، وتتمنى أن لوفاته كسبها حتى يساويها في العدم. كما قال تعالى: ﴿**ودُّوا لو تكفرون كما كفرُوا فتكونون سواء**﴾ [النساء: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿**ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردوُّنكم من بعد**

---

(١) ٣٠٦ الروح.

**إيمانكم كفَّارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّن لهم الحق﴾** [البقرة: ١٠٩].

**فالحسود** عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل.والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة. فمن جعل نصب عينيه شخصًا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيراً. فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه. وهذا لا نذمه.

**وقد** يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة كما في الصحيح عن النبي، ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق**». فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المطففين

والحمد لله رب العالمين




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**ومن** ذلك إقسامه ﴿**بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق**﴾ [الانشقاق: ١٦-١٨]. فأقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل.

**(أحدها)** الشفق، وهو في اللغة الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة، وكذلك هو في الشرع. قال الفراء، والليث، والزجاج، وغيرهم: الشفق: الحمرة في السماء. وأصل موضوع الحرف لرقة الشيء. ومنه شيء شفق لا تماسك له لرقته، ومنه الشفقة وهو الرقة. وأشفق عليه إذا رق له. وأهل اللغة يقولون: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها. ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بغيبوبته هو الحمرة، فإن الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حدًّا لوقت المغرب. فإذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء. وأما البياض فإنه يمتد وقته بطول لبثه، ويكون حاصلاً مع بعد الشمس عن الأفق. ولهذا صح عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أنه قال: الشفق: الحمرة. والعرب تقول: ثوب مصبوغ كأنه الشفق، إذا كان أحمر، حكاه الفراء. وكذلك قال الكلبي: الشفق: الحمرة التي تكون في المغرب. وكذلك قال مقاتل: هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الأفق قبل الظلمة. وقال عكرمة: هو بقية النهار. وهذا يحتمل أن يريد به تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار. وقال مجاهد: هو النهار كله. وهذا ضعيف جدًّا. وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق، وظن أنه النهار. وهذا ليس بلازم.

**(الثاني)** قسمه بالليل وما وسق، أي وما ضم وحوى وجمع. والليل وما ضمه وحواه آية أخرى، والقمر آية، واتساقه آية أخرى. والشفق يتضمن إدبار النهار، وهو آية، وإقبال الليل، وهو آية أخرى. فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر، يتعاقبان لمصالح

(١) ٦٨ التبيان.

الخلق. فإدبار النهار آية. وإقبال الليل آية، وتعقب أحدهما الآخر آية، والشفق الذي هو متضمن الأمرين آية. والليل آية، وما حواه آية، والهلال آية، وتزايده كل ليلة آية، واتساقه ـ وهو امتلاؤه نورًا ـ آية، ثم أخذه في النقص آية.

**وهذه** وأمثالها آيات دالة على ربوبيته، مستلزمة للعلم بصفات كماله. ولهذا شرع ـ عند إقبال الليل وإدبار النهار ـ ذكر الرب ـ تعالى ـ بصلاة المغرب. وفي الحديث: «**اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك، وأصوات دعائك وحضور صلواتك: اغفر لي**»(١). كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار. ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ**﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]. وهو يقابل إقسامه بالشفق، ونظيره إقسامه: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

**ولما** كان الرب ـ تبارك وتعالى ـ يحدث عن كل واحد من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه، ويبث من خلقه ما شاء. فينشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل، وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار، فيحدث هذا الانتشار في العالم أثره ـ شرع ـ سبحانه ـ في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين، وعند انصرام إحداهما واتصال الأخرى بها، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال، ومن حكم إلى حكم، وذلك مبدأ ومعاد يومي، مشهود للخليقة كل يوم وليلة، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد، وزمان العالم في مبدأ ومعاد: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [العنكبوت: ١٩].

**وقوله:** ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ**﴾ [الانشقاق: ١٩]. الظاهر أنه جواب القسم، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه، ولتركبن وما بعده مستأنف.

**وقرىء** (ولتركبُن) بضم الباء للجمع، وبفتحها. فمن فتحها فالخطاب عنده للإنسان، أي لتركبن أيها الإنسان. وقيل: هو النبي، ﷺ، خاصة. وقيل: ليست التاء للخطاب، لكنها للغيبة، أي لتركبن السماء طبقًا عن طبق. ومن

ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا. فمن جعل الكناية للسماء قال: المعنى لتركبن السماء حالاً بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى، من الانشقاق، والانفطار والطي، وكونها كالمهل مرة، وكالدهان مرة، وموارنها وتفتحها، ، وغير ذلك من حالاتها، وهذا قول عبدالله بن مسعود، رضي الله عنه. ودل على السماء ذكر الشفق والقمر. وعلى هذ فيكون قسمًا على المعاد وتغيير العالم.

**ومن** قال الخطاب للنبي، ﷺ، فله ثلاثة معان: لتركبن سماء بعد سماء، حتى تنتهي إلى حيث يصعدك الله. هذا قول ابن عباس في رواية مجاهد وقول مسروق والشعبي، قالوا: والسماء طبق، ولهذا يقال للسموات السبع: الطباق.

**والمعنى** الثاني لتصعدن درجة بعد درجة، ومنزلة بعد منزلة، ورتبة بعد رتبة، حتى تنتهي إلى محل القرب والزلفى من الله.

**والمعنى** الثالث لتركبن حالاً بعد حال من الأحوال المختلفة التي نقل الله فيها رسوله، ﷺ، من الهجرة، والجهاد، ونصره على عدوه، وإدالة العدو عليه تارة، وغناه وفقره، وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها إلى أن بلغ ما بلغه إياه.

(1)**قوله: ﴿لتركبن طبقًا عن طبق﴾** أي حالاً بعد حال، فأول أطباقه كونه نُطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنينًا ثم مولودًا ثم رضيعًا ثم فطيمًا، ثم صحيحًا أو مريضًا، غنيًا أو فقيرًا، معافًا أو مبتلى، إلى جميع أحوال الإنسان المختلفة عليه إلى أن يموت، ثم يبعث، ثم يوقف بين يدي الله تعالى، ثم يصير إلى الجنة أو النار، فالمعنى ـ لتركبن: حالاً بعد حال، ومنزلاً بعد منزل، وأمرًا بعد أمر.

**قال** سعيد بن جبير وابن زيد: لتكونن في الآخرة بعد الأولى، ولتصيرن أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنى، وقال عطاء: شدة بعد شدة، والطبق والطبقة: الحال، ولهذا يقال: كان فلان على طبقات شتى، قال عمرو بن العاص: لقد كنت على طبقات ثلاث: أي أحوال ثلاث.

**قال** ابن الأعرابي ـ الطبق: الحال على اختلافها، وقد ذكرنا بعض أطباق الجنين في البطن من حين كونه نطفة إلى وقت ولادته. ثم نذكر أطباقه بعد ولادته

---

(١) ١٧٥ تحفة المودود.

إلى آخرها. فنقول: الجنين في الرحم بمنزلة الثمرة على الشجرة في اتصالها بمحلها اتصالاً قويًّا، فإذا بلغت الغاية لم يبق إلا انفصالها لثقلها وكمالها وانقطاع العروق الممسكة لها. فهكذا الجنين تنهتك عنه تلك الأغشية وتنفصل العروق التي تمسكه بين المشيمة والرحم، وتنصب تلك الرطوبات المزلقة، فتعينه بإزلاقها وثقله، وانهتاك الحجب، وانفصال العروق على الخروج، فينفتح الرحم انفتاحًا عظيمًا جدًّا، ولابد من انفصال بعض المفاصل العظمية، ثم تلتئم في أسرع زمان، وقد اعترف بذلك حذاق الأطباء والمشرحين، وقالوا: لا يتم ذلك إلا بعناية إلـٰهية وتدبير تعجز عقول الناس عن إدراك كيفيته، فتبارك الله أحسن الخالقين. . .

[1]**ومن** قال: الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فالمعنى واحد، وهو تنقل الإنسان حالاً بعد حال، من حين كونه نطفة إلى مستقره من الجنة أو النار، فكم بين هذين من الأطباق والأحوال للإنسان.

**وأقوال** المفسرين كلها تدور على هذا. قال ابن عباس، رضي الله عنهما: لتصيرن الأمور حالاً بعد حال. وقيل لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال، من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى كونه حيًّا، إلى خروجه إلى هذه الدار، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره، ثم ركوبه بعد ذلك طبقًا آخر، وهو طبق البلوغ، ثم ركوبه طبق الأشد، ثم طبق الشيخوخة، ثم طبق الهرم، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت في البرزخ، وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقًا عديدة، لايزال ينتقل فيها حالاً بعد حال إلى دار القرار. فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد، ثم يفعل الله ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يشاء.

**واختار** أبوعبيدة قراءة الضم، وقال: المعنى بالناس أشبه منه بالنبي، ﷺ، فإنه ذكر قبل الآية: من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله، ثم ذكر بعدها قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠]. فذكر كونهم طبقًا بعد طبق. قال الواحدي: وهذا قول أكثر المفسرين. قالوا: لتركبن حالاً بعد حال، ومنزلاً بعد منزل، وأمرًا بعد أمر. قال سعيد بن جبير، وابن زيد: لتكونن في الآخرة بعد الأولى، ولتصيرن

---

(١) ٧١ التبيان.

أغنياء بعد الفقر، وفقراء بعد الغنى. وقال عطاء: شدة بعد شدة. وقال أبوعبيدة: لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الرسل.

**وأنت** إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية، وتغيير الله ـ سبحانه ـ للعالم، وتصريفه لها كيف أراد، ونقله إياه من حال إلى حال، وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له. ومحال أن يكون فاعله غير قادر، ولاحي، ولا مريد، ولا حكيم، ولا عليم. وكلاهما في الامتناع سواء.

**فالمقسم** به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته، وتوحيده، وصفات كماله، وصدقه، وصدق رسله، وعلى المعاد. ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿**فما لَهم لا يؤمنون**﴾ [الانشقاق: ٢٠] إنكارًا على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام.

**وأنكر** عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك، بأفصح عبارة وأبينها وأجزلها وأوجزها. فالمعنى أشرف معنى، والعبارة أشرف عبارة: غاية الحق بغاية البيان والفصاحة. ﴿**بَل الذين كفَروا يُكذِّبون**﴾ [الانشقاق: ٢٢] ولا يصدقون بالحق جحودًا وعنادًا: ﴿**والله أعلم بما يوعون**﴾ [الانشقاق: ٢٣] بما يضمرون في صدورهم ويكتمونه، وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه، فيجازيهم عليه بعلمه وعدله: ﴿**إلا الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات فلهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ**﴾[1] [الانشقاق: ٢٥].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الانشقاق

والحمد لله رب العالمين

---

(١) يأتي تفسير قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ مبسوطا في سورة التين (ج).




## بسم الله الرحمن الرحيم

[(١)]**ومن** ذلك اقسامه سبحانه: ﴿والسَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ﴾ [البروج: ١] التي تنزلها الشمس والقمر. وفسرت بالنجوم، أو نوع منها. وفسرت بالقصور العظام، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء، والشكل الكري، لا يتميز منه جانب عن جانب بطول، ولا قصر ولا وضع، بل هو متساوي الجوانب. فجعل هذه البروج في هذه الكرة علىٰ اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر، ولا عالم، ولا مريد، ولا حي، ولا حكيم، ولا مباين للمفعول، وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم ربًّا بائناً قادراً، فاعلاً بالاختيار، عالماً بتفاصيله حكيماً مدبراً له.

**فبروج** السماء هي منازلها، أو منازل السيارة التي فيها، من أعظم آياته ـ سبحانه ـ فلهذا أقسم بها مع السماء.

**ثم** أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة، وهو المقسم به وعليه. كما أن القرآن يقسم به وعليه. ودال علىٰ وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأبىٰ أن يتركهم سدىٰ، ويخلقهم عبثاً. وبغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها ـ سبحانه ـ علىٰ إمكانه تارة، وعلىٰ وقوعه تارة، وعلىٰ تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة. فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان.

**ثم** أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود، مطلقين غير معينين، وأعم المعاني فيه أنه المدرِك والمدرَك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني به، وماعداه من الأقوال ذكرت علىٰ وجه التمثيل، لا علىٰ وجه التخصيص.

---

(١) ٥٦ التبيان.

**فإن** قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟

**قيل**: هي بحمد الله في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة علىٰ ربوبيته وإلهيته.

**فأقسم** بالعالم العلوي، وهي السماء وما فيها من البروج، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها. ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً، الذي هو مظهر ملكه، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو الشاهد والمشهود.

**وناسب** هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه، وهم شهود علىٰ ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم. وأيضًا فالشاهد هو المطلع والرقيب، والمخبر والمشهود، وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد.

**فمن** نوّع الخليقة إلىٰ شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين، كما نوعها إلىٰ مرئي لنا وغير مرئي، كما قال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * ومَا لا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] كما نوّعها إلىٰ أرض وسماء، وليل ونهار، وذكر وأنثىٰ، وهذا التنويع والاختلاف من آياته ـ سبحانه - كذلك نوّعها إلىٰ شاهد ومشهود.

**وفيه** سر آخر، وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك، فكيف يكون المخلوق شاهداً رقيباً حفيظاً علىٰ غيره، ولا يكون الخالق ـ تبارك وتعالىٰ ـ شاهداً علىٰ عباده، مطلعاً عليهم رقيباً؟!

**وأيضا** فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله، فإنهم شاهدون علىٰ العباد، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه، كما أقسم باليوم الموعود، وهو المقسم به وعليه، وأيضاً فيوم القيامة مشهود، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] يشهده الله وملائكته والإنس والجن، والوحوش من آياته، والمشهود من آياته.

**وأيضا** فكلامه مشهود، كما قال تعالىٰ: ﴿وقُرآنَ الْفَجْرِ إن قُرآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨] تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. فالمشهود من أعظم

آياته وكذلك الشاهد، فكل ماوقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم، فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا علىٰ سبيل التمثيل. وأيضًا فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون. فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون.

**والأحسن** أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب، لأن القصد التنبيه علىٰ المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة. ويبعد أن يكون الجواب ﴿**قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ**﴾ [البروج: ٤] الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود.

**ثم** وصف حالهم القبيحة بأنهم قعود علىٰ جانب الأخدود، شاهدين مايجري علىٰ عباد الله ـ تعالىٰ ـ وأوليائه عياناً، ولاتأخذهم بهم رأفة ولا رحمة، ولا يعيبون عليهم ديناً سوىٰ إيمانهم بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض.

**وهذا** الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم، فعاملوهم بضد مايقتضىٰ أن يعاملوا به. وهذا شأن أعداء الله دائماً، ينقمون علىٰ أوليائه ماينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله، كما قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ ياأَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ منَّا إلَّا أن آمنَّا بالله وماأُنْزِلَ إلَيْنا وماأنزِلَ من قَبْلُ وأنَّ أكثَرَكُمْ فاسِقُونَ**﴾ [المائدة: ٥٩].

**وكذلك** اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿**أخْرِجُوهُم من قَرْيَتِكُم إنَّهُم أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ٨٢].

**وكذلك** أهل الإشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده.

**وكذلك** أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها.

**وكذلك** المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله.

**وكذلك** الرافضة ينقمون علىٰ أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم، وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم، وتقديم من قدّمه رسول الله ﷺ منهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها.

**وكذلك** أهل الرأي المحدث ينقمون علىٰ أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ماخالفه. وكل هؤلاء لهم نصيب، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود. وبينهم وبينهم نسب قريب أو بعيد.

**ثم** أخبر ـ سبحانه ـ أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق، حيث لم يتوبوا، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم. وهذا غاية الكرم والجود. قال الحسن: انظروا إلىٰ الكرم والجود، يقتلون أولياءه، ويفتنونهم، وهو يدعوهم إلىٰ التوبة والمغفرة.

**انظروا** إلىٰ كرم الرب ـ تعالىٰ ـ يدعوهم إلىٰ التوبة، وقد فتنوا أولياءه، فحرقوهم بالنار، فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ماكان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرّق بالنار من آمن بالله وحده، وعبده وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم، وألحقهم بأوليائه.

[1]**ويفرح** ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، ويكفر عنه ذنوبه، ويوجب له محبته بالتوبة، وهو الذي ألهمه إياها ووفقه لها وأعانه عليها، وملأ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جناته. فانظر إلىٰ هذه العناية وهذا الإحسان والتحنن والعطف والتحبب إلىٰ العباد واللطف التام بهم، ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه، ينزل كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا، يسأل عنهم، ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلىٰ سؤاله، فيدعو مسيئهم إلىٰ التوبة، ومريضهم إلىٰ أن يسأله أن يشفيه، وفقيرهم إلىٰ أن يسأله غناه، وذا حاجتهم يسأله قضاءها كل ليلة، ويدعوهم إلىٰ التوبة، وقد حاربوه، وعذبوا أولياءه، وأحرقوهم بالنار، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾ [البروج: ١٠] وقال بعض السلف: انظروا إلىٰ كرمه كيف عذبوا أولياءه وحرقوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلىٰ التوبة. فهذا الباب يدخل منه كل أحد إلىٰ محبته ـ سبحانه وتعالىٰ ـ فإن نعمته علىٰ عباده مشهودة لهم، يتقلبون فيها علىٰ عدد الأنفاس واللحظات.

---

(١) ٣١٧ طريق الهجرتين.

**وقد** روي في بعض الأحاديث مرفوعاً: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله**» فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن والإحسان ورؤية النعم والآلاء، وكلما سافر القلب فيها ازدادت محبته وتأكدت، ولا نهاية لها فيقف سفر القلب عندها، بل كلما ازداد فيها نظراً، ازداد فيها اعتباراً وعجزاً عن ضبط القليل منها، فيستدل بما عرفه علىٰ مالم يعرفه، والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ دعا عباده إليه من هذا الباب، حتىٰ إذا دخلوا منه دعوا من الباب الآخر، وهو باب الأسماء والصفات، الذي إنما يدخل منه إليه خواص عباده وأوليائه، وهو باب المحبين حقًّا الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحد منهم، بل كلما بدا له منه علم ازداد شوقاً ومحبة وظمأ. فإذا انضم داعي الإحسان والإنعام إلىٰ داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدها نقصاً وأبعدها من كل خير، فإن الله فطر القلوب علىٰ محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً منه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وهو الذي لا يحد كماله، ولا يوصف جلاله وجماله، ولا يحصي أحد من خلقه ثناءًا عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه.

[1]**ثم** ذكر ـ سبحانه ـ جزاء أوليائه المؤمنين، ثم ذكر شدة بطشه، وأنه لا يعجزه شيء، فإنه هو المبديء المعيد. ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحبه، فهو ـ سبحانه ـ الموصوف بشدة البطش، أو مع ذلك هو الغفور الودود، المتودد إلىٰ عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه. وهو الودود أيضاً أي المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود: الحبيب.

**والتحقيق** أن اللفظ يدل علىٰ الأمرين، علىٰ كونه وادًّا لأوليائه ومودوداً لهم. فأحدهما بالوضع. والآخر باللزوم. فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه،

---

(١) ٥٨ التبيان.

وقال شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ ربِّي رحيمٌ ودُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

**وماألطف** اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه. وكذلك قد يرحم من لا يحب والرب ـ تعالىٰ ـ يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحب لو كان منه ما كان.

(١)«**الودود**» من أسماء الرب تعالىٰ. وفيه قولان:

**أحدهما:** أنه المودود. قال البخاري رحمه الله في صحيحه «الودود الحبيب».

**والثاني:** أنه الوادُّ لعباده. أي المحب لهم. وقرنه باسمه «الغفور» إعلاماً بأنه يغفر الذنب، ويحب التائب منه، ويَوَدُّه. فحظ التائب: نيل المغفرة منه.

**وعلى** القول الأول «الودود» في معنىٰ يكون سر الاقتران. أي اقتران «الودود بالغفور» استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسم «الغفور».

(٢)**ثم** قال ﴿ذو العَرْشِ﴾ [البروج: ١٥] فأضاف العرش إلىٰ نفسه، كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة. وهذا يدل علىٰ عظمة العرش، وقربه منه سبحانه، واختصاصه به، بل يدل علىٰ غاية القرب والاختصاص، كما يضيف إلىٰ نفسه «بذو» صفاته القائمة به. كقوله ﴿ذُو القُوَّةِ [الذاريات: ٥٨] ﴿ذُو الجَلَالِ والإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٧] ويقال: ذو العزة، وذو الملك وذو الرحمة ونظائر ذلك. فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لا فرق أن يقال: ذو العرش، وذو الأرض.

**ثم** وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها. وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه. وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة، فليس له من المجد شيء.

**والمخلوق** إنما يصير مجيداً بأوصافه وأفعاله. فكيف يكون الرب ـ تبارك وتعالىٰ ـ مجيداً. وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟ تعالىٰ الله عما يقول المعطلون علوًّا كبيراً، بل هو المجيد الفعال لما يريد.

---

(١) ٢٨ مدارج جـ٣. (٢) ٥٩ التبيان.

**والمجد** في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير، وأحسن ماقرن اسم المجيد إلىٰ الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل ـ عليه السلام ـ: ﴿رحْمَةُ الله وبركاتُهُ عليكُمْ أهلَ البيْتِ إنّه حميدٌ مجيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

**وكما** شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني علىٰ الرب تعالىٰ بأنه حميد مجيد. وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: «ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد».

**فالحمد** والمجد علىٰ الإطلاق لله الحميد المجيد، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال. والمجيد العظيم الواسع القادر الغني؛ ذو الجلال والإكرام.

**ومن** قرأ (المجيد) بالكسر فهو صفة لعرشه ـ سبحانه ـ وإذا كان عرشه مجيداً فهو ـ سبحانه ـ أحق بالمجد. وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس، وقال: لم يسمع في صفات الخلق مجيد، ثم خرجها علىٰ أحد الوجهين، إما علىٰ الجوار، وإما أن يكون صفة لربك. وهذا من قلة بضاعة هذا القائل. فإن الله ـ سبحانه ـ وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد. ووصفه بالعظمة. فوصفه ـ سبحانه ـ بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك، لسعته وحسنه وبهاء منظره، فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجمله، وأجمعه لصفات الحسن، وبهاء المنظر، وعلو القدر والرتبة والذات، ولا يقدر قدر عظمته وحسنه، وبهاء منظره إلا الله. ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه. والسموات السبع والأرضون السبع في الكرسي - الذي بين يديه - كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة. قال ابن عباس: السموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس، فكيف لايكون مجيداً وهذا شأنه؟ فهو عظيم كريم مجيد. وأما تكلف هذا المتكلف جره إلىٰ الجوار، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد، وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلىٰ ذلك.

**وقوله**: ﴿فعَّالٌ لِّمَا يُريدُ﴾ [البروج: ١٦] دليل علىٰ أمور:

**(أحدها)** أنه ـ سبحانه ـ يفعل بإرادته ومشيئته.

**(الثاني)** أنه لم يزل كذلك، لأنه لم يزل كذلك، لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء علىٰ نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا

الكمال في وقت من الأوقات. وقد قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**أفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أفَلَا تذَكَّرُون؟**﴾ [النحل: ١٧] وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

**(الثالث)** أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أي يفعل كل ما يريد أن يفعله. وهذا في إرادته المتعلقة بفعله. وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر. فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل وإن أراده، حتىٰ يريده من نفسه أن يجعله فاعلاً، وهذه هي النكتة التي خفيت علىٰ القدرية والجبرية، وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها، فإن هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الرب فاعلاً، وليستا متلازمتين، وإن لزم من الثانية الأولىٰ من غير عكس، فمتىٰ أراد من نفسه أن يعين عبده، وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله، وقد يريد فعله، ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل، فلا يوجد الفعل.

**فإن** اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر إلىٰ قول النبي ﷺ، حاكياً عن ربه قوله للعبد يوم القيامة «**قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب أبيك: أن لاتشرك بي شيئاً**» ولم يقع هذا المراد، لأنه لم يرد من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

**(الرابع)** أن فعله ـ سبحانه ـ وإرادته متلازمان. فما أراد أن يفعله فعله، ومافعله فقد أراده. بخلاف المخلوق، فإنه يريد مالا يفعل، وقد يفعل مالا يريد. فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

**(الخامس)** إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، وهذا هو المعقول في الفطر، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة، فشأنه ـ تعالىٰ ـ أنه يريد علىٰ الدوام، ويفعل مايريد.

**(السادس)** أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله. فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا. وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يُرِي نفسه لعباده، وأن يتجلىٰ لهم كيف شاء، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم، وغير ذلك مما

يريد سبحانه - لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد. وإنما تتوقف صحة ذلك علىٰ إخبار الصادق به. فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده ردًّا لكماله الذي أخبر به عن نفسه. وهذا عين الباطل. وكذلك إذا أمكن إرادته ـ سبحانه ـ محو ماشاء، وإثبات ما شاء أمكن فعله، وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس.

**وقد** اشتملت هذه السورة علىٰ اختصارها من التوحيد علىٰ وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة، وعدم النظير. والحمد المتضمن لصفات الكمال، والتنزيه عن أضدادها، مع محبته وإلهيته. وملكه السموات والأرض، المتضمن لكمال غناه، وسعة ملكه. وشهادته علىٰ كل شيء المتضمن لعموم اطلاعه علىٰ ظواهر الأمور وبواطنها. وإحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها. ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة، وتفرده بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته. وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة وانقيادها لقدرته، فلا يستعصىٰ عليه منها شيء. ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته. ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبًا إلىٰ عباده محبًّا لهم.

**ووصفه** بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوي عليه، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم. وكونه فعالاً لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته، وغير ذلك من أوصاف كماله.

**فهذه** السورة كتاب مستقل في أصول الدين، تكفي من فهمها. فالحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب وتبارك الذي نزل الفرقان علىٰ عبده.

**ثم** ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به، وكذب رسله، تحذيراً لعباده من سلوك سبيلهم، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم.

**ثم** أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته، وهو محيط بهم. ولا أسوأ حالاً ممن عادىٰ من هو في قبضته، ومن هو قادر عليه من كل وجه، وبكل اعتبار. فقال: **﴿بَلِ الَّذين كَفَرُوا فِي تَكْذِيب. والله مِن وَرَآئِهِمْ**

مُحِيطٌ﴾ [البروج: ١٩-٢٠] فهـذا أعجب عجب ممن كَفر بمن هو محيط به، وآخذ بناصيته قادر عليه.

**ثم** وصف كلامه بأنه مجيد، وهو أحق بالمجد من كل كلام. كما أن المتكلم به له المجد كله. فهو المجيد، وكلامه مجيد، وعرشه مجيد.

**قال** ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قرآن مجيد، كريم. لأن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون: شعر، وكهانة، وسحر.

**وقد** تقدم أن المجد السعة، وكثرة الخير، وكثرة خير القرآن لا يعلمها إلا من تكلم به وقوله: ﴿فِي لُوحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] أكثر القراء علىٰ الجر، صفة للوح.

**وفيه** إشارة إلىٰ أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه، وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان علىٰ الزيادة فيه والنقصان.

**فوصفه** ـ سبحانه ـ بأنه محفوظ في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. ووصف محله بالحفظ في هذه السورة، فالله ـ سبحانه ـ حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف. كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البروج

والحمد لله رب العالمين




## بسم الله الرحمن الرحيم

[1]**ومن** ذلك إقسامه ـ سبحانه ـ: ﴿والسَّمآءِ والطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] وقد فسره بأنه ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣] الذي يثقب ضوؤه، والمراد به الجنس لا نجم معين. ومن عينه بأنه الثريا، أو زحل، فإن أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه.

**والمقصود** أنه ـ سبحانه ـ أقسم بالسماء ونجومها المضيئة. وكل منها آية من آياته الدال علىٰ وحدانيته، وسمىٰ النجم طارقًا، لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذي يطرق الناس، أو أهله ليلاً.

**قال** الفراء: ما أتاك ليلاً فهو طارق. وقال الزجاج، والمبرد: لا يكون الطارق نهارًا. ولهذا تستعمل العرب الطروق في صفة الخيال كثيرًا، كما قال ذو الرمة:

ألا طرقت مي هيومًا بذكرها　　وأيدي الثريا جنح بالمغارب

**وقال** جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا　　وقت الزيارة، فارجعي بسلام

**ولهذا** قيل: أول من رد الطيف جرير، فلم يزل الناس علىٰ قبوله وإكرامه كالضيف. فالطيف والضيف كلاهما لا يرد. وقال الآخر:

ألا طرقت من آخر الليل زينب　　عليك سلام، هل لما فات مطلب؟

## فصــل

**والمقسم** عليه ههنا حال النفس الإنسانية، والاعتناء بها، وإقامة الحفظة عليها. وأنها لم تترك سدىٰ، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، **فأقسم** ـ سبحانه ـ أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها، ويحصي ما تكتسب من خير أو شر.

---

(١) ٦٣ التبيان.

**واختلف** القـراء في «لمـا» فشـددها بعضهم، وخففها بعضهم. فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنىٰ إلا، وهي تكون بمعنىٰ إلا في موضعين.

**(أحدهما)** بعد إن المخففة مثل هذا الموضع، أو المثقلة مثل قوله: ﴿وإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّك أَعْمَالَهم﴾ [هود: ١١١].

**(والثاني)** في باب القسم، نحو سألتك بالله لما فعلت. قال أبو علي الفارسي: من خفف كانت عنده هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها هي الفارقة بين إن النافية والخفيفة [وما]زائدة، وإن هي التي يتلقي بها القسم، كما يتلقىٰ بالمثقلة. ومن قرأهـا مشددة كانت [إن] عنده نافية بمعنىٰ [ما ولما] في معنىٰ [إلا]. قال سيبويه، عن الخليل - في قولهم: نشدتك بالله لما فعلت - قال المعنىٰ: إلا فعلت.

**ثم** نبه ـ سبحانه ـ الإنسان علىٰ دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه علىٰ طريقة القـرآن في الاستـدلال علىٰ المعـاد بالمبدأ، فقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مَمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥] أي فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذي ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر علىٰ إعادته.

**ثم** أخبر سبحانه أنه خلقه من ماء دافق. والدفق صب الماء، يقال دفقت الماء فهو مدفوق ودافق ومندفق. فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك، كالمكسور، والمضروب.

**والمتـدفق:** المطاوع لفعل الفاعل. تقول. دفقته فأندفق، كما تقول: كسرته فانكسر. والدافق قيل: إنه فاعل بمعنىٰ مفعول؛ كقولهم: سر كاتم، وعيشة راضية.

**وقيل:** هو علىٰ النسب؛ لا علىٰ الفعل، أي ذي دفق، أو ذات. ولم يرد الجريان علىٰ الفعل. وقيل - وهو الصواب - إنه اسم فاعل علىٰ بابه؛ ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق. فإن اسم الفاعل هو من قام به الفعل، سواء فعله هو أو غيره كما يقال: ماء جار، ورجل ميت، وإن لم يفعل الموت، بل لما قام به من الموت نسب إليه علىٰ جهة الفعل. وهذا غير منكر في لغة أمة من الأمم، فضلاً عن أوسع اللغات وأفصحها.

**وأما** العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية، فإنها اللائقة بهم، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها. كأنها رضيت بهم ورضوا بها. وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمله. وإذا كانوا يقولون: الوقت الحاضر والساعة الراهنة - وإن لم يفعلا ذلك، فكيف يمتنع أن يقولوا: ماء دافق، وعيشة راضية؟.

**ونبه** ـ سبحانه ـ بكونه دافقًا علىٰ أنه ضعيف غير متماسك. ثم ذكر محله الذي يخرج منه، وهو بين الصلب والترائب. قال ابن عباس: صلب الرجل، وترائب المرأة، وهو موضع القلادة من صدرها، والولد يخلق من المائين جميعًا.

**وقيل:** صلب الرجل وترائبه وهي صدره، فيخرج من صلبه وصدره. وهذه الآية الدالة علىٰ قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجه اللبن الخالص من بين الفرث والدم.

(1)**وقد** دعا ـ سبحانه ـ الإنسان إلىٰ أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه، ويستدل بذلك على مَعَاده وصدْق ما أخبرت به الرسل؛ فقال في الأول: ﴿**فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلق * خُلِقَ من مَّآءٍ دافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَآئِبِ * إنَّه عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَآئِرُ**﴾ [الطارق: ٥-٩] فالدافق علىٰ بابه، ليس فاعلًا بمعنىٰ مفعول كما يَظُنُّه بعضهم، بل هو بمنزلة: ماء جارٍ وواقِفٌ وساكنٍ، ولا خلاف أن المراد بالصُّلْب: صلبُ الرجل.

**واختلف** في الترائب فقيل: المراد بها ترائبه أيضًا، وهي عظام الصَّدْر مابين التَّرْقُوة إلىٰ الثَّنْدُوَة. وقيل: المرادُ ترائبُ المرأة، والأول أظهر؛ لأنه سبحانه قال: ﴿**يَخْرُجُ من بين الصُّلْبِ والتَّرآئِبِ**﴾ ولم يقل يخرج من الصُّلْب والتَّرَائب، فلابد أن يكون ماء الرجل خارجًا من بين هذين المختلفين كما قال في اللبن: يخرج ﴿**مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ**﴾ [النحل: ٦٦]. وأيضًا فإنه ـ سبحانه ـ أخبر أنه خلَقه من نطفة في غير موضع، والنطفة هي ماء الرجل، كذلك قال أهل اللغة.

**قال** الجوهري: والنطفة: الماء الصافي قَلَّ أو كَثُرَ، والنطفة: ماء الرجل، والجمع نُطَفٌ. وأيضًا فإن الذي يُوصَفُ بالدَّفْق والنضح إنما هو ماء الرجل، ولا يقال نَضَحَت المرأة الماء ولا دَفَقَتْه.

---

(١) ١٤٥ أعلام جـ١.

**والذي** أوجَبَ لأصحاب القول الآخر ذلك أنهم رأوا أهلَ اللغة قالوا: الترائب مَوْضِعُ القلادة من الصَّدْر، قال الزجاج: أهلُ اللغة مُجْمِعون علىٰ ذلك، وأنشدوا لامريء القيس:

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاء غَيْرُ مُفَاضَةٍ * تَرَائِبُهَا مَصْقُولَة كَالسَّجَنْجَل

**وهذا** لا يدلّ علىٰ اختصاص الترائب بالمرأة، بل يُطْلَق علىٰ الرجل والمرأة، قال الجوهري: التَّرائب عِظَامُ الصدر ما بين التَّرْقُوة إلىٰ الثَّنْدُوة.

**وقوله:** ﴿إنه عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] الصحيحُ أن الضمير يرجع علىٰ الإنسان، أي إن الله علىٰ رَدِّه إليه لقادر يوم القيامة، وهو اليوم الي تُبْلَىٰ فيه السرائر، ومَنْ قال: «إن الضمير يرجع علىٰ الماء أي إن الله علىٰ رَجْعه في الإحليل أو في الصدر أو حَبْسه عن الخروج لقادر» فقد أبْعَد، وإن كان الله سبحانه قادرًا علىٰ ذلك، ولكنَّ السياق يأباه، وطريقة القرآن - وهي الاستدلالُ بالمبدأ والنشأة الأولىٰ علىٰ المَعَاد والرجوع إليه - وأيضًا فإنه قيده بالظرف، وهو ﴿يوم تُبْلَىٰ السَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]. والمقصود أنه ـ سبحانه ـ دعا الإنسان أن ينظر في مَبْدَأ خلقه ورزقه، فإن ذلك يدلُّه دلالةً ظاهرة علىٰ مَعَاده ورجوعه إلىٰ ربه.

[1]**وإذا** تأملت ما دعا الله ـ سبحانه ـ في كتابه عباده إلىٰ الفكرْ فيه أوقعك علىٰ العلم به ـ سبحانه وتعالى ـ وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه، فبهذا تعرّف إلىٰ عباده وندبهم إلىٰ التفكر في آياته.

**ونذكر** لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها علىٰ غيرها. فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه إلىٰ التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَفي أنفُسِكُمْ أفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالىٰ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فإنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثم من مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وغير مُخَلَّقَةٍ لنُبيِّنَ لكم ونُقِرُّ في الأَرْحَام ما نشآءُ إلىٰ أجلٍ مُّسَمًّى ثم

(١) ١٨٧ مفتاح جـ١.

**نُخْـرِجُكم طِفْلًا ثم لِتَبلُغُوا أشُدَّكم ومنكم مَن يُتوفَّىٰ ومِنْكُمْ من يُرَدُّ إلىٰ أرْذلِ الْعُمُرَ لِكَيلَا يَعْلَم مِنْ بعدِ علمٍ شَيْئًا﴾** [1] [الحج: ٥].

(٢) **قال** تعالىٰ: **﴿فَلْيَنْظرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِق * خُلِق من مآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ من بينَ الصُّلْب والتَّرآئِبِ *﴾** [الطارق: ٥-٧].

**قالَ** الـزجـاج: قال أهل اللغة: التريبة موضع القلادة من الصدر، والجمع ترائب. وقال أبو عبيدة: الترائب: معلق الحلي من الصدر، وهو قول جميع أهل اللغة. قال عطاء وابن عباس: يريد صلب الرجل، وترائب المرأة: وهو موضع قلادتها، وهذا قول الكلبي ومقاتل وسفيان وجمهور أهل التفسير، وهو المطابق لهذه الأحاديث، وبذلك أجرىٰ الله العادة في إيجاد ما يوجده من بين أصلين: كالحيوان والنبات وغيرهما من المخلوقات، فالحيوان ينعقد من ماء الذكر وماء الأنثىٰ، كما ينعقـد النبات من الماء والتراب والهواء. ولهذا قال ـ تعالىٰ ـ: **﴿بَدِيعُ السَّماوَاتِ والأرْضِ أنىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ولَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾** [الأنعام: ١٠١].

**فإن** الولد لا يتكون إلا من بين الذكر وصاحبته، ولا ينتقض هذا بآدم وحواء أبوينا ولا بالمسيح، فإن الله ـ سبحانه ـ مزج تراب آدم بالماء حتىٰ صار طينًا، ثم أرسل عليه الهواء والشمس حتىٰ صار كالفخار، ثم نفخ فيه الروح، وكانت حواء مستلة منه وجزأ من أجزائه، والمسيح خلق من ماء مريم ونفخة الملك، وكانت النفخة له كالأب لغيره.

(٣) **ثم** ذكر الأمر المستدل عليه والمعاد بقوله: **﴿إنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾** [الطارق: ٨] أي علىٰ رجعه إليه يوم القيامة، كما هو قادر علىٰ خلقه من ماء هذا شأنه. هذا هو الصحيح في معنىٰ الآية. وفيها قولان ضعيفان: أحدهما قول مجاهد: علىٰ رد الماء في الإحليل لقادر. والثاني قول عكرمة والضحاك. علىٰ رد الماء في الصلب. وفيه

---

(١) بحث المؤلف في عموم الحكم الكثيرة في مخلوقات الله والتفكر فيها بحثًا موسعًا يطلعك على أبواب من العلم فاظفر بها إن شئت (ج).

(٢) ١٦٦ تحفة المودود. (٣) ٦٥ التبيان.

قول ثالث قال مقاتل: إن شئت رددته من الكبر إلىٰ الشباب، ومن الشباب إلىٰ الصبا، إلىٰ النطفة.

**والقول** الصواب هو الأول لوجوه:

**(أحدها)** أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ علىٰ المعاد.

**(الثاني)** أن ذلك أدل علىٰ المطلوب من القدرة علىٰ رد الماء في الإحليل.

**(الثالث)** أنه لم يأت لهذا المعنىٰ في القرآن نظير في موضع واحد. ولا أنكره أحد حتىٰ يقيم سبحانه الدليل عليه.

**(الرابع)** أنه قيد الفعل بالظرف وهو قوله: ﴿**يوم تبلىٰ السرائر**﴾ وهو يوم القيامة، أي أن الله قادر علىٰ رجعه إليه حيًّا في ذلك اليوم.

**(الخامس)** أن الضمير في (رجعه) هو الضمير في قوله: ﴿**فَمَا لَهُ مِن قُوَةٍ ولا نَاصِرٍ**﴾ [الطارق: ١٠] وهذا للإنسان قطعًا لا للماء.

**(السادس)** أنه لا ذكر للإحليل، حتىٰ يتعين كون المرجع إليه. فلو قال قائل: علىٰ رجعه إلىٰ الفرج الذي صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول، ولم يكن أولىٰ منه.

**(السابع)** أن رد الماء إلىٰ الإحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف، ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة، وإن كان مقدورًا للرب تعالىٰ، ولكن هو لم يجره ولم تجر به العادة. ولا هو مما تكلم الناس فيه، نفيًا أو إثباتًا، ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه وينبه علىٰ منكريه، وهو سبحانه إنما يستدل علىٰ أمر واقع ولا بد، إما قد وقع ووجد أو سيقع.

**فإن قيل**: فقد قال تعالىٰ: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أن لَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِيْنَ عَلَىٰ أن نُّسوِّىٰ بَنَانَه**﴾ [القيامة: ٣، ٤] أي نجعله كخف البعير قيل: هذه أيضًا فيها قولان: أحدهما هذا. والثاني ـ وهو الأرجح ـ أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت، بعد ما فرقها البلىٰ في التراب[1].

**(الثامن)** أنه سبحانه دعا الإنسان إلىٰ النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه

---

(١) تقدم في سورة القيامة مبسوطًا (ج).

بما أخبر به، وهو لم يخبره بقدرة خالقه علىٰ رد الماء في إحليله بعد مفارقته له، حتىٰ يدعوه إلىٰ النظر فيما خلق منه، ليستقبح منه صحة إمكان رد الماء.

**(التاسع)** أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خلقه ورد الماء في الإحليل بعد خروجه، ولا تلازم بينهما، حتىٰ يجعل أحدهما دليلًا علىٰ إمكان الآخر، بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد، والخلق الأول والخلق الثاني، والنشأة الأولىٰ والنشأة الثانية. فإنه ارتباط من وجوه عديدة، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر. فحسن الاستدلال بأحدهما علىٰ الآخر.

**(العاشر)** أنه سبحانه نبه بقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] علىٰ أنه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه، فلا يضيع منه شيء.

**ثم** نبه بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] علىٰ بعثه لجزائه علىٰ العمل الذي حفظ وأحصىٰ عليه. فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته، فمبدؤه محفوظ عليه ونهايته الجزاء عليه، ونبه علىٰ هذا بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أي تختبر. وقال مقاتل: تظهر وتبدو، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه. والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله. فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر. فتختبر ذلك اليوم، حتىٰ يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها. وما كان لله مما لم يكن له.

**قال** عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما -: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زينًا في الوجوه، وشينًا فيها. والمعنى تختبر السرائر بإظهارها. وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.

**وفي** التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحًا، فتبدو سريرته علىٰ وجهه نورًا وإشراقًا وحياءًا، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعًا لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته علىٰ وجهه سوادًا وظلمة وشينًا. وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا

إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها. قال الشاعر:

فإن لها في مضمر القلب والحشا　　سريرة حب يوم تبلىٰ السرائر

**ثم** أخبر ـ سبحانه ـ عن حال الإنسان في يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله. لا بقوة منه ولا بقوة من خارج، وهو الناصر. فإن العبد إذا وقع في شدة، فإما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره. وكلاهما معدوم في حقه. ونظيره قوله سبحانه: ﴿**لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ**﴾ [الأنبياء: ٤٣].

**ثم** أقسم ـ سبحانه ـ بـ ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ**﴾ [الطارق: ١١، ١٢]. فأقسم بالسماء ورجعها بالمطر، والأرض وصدعها بالنبات. قال الفراء: تبدي بالمطر ثم ترجع به، في كل عام. وقال أبو إسحاق: الرجع المطر، لأنه يجيء ويرجع ويتكرر. وكذلك قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: تبدي بالمطر ثم ترجع به. في كل عام.

**والتحقيق** أن هذا علىٰ وجه التمثيل. ورجع السماء هو إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال، علىٰ مرور الأزمان. ترجعه رجعًا، أي تعطيه مرة بعد مرة. والخير كله من قبل السماء يجيء. ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به، وحسن تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات، وفسر الصدع بالنبات، لأنه يصدع الأرض أي يشقها. فأقسم ـ سبحانه ـ بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالىٰ الدالة علىٰ ربوبيته.

**وأقسم** علىٰ كون القرآن حقًا وصدقًا فقال: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ**﴾ [الطارق: ١٣، ١٤] كما أقسم في أول السورة علىٰ حال الإنسان في مبدئه ومعاده.

**والقول** الفصل هو الذي يفصل بين الحق والباطل، فيميز هذا من هذا، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومصيب الفصل الذي ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره، كما قال: أصاب الفصل وأصاب المرء. إذا أصاب بكلامه نفس المعنىٰ المراد، ومنه فصل الخطاب.

**وأيضا** فالقول الفصل ببيان المعنىٰ ضد الإجمال. فكون القرآن فصلاً يتضمن هذه المعاني كلها، ويتضمن كونه حقًّا ليس بالباطل، وجدًا ليس بالهزل.

**ولما** كان الهزل هو الذي لا حقيقة له - وهو الباطل واللعب - قابل بين الفصل والهزل. وإنما يكيد المكذبون ويحيلون، ويخادعون لرده، ولا يردونه بحجة، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده.

**وكيده** ـ سبحانه ـ استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتىٰ يأخذهم علىٰ غرة، كما قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ [الأعراف: ١٨٣] فالإنسان إذ أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتىٰ يطمئن إليه، فيأخذه كما يفعل الملوك، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنًا لا قبح فيه، فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم، حتىٰ إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة. ثم قال: ﴿**فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا**﴾ [الطارق: ٨] أي أنظرهم قليلاً، ولا تستعجل لهم، والرب تعالىٰ هو الذي يمهلهم.

**وإنما** خرج الخطاب للرسول علىٰ جهة التهديد والوعيد لهم. أو علىٰ معنىٰ انتظر بهم قليلاً. ورويدا في كلامهم يكون اسم فعل، فينصب بها الاسم نحو رويدًا زيدًا، أي خله وأمهله، وارفق به.

**الثاني:** أن يكون مصدرًا مضافًا إلىٰ المفعول، نحو رويد زيد، أي إمهال زيد، نحو ضرب الرقاب.

**الثالث:** أن يكون نعتًا منصوبًا، نحو قولك: ساروا رويدًا. تقول العرب: ضعه رويدًا، أي وضعًا رويدًا. وفي حديث عائشة في خروج النبي ﷺ بالليل من عندها إلىٰ البقيع «فخرج رويدًا، وأجاف الباب رويدًا.

**ويجوز** في هذا الوجه وجهان: أحدهما أن يكون حالاً. والثاني أن يكون نعتًا لمصدر محذوف، فإن أظهرت المنعوت تعين الوجه الثاني. ورويدًا في هذه الآية هو من هذا النوع الثالث. والله أعلم.

**هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطارق**

**والحمد لله رب العالمين**




بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**الهداية** لها أربع مراتب وهي مذكورة في القرآن.

**المرتبة** الأولىٰ: الهداية العامة، وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصالحه التي بها قام أمره، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلىٰ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ والَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١-٣].

**فذكر** أمورًا أربعة: الخلق والتسوية والتقدير والهداية، فسوىٰ خلقه، وأتقنه، وأحكمه، ثم قدر له أسباب مصالحه في معاشه وتقلباته وتصرفاته وهداه إليها. والهداية تعليم، فذكر أنه الذي خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك في أول سورة أنزلها علىٰ رسوله، وقد تقدم ذلك. وقال ـ تعالى ـ حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى: ﴿فَمَنْ رَّبُّكُمَا يامُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الذي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَه ثم هُدَى﴾ [طه: ٤٩-٥٠] وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها.

**المرتبة** الثانية: هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده، وهذه لاتستلزم الاهتداء التام. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهديْنَاهُمْ فاسْتَحَبُّوا العَمى عَلَى الهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمى.

**وقال** تعالى: ﴿وعَادًا وثَمُودَ وقَدْ تَبيَّنَ لكم منْ مَساكِنِهِمُ وَزَيَّنَ لهم الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ وكَانُوا مُسْتَبْصِرِين﴾ [العنكبوت: ٣٨] وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية. وهي هدى التوفيق والإلهام. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿والله يَدْعُو إلى دَارِ السَّلامِ وَيهْدِي من يشآءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم﴾ [يونس: ٢٥] فعم بالدعوة خلقه وخص بالهداية من شاء منهم. قال ـ تعالى ـ: ﴿إنَّك لاَ تَهْدِي من أحْبَبْتَ ولكنَّ الله يَهْدِي من يشآءُ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله: ﴿وإنَّكَ لتَهْدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان

(١) ٨٤ مفتاح جـ١.

ونفي هداية التوفيق والإلهام. وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**». وقال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ**﴾ [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدي أبدًا.

**وهذه** الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء. وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدي عنها بخلاف الثالثة، فإن تخلف الهدى عنها مستحيل.

**المرتبة** الرابعة: الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار. قال ـ تعالى ـ: ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وأَزْوَاجَهُمْ ومَاكَانُوا يَعْبُدُونَ من دُون الله فَاهْدُوهم إلى صراطِ الْجَحِيمْ**﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وأما قول أهل الجنة: ﴿**الحمدُ الله الَّذي هَدَانا لهذا ومَا كُنَّا لِنَهْتَدِيِ لولا أنْ هَدَانا الله**﴾ [الأعراف: ٤٣] فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم.

**ولو** قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وإنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ، وقد ضرب الله ـ تعالى ـ لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلاً مطابقًا لحاله: فقال ـ تعالى ـ: ﴿**قُلْ أَنَدْعُوا من دُون الله مَالاَ يَنْفَعُنَا ولاَ يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أعْقَابِنَا بعدَ إذْ هَدَانَا الله كَالَّذي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرانَ له أصحابٌ يَدْعُونه إلى الهُدَى ائتنا قُلْ إنَّ هُدىَ الله هو الهدى وأُمْرنا لِنُسْلِمَ لِربِّ العالَمين**﴾ [الأنعام: ٧١].

(١)**والهداية** هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره. فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له، وهي أعظم نعمة لله على العبد. ولهذا أمرنا ـ سبحانه ـ أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق، فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله.

**ومعلوم** أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه، وأن كل ما يعلم أنه

---

(١) ٨٣ مفتاح جـ١.

حق لا تطاوعه نفسه على إرادته ولو أراده لعجز عن كثير منه، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل.

**أما** الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه، وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه أم خرج فيه عن الحق، فيتوب إلى الله ـ تعالى ـ منه، ويستغفره، ويعزم على أن لا يعود؟

**وأما** الهداية في الحال فهي مطلوبة منه، فإنه ابن وقته، فيحتاج أن يعلم حكم ماهو متلبس به من الأفعال، هل هو صواب أم خطأ؟

**وأما** المستقبل فحاجته في الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق.

**وإذا** كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطرارًا لها، وأن مايورده بعض الناس من السؤال الفاسد، وهي إنا إذا كنا مهتدين فأي حاجة بنا أن سأل الله أن يهدينا، وهل هذا إلا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب، وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علمًا بحقيقتها ومسماها، فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى: ثبتنا على الهداية، وأدمها لنا. ومن أحاط علمًا بحقيقة الهداية وحاجة العبد لها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له، وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة، لاسيما والله ـ تعالى ـ خالق أفعال القلوب والجوارح، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة، ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له، فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه، بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه. ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغي في قلبه كل منها مانع. وصول أثر الهداية إليه، فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تامًا، فحاجته إلى هداية الله له مقرونة بأنفاسه، وهي أعظم حاجة للعبد.

**وذكر** النبي ﷺ في الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته مايناسب المطلوب، فإن فطر السموات والأرض توسل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها.

**فذكر** كونه فاطر السموات والأرض، والمطلوب تعليم الحق والتوفيق، له فذكر علمه ـ سبحانه ـ بالغيب والشهادة، وأن من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه. وهو بمنزلة التوسل إلى الغني بغناه وسعة كرمه أن يعطي عبده شيئًا من ماله.

**والتوسل** إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده وبعفوه أن يعفو عنه وبرحمته أن يرحمه ونظائر ذلك، وذكر ربوبيته ـ تعالى ـ لجبريل وميكائيل وإسرافيل.

**وهذا** والله أعلم لأن المطلوب هدى يحيا به القلب، وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله ـ تعالى ـ على أيديهم أسباب حياة العباد.

**أما** جبريل فهو صاحب الوحي الذي يوحيه الله إلى الأنبياء، وهو سبب حياة الدنيا والآخرة.

**وأما** ميكائيل فهو موكل بالقطر الذي به سبب حياة كل شيء.

**وأما** إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور فيحيي الله الموتى بنفخته، فإذا هم قيام لرب العالمين.

## الباب الرابع عشر[1]

**في** الهدي والضلال ومراتبهما والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله، فإن أفضل مايقدر الله لعبده وأجل مايقسمه له الهدى، وأعظم مايبتليه به، ويقدره عليه الضلال.

**وكل** نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال.

**وقد** اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه ـ سبحانه ـ يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضال أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله ـ سبحانه ـ وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه. ولابد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن، فأما مراتب الهدي فأربعة:

(١) ٦٥ شفاء.

**إحداها** الهدي العام، وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها ومايقيمها وهذا أعم مراتبه.

**المرتبة** الثانية: الهدىٰ بمعنىٰ البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده وهذا خاص بالمكلفين، وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى، وأعم من الثالثة.

**المرتبة** الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء، وهي هداية التوفيق ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى وإرادته والقدرة عليه للعبد، وهذه الهداية التي لايقدر عليها إلا الله عز وجل.

**المرتبة** الرابعة: الهداية يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار.

## (فصـــل)

**فأما** المرتبة الأولى فقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى * الَّذي خَلَقَ فسوَّى * والذي قَدَّر فَهَدى**﴾ [الأعلى: ١-٣] فذكر ـ سبحانه ـ أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية. وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير، قال عطاء: خلق فسوى، أحسن ماخلقه.

**وشاهده** قوله ـ تعالى ـ: ﴿**الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شيءٍ خَلَقَه**﴾ [السجدة: ٧] فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال، فالخلق: الإيجاد. والتسوية: إتقانه وإحسان خلقه.

**قال** الكلبي: خلق كل ذي روح فجمع خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين. وقال مقاتل: خلق لكل دابة مايصلح لها من الخلق، وقال أبو إسحاق: خلق الإنسان مستويًا، وهذا تمثيل، وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره، قال ـ تعالى ـ: ﴿**ونَفْسٍ وَمَاسَوَّاها**﴾ [الشمس: ٧] وقال: ﴿**فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ**﴾ [البقرة: ٢٩] فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته ﴿**مَاتَرى في خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مَنْ تَفَاوُتٍ**﴾ [الملك: ٣] ومايوجد من التفاوت وعدم التسوية فهو راجع إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق؛ فإن التسوية أمر وجودي تتعلق بالتأثير والإبداع، فما عدم منها فلعدم إرادة الخالق للتسوية، وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير.

**فتأمل** ذلك؛ فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله: ﴿مَاتَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية، كما أن الجهل والصمم والعمى والخرس والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها.

**وتمام** هذا يأتي أن شاء الله في باب دخول الشر في القضاء عند قول النبي ﷺ: «**والشر ليس إليك**». والمقصود أن كل مخلوق فقد سواه خالقه ـ سبحانه ـ في مرتبة خلقه وإن فاتته التسوية من وجه آخر لم يخلق له.

[1]**لاتتم** الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولايستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين: نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها، واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، ومافي ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع مايعقب من الحسرة والأسف. فطالبها لاينفك من همٍّ قبل حصولها، وهمٍّ في حال الظفر بها، وغمٍّ وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

**النظر** الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد، ودوامها وبقائها، وشرف مافيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ماههنا، فهي كما قال الله – سبحانه –: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٧]؛ فهي خيرات كاملة دائمة. وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

**فإذا** تم له هذان النظران آثر مايقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على أن لايترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل، واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل.

**وكل** واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة، فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها، إما أن يصدق بأن ماهناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لايصدق، فإن لم يصدق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا،

(١) ٩٣ فوائد.

وإن صدق بذلك ولم يؤثره، كان فاسد العقل سيء الاختيار لنفسه.

**وهذا** تقسيم حاضر ضروري لاينفك العبد من أحد القسمين منه، فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل. وماأكثر مايكون منهما! ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه، وصرفوا عنها قلوبهم واطرحوها ولم يألفوها وهجروها ولم يميلوا إليها وعدوها سجناً لا جنة فزهدوا فيها حقيقة الزهد. . .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأعلى
والحمد لله رب العالمين



بسم الله الرحمن الرحيم

(1)**تأمل** الحكمة العجيبة في الجبال، الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لاحاجة إليها، وفيها من المنافع مالا يحصيه إلا خالقها وناصبها.

**وفي** حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ: بالذي نصب الجبال، وأودع فيها المنافع، آلله أمرك بكذا وكذا؟ قال: «**اللهم نعم**».

**فمن** منافعها: أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلاً لشراب الناس إلى حين نفاده، وجعل فيها ليذوب أولاً فأولاً، فتجيء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية، فينبت في المروج والوهاد والرُّبا، ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لايكون مثلها في السهل والرمل، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة، وساح دفعه: فعدم وقت الحاجة إليه، وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك مامرت عليه، فيضر بالناس ضررًا لايمكن تلافيه، ولادفعه لأذيته.

**ومن** منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع، وهي أيضًا أكنان للناس والحيوان.

**ومن** منافعها ماينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرجية وغيرها.

**ومن** منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل، حتى أن فيها مايكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة.

**وفيها** من المنافع مالا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه.

**ومن** منافعها أيضًا أنها ترد الرياح العاصفة، وتكسر حدتها، فلا تدعها تصدم ماتحتها، ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية.

(1) ٢١٨ مفتاح جـ١.

**ومن** منافعها أيضًا أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال، ولولاها خربت السيول في مجاريها مامرت به، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن.

**ومن** منافعها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات، فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق، ولهذا سماها الله أعلامًا فقال: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**﴾ [الشورى: ٣٢] فالجواري هي السفن، والأعلام: الجبال. واحدها علم قالت الخنساء:

وأن صخرًا لتأتم الهداة به　　كأنه علم في رأسه نار

**فسمى** الجبل علمًا من العلامة والظهور.

**ومن** منافعها أيضًا ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لاتكون في السهول والرمال، كما أن ماينبت في السهول والرمال لاينبت مثله في الجبال، وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم، لايحيط به إلا الخلاق العليم.

**ومن** منافعها أنها تكون حصونًا من الأعداء، يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم، كما يتحصنون بالقلاع، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن.

**ومن** منافعها ماذكره الله ـ تعالى ـ في كتابه أن جعلها للأرض أوتادًا، تثبتها، ورواسي بمنزلة مراسي السفن، وأعظم بها من منفعة وحكمة.

**هذا** وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع، وجدتها في غاية المطابقة للحكمة، فإنها لوطالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها، والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء، فلم يتمكنوا من الانتفاع بها، ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والأكنان، ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها، ولما حصل لهم بها الانتفاع التام، فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه.

**ولقد** دعانا الله سبحانه في كتابه إلىٰ النظر فيها وفي كيفية خلقها فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-١٩] فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته.

**هذا** مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته، وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة، إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها.

**ومنها** الجبل الذي كلم الله عليه موسىٰ كليمه ونجيه.

**ومنها** الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه.

**ومنها** الجبلان اللذان جعلهما الله سورًا على بيته، وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرع لعباده السعي بينهما، وجعله من مناسكهم وتعبداتهم.

**ومنها** جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات.

**فلله** كم به من ذنب مغفور، وعثرة مقالة وزلة معفو عنها، وحاجة مقضية وكربة مفروجة، وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة.

**كيف** وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم، والوفد الأكرم، الذين جاءوا من كل فج عميق، وقوفًا لربهم مستكينين لعظمته خاشعين لعزته، شعثًا غبرًا حاسرين عن رءوسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم، فيدنو منهم ثم يباهي بهم الملائكة، فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام.

**ومنها** جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته، وهو في غاره فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم، فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك.

**فسبحان** من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال، فجعل منها جبالًا هي مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه، فهي تهوىٰ إليها كلما ذكرتها، وتهفو نحوها.

**كما** اختص من الرجال من خصه بكرامته، وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته منه، فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين، ووضع له القبول في الأرض بينهم.

وإذا تأملت البقاع وجدتها ... تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

**فدع** عنك الجبل الفلاني وجبل بني فلان وجبل كذا

خذ ماتراه ودع شيئًا سمعت به ... في طلعة الشمس مايغنيك عن زحل

**هذا** وإنها لتعلم أن لها موعدًا، ويومًا تنسف فيها نسفًا، وتصير كالعهن من هوله وعظمه، فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له.

**وكانت** أم الدرداء رضي الله عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها، أسمعت الجبال ماوعدها ربها فيقال ماأسمعها فتقول: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَاتَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَاأَمْتًا**﴾

**فهذا** حال الجبال وهي الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته وقد أخبر عنها فاطرها وباريها إنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله.

**فيا** عجبًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلىٰ عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلًا فإن أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم.

## فصــل

**ولما** اقتضت حكمته ـ تبارك وتعالى ـ أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل لينتفع بكل ذلك في وجهه، ويحصل منه ماخلق له، وكانت الأرض بهذه المثـابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف، ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه، إما بعلمهم وإما بدونه، ثم يرد إليها ماخرج منها.

**وجعلها** ـ سبحانه ـ كفاتًا للأحياء ماداموا على ظهرها، فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها فكانت كفاتًا لهم تضمهم على ظهرها أحياءًا وفي بطنها أمواتًا، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض، أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها، وتخرج أثقالها، فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول: رب هذا مااستودعتني، وتخرج كنوزها بإذنه ـ تعالى ـ ثم تحدث أخبارها، وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر.

## فصــل

**ولما** كانت الـرياح تجول فيهـا، وتدخل في تجاويفها، وتحدث فيها الأبخرة، وتخفق الرياح، ويتعذر عليها المنفذ أذن الله ـ سبحانه ـ لها في الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام، فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم. كما قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض: إن ربكم يستعتبكم، وقال عمر بن الخطاب وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم، وقال: لئن عادت لاأساكنكم فيها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الغاشية

والحمد لله رب العالمين

# سورة الفجر

ترتيبها ٨٩ — آياتها ٣٠

## بسم الله الرحمن الرحيم

[1]**قوله** تعالى: ﴿والفَجْر * ولَيَالٍ عَشْرٍ * والشَفْعِ والوَتْر * واللَّيْلِ إذا يَسْرِ * هَلْ في ذلِكَ قَسَمٌ لِّذي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١-٥] قيل جوابه: ﴿إن رَبَّكَ لَبالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] وهذا ضعيف لوجهين:

**أحدهما:** طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة.

**والثاني** قوله: ﴿إن رَّبك لَبالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، وهي عاد، وثمود، وفرعون. فذكر عقوبتهم، ثم قال مقرراً ومحذرًا: ﴿إن ربَّك لبالْمِرْصادِ﴾ [الفجر: ١٤] فلا نرى تعلقه بذلك دون القسم.

**وأحسن** من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالاً معظمة، من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله، المتضمنة خضوع العبد لربه، فإن الحج والنسك عبودية محضة لله، وخضوع لعظمته.

**وذلك** ضد ماوصف به عادًا وثمود، وفرعون، من العتو، والتكبر، والتجبر، فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأمم عتوًا وتكبروا عن أمر ربهم.

**وفي** صحيح البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**مامن أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر**» قيل: يارسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله لم يرجع من ذلك بشيءٍ**».

**فالزمان** المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب ـ عز وجل ـ به.

﴿**والفَجْرِ**﴾ إن أريد به جنس الفجر، كما هو ظاهر اللفظ، فإنه يتضمن وقت

---

(١) ١٨ التبيان.

صلاة الصبح، التي هي أول الصلوات. فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: ﴿والَّلَيْلِ إذا يَسْرِ﴾ المتضمن لآخر الصلوات.

**وإن** أريد بالفجر فجر مخصوص، فهو فجر يوم النحر وليلته، التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، ومارؤي الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها. وذلك الفجر: فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أفضل الأيام عند الله يوم النحر**» رواه أبو داود بإسناد صحيح. وهو آخر أيام العشر. وهو يوم الحج الأكبر، كما ثبت في صحيح البخاري وغيره.

**وهو** اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله ﷺ: «**إن الله بريء من المشركين ورسوله، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان**».

**ولا خلاف** أن المؤذن أذن بذلك في يوم النحر، لا يوم عرفة، وذلك بأمر رسول الله ﷺ، امتثالاً وتأويلاً للقرآن.

**وعلى** هذا فقد تضمن القسم: المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله، والخضوع له والتواضع لعظمته، ولهذا قال الخليل ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّ صَلاَتِي ونُسُكِيْ ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾ [الأنعام: ١٦٢] وقيل لخاتم الرسل ﷺ: ﴿فَصَلِّ لربْك وانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده، بل يشركون به، ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد، وثمود، وفرعون.

**وذكر** ـ سبحانه ـ من جملة هذه الأقسام ﴿الشَّفْعِ والوَتر﴾، إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال: فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، والجمرات وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفة وتر، وأما الأعمال: فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع. وهو الأصل، فإن الله وتر، يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع، فتكون كلها وتراً. كما قال النبي ﷺ: «**صلاة الليل مثنىٰ مثنىٰ، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ماقد صليت**». وأما

الزمان: فإن يوم عرفة وتر، ويوم النحر شفع، وهذا قول أكثر المفسرين.

**وروى** مجاهد عن ابن عباس: الوتر آدم، وشفع بزوجته حواء. وقال في رواية أخرى: الشفع آدم وحواء، والوتر الله وحده. وعنه رواية ثالثة، الشفع يوم النحر، والوتر اليوم الثالث. وقال عمران بن حصين، وقتادة: الشفع والوتر هي الصلاة، وروى فيه حديثًا مرفوعاً. وقال عطية العوفي، الشفع الخلق، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**وخَلَقْنَاكُم أزْواجًا**﴾ [النبأ: ٨] والوتر هو الله، وهذا قول الحكم، قال: كل شيء شفع والله وتر. وقال أبو صالح: خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، والله وتر واحد. وهذا قول مجاهد، ومسروق. وقال الحسن: الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر، وقال ابن زيد: الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر، وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة.

**وذكرت** أقوال أخر، هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين:

**أحدهما**: أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات.

**والثاني**: أن الوتر الخالق، والشفع المخلوق، وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق، فهو نظير ماتقدم في قوله: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحاها**﴾ [الشمس: ١]. نظير ماذكر في قوله: ﴿**وشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**﴾ [البروج: ٣]. وماذكر في قوله: ﴿**والَّليْلِ إذَا يَغْشَى * والنَّهار إذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى**﴾

**وقال** ههنا: ﴿**والليل إذا يَسْرِ**﴾ وفي سورة المدثر: أقسم بالليل إذا أدبر. وفي سورة التكوير: أقسم بالليل إذا عسعس، وقد فسر بأقبل، وفسر بأدبر. فإن كان المراد إقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة، وهي حالة إقباله، وحالة امتداده وسريانه، وحالة إدباره، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه.

**وعرف** الفجر باللام إذ كل أحد يعرفه، ونكر الليالي العشر، لأنها إنما تعرف بالعلم. وأيضًا فإن التنكير تعظيم لها. فإن التنكير يكون للتعظيم.

**وفي** تعريف الفجر مايدل على شهرته، وأنه الفجر الذي يعرفه كل أحد ولايجهله. فلما تضمن هذا القسم ماجاء به إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم كان في ذلك مادل على المقسم عليه، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى: ﴿**هَلْ في ذِلك**

قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥] فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة. وذلكَ يحتاج إلى حجر بحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى، ويحمله على اتباع الرسل، لئلا يصيبه ماأصاب من كذب الرسل كعاد، وفرعون، وثمود.

**ولما** تضمن ذلك مدح الخاضعين والمتواضعين ذكر حال المستكبرين المتجبرين الطاغين. ثم أخبر أنه صب عليهم سوط عذاب. ونكره إما للتعظيم، وإما لأن يسيراً من عذابه استأصلهم وأهلكهم، ولم يكن معه بقاء ولاثبات. ثم ذكر حال الموسع عليهم في الدنيا والمقتر عليهم.

**وأخبر** أن توسعته على من وسع عليه - وإن كان إكرامًا له في الدنيا - فليس ذلك إكرامًا على الحقيقة، ولا يدل على أنه كريم عنده، من أهل كرامته ومحبته.

**وأن** تقتيره على من قتر عليه لايدل على إهانته له، وسقوط منزلته عنده، بل يوسع ابتلاءًا وامتحانًا، ويفتر ابتلاءًا وامتحانًا فيبتلى بالنعم، كما يبتلى بالمصائب.

**وهو** ـ سبحانه ـ يبتلى عبده بنعمة تجلب له نقمة، وبنعمة تجلب له نعمة أخرى، وبنقمة تجلب له نقمة أخرى، وبنقمة تجلب له نعمة، فهذا شأن نعمه ونقمه سبحانه.

**وتضمنت** هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله. وهم هؤلاء الأمم الثلاث: قوم عاد، اغتروا بقوتهم. وثمود، اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم. وقوم فرعون، اغتروا بالمال والرياسة، فصارت عاقبتهم إلى ماقص الله علينا. وهذا شأنه دائمًا مع كل من اغتر بشيء من ذلك، لابد أن يفسده عليه، ويسلبه إياه. ثم ذكر ـ سبحانه ـ حال الإنسان في معاملته لمن هو أضعف منه، كاليتيم والمسكين. فلا يكرم هذا، ولا يحض على طعام هذا. ثم ذكر حرصه على جمع المال وأكله، وحبه له. وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين.

[1]**من** علامات السعادة والفلاح، أن العبد كلما زيد في علمه؛ زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله؛ زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره؛ نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله؛ زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

---

(١) ١٥٢ الفوائد.

**وعلامات** الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه؛ زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله؛ زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله؛ زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه؛ زيد في كبره وتيهه. وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده؛ فيسعد بها أقوام ويشقي بها أقوام. وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء: كالملك، والسلطان، والمال. قال ـ تعالى ـ عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: ﴿**هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُونِي أأشْكُرُ أم أكْفُرُ**﴾ [النمل: ٤٠] فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور، كما أن المحن بلوى منه ـ سبحانه ـ فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب. قال ـ تعالى ـ: ﴿**فَأَمَّا الإِنْسَانُ إذا مَا ابْتَلاه رَبُّه فأكْرَمَهُ وَنَعَّمَه فَيقُولُ رَبِّي أكْرَمَنِ وأمَّا إذَا ماابْتَلاه فَقَدَر عليه رِزْقَه فَيَقُولُ رَبِّي أهَانَنِ كَلاَّ**.....﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته، يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته، يكون ذلك إهانة له مني.

(١).. **إذا** أعطاك(٢) ماأعطاك بلاسؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولامبعدًا عن مرضاته. ولاتظن أن عطاءه كلَّ ماأعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل مايمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده. قال الله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الإِنْسَانُ إذا مَاابْتَلاه رَبُّه فَأكْرَمَه ونَعَّمَه فيَقُولُ رَبِّي أكْرَمَن وأمَّا إذا مَاابْتَلاه فَقدر عليه رِزْقَه فيقولُ رَبِّي أهانَنِ * كَلاَّ**﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وماذاك لكرامته عليّ. ولكنه ابتلاء مني: وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخَوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقَدَر لايفضل عنه، فذلك من هوانه

---

(١) ٨٠ مدارج جـ١.

(٢) الضمير يعود إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ والبحث تجده في تفسير سورة الفاتحة بكامله وكذلك يوجد في سورة المائدة بحث نفيس حول هذا (ج).

عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف مافاته من سَعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

**فرد** الله ـ سبحـانه ـ على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ، فأخبر أن الإكرام والإهانة لايدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه ـ سبحانه ـ يوسع على الكافر لالكرامته، ويُقتِّر على المؤمن لالإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهـو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

[1]**قوله:** ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ونظائره.

**قيل:** هو من مجاز الحذف، تقديره: وجاء أمر ربك. وهذا باطل من وجوه.

**أحدها:** إنه إضمار ما لا يدل اللفظ عليه بمطابقة ولا تضمن ولا لزوم. وادعاء جذف ما لا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب، ويطرق كل مبطل على ادعاء إضمار مايصحح باطله.

**الثاني:** أن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف، بل الكلام مستقيم تام قائم المعنى بدون إضمار فإضماره مجرد خلاف الأصل، فلا يجوز.

**الثالث:** إنه إذا لم يكن في اللفظ دليل على تعيين المحذوف كان تعيينه قولاً على المتكلم بلا علم وإخباراً عنه بإرادة مالم يقم به دليل على إرادته وذلك كذب عليه.

**الرابع:** أن في السياق ما يبطل هذا التقدير وهو قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ﴾ فعطف مجيء الملك على مجيئه ـ سبحانه ـ يدل على تغاير المجيئين، وأن مجيئه ـ سبحانه ـ حقيقة. كما أن مجيء الملك حقيقة بل مجيء الرب ـ سبحانه ـ أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك.

**الرابع:** أن في السياق ما يبطل هذا التقدير وهو قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ﴾

(١) ١٠٦ مختصر الصواعق جـ٢.

فعطف مجيء الملك على مجيئه ـ سبحانه ـ يدل على تغاير المجيئين، وأن مجيئه ـ سبحانه ـ حقيقة. كما أن مجيء الملك حقيقة بل مجيء الرب ـ سبحانه ـ أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك. وكذلك قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُوْنَ إلَّا أنْ تَأْتِيهُمُ الملائِكَةُ أوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ففرق بين إتيان الملائكة وإتيانَ الرب وإتيان بعض آيات ربك، فقسّم ونوّع، ومع هذا التقسم يمتنع أن يكون القسمان واحدًا فتأمله. ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل هذا اللفظ على مجازه وقالوا: هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد.

**الخامس:** أنه لو صرح بهذا المحذوف المقدر لم يحسن، وكان كلامًا ريكيكًا، فادعى صدق مايكون النطق به مشتركًا باطلاً، فإنه لو قال: هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكةُ أو يأتي ملك ربك أو أمر ربك أو يأتي بعض آيات ربك كان مستهجنًا.

**السادس:** إن اطراد نسبة المجيء والإتيان إليه ـ سبحانه ـ دليل الحقيقة، وقد صرحتم بأن من علامات الحقيقة الاطراد فكيف كان هذا المطرد مجازاً.

**السابع:** أنه لو كان المجيء والإتيان مستحيلاً عليه، لكان كالأكل والشرب والنوم والغفلة وهكذا هو عندكم سواء، فمتى عهدتم إطلاق الأكل والشرب والنوم والغفلة عليه ونسبتها إليه نسبة مجازية وهي متعلقة بغيره، وهل في ذلك شيء من الكمال البتة. فإن قوله: ﴿وجاء ربك﴾ و﴿أتى﴾ و﴿يأتي﴾ عندكم في الاستحالة مثل نام وأكل وشرب، والله ـ سبحانه ـ لا يطلق على نفسه هذه الأفعال ولا رسوله ﷺ لا بقرينة ولامطلقة فضلاً عن تطرد نسبتها إليه، وقد اطرد نسبه المجيء والإتيان والنزول والاستواء إليه مطلقاً من غير قرينة تدل على أن الذي نسب إليه ذلك غيره من مخلوقاته، فكيف تسوغ دعوى المجاز فيه.

**الثامن:** أن المجاز لو كان ثابتًا فإنما يصار إليه عند تعذر الحمل على الحقيقة إذ هي الأصل، فما الذي أحال حمل ذلك على حقيقته من عقل أو نقل أو اتفاق من اتفاقهم حجة. فأما النقل والاتفاق: فهو من جانب الحقيقة فلا ريب. وأما العقل: فإنكم تزعمون أنكم أولى به منهم، وهم قد أبطلوا جميع عقلياتكم التي

لأجلها ادعيتم أن نسبة المجيء والإتيان والنزول والاستواء إلى الله مجاز من أكثر من ثلاثمائة وجه.

**وقد** ذكرناها فيما تقدم فسلم لهم النقل، واتفق السلف، فكيف والعقل الصريح من جانبهم كما تقدم تقريره، فإن من لا يفعل شيئًا ولا يتمكن من فعل يقوم به بمنزلة الجماد.

**التاسع**: أن هذا الذي ادعوا حذفه وإضماره يلزمهم فيه كما لزمهم فيما أنكروه، فإنهم إذ قدروا «**وجاء أمر ربك**»«**ويأتي أمره**» «**ويجيء أمره**» «**وينزل أمره**» فأمره هو كلامه، وهو حقيقة، فكيف تجيء الصفة، وتأتي، وتنزل دون موصوفها، وكيف ينزل الأمر ممن ليس هو فوق سمواته على عرشه.

**ولما** تفطن بعضهم لذلك قال أمره بمعنى مأموره، فالخلق والرزق بمعنى المرزوق فركب مجازًا على مجاز بزعمه ولم يصنع شيئًا، فإن مأموره هو الذي يكون ويخلق بأمره وليس له عندهم أمر يقوم به فلا كلام يقوم به، وإنما ذلك مجاز من مجاز الكناية عن سرعة الانفعال بمشيئته تشبيهًا بمن يقول: كن فيكون الشيء عقيب تكوينه، فركبوا مجازًا، على مجاز ولم يصنعوا شيئًا، فإن هذا المأمور الذي يأتي إن كان ملكًا فهو داخل في قوله: ﴿**أَوْ تَأْتِيهُمُ الْمَلَائِكَةُ**﴾ وإن كان شيئًا غير الملك فهو آية من آياته فيكون داخلًا في قوله: ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾.

**العاشر**: أن ما ادعوه من الحذف والإضمار: إما أن يكون في اللفظ مايقتضيه ويدل عليه أو لا، فإن كان الثاني لم يجز ادعاؤه وإن كان الأول كان كالملفوظ به وعلى التقديرين فلا يكون مجازًا، فإن المدلول عليه يمتنع تقديره.

(1)**وأما** المسألة العشرون: وهي هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟ فاختلف الناس في ذلك (فمن قائل): إن مسماهما واحد، وهم الجمهور ومن قائل: إنهما متغايران.

**ونحن** نكشف سر المسألة بحول الله وقوته فنقول: النفس تطلق على أمور:

---

(١) ٢٦٤ الروح.

أحدها: الروح). قال الجوهري: النفس: الروح. يقال: خرجت نفسه، **قال** أبو خراش:

نجا سالمًا والنفس منه بشدقه		ولم ينج إلا جفن سيف ومئزر

**أي** بجفن سيف ومئزر.

**والنفس:** الدم يقال: سالت نفسه، وفي الحديث: «**مالا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه**».

**والنفس:** الجسد قال الشاعر:

نبئت أن بني تميم ادخلوا		أبناءهم تامور نفس المنذر

**والتامور:** الدم. والنفس: العين يقال: أصابت فلانًا نفس أي عين.

**قلت:** ليس كما قال، بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإضافة إلى العين توسع، لأنها تكون بواسطة النظر المصيب، والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم.

**قلت:** والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها، كقوله ـ تعالى ـ: **﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾** [النور: ٦١] وقوله ـ تعالى ـ: **﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾** [النساء: ٢٩] وقوله ـ تعالى ـ: **﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾** [النحل: ١١١] وقوله ـ تعالى ـ: **﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾** [المدثر: ٣٨].

**وتطلق** على الروح وحدها كقوله ـ تعالى ـ: **﴿يَاۤأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾** [الفجر: ٢٧] وقوله تعالى: **﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾** [الأنعام: ٩٣] وقوله ـ تعالى ـ: **﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾** [النازعات: ٤٠] وقوله ـ تعالى ـ: **﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾** [يوسف: ٥٣].

**وأما** الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وتطلق الروح على القرآن الذي أوحاه الله ـ تعالى ـ إلى رسوله، قال تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَوُحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾** [الشورى: ٥٢].

**وعلى** الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله، قال ـ تعالى ـ: **﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾** [غافر: ١٥] وقال ـ تعالى ـ: **﴿يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾** [النحل: ٢].

**وسمى** ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة بدونه لاتنفع صاحبها البتة، بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة.

**وسميت** الروح روحًا لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو، ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم		وجدت لمسراها على كبدي بردًا

**ومنها** الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها وسميت نفسًا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تفنس الشيء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسًا، ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجًا كليًّا، فإذا دفن عادت إليه فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

**فالفرق** بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفسًا لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وأن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس، فلهذا قال:

تسيل على حد الظباة نفوسنا		وليست على غير الظباة تسيل

**ويقال:** فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه: كما يقال: خرجت روحه، وفارقت، ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة وهي الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض إذا اندفع قسرًا أو قهرًا، فالله ـ سبحانه ـ هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي.

**ثم** ختم السورة بمدح النفس المطمئنة، وهي الخاشعة المتواضعة لربها، وما تؤول إليه من كرامته ورحمته. كما ذكر قبلها حال النفس الأمارة، وما تؤول إليه من شدة عذابه ووثاقه.

(١)... **جعل** الله ـ سبحانه ـ الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب.

**وفي** قوله تعالى: ﴿**يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ**﴾ دليل على أنها

---

(١) ٥١٣ مدارج جـ٢.

لاترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة، فهناك ترجع إليه، وتدخل في عباده، وتدخل جنته، وكان من دعاء بعض السلف: «اللهم هَبْ لي نفسًا مطمئنة إليك».

(١)**فالنفس** إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة، وهي التي يقال لها عند الوفاة ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى ربك رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: ٢٧].

**قال** ابن عباس: ﴿**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾ [الفجر: ٢٧] يقول: المصدقة. وقال قتادة: «هو المؤمن، اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله». وقال الحسن: «المطمئنة بما قال الله. والمصدقة بما قال». وقال مجاهد: «هي المنيبة المخبتة التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جَأْشِا لأمره وطاعته، وأيقنت بلقائه».

**وحقيقة** الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه. فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره. واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته. واطمأنت إلى الرضى به ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا. واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحَسْبِهِ وضمانه. فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلٰهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين.

**وإذا** كانت بضد ذلك فهي أمارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه: من شهوات الغيّ، واتباع الباطل، فهي مأوى كل سوء، وإن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه. وقد أخبر ـ سبحانه ـ أنها أمارة بالسوء، ولم يقل «آمرة» لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله، لا منها. فإنها بذاتها أمارة بالسوء؛ لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة، إلا من رحمه الله، والعدل والعلم طاريء عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها. فلم تكن أمارة لا بموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين مازكت منهم نفس واحدة.

---

(١) ٧٦ إغاثة جـ١.

**فإذا** أراد الله ـ سبحانه ـ بها خيرًا جعل فيها ماتزكو به وتصلح : من الإرادات والتصورات وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل والظلم . وسبب الظلم : إما جهل ، وإما حاجة . وهي في الأصل جاهلة . والحاجة لازمة لها ، فلذلك كان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله .

**وبهذا** يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة ، ولاتشبهها ضرورة تقاس بها ، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك . . .

(1)**قال** عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ : «إذا توفى العبد المؤمن أرسل الله إليه ملكين . وأرسل إليه بتحفة من الجنة . فيقال : أخرجي أيتها النفس المطمئنة ، أخرجي إلى روح وريحان . ورب عنك راض» .

**وفي** وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف .

**أحدها:** أنه عند الموت . وهو الأشهر . قال الحسن : إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها . ورضيت عن الله ، فيرضى الله عنها .

**وقال** آخرون : إنما يقال لها ذلك عند البعث . هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة .

**وقال** آخرون : الكلمة الأولى – وهي : ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧] – تقال لها عند الموت . والكلمة الثانية – وهي : «فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» – تقال لها يوم القيامة .

**قال** أبو صالح : «ارجعي إلى ربك راضية مرضية» هذا عند خروجها من الدنيا . فإذا كان يوم القيامة قيل لها : «فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي» .

**والصواب:** أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ، ويوم القيامة . فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا . وحينئذ فهي في الرفيق الأعلى ، إن كانت مطمئنة إلى الله ، وفي جنته . كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة . فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك . وحينئذ فيكون تمام الرجوع إلى الله ودخول الجنة . فأول ذلك عند الموت . وتمامه ونهايته : يوم القيامة ، فلا اختلاف في الحقيقة .

---

(١) ١٧٨ مدارج جـ٢ .

(١)... **وأما** الرضى عنه: فهو رضى العبد بما يفعله به، ويعطيه إياه. ولهذا لم يجيء إلا في الثواب والجزاء. كقوله تعالى: **﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارجِعِي إلى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾** [الفجر: ٢٧، ٢٨] فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته. كقوله تعالى: **﴿خَالِدِيْن فِيْها أَبَدًا رَضِيَ الله عَنْهُمْ ورَضُوا عنه ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه﴾**

**والرضى** به: أصل الرضى عنه، والرضى عنه: ثمرة الرضى به.

**وسر** المسألة: أن الرضى به متعلق بأسمائه وصفاته. والرضى عنه: متعلق بثوابه وجزائه. وأيضا: فإن النبي ﷺ علق ذوق طعم الإيمان بمن رضي بالله ربًا. ولم يعلقه بمن رضي عنه، كما قال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً**» فجعل الرضى به قرين الرضى بدينه ونبيه. وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التي لا يقوم إلا بها وعليها.

**وأيضا:** فالرضى به ربًا يتضمن توحيده وعبادته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجاءه ومحبته، والصبر له وبه. والشكر على نعمه: يتضمن رؤية كل مامِنْهُ نعمةً وإحسانًا، وإن ساء عبدَهُ.

**فالرضا** به يتضمن «شهادة أن لا إله إلا الله». والرضى بمحمد رسولاً. يتضمن «شهادة أن محمدًا رسول الله». والرضى بالإسلام دينًا: يتضمن التزام عبوديته، وطاعته وطاعة رسوله. فجمعت هذه الثلاثة الدين كله.

**وأيضا:** فالرضى به ربًا يتضمن اتخاذه معبودًا دون ماسواه. واتخاذه وليًا ومعبودًا، وإبطال عبادة كل ماسواه.

**وقد** قال تعالى لرسوله: **﴿أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَمًا﴾** [الأنعام: ١١٤] وقال: **﴿أغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾** [الأنعام: ١٣] وقال: **﴿قُلْ أغيرَ الله أبْغِي رَبًّا وهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾** [الأنعام: ١٦٤] فهذا هو عين الرضى به ربًا.

**وأيضا:** فإنه جعل حقيقة الرضى به رَبًّا: أن يسخط عبادة مادونه. فمتى سخط العبد عباده ماسوى الله من الآلهة الباطلة، حبًا وخوفًا، ورجاء وتعظيمًا، وإجلالاً - فقد تحقق بالرضى به ربًا، الذي هو قطب رحى الإسلام.

---

(١) ١٨٤ مدارج جـ٢.

**وإنما** كان قطب رحى الدين: لأن جميع العقائد والأعمال، والأحوال: إنما تبنى على توحيد الله ـ عز وجل ـ في العبادة، وسخط عبادة ماسواه. فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رحى تدور عليه. . .

(١)**الناس** في هذه الدار على جناح سفر كلهم، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده، ونازل على من يسر بالنزول عليه. وطالب الله والدار الآخرة، إنما هو ظاعن إلى الله في حال سفره، ونازل عليه عند القدوم عليه، فهذه همته في سفره وفي انقضائه: ﴿**يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، وقالت امرأة فرعون: ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**﴾، فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة، فإن الجار قبل الدار.

(٢)**والمقصود** التنبيه على بعض أحوال النفس المطمئنة واللوامة والأمارة، وماتشترك فيه النفوس الثلاثة، ومايتميز به بعضها من بعض، وأفعال كل واحدة منها واختلافها ومقاصدها ونياتها، وفي ذلك تنبيه على ماوراءه، وهي نفس واحدة تكون أمارة تارة ولوامة أخرى ومطمئنة أخرى، وأكثر الناس الغالب عليهم الأمارة، وأما المطمئنة فهي أقل النفوس البشرية عددًا وأعظمها عند الله قدرًا، وهي التي يقال لها: ﴿**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾.

**والله** ـ سبحانه ـ وتعالى المسئول المرجو الإجابة أن يجعل نفوسنا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها علية، راهبة منه، راغبة فيما لديه، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن لايجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطًا ولا يجعلنا من ﴿**الأَخْسَرِيْنَ أَعْمَالاً الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفجر

والحمد لله رب العالمين

---

(١) (٢) ٣٢٦ الروح.




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**وأما** سورة ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١] فذكر فيها جواب القسم. وهو قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] وفسر الكبد بالاستواء وانتصاب القامة. قال ابن عباس، في رواية مقسم: منتصبًا على قدميه. وهذا قول أبي صالح، والضحاك، وإبراهيم، وعكرمة، وعبد الله بن شداد.

**قال** المنذر: سمعت أبا طالب يقول: الكبد الاستواء والاستقامة. وفسر بالنصب. هذا قول مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ورواية عن علي، وعن ابن عباس. قال الحسن: لم يخلق الله خلقًا يكابد مايكابد ابن آدم. وقال سعيد بن أبي الحسن(٢): يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وقال قتادة: يكابد أمر الدنيا والآخرة، فلا تلقاه إلا في مشقة.

**وروى** ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: يعني حمله وولادته، ورضاعه، وفصاله، ونبت أسنانه وحياته، ومعاشه، ومماته. كل ذلك شدة. قال مجاهد: حملته أمه كرها، ووضعته كرهًا، معيشته في شدة. فهو يكابد ذلك.

**وعلى** هذا فالكبد من مكابدة الأمر، وهي معاناة شدته ومشقته، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته. والكبد شدة الأمر.

**ومنه** تكبد اللبن، إذا غلظ واشتد. ومنه الكبد لأنها دم يغلظ ويشتد. وانتصاب القامة والاستواء من ذلك، لأنه إنما يكون عن قوة وشدة، فإن الإنسان مخلوق في شدة. بكونه في الرحم، ثم في القماط والرباط، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف، ومكابدة المعيشة، والأمر والنهي، ثم مكابدة الموت

---

(١) ٢٢ التبيان.

(٢) كذا في الأصل. وفي تفسير ابن كثير: وروى من طريق أبي مودود، سمعت الحسن قرأ هذه الآية فقال: يكابد أمرًا من أمر الدنيا وأمرًا من أمر الآخرة.

ومابعده في البرزخ، وموقف القيامة، ثم مكابدة العذاب في النار ولا راحة له إلا في الجنة.

**وفسر** الكبد بشدة الخلق وإحكامه وقوته، ومنه قول لبيد:

ياعين هلا بكيت أربد، إذ		قمنا وقام الخصوم في كبد؟[1]

**أي** في شدة وعناء. وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ**﴾.

**قال** ابن عباس: أي خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر شدة الخلق يقال: فرس شديد الأسر. قال وكل شيء شددته: من قتب أو غيره، فهو مأسور. وقال المبرد: الأسر القوى كلها. وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال. وشد الله أسر فلان، أي قوى خلقه. وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر. وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض، بالعروق والعصب. وقال مجاهد: هو الشرج، يعني موضع البول والغائط. إذا خرج الأذى تقبضاً.

**والمقصود** أنه ـ سبحانه ـ أقسم في سورة البلد على حال الإنسان وأقسم ـ سبحانه ـ بالبلد الأمين وهو مكة أم القرى.

**ثم** أقسم بالوالد وماولد. وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين. وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان، وأصل السكان. فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم. وقوله: ﴿**وأنْتَ حِلٌّ بِهَذا الْبَلَدِ**﴾ [البلد: ٢] فيه قولان:

**أحدهما:** أنه من الإحلال، وهو ضد الإحرام.

**والثاني:** أنه من الحلول وهو ضد الظعن. فإن أريد به المعنى الأول فهو حلال ساكن البلد. بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر، ويرجع، ولأن أمنه إنما تظهر به النعمة عند الحل من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هو في أمان، والحرمة هناك للفعل لا للمكان. والمقصود هو ذكر حرمة المكان، وهي إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما ينقض أمنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه، فإنه إذا أقسم به، وفيه

---

(١) هو من قصيدة يرثي بها أخاه أربد. أولها.

ما إن تعدى المنون من أحد		لا والد مشفق، ولا ولد

الحلال، فإذا كان فيه الحرام، فهو أولى بالتعظيم والأمن.

**وكذلك** إذا أريد المعنى الثاني وهو الحلول، فهو متضمن لهذا التعظيم، مع تضمنه أمرًا آخر. وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع، وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدى للناس، ونبيه إمامًا وهاديًا لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه. كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية.

**وفي** الآية قول ثالث، وهو أن المعنى: وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين، الذي يأمن فيه الطير والوحش والجاني. وقد استحل قومك فيه حرمتك، وهم لا يعضدون به شجرة، ولا ينفرون به صيدًا. وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد. وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه. فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله.

**ثم** أنكر ـ سبحانه ـ على الإنسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور. فإن الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادرًا في نفسه، فهذا برهان مستقل بنفسه، مع أنه متضمن للجزاء الذي مناطه القدرة والعلم، فنبه على ذلك بقوله: ﴿**أَيَحْسَبُ أن لَّنْ يَقْدِرَ عليه أحَدٌ**﴾ [البلد: ٥] وبقوله: ﴿**أَيَحْسَبُ أن لَّمْ يرهُ أحَدٌ**﴾ [البلد: ٧] فيحصى عليه ما عمل من خير وشر، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه.

**ثم** أنكر ـ سبحانه ـ على الإنسان قوله: ﴿**أَهْلَكْت مالاً لُّبَدًا**﴾ [البلد: ٦] وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض، فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه. إذ لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها، ووضعه مواضعه، لم يكن ذلك إهلاكًا له، بل تقربًا به إلى الله، وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه. وذلك ليس بإهلاك له. فأنكر سبحانه افتخاره، وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له.

**ثم** وبخه بقوله: ﴿**أيحسب أن لَّمْ يَرَه أحَدٌ**﴾ [البلد: ٧] وأتى ههنا بلم، الدالة على

المضي، في مقابلة قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا﴾ فإن ذلك في الماضي. أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه؟

(١)**وقال** - تعالى -: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠] فذكر هنا العينين التي يبصر بهما فيعلم المشاهدات. وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر، وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل، وهو قول أكثر المفسرين.

**وتدل** عليه الآية الأخرى ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الأنبياء: ٣] والهداية تكون بالقلب والسمع فقد دخل السمع في ذلك لزومًا، وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم، فذكر آلات العلم والتعليم، وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه التي تعرف بها إلى عباده.

**ولما** كانت هذه الأعضاء الثلاثة التي هي أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها، خصها - سبحانه وتعالى - بالذكر في السؤال عنها. فقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

**فسعادة** الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها.

**قال** ابن عباس: يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد، والله - تعالى - أعطى العبد السمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده، والقلب ليعقلها ويفقهها، والبصر ليرى آياته، فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته، فالمقصود بإعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه.

(٢)**ثم** ذكر برهانًا مقدرًا أنه - سبحانه - أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما. فكيف يعطيه البصر من لم يره؟ وكيف يعطيه آلة البيان، من الشفتين واللسان، فينطق، ويبين عما في نفسه، ويأمر وينهي من لا يتكلم ولا يكلم، ولا يخاطب، ولا يأمر، ولا ينهى؟ وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه؟ ومن جعل غيره عالمًا بنجدي الخير والشر - وهما طريقاهما - أليس هو أولى وأحق بالعلم منه. ومن هداه إلى هذين الطريقين، كيف يليق به أن يتركه سدى،

(١) ١٠٧ مفتاح جـ١.	(٢) ٢٥ التبيان.

لايعرفه مايضره وماينفعه في معاشه ومعاده؟ وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين؟ فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله، وصدق رسله، ووعده.

**وهذه** أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها، فتكفي الإنسان فكرته في نفسه وخلقه. والرسل بعثوا مذكرين بما في الفطر والعقول، مكملين له، لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته. ومع هذا فقامت عليه حجته ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه، التي لايصل إليها حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق، ليخلصه الله من رق نفسه ورق عدوه. وإطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة، وبالاخلاص له - سبحانه - بالايمان الذي هو خالص حقه عليه. وهو تصديق خبره وطاعة أمره، وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها، فيكون صابرًا رحيمًا في نفسه، معينًا لغيره على الصبر والرحمة. فمن لم يقتحم هذه العقبة، وهلك دونها هلك منقطعًا عن ربه، غير واصل إليه، بل محجوبًا عنه.

**والناس** قسمان: ناج، وهو من قطع العقبة، وصار وراءها. وهالك وهو من دون العقبة، وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المضمرون، فإنها عقبة كؤود شاقة، لايقطعها إلا خفيف الظهر. وهم أصحاب الميمنة. والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر. فهم: (أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة). قد أطبقت عليهم؛ فلا يستطيعون الخروج منها؛ كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة، المنافية لما أخبرت به رسله، فلم تخرج قلوبهم منها. كذلك أطبقت عليهم هذه النار، فلم تستطع أجسامهم الخروج منها.

**فتأمل** هذه السورة على اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان. وبالله التوفيق.

**وأيضا** فإن طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة، تهديدًا وتخويفًا لترتب الجزاء عليهما، كما قال - تعالى -: **﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ على أن يَبْعَثَ عَليكم عذابًا من فوَقْكم﴾** [الأنعام: ٦٥]. وقوله تعالى: **﴿أرأيتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إذا صَلَّى * أرأَيْتَ**

إنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أو أمَرَ بالتَّقْوى * أرأيْتَ إن كَذَّبَ وتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بأنَّ الله يَرَى﴾ [العلق: ٩-١٤]. وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]. وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُون أنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهم وَنَجواهم بَلى وَرُسُلُنا لديهم يَكْتُبُون﴾ [الزخرف: ٨٠] وهذا كثير جدًّا في القرآن.

**وليس** المراد به مجرد الإخبار بالقدرة والعلم، لكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليها من الجزاء بالعدل، فإنه إذا كان قادرًا أمكن مجازاته، وإذا كان عالمًا أمكن ذلك بالقسط والعدل، ومن لم يكن قادرًا لم يمكن مجازاته. وإذا كان قادرًا لكنه غير عالم بتفاصيل الأعمال ومقادير جزائها لم يجاز بالعدل؛ والرب ـ تعالى ـ موصوف بكمال القدرة، وكمال العلم، فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته وإرادته فحينئذ يجب على العاقل أن يطلب النجاة منه بالإخلاص والإحسان، فهو اقتحام العقبة المتضمن للتوبة إلى الله ـ تعالى ـ والإحسان إلى خلقه.

**وقال:** ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] وهو فعل ماض، ولم يكرر معه «لا» إما استعمالاً لأداة «لا» كاستعمال «ما». وإما إجراء لهذا الفعل مجرى الدعاء. نحو فلا سلم ولا عاش. ونحو ذلك. وإما لأن العقبة قد فسرت بمجموع أمور: فاقتحامها فعل كل واحد منها. فأغنى ذلك عن تكريرها. فكأنه قال: فلا فك رقبة، ولا أطعم، ولا كان من الذين آمنوا.

**وقراءة** من قرأ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣] فالفعل، كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر. لأن قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢] على حد قوله: ﴿وما أَدْرَاكَ ما الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣] ﴿وما أَدْرَاك مايومُ الدِّين﴾ [الانفطار: ١٧] ﴿وما أَدْرَاك مَاهِيَه * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١٠، ١١] ونظائره، تعظيمًا لشأن العقبة وتفخيمًا لأمرها. وهي جملة اعتراض بين المفسِّر والمفسَّر. فإن قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يوم ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذا مَقْرَبَةٍ * أو مسكينًا ذا مَتْرَبَةٍ * ثم كَانَ مِنَ الَّذِين آمَنُوا﴾ [البلد: ١٣-١٧] تفسير لاقتحام العقبة مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا إلى الجنة واقتحامه بفعل هذه الأمور. فمن فعلها فقد اقتحم العقبة. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧] وهذا عطف على

قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولاً. وأيضًا فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلا بد له من تقدير، وهو: ماأدراك مااقتحام العقبة؟ واقتحامها فك رقبة. وأيضًا فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسر ومافسره.

**ومن** قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسر وبعض مافسره، فإن التفسير إن كان لقوله: ﴿**اقتحم**﴾ طابقه بقوله: ﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِيْنَ آمَنُوا**﴾ ومابعده دون ﴿**فَكُّ رَقَبَةٍ**﴾ ومايليه، وإن كان لقوله: ﴿**العقبة**﴾ طابقه ﴿**فَكُّ رَقَبَةٍ أو إِطْعَامٌ**﴾ دون قوله: ﴿**ثم كَانَ مِنَ الَّذين آمَنُوا**﴾ وما بعده، وإن كانت المطابقة حاصلة معنى، فحصولها لفظاً ومعنى أتم وأحسن.

**واختلف** في هذه العقبـة، هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ فقالت طائفة: العقبـة هھنـا مثل ضربه الله ـ تعالى ـ لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر. وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل. قال الحسن: عقبة والله شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان.

**وقـال** مقـاتـل: هذا مثـل ضربه الله، يريد أن المعتق رقبة، والمطعم اليتيم والمسكين، يقاحم نفسه وشيطانه، مثل أن يتكلف صعود العقبة، فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة، وهذا قول أبي عبيدة.

**وقـالت** طائفـة: بل هي عقبة حقيقة، يصعدها الناس. قال عطاء: هي عقبة جهنم. وقال الكلبي: هي عقبة بين الجنة والنار. وهذا قول مقاتل: إنها عقبة جهنم.

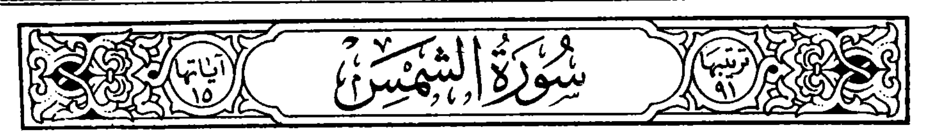
**وقال** مجاهد والضحاك: هي الصراط، يضرب على جهنم. وهذا لعله قول الكلبي. وقـول هؤلاء أصـح نظرًا وأثـرًا ولغة. قال قتادة: فإنها عقبة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله.

**وفي** أثر معروف «إن بين أيديكم عقبة كؤودًا لا يقتحمها إلا المخفون» أو نحو هذا. وأن الله سمى الإيمان به، وفعل ماأمر، وترك مانهى: عقبة. فكثيراً مايقع في كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام العقبة.

**وقال** بعض الصحابة، وقد حضره الموت، فجعل يبكي، ويقول: **مالي لا أبكي** وبين يدي عقبة كؤود، أهبط منها إما إلى جنة، وإما إلى نار. **فهذا القول** أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله **(وما أدراك)** في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البلد

**والحمد لله رب العالمين**



بسم الله الرحمن الرحيم

## فصل(1)

**ومن** ذلك قوله تعالى: ﴿والشَّمْسِ وَضُحَاها * والقَمَرِ إذا تَلَاها * والنَّهار إذا جَلَّاها * واللَّيْلِ إذا يَغْشَاهَا * والسماءِ ومابَنَاها * والأرْضِ وماطَحَاهَا * وَنفْسٍ وَمَاسَوَّاها * فَألْهَمَها فُجورَها وتَقْوَاها﴾ [الشمس: ١-٨] قال الزجاج وغيره: جواب القسم ﴿قد أفْلَحَ من زَكَّاها﴾ [الشمس: ٩] ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب.

**وقد** تضمن هذا القسم الإقسامَ بالخالق، والمخلوق، فأقسم بالسماء وبانيها، والأرض وطاحيها، والنفس ومسويها.

**وقد** قيل: إن: مصدرية، فيكون الإقسام بنفس فعله ـ تعالى ـ فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه، وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده.

**ولما** كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنهار أمرًا يشهد الناس حدوثه شيئًا فشيئًا، ويعلمون أن الحادث لابد له من محدِث، وكان العلم بذلك منزَّلًا منزلة ذكر المحدِث له لفظًا، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة.

**ولهذا** سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع، وهو استدلال صحيح، قد نبه عليه القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّموات والأرْضِ لآيَاتٍ لأُولي الألْبَاب﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان ذكر مع الإقسام بهما بانيهما ومبدعهما.

**وكذلك** النفس، فإن حدوثها غير مشهود، حتى ظن بعضهم قدمها، فذكر مع

(1) ١٣ التبيان.

الإقسام بها مسويها وفاطرها، مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض، وجعلها سقفًا لهذا العالم، والطحو هو مد الأرض وبسطها، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع، وهو متضمن لنضوب الماء عنها، وهو مما حير عقول الطبائعيين، حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونه هذا الجانب المعين دون غيره، مع استواء الجوانب في الشكل الكرى، يقتضي تخصيصًا. فلم يجدوا بُدًّا أن يقولوا: عناية الصانع اقتضت ذلك.

**قلنا:** فنعم إذًا، ولكن عناية من لا مشيئة له، ولا إرادة ولا اختيار، ولا علم بمعين أصلاً، كما تقولونه فيه محال، فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله، وأنه الفاعل يفعل باختياره مايريد.

**وكذلك** النفس أقسم بها وبمن سواها وألهمها فجورها وتقواها. فإن من الناس من يقول: قديمة لا مبدع لها. ومنهم من يقول: بل هي التي تبدع فجورها وتقواها، فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبدعها، وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى. فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها.

**وذكر** لفظ التسوية، كما ذكره في قوله: ﴿**مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**﴾ [الانفطار: ٦، ٧] وفي قوله: ﴿**فَإذا سَوَّيْتُه ونَفَخْتُ فِيْهِ مِن رُّوْحَي**﴾ [صٓ: ٧٢] إيذانًا بدخول البدن في لفظ النفس. ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقوله: ﴿**فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُم**﴾ [النور: ٦١] ﴿**ولا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم**﴾ [النساء: ٢٩] ﴿**لولا إذْ سَمِعْتُمُوه ظَنَّ الْمُؤْمِنُون والمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا**﴾ [النور: ١٢] ونظائره. وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية. وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها.

[1]**قوله:** ﴿**هَلْ لَّكَ إلى أَنْ تزكَّى**﴾ [النازعات: ١٨] أي تعمل بطاعة الله تعالى،

---

(١) ٥٠ إغاثة جـ١.

فتصير زاكيًا، ومثله قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

**وقد** اختلف في الضمير المرفوع في قوله: (زكاها). فقيل: هو لله. أي أفلحت نفس زكاها الله عز وجل، وخابت نفس دسَّاها. وقيل: إن الضمير يعود على فاعل (أفلح)، وهو «مَن» سواء كانت موصولة أو موصوفة، فإن الضمير لو عاد على الله - سبحانه - لقال: قد أفلح من زكاه، وقد خاب من دسّاه.

**والأولون** يقولون: «من» وإن كان لفظها مذكرًا فإذا وقعت على مؤنث جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث، مراعاة للمعنى، وبلفظ المذكر مراعاة للفظ، وكلاهما من الكلام الفصيح. وقد وقع في القرآن اعتبار لفظها ومعناها، فالأول كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥] فأفرد الضمير؛ والثاني كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢].

**قال** المرجحون للقول الأول: يدل على صحة قولنا: مارواه أهل السنن من حديث ابن أبي مُليكة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: أتيت ليلة، فوجدت رسول الله ﷺ يقول: «**ربِّ أعطِ نفسي تقواها، وزَكِّها، أنت خير من زكَّاها، أنت وليها ومولاها**» فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية، وأن الله - تعالى - هو الذي يزكي النفوس، فتصير زاكية، فالله هو المزكِّي، والعبد هو المزكَّىٰ.

**والفرق** بينهما فرق مابين الفاعل والمطاوع. قالوا: والذي جاء في القرآن من إضافة الزكاة إلى العبد إنما هو بالمعنى الثاني، دون الأول. كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] وقوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى؟﴾ [النازعات: ١٨] أي تقبل تزكية الله تعالى لك، فتزكَّى.

**قالوا:** وهـذا هو الحق فإنه لا يفلح **إلا من زكّاه الله** - تعالى - وقالوا: وهذا اختيار ترجمـان القـرآن ابن عباس، فإنه قال في رواية علي بن أبي طلحة وعطاء والكلبي: «قد أفلح من زكّى الله - تعالى - نفسه» وقال ابن زيد: «قد أفلح من زكى الله نفسه» واختاره ابن جرير.

**قالوا:** ويشهـد لهذا القـول أيضًـا قوله في أول السورة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨].

**قالوا**: وأيضًا فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ أخبر أنه خالق النفس وصفاتها، وذلك هو معنى التسوية.

**قال** أصحاب القول الآخر: ظاهر الكلام ونظمه الصحيح: يقتضي أن يعود الضمير على «من» أي: أفلح من زكى نفسه. هذا هو المفهوم المتبادر إلى الفهم، بل لا يكاد يفهم غيره، كما إذا قلت: هذه جارية قد ربح من اشتراها. وصلاة قد سعد من صلاها، وضالَّة قد خاب من آواها. ونظائر ذلك.

**قالوا:** والنفس مؤنثة، فلو عاد الضمير على الله ـ سبحانه ـ لكان وجه الكلام: قد أفلحت نفس زكاها، أو أفلحت من زكاها، لوقوع «مَن» على النفس.

**قالوا:** وإن جاز تفريغ الفعل من التاء لأجل لفظ «مَن» كما تقول: قد أفلح من قامت منكن، فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس. فإذا وقع الاشتباه لم يكن بدٌّ من ذكر ما يزيله.

**قالوا:** و «مَن» موصلة بمعنى الذي. ولو قيل: قد أفلح الذي زكاها الله لم يكن جائزًا، لعود الضمير المؤنت على الذي. وهو مذكر.

**قالوا:** وهو ـ سبحانه ـ قصد نسبة الفلاح إلى صاحب النفس إذا زكى نفسه. ولهذا فرغ الفعل من التاء، وأتى: بـ «مَن» التي هي بمعنى الذي. وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، حتى أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما.

(1)**وقوله:** ﴿**قَدْ أَفْلَحَ من زَكَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩] الضمير مرفوع في ﴿**زكاها**﴾ عائد على ﴿**من**﴾ وكذلك هو في ﴿**دَسَّاها**﴾ المعنى قد أفلح من زكى نفسه. وقد خاب من دساها؛ هذا القول هو الصحيح. وهو نظير قوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنَ تَزكى**﴾ [الأعلى: ١٤] وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح كقوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون الَّذِيْنَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١-٢] إلى آخر الآيات.

**وقوله:** ﴿**الَّذين يُؤْمِنُون بالغَيْب ويُقِيْمُونَ الصَّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون * والَّذِين يُؤْمِنُون بِمَا أُنْزِلَ إِلَيكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبالآخرة هم يُوقِنُون * أولئك**

(١) ١٤ التبيان.

على هُدًى من رَبِّهِمْ وَأولئك هم الْمُفْلِحُون﴾ [البقرة: ٢-٤].

**وقوله:** ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إذا دُعُوا إلى الله وَرَسُوله لِيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أن يُقولُوا سَمِعْنا وأَطَعْنا وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾ [النور: ٥١] ونظائره.

**قال** الحسن: قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله. وقاله قتادة. وقال ابن قتيبة: يريد أفلح من زكى نفسه، أي نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف. وقد خاب من دساها أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي.

**والفاجر** أبدًا خفي المكان، زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس. فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه، وقمعها. ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها.

**وكانت** أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين.

**وكانت** اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام[1] لتخفى أماكنها على الطالبين. فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها، وأنشد:

وبوأت بيتك في معلم		رحيب المباحات والمسرح
كفيت العفاة طلاب القرى		ونبح الكلاب لمستنبح

**وقال** أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله: ﴿وقد خَابَ من دَسَّاها﴾ [الشمس: ١٠]: فقال دسيٍّ معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، وعلى هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين، يرى الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوى عليه الصالحون.

**وقالت** طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى الله ـ سبحانه ـ قال ابن عباس في

---

(١) اليفاع المكان المرتفع. والولجة موضع أو كهف تستتر فيه المارة الجمع أولاج، والهضم ـ بكسر الضاد ـ المطمئن من الأرض.

رواية عطاء: قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها. وهذا قول مجاهد، وعكرمة، والكلبي، وسعيد بن جبير، ومقاتل.

**قالوا:** سعدت نفس، وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة، حتى عملت بها، وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها.

**قال** أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها، لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره، وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق، وقضاء متقدم.

**قالوا:** وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة. قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿**فألهمها فجورها وتقواها**﴾. قالوا: ويشهد له حديث نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة[١] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله، ﷺ، وهو يقول: «**رب أعط نفسي تقواها، وزكها، أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها**».

**قالوا:** فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر: أن النبي، ﷺ، كان إذا قرأ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩] وقف ثم قال: «**اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها**»[٢].

**قالوا:** وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له ـ سبحانه ـ فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى. وهو مزكيها ومدسيها، فليس للعبد في الأمر شيء ولا هو مالك من أمر نفسه شيئًا.

**قال** أرباب القول الأول: هذا القول، وإن كان جائزًا في العربية، حاملاً للضمير المنصوب على معنى من، وإن كان لفظها مذكرًا، كما في قوله: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إليك**﴾ [يونس: ٤٢] جمع الضمير، وإن كان لفظ من مفردًا، حملاً على نظمها. فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وههنا قد تقدم لفظ

---

(١) كذا هنا. وفي تفسير ابن كثير قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن نافع عن ابن عمر عن صالح بن سعيد عن عائشة وذكره. ثم قال ابن كثير: تفرد به.

(٢) رواه الحافظ ابن كثير في تفسيره من طريق الطبراني وابن أبي حاتم.

من، والضمير المرفوع في ﴿زكَّاها﴾ يستحقه لفظًا ومعنى. فهو أولىٰ به، **ثم يعود الضمير** المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظًا ومعنى فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه. وأما عود الضمير الذي يلي من على الموصول السابق وهو قوله: ﴿وما سَوَّاها﴾ وإخلاء جاره الملاصق له وهو (من) ثم **عود** الضمير المنصوب وهو مؤنث على من، ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة. فهذا يجوز، لو لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه، فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه ولم تدع الضرورة إليه؛ فالحمل عليه ممتنع.

**قالوا:** والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه:

**أحدها:** أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هي طريقة القرآن.

**الثاني:** أن فيه زيادة فائدة، وهي إثبات فعل العبد وكسبه، وما يثاب وما يعاقب عليه، وفي قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَها وتَقْوَاها﴾ [الشمس: ٨] إثبات القضاء والقدر السابق. فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيراً ما يقترنان في القرآن. كقوله: ﴿إنَّه تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهَ * وما يَذْكُرُونَ إلاَّ أَن يَشآءَ الله﴾ [المدثر: ٥٤-٥٦]. وقوله: ﴿لِمَن شآءَ مِنْكُمْ أن يَسْتَقِيْمَ * وما تشآءُون إلا أن يشآءَ الله رَبُّ الْعَالَمِين﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩. فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية.

**الثالث:** أن قولنا يستلزم قولكم، دون العكس. فإن العبد إذا زكَّى نفسه ودساها، فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه. بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر ألبته.

[1]**فإن** الله ـ سبحانه ـ هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد، التي جعلها فيه كامنة: كالنار في الزناد. فألهمه ومكَّنه، وعرفه وأرشده. وأرسل إليه رسله. وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهَّله بها لكماله إلى الفعل. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاها * فَأَلْهَمَها فُجُورَها

---

(١) ٣٨١ مدارج جـ٢.

وتَقْوَاها * قد أَفْلَحَ من زَكَّاها * وقد خَابَ من دسَّاها﴾ [الشمس: ٧-١٠] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام: ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى. وأن ذلك نالها منه امتحانًا واختبارًا. ثم خص بالفلاح من زكاها فنَمَّاها وعَـلَّاها. ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه. وهي التقوى. ثم حكم بالشقاء على من دساها، فأخفاها وحقرها، وصغرها وقمعها بالفجور. والله سبحانه وتعالى أعلم.

[1]**ومن** عقـوبـاتها[2] أنها تصغر النفس وتقمعها وتدسها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها قال تعالى: ﴿قَد أَفْلَحَ من زكَّـاها وقد خَابَ من دسَّاها﴾ [الشمس: ٩، ١٠] والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله.

**وأصل** التدسية الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدُسُّه في التُّرابِ﴾ [النحل: ٥٩] فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، ويتوارى من الخَلق من سوء ما يأتي به. قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق.

**فالطاعة** والبر يكبر النفس ويعزها ويعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى. وبهذا الذل حصل لها هذا العـز والشرف والنمو. فما صغّر النفس مثل معصية الله، وما كبرّها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله.

## فصـــل[3]

**ومن** ذلك إخباره سبحانه بأنه هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه. والإلهام: الإلقاء في القلب لا مجرد البيان والتعليم كما قاله طائفة من المفسرين إذ لا يقال لمن بيّن لغيره شيئًا وعلّمه إياه: إنه قد ألهمه ذلك، هذا لا يعرف في اللغة البتة، بل الصـواب ما قالـه ابن زيد وقـال: جعـل فيهـا فجـورها وتقواها وعليه حديث

(١) ١٠٣ الجواب الكافي. (٢) أي المعاصي. (٣) ٥٥ شفاء.

عمران بن حصين أن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى النبي، ﷺ، فقال: يارسول الله أريت ما يعمل الناس فيه ويكدحون، أشيء قُضِيَ عليهم ومضى عليهم من قدر سابق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: «**بل شيء قُضِيَ عليهم ومضى**»، قال: ففيم العمل؟ قال: «**من خلقه الله لاحدى المنزلتين استعمله بعمل أهلها**».

**وتصديق** ذلك في كتاب الله ﴿**وَنَفْسٍ وَمَاسَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ [الشمس: ٧، ٨] فقراءته هذه الآية عقيب إخباره بتقديم القضاء والقدر السابق يدل على أن المراد بالإلهام استعمالها فيما سبق لها لا مجرد تعريفها، فإن التعريف والبيان لا يستلزم وقوع ما سبق به القضاء والقدر، ومن فسر الآية من السلف بالتعليم والتعريف، فمراده تعريف مستلزم لحصول ذلك لا تعريف مجرد عن الحصول، فإنه لا يسمى إلهامًا، وبالله التوفيق.

[1]**وذكر** في هذه السورة ثمود، دون غيرهم من الأمم المكذبة.

**فقال** شيخنا: هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبًا وعذابًا منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد، ومدين، وقوم لوط، وغيرهم. ولهذا لما ذكرهم وعادا قال: ﴿**فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وقالوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوةً أَوَ لَمْ يروا أَنَّ الله الذي خَلَقَهُمْ هو أَشَدُّ منهم قُوْةً وكانوا بآياتنا يَجْحَدُونَ**﴾ [فصلت: ١٥] ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى**﴾ [فصلت: ١٧].

**وكذلك** إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ماذكر عن أولئك من التجبر والتكبر، والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما. فكان في قوم لوط ـ مع الشرك ـ إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها. وفي قوم عاد ـ مع الشرك ـ التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مَنَّا قُوَّةً**﴾ [فصلت: ١٥]. وفي أصحاب مدين ـ مع الشرك ـ الظلم في الأموال. وفي قوم فرعون ـ مع الشرك ـ الفساد في الأرض

---
(١) ١٧ التبيان.

والعلو. وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم.

**فعذب** قوم عاد بالريح الشديدة العاتية، التي لا يقوم لها شيء. وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم. فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم. بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم، وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال. فإذا كان عذاب هؤلاء ـ وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم ـ فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده، وسفك دماءهم، كان أشد عذابًا.

**ومن** اعتبر أحوال العالم قديمًا وحديثًا، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون.

**قلت:** وقد يظهر في تخصيص ثمود ههنا بالذكر، دون غيرهم، معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم، واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال ـ تعالى ـ في وصفهم: **﴿وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى على الهُدَى﴾** [فصلت: ١٧] وقال: **﴿وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾** [الإسراء: ٥٩] أي موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم. فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود في ذلك الهدى والبصيرة بمزيد. ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال: **﴿فأما عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا في الأَرْضِ بغَيْرِ الحَقِّ وقالوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوةً﴾** [فصلت: ١٥] ثم قال: **﴿وأما ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُم فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الْهُدَى﴾** [فصلت: ١٧] ولهذا أمكن عادًا المكابرة، وأن يقولوا لنبيهم: **﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾** [هود: ٥٣] ولم يمكن ذلك ثمود، وقد رأوا البينة عيانًا. وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى

بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه. وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشمس
والحمد لله رب العالمين




## بسم الله الرحمن الرحيم

### فصل(1)

**ومن** ذلك قسمه ـ سبحانه وتعالى ـ: **﴿والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى﴾** [الليل: ١-٣] وقد تقدم ذكر القسم عليه وأنه سعي الإنسان في الدنيا، وجزاؤه في العقبى. فهو ـ سبحانه ـ يقسم بالليل في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئًا بعد شيء.

**وأما** النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة. ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها: **﴿والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها﴾** [الشمس: ٣، ٤] وأقسم به وقت سريانه كما تقدم. وأقسم به وقت إدباره. وأقسم به إذا عسعس. فقيل معناه أدبر، فيكون مطابقًا لقوله: **﴿والليل إذ أدبر * والصبح إذا أسفر﴾** [المدثر: ٣٣، ٣٤] وقيل: معناه أقبل، فيكون كقوله: **﴿والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى﴾** [الليل: ١، ٢] فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار. وعلى الأول يكون القسم واقعًا على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبه، وكلاهما من آيات ربوبيته.

**ثم** أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه، ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى، كما قابل بين الليل والنهار. وكل ذلك من آيات ربوبيته. فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية. فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار، بواسطة الشمس فيها.

---

(١) ٣٥ التبيان.

**وأقسم** ـ سبحانه ـ بزمان السعي ، وهو الليل والنهار، وبالساعي ، وهو الذكر والأنثى ، على اختلاف السعى ، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى ، وسعيه وزمانه مختلف ، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه ، وأنه ـ سبحانه ـ لا يسوى بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى .

**ثم** أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعى المحسن وعاقبة سعى المسىء .

**فقال: ﴿فَأَمَّا من أَعْطَى وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بالحَسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وأما مَن بَخِلَ واسْتَغْنَى * وكَذَّبَ بالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى﴾** [الليل : ٥-١٠] .

**فتضمنت** الآيتان ذكر شرعه ، وذكر الأعمال وجزائها ، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى ، وهذا للعسرى ، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ، ولا يظلم ربك أحد . وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب :

**أحدها:** إعطاء العبد ، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم ، أي أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته ، وطاوعته نفسه ، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة ، والإخلاص ، والتوبة ، والشكر، وإعطاءه الإحسان ، والنفع بماله ، ولسانه وبدنه ، ونيته ، وقصده ، فتكون نفسه نفسًا مطيعة باذلة ، لا لئيمة مانعة .

**فالنفس** المطيعة هي النافعة المحسنة ، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدى ، فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها ، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها ، وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم ، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا ، فهي ميسرة لذلك ، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل . فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء .

**السبب** الثاني : التقوى ، وهي اجتناب ما نهى الله عنه ، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته ، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى .

**وأما** تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا ، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم ، ولو قدر أنها لم تتيسير له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى ،

فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات.

**وقال** تعالى: ﴿وَمن يَتَّقِ الله يَجعل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]. فأخبر أنه ييسر على المتقي مالا ييسر على غيره. وقال تعالى: ﴿ومن يتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْه مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢]. وهذا أيضًا ييسر عليه بتقواه. وقال تعالى: ﴿ومن يَتَّقِ الله يُكَفِّرْ عنه سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ له أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]. وهذا يتيسر عليه بازالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه. وقال: ﴿يَأَيُّها الَّذِين آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ويُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئَاتِكم ويَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]. وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر، والعلم، والنور، والفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير. وقال تعالى: ﴿واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾ [آل عمران: ١٣٥]. والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر. وقال تعالى: ﴿يَأَيُّها الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا الله وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤتِكُمْ كِفلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ويَجْعَل لَّكُم نُورًا تَمْشُون به ويَغْفِرْ لكم﴾ [الحديد: ٢٨] فضمن لهم ـ سبحانه ـ بالتقوى ثلاثة أمور:

**أحدها:** أعطاهم نصيبين من رحمته: نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة. وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

**الثاني:** أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات.

**الثالث:** مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل ـ سبحانه ـ التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر.

**السبب** الثالث: التصديق بالحسنى، وفسرت بلا إله إلا الله. وفسرت بالجنة، وفسرت بالخلف، وهي أقوال السلف. واليسرى صفة لموصوف محذوف أي: الحالة والخلة اليسرى، وهي فعلى من اليسرى.

**والأقوال** الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء. فمن فسرها بلا إله إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع. فإن التصديق الحقيقي بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب

هذه الكلمة. فلا يكون العبد مصدقًا بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه.

**ولا يكون** مؤمنًا بالله إلـه العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله.

**ولا يكون** مؤمنًا بأن الله لا إلـه إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه، ويسلها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفية في الحقيقة والخارج.

**ولا يكون** مصدقًا بها من نفى الصفات العليا، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استواءه على عرشه، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله، ﷺ إليه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه، وما وصفه به رسوله، ﷺ.

**ولا يكون** مؤمنًا بهذه الكلمة مصدقًا بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور.

**ولا يكون** مصدقًا بها من زعم أنه يترك خلقه سدى، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله. وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وهو تفصيل لا إلـه إلا الله.

**فالمصدق** بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله. وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها.

**ومن** فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله. ومن فسرها بالخلف ذكر نوعًا من الجزاء. فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه. والتحقيق أنها تتناول الأمرين.

**وتأمل** ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث ـ وهي الإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، من العلم والعمل، وتضمنته من الهدى ودين الحق. فإن

النفس لها ثلاث قوى: قوة البذل والإعطاء، وقوة الكف والامتناع، وقوة الإدراك والفهم. ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والإرادة، وقوة البغض والنفرة.

**فهذه** القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها. ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى. وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء. وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء.

**فإذا** كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهي عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوها وجزائها، فقد زكّى نفسه، وأعدها لكل حالة يسرى، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

**ولما** كان الدين يدور على ثلاث قواعد: فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر. وإن شئت قلت: الدين طلب وخبر، والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك. فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها: فالإعطاء فعل المأمور، والتقوى ترك المحظور، والتصديق بالحسنى تصديق الخبر. فانتظم ذلك الدين كله.

**وأكمل** الناس من كملت له هذ القوى(١) الثلاث، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها. فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء. ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع. ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية وبالعكس، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى.

**قال** ابن عباس: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٧] أي نهيئه لعمل الخير، تيسر

---

(١) في الأصل المطبوع: التقوى والصواب ما أثبتناه لدلالة الكلام عليه ولعله تصحيف. المراجع.

عليه أعمال الخير. وقال مقاتل، والكلبي، والفراء: نيسره للعود إلى العمل الصالح.

**وحقيقة** اليسرى أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى. وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجرى الخير، وييسر على قلبه، ويديه ولسانه، وجوارحه. فتصير خصال الخير ميسرة عليه، مذللة له منقادة، لا تستعصى عليه، ولا تستصعب، لأنه مهيأ لها، ميسر لفعلها. يسلك سبلها ذللاً، وتقاد له علمًا وعملاً. فإذا خاللته قلّت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها		يصلح للدنيا وللدين

**﴿وأَمَّا مَن بَخِلَ﴾** فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به **﴿وَاسْتَغْنَى﴾** بترك التقوى عن ربه، فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهي عنه **﴿وكَذَّب بالْحُسْنَى﴾** فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه **﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى﴾** [الليل: ٨-١٠] قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي.

**وقال** مقاتل: يعسر عليه أن يعطى خيرًا. وقال عكرمة، عن ابن عباس: نيسره للشر. قال الواحدي: وهذا هو القول، لأن الشر يؤدي إلى العذاب، فهو الخلة العسرى. والخير يؤدى إلى اليسر، والراحة في الجنة، فهو الخلة اليسرى يقول: سنهيؤه للشر، بأن يجريه على يديه. قال الفراء: العرب تقول قد يسرت غنم فلان، إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي: يسرت ذلك على أصحابها. انتهى.

**والتيسير** للعسرى يكون بأمرين:

**أحدهما:** أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجرى الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه.

**والثاني:** أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه.

**فإن قيل: كيف قابل اتقى باستغنى؟ وهل يمكن العبد أن يستغنى عن ربه طرفة عين؟**

**قيل:** هذا من أحسن المقابلة، فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب مانهاه عنه. فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص، فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب مايكرهه غاية المجانبة، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره. فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعًا لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه، بأن فَعَلَ فِعْلَ المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين. فلله ما أحلى هذه المقابلة! وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، والشرور كلها وأسبابها!!

**فسبحان** من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه، وتجلى لهم فيه، فهم لا يطلبون أثرًا بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل، والصدق بالمين.

**وقد** تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها. وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه. ولهذا أجاب بها النبي، ﷺ، من أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر. فأجاب بفصل الخطاب وأزال الاشكال.

**ففي** الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**مامنكم من أحد إلا وقد عُلِمَ مقعده من الجنة والنار**» قيل: يارسول الله! أفلا ندع العمل، ونتكل على الكتاب؟ قال: «**اعملوا، فكل ميسر لما خلق له**» ثم قرأ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى * وصَدَّقَ بالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّره لِلْيُسْرى**﴾.

**فقد** تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله ـ سبحانه ـ الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي. وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقًا، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله، ونقض قاعدته.

**والنبي**، ﷺ، أخبر بمثل ما أخبر به الرب ـ تعالى ـ: «**أن العبد ميسر لما خلق**

له» لا مجبور، فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة.

**وفي** الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين. فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق. وكانوا إذا استشكلوا شيئًا سألوه عنه، وكان يجيبهم بما يزيل الأشكال، ويبين الصواب، فهم العارفون بأصول الدين حقًا، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم.

**وفي** الحديث استدلال النبي، ﷺ، على مسائل أصول الدين بالقرآن، وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه، خلافًا لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه. وعبر عن ذلك بقوله: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين.

**وفي** الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة، ومنهم من خلق للشقاوة، خلافًا لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة، ولكن اختاروا الشقاوة، ولم يخلقوا لها.

**وفيه** إثبات الأسباب، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له. وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب، ومطابقتها له.

**فتأمل** قوله، ﷺ: **«اعملوا فكل ميسر لما خلق له»** ومطابقته لقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى**﴾ إلى آخر الآيتين، كيف انتظم الشرع والقدر، والسبب والمسبب؟ وهذا الذي أرشد إليه النبي، ﷺ، هو الذي فطر الله عليه عباده، بل الحيوان البهيم، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك.

**فلو** قال كل أحد: إن قدر لي كذا وكذا فلابد أن أناله. وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله، فلا أسعى ولا أتحرك، لعد من السفهاء الجهال، ولم يمكنه طرد ذلك أبدًا، وإن أتى به في أمر معين. فهل يمكنه أن يطرد ذلك من مصالحه جميعها، من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه. وهروبه مما يضاد بقاءه وينافى مصالحه، أم يجد نفسه غير منفكة ألبتة عن قول النبي، ﷺ: **«اعملوا فكل ميسر لما خلق له»**. فإذا كان هذا في مصالح الدنيا، وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة، وأسباب السعادة والفلاح فيها، ورب الدنيا والآخرة واحد، فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه، ويستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته.

**وهل** هذا إلا محض الظلم والجهل، والإنسان ظلوم جهول، ظلوم لنفسه، جهول بربه. فهذا الذي أرشد إليه النبي، ﷺ، وتلا عنده هاتين الآيتين، موافقًا لما جعله الله في عقول العقلاء، وركب عليه فطر الخلائق، حتى الحيوان البهيم، وأرسل به جميع رسله، وأنزل به جميع كتبه.

**ولو** اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع، وتعطلت مصالح العالم، وفسد أمر الدنيا والدين. وإنما يستروح إلى ذلك معطلوا الشرائع، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهي من عنقه. وذلك ميراث من إخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه، وعارضوا شرعه بقضائه وقدره، كما حكى الله ـ سبحانه ـ ذلك عنهم في غير موضع من كتابه.

**كقوله** تعالى: ﴿سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُوا لو شآءَ الله ما أَشْرَكْنَا ولا آبآؤُنا ولا حَرَّمْنَا مِنْ شيءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذين من قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكم من عِلْمٍ فَتُخْرِجُوه لَنَا إن تَتَّبِعُون إلا الظَنَّ وإنْ أَنْتُمْ إلا تَخْرُصُون * قل فلله الحُجَّةُ البالِغَةُ فَلَو شآءَ لهداكم أَجْمَعِين﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩]. وقال تعالى: ﴿وقَال الَّذين أَشْرَكُوا لو شَآءَ الله مَاعَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ ولا آبآؤُنا ولا حَرَّمْنا مِنْ دُونه مِنْ شيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلَّا البَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَو شَآءَ الرَّحْمَنَ ماعَبَدْناهم مَّالَهم بذَلِكَ مِنْ عِلم إن هم إلا يَخْرُصُون﴾ [الزخرف: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وإذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ الله قَالَ الذين كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ من لو يشآءُ الله أَطْعَمَهُ إن أَنْتم إلا في ضَلالٍ مُّبين﴾ [يسٓ: ٤٧].

**فإن** قيل: فالإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، هي من اليسرى، بل هي أصل اليسرى، من يسرها للعبد أولاً؟ وكذلك أضدادها؟

**قيل:** الله ـ سبحانه ـ هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين: أهل سعادة، فيسرهم لليسرى، وأهل شقاوة، فيسرهم للعسرى. واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع

عقوبته في موضع لا تصلح له. كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما، ولا يليق بهما. بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك. ومن جعل محل المسك والرجيع واحدًا فهو من أسفه السفهاء.

## (١)الباب السابع في أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضى ترك الأعمال، بل يقتضي الاجتهاد والحرص

**يسبق** إلى أفهام كثير من الناس أن القضاء والقدر إذا كان قد سبق فلا فائدة في الأعمال، وأن ماقضاه الرب ـ سبحانه ـ وقدره لابد من وقوعه؛ فتوسط العمل لافائدة فيه، قد سبق إيراد هذا السؤال من الصحابة على النبي، ﷺ، فأجابهم بما فيه الشفاء والهدى.

**ففي** الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله، ﷺ، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «**مامنكم من أحد مامن نفس منفوسة، إلا كتب مكانها من الجنة والنار وإلّا قد كتبت شقية أو سعيدة**» فقال رجل: يارسول الله! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**» ثم قرأ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى* وصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وأما مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وكَذَّب بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى**﴾ [الليل: ٥-١٠] وفي بعض طرق البخاري: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟

**وعن** أبي الزبير عن جابر بن عبدالله قال: جاء سراقة بن مالك بن جعثم فقال: يارسول الله بيِّن لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: «**لا، بل فيما جفت به الأقلام**

---

(١) ٢٤ شفاء.

**وجرت به المقادير»**، قال: ففيم العمل؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر**» رواه مسلم.

**وعن** عمران بن حصين قال: قيل: يارسول الله! أعلم أهل الجنة من أهل الناس فقال: «**نعم**»، قيل: ففيم يعمل العاملون؟ فقال: «**كل ميسر لما خلق له**». متفق عليه. وفي بعض طرق البخاري: «**كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له**».

**ورواه** الإمام أحمد أطول من هذا فقال: ثنا صفوان بن عيسى ثنا عروة بن ثابت عن يحيى بن عقيل عن أبي نيعم عن أبي الأسود الدؤلي قال: غدوت على عمران بن حصين يومًا من الأيام فقال: إن رجلًا من جهينة أو مزينة أتى إلى النبي، ﷺ، فقال: يارسول الله! أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، شيء قُضِيَ عليهم أو مضى عليهم في قدر قد سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم واتخذت عليهم الحجة؟ قال: «**بل شيء قُضِيَ عليهم**» قال: فلِمَ يعملون إذًا يارسول الله؟ قال: «**من كان الله ـ عز وجل ـ خلقه لواحدة من المنزلتين فهيأه لعملها وتصديق ذلك في كتاب الله**» ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْوَاها**﴾.

**وقال** المحاملي: ثنا أحمد بن المقدام ثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت أبا سفيان يحدث عن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر أنه قال: نزل ﴿**فمنهم شقي وسعيد**﴾ فقال عمر: يانبي الله علام نعمل: على أمر قد فرغ منه، أو لم يفرغ منه؟ قال: «**لا، على أمر قد فرغ منه، قد جرت به الأقلام، ولكن كلٌّ ميسر**» ﴿**فَأَمَّا من أَعْطَى وَأَتَّقَى * وَصَدَّقَ بالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُه لِلْيُسْرى * وأما مَن بَخِلَ واسْتَغنىٰ * وكَذَّب بالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُه لِلْعُسْرى**﴾ [الليل: ٥ـ١٠] فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: ما كنت أشد اجتهادًا مني الآن؛ وهذا مما يدل على جلالة فقه الصحابة ودقة أفهامهم وصحة علومهم فإن النبي، ﷺ، أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب، فإن العبد ينال ماقدر له بالسبب الذي أقدر عليه، ومكن منه، وهيء له، فإذا أتى

بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب، وكلما زاد اجتهادًا في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه.

**وهذا** كما إذا قدر له أن يكون من أعلم أهل زمانه فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه. وإذا قدر له أن يرزق الولد لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسرى والوطىء. وإذا قدر له أن يستغل من أرضه من المغل كذا وكذا لم ينله إلا بالبذر وفعل أسباب الزرع. وإذا قدر الشبع والرى فذلك موقوف على الأسباب المحصلة لذلك من الأكل والشرب واللبس.

**وهذا** شأن أمور المعاش والمعاد فمن عطل العمل اتكالاً على القدر السابق فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والحركة في المعاش وسائر أسبابه اتكالاً على ماقدر له.

**وقد** فطر الله ـ سبحانه ـ عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية، بل فطر الله على ذلك سائر الحيوانات، فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الأخروية في معادهم، فإنه ـ سبحانه ـ رب الدنيا والآخرة، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة فهو مهيأ له ميسر له.

**فإذا** علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهادًا في فعلها من القيام بها منه أسباب معاشه ومصالح دنياه، وقد فقه هذا كل الفقه من قال: ماكنت أشد اجتهادًا مني الآن.

**فإن** العبد إذا علم أن سلوك هذا الطريق يقضى به إلى رياض مونقة وبساتين معجبة ومساكن طيبة ولذة ونعيم لا يشوبه نكد ولا تعب كان حرصه على سلوكها واجتهاده في السير فيها بحسب علمه بما يفضى إليه.

**لهذا** قال أبو عثمان النهدي لسلمان لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحًا مني بآخره، وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة وهيأه ويسره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله **أعم** من فرحه بالأسباب التي تأتي بها، فإنها سبقت له من الله قبل الوسيلة منه، وعلمها الله وشاءها وكتبها وقدرها وهيأ له أسبابها

لتوصله إليها، فالأمر كله من فضله وجوده السابق، فسبق له من الله سابقة السعادة ووسيلتها وغايتها، فالمؤمن من أشد فرحًا بذلك من كون أمره مجعولاً إليه كما قال بعض السلف: والله ما أحب أن يجعل أمري إليّ، إنه إذا كان بيد الله خيراً من أن يكون بيدي، فالقدر السابق معين على الأعمال ومايحث عليها ومقتض لها، لا أنه مناف لها وصادّ عنها، وهذا موضع مزلة قدم من ثبتت قدمه فاز بالنعيم المقيم، ومن زلت قدمه عنه هوى إلى قرار الجحيم؛ فالنبي، ﷺ، أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببا السعادة، الإيمان بالأقدار، فإنه نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره، وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر، فأبى المنحرفون إلا القدح بإنكاره في أصل التوحيد أو القدح بأثباته في أصل الشرع، ولم تتسع عقولهم التي لم يلق الله عليها من نوره للجمع بين ماجمعت الرسل جميعهم بينه، وهو القدر والشرع والخلق والأمر، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والنبي، ﷺ، شديد الحرص على جمع هذين الأمرين للأمة، وقد تقدم قوله: «**احرص على ماينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**» وإن العاجز من لم يتسع للأمرين وبالله التوفيق.

(1)**فإن** قيل: فلِمَ جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة؟ قيل: هذا سؤال جاهل، لا يستحق الجواب، كأنه يقول: لم خلق الله كذا وكذا؟ فإن قيل: وعلى هذا، فهل لهذا الجاهل من جواب، لعله يشفى من جهله؟.

**قيل:** نعم، شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال، فالعو لازم وملزوم للسفل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد، والصحو والغيم.

**ومن** لوازم الطبيعة الحيوانية: الصحة والمرض، واختلاف الإرادات والمرادات، ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع.

---

(١) ٤٣ التبيان.

**ولولا** خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات. وظهور أحكامها وآثارها لابد منه، إذ هو مقتضى الكمال المقدس، والملك التام.

**وإذا** أعطيت اسم الملك حقه ـ ولن تستطيع ـ علمت أن الخلق والأمر، والثواب والعقاب والعطاء والحرمان، أمر لازم لصفة الملك، وأن صفة الملك تقتضي ذلك ولابد، وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع.

**فالملك** الحق يقتضي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد، ونهيهم، وثوابهم، وعقابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة.

**كما** تستلزم حياة الملك، وعلمه، وإرادته، وقدرته، وسمعه، وبصره، وكلامه، ورحمته، ورضاه، وغضبه، واستواءه على سرير ملكه، يدبر أمر عباده. وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونقة، وكنوز من المعرفة، وبالله التوفيق.

## فصل

**ثم** قال تعالى: ﴿**إن عَلَيْنا لَلْهُدَى * وإنَّ لَنا لَلآخرةَ والأُولىٰ**﴾ [الليل: ١٢، ١٣] قيل: معناه، إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على الله البيان، بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته. اختاره أبو إسحاق، وهو قول مقاتل، وجماعة، وهذا المعنى حق. ولكن مراد الآية شيء آخر.

**وقيل:** المعنى: إن علينا للهدى والإضلال، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية عطاء: يريد، أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي. قال الفراء: فترك ذكر الإضلال، كما قال: ﴿**سَرابِيلَ تَقِيكُمْ الحَرَّ**﴾ [النحل: ٨١] أي والبرد. وهذا أضعف من القول الأول. وإن كان معناه صحيحًا. فليس هو معنى الآية.

**وقيل،** المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله: ﴿**وعلى الله قصد السبيل**﴾ وهذا قول مجاهد، وهو أصح الأقوال في الآية. قال الواحدي: علينا

للهدى، أي: إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته.

**وهذا** المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع: ههنا، وفي النحل في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ وفي الحجر في قوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١] وهو معنى شريف جليل، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد. **والهدى** هو: الصراط المستقيم، فمن سلكه أوصله إلى الله، فذكر الطريق والغاية. فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله.

**فهذه** أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات. ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه. فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئًا. وأن الدنيا والآخرة جميعًا له وحده. فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده.

**فتضمنت** الآيتان أربعة أمور، هي المطالب العالية: ذكر أعلى الغايات. وهو الوصول إلى الله ـ سبحانه ـ وأقرب الطريق والوسائل إليه، وهي طريقة الهدى. وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها. وتوحيد المطلوب، وهو الحق. فلا يعدل عنه إلى غيره. فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم. وبالله التوفيق.

**والهدى** التام يتضمن توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق الموصلة. والانقطاع. وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور، أو في بعضها. فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافى اتباع الأمر.

**فالأول:** يوقع في الشرك والرياء.

**والثاني:** يوقع في المعصية والبطالة.

**والثالث:** يوقع في البدعة ومفارقة السنة. فتأمله.

**فتوحيد** المطلوب يعصم من الشرك، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة. والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق

الثلاثة. **ولما** أقام - سبحانه - الدليل، وأنار السبيل، وأوضح الحجة، وبين المحجة، أنذر عباده عذابه الذي أعده لمن كذب خبره، وتولى عن طاعته. وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص. فهذا الصنف هو الذي يجنب عذابه. كما قال: ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**﴾ [الليل: ١٧-١٨] فهذا المتقي المحسن لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

**وفي** الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم، وإن حمل منهم شيئًا بادر إلى جزائهم عليه، لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس للمخلوق جزاء على نعمته. ونبه بقوله: ﴿**تجزى**﴾ على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله، ﷺ، على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها.

**وهذا** يدل على أن الصديق - رضي الله عنه - أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها. فإن عليًا - رضى الله عنه - تربى في بيت النبي، ﷺ. فلرسول الله ﷺ، عنده نعمة غير نعمة الإسلام، يمكن أن تجزى.

**ونبه** سبحانه بقوله: ﴿**إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى**﴾ [الليل: ٢٠] على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. بخلاف من تطوق نعم المخلوقين ومننهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم، ويترك لأجلهم.

**ولهذا** كان من كمال الاخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس، لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه، وطلب مرضاته. فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب، فهذا الطريق أقصد الطرق إليه، وأقربها وأقومها. وبالله التوفيق.

**هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الليل**

**والحمد لله رب العالمين**




## بسم الله الرحمن الرحيم

[1]ومن ذلك إقسامه ـ سبحانه ـ: ﴿والضُّحَىٰ * واللَّيْلِ إذا سَجَى﴾ [الضحىٰ: ١، ٢] على إنعامه على رسوله، ﷺ، وإكرامه له، وإعطائه مايرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته، وحكمته، ورحمته، وهما الليل والنهار.

**فتأمل** مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحىٰ الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمدًا ربه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضور الوحى ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

**وأيضًا** فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار، وهو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة. فهذان للحسن، وهذان للعقل.

**وأيضًا** فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

**فتأمل** حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه. وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها.

**ونفى** سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع الترك، والقلى البغض، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه. وأطلق ـ سبحانه ـ أن الآخرة خير له من الأولى، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن

---

(١) ٤٦ التبيان.

الدار الآخرة خير له مما قبلها. ثم وعده بما تقر به عينه، وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم مايعطيه من القرآن، والهدى، والنصر، وكثرة الاتباع، ورفع ذكره، وإعلاء كلمته، ومايعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، ومايعطيه في الجنة.

**وأما** مايغتر به الجهال، من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار!! فهذا من غرور الشيطان لهم، ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى.

**وهو** - سبحانه - يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسوله حدًّا يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحدًا من أمتي النار على أن يدعه فيها، بل ربه - تبارك وتعالى - يأذن له، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه.

[1]... **ومنهم** من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة. فاتكلوا عليه: كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾ [الضحىٰ: ٥] قال: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته. وهذا من أقبح الجهل وأبين الكذب عليه. فإنه، ﷺ، يرضى بما يرضى به ربه - عز وجل - والله - تعالى - يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر. فحاشا رسوله أن يرضى بما لا يرضى به ربه تبارك وتعالى. وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٥٣] وهذا أيضًا من أقبح الجهل. فإن الشرك داخل في هذه الآية وهو رأس الذنوب وأساسها. ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين. فإنه يغفر ذنب كل تائب أي ذنب كان. ولو كان الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها. وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة. وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه. فإنه سبحانه ههنا عمم وأطلق فعلم أنه أراد التائبين وفي سورة النساء خصص وقيد فقال: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مادون ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] فأخبر الله -

(١) ٢٣ الجواب الكافي.

سبحانه ـ أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر مادونه. ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره. وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَآأَيُّهَا الإِنْسَانُ ماغَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيم﴾ [الانفطار: ٦ ] فيقول: كرمه.

**وقد** يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته. وهذا جهل قبيح. وإنما غره به الغرور؛ وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه.

**وأتى** ـ سبحانه ـ بلفظ الكريم، وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به، ولا إهمال حقه. فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه. واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به. وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَىٰ * الَّذي كَذَّب وتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٥، ١٦] وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين﴾ [البقرة: ٢٤] ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم. ولو كانت جميع جهنم فهو ـ سبحانه ـ لم يقل لا يدخلها بل قال: ﴿لا يَصْلَاها إِلَّا الأَشْقَى﴾ ولا يلزم من عدم صليها. عدم دخولها فإن الصلي أخص من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم. ثم هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضمونًا له أن يجنبها. وأما قوله في النار أعدت للكافرين فقد قال في الجنة: ﴿أُعِدَّت لِلْمُتَّقِيْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن تدخلها الفساق والظلمة. ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ولم يعمل خيرًا قط.

**وكاغترار** بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول بعضهم: يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر. ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء. وهي إنما تكفر مابينهما إذا اجتنبت الكبائر. فرمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انظمام ترك الكبائر إليها. فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر. فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها غير تائب منها. هذا محال. على أنه لا يمتنع أن يكون صوم

يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفر لجميع ذنوب العام على عمومه. ويكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع. ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير. فإذا لم يصر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الإصرار. وتعاونًا على عموم التكفير. كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر. مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ ماتُنْهَون عَنْه نُكَفِّرْ عَنْكم سَيِّئَاتِكم﴾ [النساء: ٣١] فعلم أن جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما، وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل.

**وكاتكال** بعضهم على قوله، ﷺ، حاكيًا عن ربه: «**أنا عند حسن ظني عبدي ربي، فليظن بي ماشاء**» يعني ماكان في ظنه فأنا فاعله به، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسّن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات، فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في المشاهدة، فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به. ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا. فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته. وأحسن الناس ظنًا بربه أطوعهم له. كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل. وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

**فكيف** يكون حسن الظن بربه من هو شارد عنه، حال مرتحل في مساخطه ومايغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه.

**وكيف** يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة. وعادى أولياءه ووالى أعداءه. وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسله، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر. وكيف يحسن الظن به من يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب. . . .

(١)**ثم** ـ ذكر سبحانه ـ نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر. فكان محتاجًا إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه، فآواه ربه وهداه، وأغناه. فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر. فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها، فأوصاه ـ سبحانه ـ باليتامى والفقراء والمتعلمين. قال مجاهد، ومقاتل: لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيمًا. وقال الفراء: لا تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه. وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلظ الخطاب في أمر اليتيم. وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره، وهو نهي لجميع المكلفين(٢).

(٣)**الرابع** والأربعون: أن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم لرجحها.

**وقد** أخبر الله أنه قبل الوحي: لم يكن يدري ما الإيمان، كما لم يكن يدري ما الكتاب. فقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ**﴾ [الضحى: ٦-٨] وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر سورة الشورى.

**فإذا** كان أعقل الخلق على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ**﴾ [سبأ: ٥٠] فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى المعارضة بين العقل ونصوص الأنبياء ﴿**لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ**

---

(١) ٤٧ التبيان.

(٢) تقدم في سورة الحشر ما يتعلق بهذه السورة نقلاً عن عدة الصابرين عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ (ج).

(٣) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١.

**يَتفَطَّرْنَ مِنْه وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا** [مريم: ٨٩، ٩٠].

(١)**قال** الله تعالى: ﴿**ووجدكَ عائلاً فأغنى**﴾ [الضحىٰ: ٨] وفي الآية ثلاثة أقوال:

**أحدها:** أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين. لأنه قابله بقوله: «عائلاً» والعائل: هو المحتاج. ليس ذا العيلة. فأغناه من المال.

**والثاني:** أنه أرضاه بما أعطاه. وأغناه به عن سواه. فهو غنى قلب ونفس، لا غنى مال. وهو حقيقة الغنى.

**والثالث:** ـ وهو الصحيح ـ أنه يعم النوعين: نوعي الغنى، فأغنى قلبه. وأغناه من المال.

(٢)**وأجمع** المفسرون أن العائل هو الفقير. يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر.

(٣)... **الثناء** على المنعم، المتعلق بالنعمة نوعان: عام، وخاص.

**فالعام:** وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك.

**والخاص:** التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى: ﴿**وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحىٰ: ١١] وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

**أحدهما:** أنه ذكر النعمة، والإخبار بها. وقوله: أنعم الله عليَّ بكذا وكذا.

**قال** مقاتل: يعني أشكر ماذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتم، والهدى بعد الضلال، والإغناء بعد العيلة.

**والتحدث** بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعًا: «**من صُنع إليه معروف فليَجزِ به. فإن لم يجد مايَجْزِي به فليُثْنِ. فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره، ومن تَحلَّى بما لم يُعْطَ كان كَلابس ثوبي زور**».

**فذكر** أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها. فهو متحلٍ بما لم يعطه.

**وفي** أثر آخر مرفوع: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر. والجماعة رحمة. والفرقة عذاب**».

---

(١) ٤٤٩ مدارج جـ٢.　(٢) ١١٤ عدة الصابرين.　(٣) ٢٤٨ مدارج جـ٢.

**والقول** الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة.

**قال** الزجاج: أي بَلِّغ ماأرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله.

**وقال** الكلبي: هو القرآن. أمره أن يقرأه.

**والصواب:** أنه يعم النوعين، إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهارها من شكرها.

(١)**﴿وأما السَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾** [الضحىٰ: ١٠] قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره. إذا سألك. فقد كنت فقيراً، فإما أن تطعمه. وإما أن ترده ردًّا لينًا. قال الحسن: إما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك، ولكن طالب العلم. وهذا قول يحيى بن آدم قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين.

**وقوله: ﴿وأما بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾** [الضحىٰ: ١١] قال مجاهد: بالقرآن. وقال الكلبي: بمعنى أظهرها، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرئه ويعلمه. وروى أبو بشر، عن مجاهد: حدث بالنبوة التي أعطاك الله.

**وقال** الزجاج: بلغ ماأرسلت به. وحدث بالنبوة التي آتاك، وهي أجل النعم.

**وقال** مقاتل: أشكر هذه النعمة التي ذكرت في هذه السورة.

**والتحقيق** أن النعم تعم هذا كله فأمر أن لا ينهر سائل المعروف، والعلم وأن يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا.

(٢)**والفرق** بين التحدث بنعم الله والفخر بها إن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها شاكر له ناشر لجميع ما أولاه مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء وبعث النفس على الطلب من دون غيره وعلى محبته ورجائه فيكون راغباً إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها.

---

(١) ٤٧ التبيان.

(٢) ٣٠٢ الروح.

**وأما** الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة.

**قال** النعمان بن بشير إن للشيطان مصالي وفخوخاً وإن من مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله والكبر على عباد الله والفخر بعطية الله والهون في غير ذات الله.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الضحىٰ

والحمد لله رب العالمين




## بسم الله الرحمن الرحيم

## (١)الموطن الخامس من مواطن الصلاة عليه ﷺ الخطب كخطبة الجمعة، والعيدين، والاستسقاء، وغيرها

**وقد** اختلف في اشتراطها لصحة الخطبة. قال الشافعي وأحمد - رحمهما الله - في المشهور من مذهبهما: لا تصح الخطبة إلا بالصلاة عليه ﷺ. وقال أبو حنيفة ومالك: تصح بدونها. وهو وجه في مذهب أحمد.

**واحتج** لوجوبها في الخطبة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لك صَدْرَك * وَوَضَعْنَا عَنْك وِزْرَكَ * الَّذي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤] قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «رفع الله ذكره، فلا يذكر إلا ذُكِرَ معه» وفي هذا الدليل نظر. لأن ذكره ﷺ مع ذكر ربه هو الشهادة له بالرسالة إذا شهد لمرسله بالوحدانية. وهذا هو الواجب في الخطبة قطعًا، بل هو ركنها الأعظم، وقد روى أبو داود، وأحمد، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «**كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء**» واليد الجذماء: المقطوعة. فمن أوجب الصلاة على النبي ﷺ، في الخطبة دون التشهد فقوله في غاية الضعف.

**وقد** روى يونس عن شيبان عن قتادة ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ فقال: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا ابتدأها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله».

**وقال** عبد بن حميد: أخبرني عمرو بن عون عن هشيم عن جويبر عن الضحاك: ﴿ورفعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي، ولا يجوز خطبة ولا نكاح إلا بذكرك.

**وقال** عبدالرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال: «لا أذكر إلا ذكرت معي: الأذان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد

أن محمدًا رسول الله» فهذا هو المراد من الآية، وكيف لا يجب التشهد الذي هو عقد الإسلام في الخطبة، وهو أفضل كلماتها، وتجب الصلاة على النبي ﷺ، فيها.

**والدليل** على مشروعية الصلاة على النبي ﷺ، في الخطبة ماوراه عبدالله بن أحمد حدثنا أبي حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا خالد حدثني عون بن أبي جحيفة كان أبي من شرط عليٍّ[1] وكان تحت المنبر فحدثني: «أنه صعد المنبر- يعني عليًّا - رضي الله عنه - فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، وقال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، والثاني عمر» وقال: ويجعل الله الخير حيث شاء.

وقال محمد بن الحسن بن جعفر الأسدي حدثنا أبو الحسن علي بن محمد الحميري حدثنا عبدالله بن سعيد الكندي حدثنا حميد بن عبدالرحمن الرواسي قال: سمعت أبي يذكر عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله أنه كان يقول بعد مايفرغ من خطبة الصلاة، ويصلي على النبي ﷺ: «اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينة في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، اللهم بارك لنا في أسماعنا وأبصارنا[2] وأزواجنا وقلوبنا وذرياتنا».

**وروى** الدارقطني من طريق ابن لهيعة عن الأسود بن مالك الحضرمي عن يحيى بن ذاخر المعافري قال: «ركبت أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة. فذكر حديثًا، وفيه: فقام عمرو بن العاص على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه حمدًا موجزًا، وصلى على النبي ﷺ، ووعظ الناس، فأمرهم ونهاهم».

**وفي** الباب حديث ضبة بن محصن «أن أبا موسى كان إذا خطب: فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ودعا لعمر. فأنكر عليه ضبة الدعاء لعمر قبل الدعاء لأبي بكر - رضي الله عنهما - فرفع ذلك إلى عمر - رضي الله عنه فقال لضبة: أنت أوفق وأرشد». فهذا دليل على أن الصلاة على النبي ﷺ، في الخطب كان أمر مشهورًا معروفًا عند الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

**وأما** وجوبها فيعتمد دليلًا يجب المصير إلى مثله.

---

(١) الشرط جمع شرطة، وهو الجندي الذي يقوم بالحراسة لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

(٢) في النسخة المطبوعة: «أبصانا» وهو تصحيف ماذكرناه. المراجع.

(١)... **وإذا** عرفت هذه الفوائد الأربع فقول الرادّ: وعليك السلام. بالتعريف متضمن للدلالة على أن مقصوده من الرد مثل ما ابتدىء به، وهو هو بعينه، فكأنه قال ذلك السلام الذي طلبته لي مردود عليك، وواقع عليك، فلو أتى بالردِّ منكرًا لم يكن فيه إشعار بذلك، لأن المعرف وإن تعدد ذكره واتحد لفظه فهو شيء واحد بخلاف المنكر، ومن فهم هذا فهم معنى قول النبي ﷺ: «**لن يغلب عسر يسرين**» فإنه أشار إلى قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ [الشرح: ٥-٦] فالعسر(٢) وإن تكرر مرتين فتكرر بلفظ المعرفة فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران، فالعسر محفوف بيسرين: يسر قبله ويسر بعده، فلن يغلب عسر يسرين.

**وفائدة** ثانية وهي أن مقامات رد السلام ثلاثة: مقام فضل. ومقام عدل. ومقام ظلم. فالفضل أن يرد عليه أحسن من تحيته، والعدل أن ترد عليه نظيرها، والظلم أن تبخسه حقه وتنقصه منها، فاختير للراد أكمل اللفظتين وهو المعرف بالأداة التي تكون للاستغراق والعموم كثيرًا ليتمكن من الإتيان بمقام الفضل.

**وفائدة** ثالثة وهي أنه قد تقدم أن المناسب في حقه تقديم المسلم عليه على السلام فلو نكره، وقال: عليك سلام. لصار بمنزلة قولك: عليك دين، وفي الدار رجل. فخرجه مخرج الخبر المحض، وإذا صار خبرًا بطل معنى التحية، لأن معناها الدعاء والطلب، فليس بمسلم من قال: عليك سلام، إنما المسلم من قال: سلام عليك فعرف سلام الراد باللام إشعارًا بالدعاء للمخاطب وأنه راد عليه التحية طالب له السلامة من اسم السلام. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشرح

والحمد لله رب العالمين

---

**(١) ١٥٥ بدائع جـ٢.**

**(٢) في الأصل المطبوع «فاليسر» والصواب ماأثبتناه لدلالة الكلام عليه (ج).**




## بسم الله الرحمن الرحيم

## فصل[1]

**ومن** ذلك إقسامه: ﴿وَالتِّينْ وَالزَّيْتُون * وَطُورِ سينين * وَهَذا الْبَلَدِ الأَمِين﴾ [التين: ١-٣] فأقسم - سبحانه - بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام، والأمم الكثيرة.

**فالتين** والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين، ومنبتهما. وهو أرض بيته المقدس. فإنها أكثر البقاع زيتونًا وتينًا.

**وقد** قال جماعة من المفسرين: إنه - سبحانه - أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما. فإن التين فاكهة مخلصة من شواء التنغيص، لا عجم له[2] وهو على مقدار اللقمة، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم. ويدخل في الأدوية، ومزاجه من أعدل الأمزجة، وطبعه طبع الحياة: الحرارة، والرطوبة، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات. وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة، ويوافق الباءة، وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطبًا ويابسًا.

**وأما** الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر. فإن عوده يخرج ثمرًا، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ للآكلين، وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق مالا يخفى، وشجره باق على مر السنين المتطاولة، وورقه لا يسقط، وهذا الذي قالوه حق.

**ولا ينافي** أن يكون منبته مرادًا. فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة. فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم.

---

(١) ٢٨ التبيان. (٢) العَجَمُ محركًا وكغراب، نوى كل شيء.

**كما** أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه، وأرسله إلى فرعون وقومه.

**ثم** أقسم بالبلد الأمين، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله، سيد ولد آدم. وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل. فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنّى بموضع مظهر الكليم. ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله، وأكرم الخلق عليه.

**ونظير** هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى (جاء الله من طور سيناء؛ وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران) فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع. ثم ثنى بنبوة المسيح، ثم ختمه بنبوة محمد ﷺ. وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها، ونبوة محمد ﷺ، وعليهما بعدهما بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم. ولما كان الغالب على بني إسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقًا للواقع، ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي.

[1]... **الوجه** الثاني قال في التوراة في السفر الخامس: «أقبل الله من سيناء، وتجلى من ساعير، وظهر من جبال فاران، ومعه ربوات الإظهار عن يمينه» وهذه متضمنة للنبوات الثلاثة: نبوة موسى، ونبوة عيسى، ونبوة محمد ﷺ.

**فمجيئه** من «سينا» وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى، ونبأه عليه إخبار عن نبوته. وتجليه من ساعير هو مظهر المسيح من بيت المقدس، «وساعير» قرية معروفة هناك إلى اليوم، وهذه بشارة بنبوة المسيح. «وفاران» هي مكة، وشبه ـ سبحانه ـ نبوة موسى بمجيء الصبح، ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه، ونبوة خاتم الأنبياء بعدهما باستعلاء الشمس وظهور ضوئها في الآفاق، ووقع الأمر كما أخبر به سواء.

**فإن الله ـ سبحانه ـ صدع بنبوة موسى ليل الكفر فأضاء فجره بنبوته، وزاد الضياء، والإشراق بنبوة المسيح، وكمل الضياء واستعلن وطبق الأرض بنبوة محمد صلوات الله وسلامه عليهم.**

---

(١) ٥٣ هداية الحيارى.

**وذكر** هذه النبوات الثلاثة التي اشتملت عليها هذه البشارة نظير ذكرها في أول سورة ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣].

**فذكر** أمكنة هؤلاء الأنبياء وأرضهم التي خرجوا منها. ﴿والتين والزيتون﴾ والمراد بهما منبتهما وأرضهما، وهي الأرض المقدسة التي هي مظهر المسيح. ﴿وطور سينين﴾ الجبل الذي كلم الله عليه موسى، فهو مظهر نبوته. ﴿وهذا البلد الأمين﴾ مكة حرم الله وأمنه، التي هي مظهر نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليهم، فهذه الثلاثة نظير تلك الثلاثة سواء.

**قالت** اليهود: «فاران» هي أرض الشام، وليست أرض الحجاز، وليس هذا ببدع من بهتهم وتحريفهم. وعندهم في التوراة: إن إسماعيل لما فارق أباه سكن في برية فاران. هكذا نطقت التوراة. ولفظها «وأقام إسماعيل في برية فاران، وأنكحته أمه امرأة من [جرهم] ولا يشك علماء أهل الكتاب أن فاران مسكن لآل إسماعيل، فقد تضمنت التوراة نبوة تنزل بأرض فاران، وتضمنت نبوة تنزل على عظيم من ولد اسماعيل، وتضمنت انتشار أمته واتباعه حتى يملؤا السهل والجبل كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

**ولم** يبق بعد هذا شبهة أصلاً أن هذه هي نبوة محمد ﷺ، التي نزلت بفاران على أشرف ولد إسماعيل حتى ملأت الأرض ضياءًا ونورًا وملأ أتباعه السهل والجبل. ولا يكثر على الشعب الذي نطقت التوراة بأنهم عادموا الرأي والفطانة أن ينقسموا إلى جاهل بذلك وجاحد مكابر معاند: ولفظ التوراة فيهم: إنهم لشعب عادم الرأي وليس فيهم فطانة.

**ويقال** لهؤلاء المكابرين: أي نبوة خرجت من الشام فاستعلت استعلاء ضياء الشمس، وظهرت فوق ظهور النبوتين قبلها، وهل هذا إلا بمنزلة مكابرة من يرى الشمس قد طلعت من المشرق فيغالط ويكابر ويقول بل طلعت من المغرب.

(١)**وأقسم** بها على بداية الإنسان ونهايته. فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ

---

(١) ٣٩ التبيان.

تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أي في أحسن صورة وشكل واعتدال: معتدل القامة، مستوى الخلقة، كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه.

**والتقويم** تصيير الشيء على ماينبغي أن يكون في التأليف والتعديل. وذلك صنعته تبارك وتعالى، في قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء.

**وذلك** من أعظم الآيات الدالة على وجوده، وقدرته، وحكمته، وعلمه، وصفات كماله. ولهذا يكررها كثيرًا في القرآن لمكان العبرة بها. والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته، وعلى المبدأ والمعاد.

**وتضمن** إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلاً أنزل عليهم كتبه، يعرفون العباد بربهم، وحقوقه عليهم، وينذرونهم بالله ونقمته، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه.

**ثم** لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين، منهم من أجاب، ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين. فذكر حال الأكثرين، وهم المردودون إلى أسفل سافلين. والصحيح أنه النار. قاله مجاهد، والحسن، وأبو العالية. قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: هي النار بعضها أسفل من بعض. وقالت طائفة، منهم قتادة، وعكرمة، وعطاء، والكلبي، وإبراهيم: إنه أرذل العمر، وهو مروي عن ابن عباس. والصواب القول الأول لوجوه:

**أحدها:** أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين هو سجين الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار.

**الثاني:** أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جدًا، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر.

**الثالث:** أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر فليس ذلك مختصًا بالكفار، حتى يستثنى منهم المؤمنين.

**الرابع:** أن الله ـ سبحانه ـ لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار، بل جعله لجنس بني آدم، فقال: ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ

بَعدِ عِلْمٍ شيئًا﴾ [الحج: ٥] فجعلهم قسمين: قسما متوفى قبل الكبر، وقسما مردودا إلى أرذل العمر، ولم يسمه أسفل سافلين.

**الخامس:** أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو ـ سبحانه ـ قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجرًا غير ممنون.

**السادس:** أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم. ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس. فيكونَ قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم. وأخبر عن أمر يعرف بالحس والمشاهدة. وفي ذلك هضم لمعنى الآية وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

**السابع:** أنه ـ سبحانه ـ ذكر حال الإنسان في مبدئه ومعاده. فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين أو إلى أجر غير ممنون. وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده. فما لأرذل العمر، وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه؟

**الثامن:** أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس، وإخراج الكلام عن ظاهره والتكلف البعيد له. فإنهم إن قالوا: إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين كابروا الحسن. وإن قالوا: إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء.

**فمنهم** من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم، إذا ردوا إلى أرذل العمر، بل تجرى عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة. فهذا ـ وإن كان حقًا ـ فإن الاستثناء إنما وقع من الرد لا من الأجر والعمل.

**ولما** علم أرباب هذا القول مافيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة. فقالوا: من قرأ القرآن لايرد إلى أرذل العمر. وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما: أن الاستثناء عام في المؤمنين، قارئهم وأميهم، وأنه لا دليل على ما ادعوه. وهذا لا يعلم بالحس، ولا خبر يجب التسليم له بقتضيه، والله أعلم.

**التاسع:** أنه ـ سبحانه ـ ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين، فإذا لم يؤمن به، وأشرك به، وعصى رسله، نقله منها إلى أسفل سافلين، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين. فتلك نعمته عليه، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته.

**العاشر:** أن نظير هذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أجرٌ غَيْرِ مَمْنُونٍ**﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥] فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا، والله أعلم.

**وقوله:** ﴿**غَيْرُ مَمْنُون**﴾ أي غير مقطوع ولا منقوص، ولا مكدر عليهم، وهذا هو الصواب. وقالت طائفة: غير ممنون به عليهم، بل هو جزاء أعمالهم؛ ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل، وهو قول كثير من القدرية. قال هؤلاء: إن المنة تكدر النعمة. فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه.

**وهذا** القول خطأ قطعًا، أُتِيَ أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق، وهذا من أبطل الباطل، فإن المنة التي تكدر النعمة هي منة المخلوق على المخلوق، وأما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها، فإنها منة حقيقة.

**قال** تعالى: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عليكم أن هَدَاكم لِلإِيـمَانِ إنْ كنتم صادقين**﴾ [الحجرات: ١٧] وقال تعالى: ﴿**ولَقَـدَ مَنَنَّـا على مُوسىٰ وهـارون * ونَجَّيْنَـاهُمَا وقَومَهُمَا مِنَ الكَرْبِ العَظِيْمِ**﴾ [الصافات: ١١٤، ١١٥] فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الأخرة. وقال لموسى: ﴿**وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيكَ مَرَّةً أُخْرَى**﴾ [طه: ٣٧]. وقال أهل الجنة: ﴿**فَمَنَّ اللهُ عَلَينا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ**﴾ [الطور: ٢٧] وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِم**﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية. وقال: ﴿**ونُرِيْدُ أَن نَّمُنَّ**

**عَلَى الذين اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ [القصص: ٥] الآية.

**وفي** الصحيح أنَ النبي ﷺ، قال للأنصار: «**ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟**» فجعلوا يقولون له: الله ورسوله أمن. فهذا جواب العارفين بالله ورسوله. وهل المنة كل المنة إلا لله المان بفضله الذي جميع الخلق في مننه؟ وإنما قبحت منة المخلوق لأنها منة بما ليس منه، وهي منة يتأذى بها الممنون عليه.

**وأما** منة المنان بفضله التي ماطاب العيش إلا بمنته، وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها على من أنعم عليه، فتلك لا يجوز نفيها. وكيف يجوز أن يقال إنه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة؟ وهل هذا إلا من أبطل الباطل؟

**فإن** قيل: هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء، وليس مرادهم ما ذكر، وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به، وإن كانت لله فيه المنة عليهم، فإنه لا يمن عليهم به، بل يقال: هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وهذا أجركم، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لا نمن عليكم بما أعطيناكم.

**قيل:** وهذا أيضًا هو الباطل بعينه، فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمنًا له، ولا معاوضة عنه. وقد قال أعلم الخلق بالله ﷺ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١) فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده. وكما أنه ـ سبحانه ـ المان بإرسال رسله، وبالتوفيق لطاعته وبالإعانة عليها، فهو المان بإعطاء الجزاء، وذلك كله محض منته وفضله وجوده، لا حق لأحد عليه، بحيث إذا وفاه إياه لم يكن له عليه منه. فإن كان في الدنيا باطل فهذا ليس منه في شيء.

**فإن** قيل: كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بأن حق العباد عليه إذا

---

(١) في البخاري ومسلم.

وحدوه أن لا يعذبهم[1] وقد أخبر عن نفسه أن حقًّا عليه نصر المؤمنين.

**قيل:** لعمر الله هذا من أعظم منته على عباده، أن جعل على نفسه حقًّا بحكم وعده الصادق: أن يثيبهم، ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحدوه. فهذا من تمام منته، فإنه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه وإجابة سائليه.

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا، ولا سعى لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا ... فبفضله، فهو الكريم الواسع

**وقوله** سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين: ٧] أصح القولين أن هذا خطاب للإنسان، أي فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان، وهذا البرهان؟ فتقول: إنك لا تبعث ولا تحاسب، ولو تفكرت في مبدأ خلقك، وصورتك، لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقًا جديدًا، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول.

**وأيضًا** فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين، كيف يليق به أن يتركك سدى، لا يكمل ذلك بالأمر والنهي، وبيان ما ينفعك ويضرك، ولا تنقل لدار هي أكمل من هذه، ويجعل هذه الدار طريقًا لك إليها فحكمة أحكم الحاكمين، تأبى ذلك، وتقضى خلافه. قال: منصور: قلت لمجاهد: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّين﴾ عنى به محمدًا؟ فقال: معاذ الله، إنَّما عنى به الإنسان. وقال قتادة: الضمير للنبي ﷺ، واختاره الفراء. وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان.

**يقال:** كذب الرجل، إذا قال الكذب، وكذبته أنا إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه. وكذبته إذا اعتقدت كذبه وإن كان صادقًا. قال تعالى: ﴿**فإن كذبوك فقد كذبت رسل من قبلك**﴾ وقال: ﴿**فإنهم لا يكذبونك**﴾ فالأول بمعنى وأن ينسبوك إلى الكذب، والثاني بمعنى لا يعتقدون أنك كاذب، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته، جحودًا وعنادًا، هذا أصل هذه اللفظة، ويتعدى

---

(١) في حديث معاذ المتفق عليه وفيه: «وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا».

الفعل إلى الخبر بنفسه، وإلى خبره بالباء، وبقي. فيقال: كذبته بكذا، وكذبته فيه، والأول أكثر استعمالاً ومنه قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بالحَقِّ لَمَّا جَآءَهُم﴾ [ق: ٥] وقوله: ﴿وكَذَّبُوا بآيَاتِنَا﴾ [النساء: ٢٨].

**إذا** عرف هذا، فقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ اختلف في «ما» هل هي بمعنى أي شيء يكذبك، أو بمعنى من الذي يكذبك؟ فمن جعلها بمعنى أي شيء، تعين على قوله أن يكون الخطاب للإنسان، أي: فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذبًا بالدين، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق؟ ومن جعلها بمعنى: فمن الذي يكذبك، جعل الخطاب للنبي ﷺ، قال الفراء: كأنه يقول، من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما تبين له من خلق الإنسان ماوصفناه؟

**وقال** قتادة: فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين؟

**وعلى** قول قتادة والفراء إشكال من وجهين:

**أحدهما:** إقامة [ما] مقام [من] وأمره سهل.

**والثاني:** أن الجار والمجرور يستدعى متعلقًا، وهو يكذبك أي فمن يكذبك بالدين؟ فلا يخلو إما أن يكون المعنى[فمن]يجعلك كاذبًا بالدين، أو مكذبًا به، ولا يصح واحد منهما. أما الثاني والثالث فظاهر. فإن كذبته ليس معناه جعلته مكذِّبًا أو مكذَّبًا. وإنما معناه نسبته إلى الكذب. فالمعنى على هذا فمن يجعلك بعد كاذبًا بالدين، وهذا إنما يتعدى إليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثي، فلا يقال: كذب كذا، وإنما يقال كذب به.

**وجواب** هذا الإشكال أن قوله: كذب بكذا معناه كذب المخبر به ثم حذف المفعول به لظهور العلم به، حتى كأنه نسى وعدوا الفعل إلى المخبر به، فإذا قيل من يكذبك بكذا؟ فهو بمعنى كذبوك بكذا سواء، أي نسبوك إلى الكذب في الإخبار به، بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور، فإن الخطاب إذا كان للإنسان، وهو المكذب، أي فاعل التكذيب، فكيف يقال له: مايكذبك؟ أي يجعلك مكذبًا. والمعروف كذبه إذا جعله كاذبًا لا مكذبًا. ومثل فسقه إذا جعله فاسقًا، لا مفسقًا لغيره.

**وجواب** هذا الإشكال: أن صدق وكذب ـ بالتشديد ـ يراد به معنيان: (أحدهما) النسبة. وهي إنما تكون للمفعول كما ذكرتم (والثاني) الداعي والحامل على ذلك، وهو يكون للفاعل. قال الكسائي: يقال، ماصدقك بكذا، أو ماكذبك بكذا، أي ماحملك على التصديق والتكذيب.

**قلت** وهو نظير ماأجرأك على هذا، أي ماحملك على الاجتراء عليه، وماقدمك وماأخرك، أي مادعاك، وحملك على التقديم والتأخير. وهذا استعمال سائغ موافق للعربية وبالله التوفيق.

(١)... **ثم** ختم السورة بقوله: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينْ**﴾ [التين: ٨] وهذا تقرير لمضمون السورة، من إثبات النبوة، والتوحيد، والمَعاد، وحكمه بتضمن نصره لرسوله على من كذبه، وجحد ماجاء به، بالحجة والقدرة والظهور عليه، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه، وإن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعد ماظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق، حالاً بعد حال، إلى أكمل الأحوال. فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته؟ فالله ماأخصر لفظ هذه السورة، وأعظم شأنها، وأتم معناها. والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التين
والحمد لله رب العالمين

---

(١) **٣٥** التبيان.



بسم الله الرحمن الرحيم

[(١)] **أول** سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم فذكر فيها ما مَنَّ به على الإنسان من تعليمه مالم يعلم. فذكر فيها فضله بتعليمه، وتفضيله الإنسان بما علّمه إياه، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم.

**فقال** تعالى: ﴿اقْرَأْ باسْم رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ ورَبُّك الأَكْرَمُ * الذَّي عَلَّمَ بِالْقَلَم * عَلَّم الإِنْسَانَ مالم يَعْلَمْ﴾ [الفلق: ١-٥].

**فافتتح** السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصًا وعمومًا. فقال: ﴿الذي خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقَ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم﴾.

**وخص** الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته، وإنه لا إلـه غيره ولا رب سواه.

**وذكر** هنا مبدأ خلقه من **علق** لكون العلقة مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة، فهي مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقرآءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم، وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فإنه الخير كله بيديه والخير كله منه، والنعم كلها هو موليها، والكمال كله والمجد كله له فهو الأكرم حقًّا.

**ثم** ذكر تعليمه عمومًا وخصوصًا. فقال الذي علم بالقلم، فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصًا. فقال: ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَم يَعْلَمْ﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها. فإن الوجود له مراتب أربع:

**إحداها:** مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله: ﴿خلق﴾.

---

(١) ٥٨ مفتاح جـ١.

**المرتبة** الثانية: الذهنية المدلول عليها بقوله: ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾.

**المرتبة** الثالثة والرابعة: اللفظية والخطية، فالخطية مصرح بها في قوله الذي علم بالقلم، واللفظية من لوازم التعليم بالقلم، فإن الكتابة فرع النطق، والنطق فرع التصور.

**فاشتملت** هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها، وأنه ـ سبحانه ـ هو معطيها بخلقه وتعليمه فهو الخالق المعلم. وكل شيء في الخارج فبخلقه وجد. وكل علم في الذهن فبتعليمه حصل. وكل لفظ في اللسان أو خط في البنان فبإقداره وخلقه وتعليمه. وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إلـه إلا هو الرحمن الرحيم.

**والمقصود** أنه ـ سبحانه ـ تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بهذا شرفًا وفضلاً له.

(1)**تنبيه** ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين: البيان النطقي، والبيان الخطي، وقد اعتد بهما ـ سبحانه ـ في جملة من اعتد به من نعمه على العبد، فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ من علق * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالقلم * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] إعطاء الوجود الخارجي.

**ثم** ذكر ثانيًا خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة، والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم، وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة، وفي سائر المواضع يذكر ماهو سابق عليها، إما مادة الأصل وهو التراب والطين، أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين. وذكر في هذا الموضع أول مبادىء تعلق التخليق وهو العلقة، فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة.

**ثم ذكر** ثالثًا التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب

---

(١) ٢٧٨ مفتاح جـ١.

المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين، للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لا نقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف.

**وكان** معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاءًا حافظًا للعلم من الضياع: كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان.

**فنعمة** الله ـ عز وجل ـ بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم.

**والتعليم** به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإنه الذي بلغ به ذلك، وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه الله وإياه وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم فإنه علمه فتعلم، كما أنه علمه الكلام فتكلم.

**هذا** ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به. ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات. ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه. ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد.

**فكم** لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم، فقف وقفة في حال الكتابة، وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد، وضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم، وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل، فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرّك بها بنانك حتى صارت نقشًا عجيبًا، معناه أعجب من صورته، فتقضى به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك، ويتكلم على لسانك، ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك مالا يجدي من ترسله، سوى من علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم.

**والتعليم** بالقلم يستلزم المراتب الثلاث: مرتبة الوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الرسمي، فقد دل التعليم بالقلم على أنه ـ سبحانه ـ هو المعطي

لهذه المراتب. ودل قوله: ﴿خلق﴾ على أنه يعطى الوجود اللفظي.

**فدلت** هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها، على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقًا وتعليمًا.

**وذكر** خلقين وتعليمين خلقًا عامًّا، وخلقًا خاصًّا، وتعليمًا خاصًّا، وتعليمًا عامًّا، وذكر من صفاته هاهنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير، وكل كمال.

**فله** كل كمال وصفًا، ومن كل خير فعلاً، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه، لا من حاجة دعته إلى ذلك، وهو الغني الحميد.

(١)**قال** تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦-٧] ولم يقل: إن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئًا عن رؤية غنى نفسه، ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل، بل قال: ﴿وأَمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٨-١٠] وهذا - والله أعلم - لأنه ذكر موجب طغيانه، وهو رؤية غنى نفسه، وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى، وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته، فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين ولا يجد بدًّا من امتثال أوامره، ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إعطاء ماوجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال. وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى، وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿لِلَّذينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وزيادة﴾ [يونس: ٢٦].

**ومن** فسرها بشهادة أن لا إله إلا الله، فلأنها أصل الإحسان، وبها تنال الحسنى. ومن فسرها بالخلف في الإنفاق، فقد هضم المعنى حقه، وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلف جزءًا من أجزاء الحسنى.

**والمقصود** أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما مناف للفقر والعبودية.

(٢)... **قال** تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧] فإذا

---

(١) ١٤ طريق الهجرتين.	(٢) ١٠٧ مدارج جـ٣.

كان هذا غِنى بالحطام الفاني، فكيف بالغنى بما هو أعلى من ذلك وأكثر؟ فصاحب هذا إن لم يصحبه حذر المكر: خيف عليه أن يسلبه وينحط عنه.

و«**المكر**» الذي يخاف عليه منه: أن يُغَيِّب الله ـ سبحانه ـ عنه شهود أوليته في ذلك ومنته وفضله، وأنه محض منته عليه، وأنه به وحده، ومنه وحده. فيغيب عن شهود حقيقة قوله تعالى: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ**﴾ [النحل: ٥٣]. وقوله: ﴿**قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّه لله**﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقوله: ﴿**وإن يَمْسَسْكَ الله بضرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وإن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيْبُ بِهِ مَن يشآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [يونس: ١٠٧]. وقوله: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلقى إليك الكتابُ لا رحمةً مِن رَّبِّك**﴾ [القصص: ٨٦]. وقوله: ﴿**ولولاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُه مازَكَى مِنْكُمْ مِن أَحَدٍ أَبدًا وَلكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاَء**﴾. [النور: ٢١]. وأمثال ذلك.

**فيغيبه** عن شهود ذلك، ويحيله على معرفته في كسبه وطلبه، فيحيله على نفسه التي لها الفقر بالذات، ويحجبه عن الحِوالة على الملِيء الوَفِيِّ الذي له الغنى التام كله بالذات، فهذا من أعظم أسباب المكر. والله المستعان.

(١)**ولو** بلغ العبد من الطاعة مابلغ، فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر. وقد خافه خيار خلقه، وصفوته من عباده. قال شعيب ﷺ، وقد قال له قومه: ﴿**لَنُخْرِجَنَّكَ ياشُعَيْبُ والذين آمَنُوا مَعَكَ من قَرْيَتِنا أو لَتعُودُنَّ في مِلَّتِنا قالَ أَوَ لو كُنَّا كَارِهين قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إن عُدْنا في مِلَّتكم بعد إذ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا**﴾ إلى قوله: ﴿**عَلَى الله تَوَكَّلْنا**﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩] فردَّ الأمر إلى مشيئة الله ـ تعالى ـ وعلمه، أدبًا مع الله، ومعرفة بحق الربوبية، ووقوفًا مع حد العبودية.

**وكذلك** قال إبراهيم ﷺ، لقومه ـ وقد خوفوه بآلهتهم ـ فقال: ﴿**وَلاَ أَخافُ مَا تُشْرِكُون به إلاَّ أَن يشآءَ رَبِّي شَيئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيءٍ علمًا**﴾ [الأنعام: ٨٠] فرد الأمر إلى مشيئة الله وعلمه. وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ الله فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إلاَّ القَوْمَ الخَاسِرُون**﴾ [الأعراف: ٩٩].

(١) ١٠٧ مدارج جـ٣.

## فائـــدة[1]

**ماالفائدة** في إبدال النكرة من المعرفة وتبيينها بها، فإن كانت الفائدة في النكرة فلم ذكرت المعرفة؟ وإن كانت في المعرفة فما بال ذكر النكرة؟!

**قيل:** هذا فيه نكتة بديعة، وهي أن الحكم قد يعلق بالنكرة السابقة فتذكر، ويكون الكلام في معرض أمر معين في الجنس مدحًا أو ذمًّا، فلو اقتصر على ذكر المعرفة لا ختص الحكم به، ولو ذكرت النكرة وحدها لخرج الكلام عن التعرض لذلـك المعـين، فلما أريد الجنس أتى بالنكـرة ووصفت إشعـارًا بتعليق الحكم بالوصف، ولما أتى بالمعرفة كان تنبيهًا على دخول ذلك المعين قطعًا.

**ومثال** ذلـك قولـه تعـالى: ﴿لَنَسْفَعًـا بِالنَّـاصِيَـةِ * نَاصِيَـةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] فإن الآية كما قيل نزلت في أبي جهـل ثم تعلق حكمها بكل من اتصف به فقال: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ تعيينًا ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾ تعدية وتعميمًا[2] ولذلك اشترط في النكرة في هذا الباب أن تكون منعوتة لتحصل الفائدة المذكورة وليتبين المراد.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العلق
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٨ بدائع جـ٢.

(٢) ماأثبتناه في المخطوطة وفي المطبوعة «لعدمه وتنبيهًا» (ج).




## بسم الله الرحمن الرحيم

[1]**وسئل** ﷺ عن ليلة القَدْر، أفي رمضان أو في غيره؟ قال: «**بل في رمضان**» فقيل: تكون مع الأنبياء ماكانوا فإذا قُبضوا رُفِعَتْ أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: «**بل هي إلى يوم القيامة**» فقيل: في أي رمضان هي؟ قال: «**الْتَمِسُوها في العَشْر الأول، أو في العشر الآخر**» فقيل: في أي العشرين؟ قال: «**ابتغوها في العشر الأواخر، لاتسألني عن شيء بعدها**» فقال: أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي، فغضب غضبًا شديدًا وقال: «**التمسوها في السبع الأواخر، لاتسألنَّ عن شيء بعدها**» ذكره أحمد، والسائل أبو ذر.

**وعند** أبي داود أنه ﷺ سئل عن ليلة القدر فقال: «في كل رمضان».

**وسئل** عنها أيضًا فقال: «كم الليلة؟» فقال السائل: ثنتان وعشرون، فقال: «هي الليلة» ثم رجع فقال: «أو القابلة» يريد ثلاثًا وعشرين، ذكره أبو داود.

**وسأله** ﷺ عبدالله بن أنيس: متى نلتمس هذه الليلة المباركة؟ فقال: «**التمسوها هذه الليلة**» وذلك مساء ليلة ثلاث وعشرين.

**وسألته** ﷺ عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إن وافقتها فبِمَ أدعو؟ قال: «**قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعْفُ عني**» حديث صحيح.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القدر
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٨٩ أعلام جـ٤.




## بسم الله الرحمن الرحيم

## فصل (١)

**ومن** منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإخلاص».

**قال** الله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَّهُ الدِّينَ﴾. [البينة: ٥]. وقال: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصًا له الدين * ألاَ لله الدِّين الخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

**وقال** لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ الله أعْبُدُ مُخْلِصًا لَّه دِيْنِي، فَاعْبُدوا ماشِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥] وقال له: ﴿قُلْ إنَّ صَلاَتِي ونُسُكِي ومَحيايَ ومَماتِي لله رَبِّ العَالَمِيْنَ * لا شَرِيْكَ لَهَ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وأنَا أوَّلُ الْمُسلِمِيْنْ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

**وقال:** ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: ياأباعلي، ماأخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا. لم يقبل. وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا: لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرجوُ لقآءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا. ولايُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَن أحْسَنُ دِينًا ممن أسْلَمَ وَجْهَهِ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته. وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناه هَبآءً مَنْثورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

**وهي** الأعمال التي كانت على غير السنة. أو أريد بها غير وجه الله.

---

(١) ٨٩ مدارج جـ٢

**قال** النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -: «**إنك لن تُخَلَّف، فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله تعالى: إلا ازددت به خيراً، ودرجة ورفعة**».

**وفي** الصحيح من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث لايَغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر. ولزوم جماعة المسلمين. فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» أي لايبقى فيه غِلٌّ، ولايحمل الغِلَّ مع هذه الثلاثة، بل تنفى عنه غِلَّه. وتُنقيه منه. وتخرجه عنه. فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش. وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة. فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودَغَلاً. ودواء هذا الغل، واستخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة.

**وسئل** رسول الله ﷺ عن الرجل: يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة. ويقاتل حمية: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**».

**وأخبر** عن أول ثلاثة تُسَعَّر بهم النار: قاريء القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قاريء، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله.

**وفي** الحديث الصحيح الإلـهي يقول الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به. وأنا منه بريء**».

(١)﴿**وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينْ لَهُ الَّدين**﴾ [البينة: ٥]. فنفى سبحانه أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية.

**ومعلوم** أن إخلاص النية للمعبود أصل لنية أصل العبادة فإذا لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه عز وجل.

**ومعلوم** أن النية جزء من العبادة، بل هي روح العبادة كما تبين علم أن

(١) ١٨٩ بدائع جـ٣

العمل الذي لم ينو ليس بعبادة ولامأمور به، فلا يكون فاعله متقربًا به إلى الله تعالى، وهذا مما لا يقبل نزاعًا.

**ومن** نكت المسألة أن يفرق بين الأفعال التي لاتقع إلا منوية عادة وبين الأفعال التي تقع منوية وغير منوية.

**فالأولى** كالوضوء المرتب عضوًا بعد عضو، فإنه لا يكاد يتصور وقوعه من غير نية، فإن علم الفاعل بما يفعله وقصده له هو النية، والعاقل المختار لا يفعل فعلًا إلا مسبوقًا بتصوره وإرادته، وذلك حقيقة النية فليست النية أمرًا خارجًا عن تصور الفاعل وقصده لما يريد أن يفعله.

**وبهذا** يعلم غلط من ظن أن للتلفظ مدخلًا في تحصيل النية. فإن القائل إذا قال: نويت صلاة الظهر أو نويت رفع الحدث. إما أن يكون مخبرًا أو منشئًا. فإن كان مخبرًا فإما أن يكون إخباره لنفسه أو لغيره وكلاهما عبث لا فائدة فيه، لأن الإخبار إنما يفيد إذا تضمن تعريف المخبر مالم يكن عارفًا به، وهذا محال في إخباره لنفسه.

**وإن** كان إخبارًا لغيره بالنية فهو عبث محض، وهو غير مشروع ولامفيد، وهو بمثابة إخباره له بسائر أفعاله من صومه وصلاته وحجه وزكاته، بل بمنزلة إخباره له عن إيمانه وحبه وبغضه، بل قد تكون في هذا الإخبار فائدة، وأما إخبار المأمومين أو الإمام أو غيرهما بالنية فعبث محض ولايُصح أن يكون ذلك إنشاء، فإن اللفظ لا ينشيء وجود النية وإنما إنشاؤها إحضار حقيقتها في القلب لا إنشاء اللفظ الدال عليها. فعلم بهذا أن التلفظ بها عبث محض فتأمل هذه النكتة البديعة...

(1)**قال** تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ واحدٌ فَمَنْ كَانَ يَرجُو لِقَـآءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا. ولايُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَدًا﴾** [الكهف: ١١٠].

**أي** كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده،

---

(١) ١٧٦ الجواب الكافي

فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية. فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة. وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا. واجعله لوجهك خالصًا. ولا تجعل لأحد فيه شيئًا» وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله ـ سبحانه ـ إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى: ﴿وماأُمِروا إلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الِّدِينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥] فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به فلا يصح ولايقبل منه، ويقول الله تعالى[١]: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء**» وهذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر ومغفور وغير مغفور. والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لايغفره الله، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أندادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿تَالله إنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إذْ نُسَوِّيْكم بِرَبِّ الْعَـالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] ومعلوم أنهم ماسووهم به سبحانه في الخلق والـرزق والإمـاتـة والإحياء والملك والقـدرة، وإنـما سووهم به في الحب والتأله والخضوع والتذلل وهذا غاية الجهل والظلم. . .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البينة
والحمد لله رب العالمين

---

(١) في الحديث القدسي.




## بسم الله الرحمن الرحيم

## فـائـدة(١)

**إذا** غصب مالاً وبنى به رباطًا أو مسجدًا أو قنطرة فهل ينفعه ذلك أو يكون الثواب للمغصوب منه؟ قال ابن عقيل: لاثواب على ذلك لواحد منهما: أما الغاصب فعلية العقوبة وجميع تصرفاته في مال الغير آثام متكررة. وأما صاحب المال فلا وجه لثوابه، لأن ذلك البناء لما يكن له فيه نية ولا حسبة وما لم يكن للمكلف فيه عمل ولا نية فلا يثاب عليه، وإنما يطالب غاصبه يوم القيامة فيأخذ من حسناته بقدر ماله.

**قلت:** في هذا نظر، لأن النفع الحاصل للناس متولد من: مال هذا، وعمل هذا. والغاصب وإن عوقب على ظلمه وتعديه واقتص المظلوم من حسناته فما تولد من نفع الناس بعمله له، وغصب المال عليه وهو لو غصبه وفسق به لعوقب عقوبتين فإذا غصبه وتصدق به أو بنى به رباطًا أو مسجدًا أو فك به أسيرًا فإنه قد عمل خيرًا وشرًا ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيْرًا يَرَه * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شَرًّا يَرَه**﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

**وأما** ثواب صاحب المال فإنه وإن لم يقصد ذلك فهو متولد من مال اكتسبه فقد تولد من كسبه خير لم يقصده فيشبه مايحصل له من الخير بولده البار وإن لم يقصد ذلك الخير.

**وأيضا** فإن أخذ ماله مصيبة فإذا انفق في خير فقد تولد له من المصيبة خير والمصائب إذا ولدت خيرًا لم يعدم صاحبها منه ثوابًا، وكما أن الأعمال إذا ولدت خيرًا أثيب عليه وإن لم يقصده، فالمصائب إذا ولدت خيرًا لم يمنع أن يثاب عليه وإن لم يقصده، **والله أعلم**.

---

(١) ١٧١ بدائع جـ٣

(١)**وسئل** ﷺ عن الخمر؛ فقال: «**ما أنزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الْفَاذَّة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهْ ومن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرة شرًّا يره﴾**» ذكره مسلم.

**وسألته** ﷺ أم سَلَمة فقالت: إني ألبس أوْضاحًا من ذهَب، أكنز هو؟ قال: «**مابلغ أن تؤدي زكاته فزكي فليس بكنز**» ذكره مالك.

**وسئل** ﷺ: في المال حق سوى الزكاة؟ قال: «**نعم**»، ثم قرأ: **﴿وآتَى المالَ عَلَى حُبِّه﴾** [البقرة: ١٧٧] ذكره الدارقطني.

**وسألته** ﷺ امرأة فقالت: إن لي حليًّا، وإن زوجي خفيف ذات اليد، وإن لي ابن أخ، أفيجزيء عني أن أجعل زكاة الحلي فيهم؟ قال: «**نعم**».

**وذكر** ابن ماجه أن أبا سيارة سأله فقال: إن لي نخلاً، فقال: «**أد العشر**» فقلت: يارسول الله أحْمِهَا لي، فحماها لي.

**وسـألـه** ﷺ العباس عن تعجيل زكاته قبل أن يَحُول الحول، فأذن له في ذلك، ذكره أحمد.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزلزلة
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٢٨٩ أعـلام جـ٤.




## بسم الله الرحمن الرحيم

(1)**الله** ـ سبحانه وتعالى ـ أقسم بالخيل في كتابه، وذلك يدل على شرفها وفضلها عنده، قال تعالى: ﴿والعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ١-٣] أقسم ـ سبحانه ـ بالخيل تعدو في سبيله. والضبح صوت في أجوافها عند جريها. فالموريات قدحًا. توري النار بحوافرها عندما تصك الحجارة. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ [العاديات: ٤] النقع الغبار تثيره الخيل عند عدوها، والضمير في [به] قيل: يعود على القدح، وهو ضعيف، فإن الغبار لا يثار بالقدح.

**وقيل** عائد على المغار المدلول عليه بقوله: فالمغيرات أي: أثرن بالمغار غبارًا لكثرة جولانها فيه. ويجوز أن يعود على المغار الذي هو مصدر أي الغبار بسبب الإغارة. ويجوز أن يعود على العدو المفهوم من لفظ العاديات. والضمير في [به] الثانية مثل الأولى.

**وقيل** عائد على النقع أي وسطن جمعًا ملتبسات بالنقع وعلى هذا فجمع هنا بجمع العدو، وهذا قول ابن مسعود.

**وقال** علي: المراد بها إبل الحاج، أقسم الله ـ سبحانه ـ بها لعدوها في الحج الذي هو في سبيله، وجمع الذي وسطن به هو مزدلفة أخرت وقت الصبح. والقول الأول أرجح لوجوه:

**أحدها:** أن المستعمل بالضبح إنما هو الخيل، ولهذا قال أهل اللغة: الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت، قال الله تعالى: ﴿والعَادِيَات ضَبْحًا﴾ ويقال أيضاً: ضبح الثعلب.

**الثاني:** وصفها بأنها توري النار من الحجار عند عدوها، وهذا مشهود في الخيل

---

(١) ١٢ الفروسية.

لقرع سنابكها من الحديد الصفا فيتولد قدح النار من بينهما، كما يتولد من الحديد والصوان عند القدح.

**الثالث:** أنه وصفها بالإغارة وهي وإن استعملت للابل كما كانت قريش تقول: «أشرق ثبير كيما نغير» لكن استعمالها في إغارة الغزو أكثر.

**الرابع:** أنه ـ سبحانه ـ وقت الإغارة بالضبح، والحاج عند الصبح لا يغيرون، وإنما يكونون بموقف مزدلفة، وقريش إذ ذاك لم تكن تغير حتى تطلع الشمس فلم تكن تغير بالصبح قريش ولا غيرها من العرب. في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان في الغزو لا يغير حتى يصبح، فإذا أصبح فإن سمع أذانًا أمسك وإلا أغار.

**الخامس:** أنه ـ سبحانه ـ عطف توسط الجمع بالفاء التي هي للترتيب بعد الإغارة وهذا يقتضي أنها أغارت وقت الصبح فتوسط الجمع بعد الإغارة. ومن المعلوم أن إبل الحاج لها إغارتان. إغارة في أول الليل إلى جمع، وإغارة قبل طلوع الشمس منها إلى منى. والإغارة الأولى قبل الصبح ولا يمكن الجمع بينهما وبين وقت الصبح وبين توسط جمع وهذا ظاهر.

**السادس:** أن النقع هو الغبار وجمع مزدلفة وماحوله كله صفا، وهو واد بين جبلين لا غبار به تثيره الابل، والله أعلم بمراده من كلامه.

(1)**ومن** ذلك إقسامه ـ سبحانه ـ: ﴿**والعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيْرات صُبْحًا**﴾ [العاديات: ١-٣].

**وقد** اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك، فقال علي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ: هي إبل الحاج، تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى، وهذا اختيار محمد بن كعب، وأبي صالح، وجماعة من المفسرين.

**وقال** عبدالله بن عباس: هي خليل الغزاة، وهذا قول أصحاب ابن عباس، والحسن، وجماعة، واختاره الفراء، والزجاج.

**قال** أصحاب الإبل. السورة مكية، ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد. وإنما

---

(١) ٤٨ التبيان.

أقسم بها يعرفونه ويألفونه، وهي إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلى مزدلفة، **فهي** عاديات، والضبح والضبع مد الناقة ضبعها في السير، يقال ضبحت وضبعت بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة، وقد اختار هذا القول:

فكان لكم أجري جميعًا وأضبحت بي البازل الوجناء في الآل تضبح

**قالوا:** فهي تعدو ضبحًا، فتوري بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها ببعض فتثير النقع - وهو الغبار - بعدوها، فيتوسط جمعًا، وهي المزدلفة.

**قال** أصحاب الخيل: المعروف في اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدون، والمعنى والعاديات ضابحة، فيكون ضبحًا مصدرًا على الأول، وحالاً على الثاني.

**قالوا:** والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحًا، وهو صوت يسمع من أجوافها، ليس بالصهيل ولا الحمحمة، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة العدو. وقال الجرجاني: كلا القولين قد جاء في التفسير، إلا أن السياق يدل على أنها الخيل، وهو قوله تعالى: ﴿**فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا**﴾ والإيراء لايكون إلا للحافر، لصلابته. وأما الخف فيه لين واسترخاء. انتهى.

**قالوا:** والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل، والإيراء لسنابك الخيل أبين منه لاخفاف الإبل. قالوا: والنفع هو الغبار، وإثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل، والضمير في [به] عائد على المكان الذي تعدو فيه.

**قالوا:** وأعظم مايثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو، لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان.

**وأما** حمل الآية في إثارة الغبار في وادي محسر عند الإغارة، فليس بالبين، ولايثور هناك غبار في الغالب، لصلابة المكان.

**قالوا:** وأما قولكم إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد، فهذا لايلزم، لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في غزو، فأغارت فأثارت النقع، وتوسطت جمع العدو. وهذا أمر معروف. وذكر خيل المجاهدين أحق مادخل في هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص. فإن هذا

شأن خيل المقاتلة. وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين. والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به الغزو والظفر، والنصر على الأعداء، فيعدوا طالبة للعدو وهاربة منه، فيثير عدوها الغبار لشدته، وتوري حوافرها وسنابكها النار من الأحجار، لشدة عدوها، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء.

**فهذا** من أعظم آيات الرب تعالى، وأدلة قدرته وحكمته. فذكرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم، ويدركون به تأثرهم.

**كما** ذكرهم ـ سبحانه ـ بنعمه عليهم في خلق الإبل التي تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد، فالإبل أخص بحمل الأثقال، والخيل أخص بنصرة الرجال، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا، وخص الإغارة بالصبح لأن العدو لم ينتشروا إذ ذاك ولم يفارقوا محلهم، وأصحاب الإغارة حامون مستريحون، يبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا أهبتهم، بل هم في غرتهم وغفلتهم، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر، فإن سمع مؤذنًا أمسك، وإلا أغار.

**ولما** علم أصحاب الإبل أن أخفافها أبعد شيء من وري النار تأولوا الآية على وجوه بعيده. فقال محمد بن كعب: هم الحاج إذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة، وعلى هذا فيكون التقدير: فالجماعات الموريات، وهذا خلاف الظاهر. وإنما الموريات هي العاديات، وهي المغيرات.

**روى** سعيد بن جبير عن ابن عباس: هم الذين يغيرون، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم، كأنهم أخذوه من قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ**﴾ [الواقعة: ٧١] وهذا إن أريد به التمثيل، وأن الآية تدل عليه فصحيح، وإن أريد به اختصاص الموريات فليس كذلك، لأن الموريات هي العاديات بعينها. ولهذا عطفها عليه بالفاء التي للتسبب، فإنها عدت فأورت.

**وقال** قتادة: الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين، وهذا ليس بشيء، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها.

**وأضعف** منه قول عكرمة: هي الألسنة توري نار العداوة بعظيم مانتكلم به. وأضعف منه ماذكر عنه مجاهد: هي أفكار الرجال، توري نار المكر والخديعة في الحرب.

**وهذه** الأقوال إن أريد أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد فغلط. وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب.

**وتفسير** الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ. وهو الذي ينحو إليه المتأخرون. وتفسير على المعنى. وهو الذي يذكره السلف. وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم. وهذا لابأس به بأربعة شرائط: أن لايناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحًا في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم. فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا.

**وأضعف** من ذلك كله قول ابن جريج : قدحًا، يعني: فالمنجحات أمرًا، يريد البالغين بنجحهم فيما طلبوه، وعطف قوله: ﴿فَأَثَرْنَ﴾ ﴿فَوَسَطْنَ﴾ وهما فعلان على العاديات، والموريات لما فيه من معنى الفعل.

**وكان** ذكر الفعل في أثرن ووسطن أحسن من ذكر الاسم لأنه سبحانه قسم أفعالها إلى قسمين: وسيلة، وغاية، فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإبراء والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع. فهن عاديات موريات مغيرات. حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع. فالأول شأنهن الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه، والله أعلم.

## فصــل

**فهذا** شأن القسم، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الإنسان، وهو كون الإنسان كنودًا بشهادته على نفسه، أو شهادة ربه عليه، وكونه بخيلاً لحبه المال. والكنود للنعمة.

**وفعله** كند يكند كنودًا، مثل كفر يكفر كفورًا، والأرض الكنود التي لاتنبت شيئًا، وامرأة كندى أي كفور للمعاشرة، وأصل اللفظ منع الحق والخير، ورجل كنود إذا كان مانعًا لما عليه من الحق. وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وأصحابه ـ رحمهم الله تعالى ـ: هو الكفور، وقيل: هو البخيل الذي يمنع رفده، ويجيع عبده، ولا يعطي في النائبة. وقال الحسن: هو اللوام لربه، يعد المصائب، وينسى النعم.

(1)**ولو** علم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها. وأنه أولى بكل ذم وظلم وأنها مأوى كل سوء. ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: «كفور جحودٌ لنعم الله». وقال أبو عبيدة: «هو قليل الخير» والأرض «الكنود» التي لا نبت بها. وقيل: التي لاتنبت شيئًا من المنافع. وقال الفضل بن عباس: «الكنود: الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان»...

(2)**وأما** قوله: ﴿وإنَّه عَلَى ذلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧] فقال ابن عباس: يريد أن ربه على ذلك لشهيد. وقيل: إن الإنسان لشهيد على ذلك، إن أنكر بلسانه أشهد ربه عليه حاله.

**ويؤيد** هذا القول سياق الضمائر. فإن قوله: ﴿وإنَّه لِحُبِّ الْخَيْرَ لِشَدَيْدٌ﴾ [العاديات: ٨] للإنسان فافتتح الخبر عن الإنسان بكونه كنودًا، ثم ثنّاه بكونه شهيدًا على ذلك، ثم ختمه بكونه بخيلاً بماله لحبه إياه.

---

(١) ١٩١ مدارج جـ١.		(٢) ٥١ التبيان.

**ويؤيد** قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه أتى بعلي. فقال: ﴿وإنَّه عَلى ذلِكَ لَشَهِيْدٌ﴾ أي مطلع عالم به. كقوله: ﴿ثُمَّ الله شهيدٌ على مايَفْعلون﴾ [يونس: ٤٦] ولو أريد شهادة الإنسان لأتى بالباء. فقيل وإنه بذلك لشهيد. كما قال تعالى: ﴿ما كَانَ لِلْمُشْرِكين أن يَعْمُروا مسَاجِدَ الله شَاهِدِينْ عَلَى أنْفُسِهم بالكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] فلو أراد شهادة الإنسان لقال: وإنه على نفسه لشهيد. فإن كنوده المشهود به، ونفسه هي المشهود عليها.

**ثم** قال تعالى: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ والخير هنا المال باتفاق المفسرين. والشديد البخيل من أجب حب المال، فحب المال هو الذي حمله على البخل. هذا قول الأكثرين. وقال ابن قتيبة: بل المعنى: إنه لشديد الحب للخير، فتكون االلام في قوله: ﴿لحب الخير﴾ متعلقة بقوله: ﴿لشديد﴾ على حد تعلق قولك: إنه لزيد لضارب. **ومنعت** طائفة من النحاة أن يعمل مابعد اللام فيما قبلها، وهذه الآيات حجة على الجواز فإن قوله: ﴿لربه﴾ معمول ﴿لكنود﴾، وقوله ﴿على ذلك﴾ معمول ﴿لشهيد﴾.

**ولا وجه** للتكلف البارد في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور. فالحق جواز أن لزيد لضارب. فوصف ـ سبحانه ـ الإنسان بكفران نعم ربه، وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم، ولا محسن إلى خلقه، بل بخيل بشكره، بخيل بماله، وهذا ضد المؤمن الكريم، فإنه مخلص لربه، محسن إلى خلقه. فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل.

**وقد** ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه. كقوله: ﴿فَوَيلٌ لِّلْمُصَلِّين * الَّذين هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُون * الَّذين هُمْ يُراءون * ويَمْنَعُونَ الماعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧] فالرياء ضد الاخلاص. ومنع الماعون ضد الإحسان. **وكذلك** قوله تعالى: ﴿إن الله لاَ يُحِبُّ مَنْ كان مُخْتالاً فَخورًا * الذين يَبْخَلُونَ ويأمُرُون النَّاسَ بالبُخْلِ ويَكتُمُونَ ماآتاهُمُ الله مِن فَضْله﴾

فاختياله وفخره من كفره وكنوده، وهذا ضد قوله: ﴿الذين يُؤْمِنُون بالغَيْب ويُقِيْمُونَ الصَّلاةَ ومما رَزَقْنَاهم يُنْفقُون﴾ [البقرة: ٣] وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا الله

ولاتُشْرِكوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا﴾ [النساء: ٣٦] وكذلك ذكر الخلقين الذميمين في قوله: ﴿والذين يُنْفِقُون أمْوالَهم رئاَءَ النَّاسِ ولا يؤمِنُون بالله ولا بالْيَوْم الآخر﴾ [النساء: ٣٧] ونظيره ﴿وَماذَا عليهم لَوْ آمَنُوا بِالله واليَوْمِ الآخِرِ وأَنْفقُوا مِمَّا رَزَقَهم الله﴾ [النساء: ٣٨].

**ونظيره** ماتقدم في سورة الليل من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى. ونظيره قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَه﴾ [الهمزة: ١، ٢] فإن الهمزة واللمزة من الفخر، والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل. وذلك مناف لسرِّ الصلاة والزكاة ومقصودهما.

**ثم** خوف ـ سبحانه ـ الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور، ويحصل مافي الصدور، أي ميز، وجمع، وبين، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع ـ سبحانه ـ بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله: «**ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا**»(١) فإن الإنسان يواري صدره مافيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزًا على الأرض، وسره باديًا على وجهه. كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ المُجرِمُون بِسَيْمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] وقال: ﴿سَنَسِمُه عَلَى الخُرْطُوم﴾ [القلم: ١٦].

**ومفعول** العلم «إن» علمت فيه، وكسرت لمكان اللام. وقيد سبحانه كونه خبيرًا بهم ذلك اليوم وهو خبير بهم في كل وقت إيذانًا بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم والمراد لازمه والله سبحانه وتعالى أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العاديات *

والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه البخاري وغيره وذلك في غزوة الأحزاب، وهي الخندق حين شغل المشركون النبي ﷺ عن صلاة العصر.

(*) في ترتيب سور المصحف تأتي سورة القارعة بعد سورة العاديات ولكن الشيخ علي الصالحي رحمه الله تعالى لم يقف على كلام لابن القيم رحمه الله تعالى حول سورة القارعة لذا وجب التنبيه حتى لا يظن أحد أن هذا خطأ منا أو سهو وقعنا فيه (الناشر).




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** ـ تعالى ـ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إلى آخرها، أخلصت هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها.

**فقوله** ـ تعالى ـ: ﴿ألهاكم﴾؛ أي شغلكم على وجه لاتعذرون فيه، فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه، فإن كان بقصد، فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد، كقوله ﷺ في الخميصة: «**إنها ألهتني آنفًا عن صلاتي**»، كان صاحبه معذورًا، وهو نوع من النسيان.

**وفي** الحديث: «فلها ﷺ عن الصبي» أي ذهل عنه، ويقال، لها بالشيء؛ أي اشتغل به، ولها عنه؛ إذا انصرف عنه.

**واللهو** للقلب، واللعب للجوارح، ولهذا يجمع بينهما، ولهذا كان قوله: ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ أبلغ في الذم من شغلكم، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل، وقلبه غير لاه به. فاللهو هو ذهول وإعراض.

**والتكاثر** تفاعل من الكثرة: أي مكاثرة بعضكم لبعض. وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وإن كل ما يكاثر به العبد غير سوى طاعة الله ورسوله، ومايعود عليه بنفع معاده فهو داخل في هذا التكاثر.

**فالتكاثر** في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولاسيما إذا لم يحتج إليه.

**والتكاثر** في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعه وتوليدها.

**والتكاثر** أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله. فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها.

---

(١) ٣٠ الفوائد.

**وفي** صحيح مسلم، من حديث عبدالله بن الشخير أنه «انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾، قال: يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ماتصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت» هـ.

(١)**الوجه** التاسع أنه ـ سبحانه ـ أخبر أن التكاثر في جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك، فقال تعالى: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثم كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾.

**فأخبر** ـ سبحانه ـ أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت، فزاروا المقابر، ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر، وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذانًا بأنهم غير مستوطنين ولامستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار، ولم يعين سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره: إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به، كما يقال شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر مايلعب ويلهو به.

**وإما** إرادة الإطلاق وهو كل ما يكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لايبتغي به وجه الله أو عمل لا يقرب به إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

**وفي** صحيح مسلم من حديث عبدالله بن الشخير أنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ماتصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت.

**ثم** أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدًا مؤكدًا إذا عاين تكاثره هباءًا منثورًا، وعلم دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعًا وغرورًا فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسره أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره

---

(١) ١٩٦ عدة الصابرين.

في دنياه ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثره إذ أفـاد منـه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظ به من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين.

**فياله** تكاثرًا ما أقله وزرءًا ما أجله، وغنى جالبًا لكل فقر، وخيرًا توصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: ياليتني قدمت لحياتي، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ * كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها، ورجعة يسـألهـا فلا يجاب إليها. وتأمل قوله أولا «رب» استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه ـ تبارك وتعالى ـ فقال: ﴿ارجعونِ﴾.

**ثم** ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: كلا، لاسبيل لك إلى الرجعى، وقد عمرت مايتذكر فيه من تذكر.

**ولما** كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استقاله، وأن يفسح له في المهلة ليتـذكـر ما فاته، أخبرـ سبحانه ـ أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحًا لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه، وأنه لوردّ لعاد لما نُهِيَ عنه، وأنه من الكاذبين، فحكمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ماسأل، فإنه لا فائدة في ذلك ولورُدَّ لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى. . .

(١)**وقوله:** ﴿كَلَّا لَو تَعْلَمُون عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] جوابه محذوف دل عليه ماتقدم، أي لما ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وألهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التي لايشـك ولايماري في صحتها وثبوتها، ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه وترتب أثره عليه، فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه، قد لايكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه

(١) ٢٠١ عدة الصابرين.

أشـد، فإذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شيء. وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ في أهل بدر:

سرنـا وسـاروا إلى بدر لحتـفهم لو يعلمـون يقين العلم ما ساروا

**وقوله: ﴿كَلَّا سوفَ تَعْلَمُون * ثم كَلَّا سَوفَ تَعْلَمُون﴾** [التكاثر: ٣، ٤].

**قيل:** تأكيد لحصـول العلم كقوله: **﴿كلا سَيَعْلَمُون * ثم كَلَّا سيعلمون﴾** [النبأ: ٤، ٥]. وقيل ليس تأكيدًا بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر. هذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس.

**ويدل** على صحة هذا القول عدة أوجه:

**أحـدهـا:** أن الفـائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل، وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

**الثاني:** توسط «ثم» بين العلمين وهي مؤذنة بتراخي مابين المرتبتين زمانًا وخطرًا.

**الثالث:** أن هذا القول مطابق للواقع فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ماكان عليه ثم يعلم في القبر ومابعده ذلك علمًا هو فوق العلم الأول.

**الرابع:** أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر.

**قال** الترمذي: حدثنا أبوكريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زرّ عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: مازلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت **﴿ألهاكم التكاثر﴾**.

**قال** الواحدي: يعني أن معنى قوله: **﴿كلَّا سوف تعلمون﴾** في القبر.

**الخامس:** أن هذا مطابق لما بعده من قوله: **﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمِ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليَقِين﴾** [التكاثر: ٦، ٧] فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثـانية بعين اليقين، وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها، ثم ختم السورة بالاخبار المؤكد: بواو القسم، ولام التأكيد، والنون الثقيلة، عن سؤال النعيم، فكل أحد يُسْأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم

لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا؟

**فالأول** سؤال عن سبب استخراجه والثاني عن محل صرفه.

**كما** في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**لاتزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسْأَلَ عن خمس، عن: عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وفي ماذا عمل فيما علم**».

**وفيه** أيضًا عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسْأَلَ عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه**» قال: هذا حديث صحيح.

**وفيه** أيضًا من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول مايُسْأَلُ عنه العبد يوم القيامة يعني من النعم أن يقال له: ألم نصح جسمك، ونرويك من الماء البارد**».

**وفيه** أيضًا من حديث الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت ﴿**لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ [التكاثر: ٨] قال الزبير: يارسول الله فأي النعيم نُسْأَلُ عنه، وإنما هو الأسودان التمر والماء. قال: «**أما أنه سيكون**» قال: هذا حديث حسن.

**وعن** أبي هريرة نحوه وقال: إنما هو الأسودان العدو حاضر سيوفنا على عواتقنا، قال: «**إن ذلك سيكون**» وقوله: «**إن ذلك سيكون**» إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم. وأما أن يرجع إلى السؤال أي: أن السؤال يقع عن ذلك وإن كان تمرًا وماء، فإنه من النعيم.

**ويدل** عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح وقد أكلوا معه رطبًا ولحمًا وشربوا من الماء البارد «**هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة**» فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه.

**وفي** الترمذي من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**يجاء**

**بالعبد يوم القيامة كأنه بذج فيوقف بين يدي الله ـ تعالى ـ فيقول الله: أعطيتك، وخوّلتك، وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يارب جمعته وثمرته فتركته أوفر ماكان فارجعني آتك به فإذا عبيد لم يقدم خيراً، فيمضى به إلى النار»**.

**وفيه** من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالاً وولدًا، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وترتع، أفكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له اليوم: أنساك كما نسيتني**» قال: هذا حديث صحيح.

**وقد** زعم طائفة من المفسرين: أن هذا الخطاب خاصّ بالكفار، وهم المسئولون عن النعيم، وذكروا ذلك عن الحسن ومقاتل واختار الواحدي ذلك واحتج بحديث أبي بكر: لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ إنما ذلك للكفار ثم قرأ: ﴿**وَهَلْ نُجَازِيْ إِلَّا الْكَفُور**﴾ [سبأ: ١٧].

**قال** الواحدي والظاهر يشهد بهذا القول لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم.

**والمعنى** أيضًا يشهد بهذا القول، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم توبيخًا لهم هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم. قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن، قال: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.

**قلت**: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل مايقتضى اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له، فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك.

**ويدل** على ذلك قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت؟ الحديث وهو في صحيح مسلم. وقائل ذلك قد يكون مسلمًا وقد يكون كافرًا.

**ويدل** عليه أيضًا الأحاديث التي تقدمت وسؤال الصحابة النبي ﷺ **وفهمهم** العموم حتى قالوا له: وأي نعيم نُسْأَلُ عنه وإنما هو الأسودان؟ فلو كان الخطاب مختصًّا بالكفار لبين لهم ذلك وقال: ما لكم ولها إنما هي للكفار؟ فالصحابة فهموا التعميم والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهمم العموم.

**وأما** حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح.

**والحديث** الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه ونحن نسوقه بلفظه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «**وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوما**» فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته قالت: مرحبًا وأهلاً فقال لها رسول الله ﷺ: «**وأين فلان؟**» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذق[1] فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذا، فأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ: «**أياك والحلوبة**» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**» فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار.

**وأيضًا** فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر وقع من المسلمين كثيرًا، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر. وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أولُ

---

(١) العذق بالفتح النخلة بحملها، والعذق بالكسر الكباسة. مختار الصحاح.

من دخـل فيه المعـاصرين لرسول الله ﷺ فهو متناول لمن بعدهم، وهذا معلوم بضرورة الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المستأخرين، فنحن اليوم ومن قبلنـا ومن بعـدنـا داخلون تحت قولـه تعالى: ﴿يَآأَيُّها الذَّين آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيـامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ونظائره، كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين فقوله: ﴿أَلهاكم التكاثر﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله، فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر، ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه.

**قيل:** هذا هو الـذي أوجب لأربـاب هذا القول تخصيصه بالكفار، لأنه لم يمكنهم حمله على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به.

**وجواب** هذا أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله: ﴿وكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١] ﴿وكَانَ الإِنْسـان قَتُـورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] ﴿إِنَّ الإِنْسَـانَ لِرَبِّه لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] ﴿وحَمَلَهَا الإِنْسَـانُ إِنَّـه كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢] ﴿إِن الإِنْسَان لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] ونـظائـره كثيرة، فالإنسان من حيث هو عارٍ عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح، وإنما الله ـ سبحانه ـ هو الذي يكمله بذلك، ويعطيه إياه، وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه، فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التي هي له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له، وجعله مريدًا للآخرة مؤثرًا لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملتهٍ بالتكاثر في الدنيا ولا بد.

**وأما** احتجـاجـه بالـوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار، فَيقال: الوعيد المذكور مشترك، وهو العلم عند معاينة الآخرة، فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلاً له في الدنيا، وليس في قوله: ﴿سوفَ تَعْلَمُونَ﴾ مايقتضي دخول النار فضلاً عن التخليد فيها، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانًا.

**وقد** أقسم الرب ـ تبارك وتعالى ـ أن لا بد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم، فليس في جملة هذه السورة ماينفي عموم خطابها.

**وأما** ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار، فباطل قطعًا إما عليه وأما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة تردّه، وبالله التوفيق.

**ولايخفى** أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير التكاثر الملهي وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها، ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم.

**وتأمل** ما في هذا العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل ارقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود.

**وتأمل** تعليقه ـ سبحانه ـ الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها.

**وأيضًا** فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه، فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولست بالأكثر منهم حصىً وإنما العزّة للكاثرِ

**فلو** حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم، إذ لم يتكاثروا بها، وكل من كاثر إنسانًا في دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة.

**فالنفوس** الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليها نفعه، وتكمل به، وتزكو، وتصير مفلحة فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك، وينافسها في هذه المكاثرة، ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد.

**وضده** تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر ملهٍ عن الله والدار الآخرة وهو صائر إلى غاية القلة فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان.

**والتكاثر** بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه، وعاقبته الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفي، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولا وأحسن عملاً وأغزر علما، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذمومًا ولا قادحا في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج - رضي الله عنهم - في تصاولهم بين يدي رسول الله، ﷺ، ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره، وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر - رضي الله عنهما -، فلما تبين له مدى سبقه له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا.

## فصل

**ومن** تأمل حسن موقع «كلا» في هذا الموضع فإنها تضمنت ردعا لهم وزجرًا عن التكاثر ونفيًا وإبطالا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به.

**فتضمنت** اللفظة نهيًا ونفيًا وأخبرهم - سبحانه - أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علمًا بعد علم، وأنهم لابد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية، بعد رؤية وأنه - سبحانه - لابد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها.

**فلله** ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة وأبلغها موعظة وتحذيرًا وأشدها ترغيبًا في الآخرة وتزهيدًا في الدنيا على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقًّا وبلغها رسوله عنه وحيا.

## فصل

**وتأمل** كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة، وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار، فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة الى المستقر. فهاهنا ثلاثة أمور: عبور

السبيل في هذه الدنيا وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار. . . .

(١)**الفرق** بين علم اليقين وعين اليقين: كالفرق بين الخبر الصادق والعيان. وحق اليقين: فوق هذا. وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك: أن عنده عسلا، وأنت لا تشك في صدقه، ثم أراك إياه، فازددت يقينًا، ثم ذُقت منه.

**فالأول:** علم اليقين. والثاني: عين التقين. والثالث: حق اليقين.

**فعلمنا** الآن بالجنة والنار: علم يقين. فإذا أرلفت الجنة في الموقف للمتقين. وشاهدها الخلائق. وبرزت الجحيم للغاوين. وعاينها الخلائق. فذلك: عين اليقين. فإذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار: فذلك حينئذ حق اليقين[١].

(٢)**قال** قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود وعن العبادة.

**وقال** تعالى: **﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾**[التكاثر: ٨]. قال محمد بن جرير: يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله ـ عز وجل ـ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟

**وقال** قتادة «إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه».

**والنعيم** المسئول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه، فيسأل عن شكره. ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

**فإذا** كان العبد مسئولاً ومحاسبًا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى: **﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾**[الإسراء: ٣٤]؛ فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

**وقد** دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾**[الحشر: ١٩] يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم

---

(١) ٤٠٣ مدارج جـ٢.

(٢) تقدم في سورة الحاقة بحث حول مراتب اليقين لمن أراده (ج).

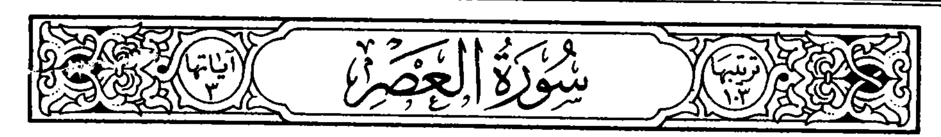
القيامة من الأعمال: أمن الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبِقُه؟

**قال** قتادة «مازال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد».

**والمقصود** أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التكاثر

والحمد لله رب العالمين




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قوله** تعالى: ﴿**والعَصْرِ * إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَوَاصَوا بالحَقِّ وتَواصَوا بالصَّبرِ**﴾ [العصر: ١-٣] قال الشافعي - رضي الله عنه - لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم.

**وبيان** ذلك: أن المراتب أربع وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله.

**إحداها** معرفة الحق. الثانية: عمله به. الثالثة: تعليمه من لا يحسنه. الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به، وتعليمه، فذكر - تعالى - المراتب الأربع في هذه السورة.

**وأقسم** - سبحانه - في هذه السورة بالعصر: أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عرفوا الحق، وصدقوا به، فهذه مرتبة.

**وعملوا** الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق، فهذه مرتبة أخرى.

**وتواصوا** بالحق، وصّى به بعضهم بعضًا: تعليمًا وإرشادًا، فهذه مرتبة ثالثة.

**وتواصوا** بالصبر، صبروا على الحق ووصّى بعضهم بعضًا بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة.

**وهذا** نهاية الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل.

**فهذه** السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله

---

(١) ٥٦ مفتاح جـ١.

الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ماسواه، شافيًا من كل داء هاديًا إلى كل خير.

(١)... **وبعد،** فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح. وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين.

**كما** قال تعالى: **﴿والْعَصْرِ * إن الإنسانَ لَفي خُسْرٍ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.**

**أقسم** ـ سبحانه ـ أن كل أحد خاسر إلا من كَمَّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمـل الصالح، وكمّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما - كان حقيقًا بالإنسان أن يُنفق ساعات عمره - بل أنفاسه - فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران. وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه وإثـارة دفـائنه وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه، فإن الكفيل بمصالح العبـاد في المعـاش والمعـاد. والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجرته.

(٢) **قـال** تعالى: **﴿وَالْعَصْرِ * إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسرٍ * إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَـاتِ وَتَواصَوْا بالْحَقِّ وتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾** [العصر: ١-٣]. فأقسم ـ سبحانه وتعالى ـ بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة، على أن كل واحد في خسر، إلا من كمّل قُوَّته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العلمية بالعمل بطاعته. فهذا كماله في نفسه، ثم كمّل غيره بوصيته له بذلك، وأمره إياه بهِ، وبملاك ذلك، وهو الصبر. فكمَّلَ نفسه بالعلم النافِع والعمل الصالح، وكمَّل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته له بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «لو فكر الناس في سورة: والعصر، لكفتهم».

---

(١) ٦ مدارج جـ١.　　(٢) ٢٥ إغاثة جـ١.

**وهذا** المعنى في القرآن في مواضع كثيرة: يخبر ـ سبحانه ـ أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، أو علموه وخالفوه، واتبعوا غيره.

**وينبغي** أن تعرف أن هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث هَمّام بالطبع، كما قال النبي ﷺ: «**أصدق الأسماء: حارث وهمام**».

**فالحارث** الكاسب العامل، والهمّام المريد، فإن النفس متحركة بالإرادة. وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مرادًا يكون مُتَصَوَّرًا لها، متميزًا عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته، وأرادته ولا بد. . . .

[1]**الاجتماع** بالإخوان قسمان:

**أحدهما:** اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

**الثاني:** الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها.

**ولكن** فيه ثلاث آفات: إحداها: تزين بعضهم لبعض، الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

**وبالجملة** فالاجتماع والخلطة لقاح، إما للنفس الأمارة وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته. وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله – سبحانه – بحكمته الطيبات للطيبين، والطيبين للطيبات، وعكس ذلك.

---

(١)

[1]**ومن** ذلك إقسامه (بالعصر) على حال الإنسان في الآخرة. هذه السورة على غاية اختصارها لها شأن عظيم. حتى قال الشافعي رحمه الله: لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم.

**والعصر** المقسم به، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار. وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته. وقيل: المراد صلاة العصر. وأكثر المفسرين على أنه الدهر. وهذا هو الراجح. وتسمية الدهر عصرًا أمر معروف في لغتهم. قال:

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ماتيما

**ويوم** وليلة بدل من العصران، فأقسم ـ سبحانه ـ بالعصر لمكان العبرة والآية فيه. فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدره العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام. وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبة تارة، واختلافهما في الضوء، والظلام، والحر، والبرد، وانتشار الحيوان، وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون، والسنين، والأشهر، والأيام، والساعات ومادونها - آية من آيات الرب تعالى، وبرهان من براهين قدرته وحكمته.

**فأقسم** بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها. ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد.

**وأن** قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد. وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيرًا وشرًّا تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به.

**وهذا** نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.

**وتأمل** حكمة القرآن لما قال: ﴿**إن الإنسان لفي خسر**﴾ فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: ﴿**إلَّا الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتواصَوا بالحَقِّ وتَوَاصَوا**

---

(١) ٥٣ التبيان.

بالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]. ولما قال: ﴿ثم رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِين﴾ [التين: ٥] وسع الاستثناء وعممه، فقال: ﴿إلا الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يقل (وتواصوا) فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح، فصار في خسر.

**ولا يلزم** أن يكون في أسفل سافلين. فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة. وقد تكون فرضًا على الأعيان. وقد تكون فرضًا على الكفاية. وقد تكون مستحبة.

**والتواصي** بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب.

**والصبر** يدخل فيه الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب.

**فهؤلاء** إذا تواصوا بالحق وتواصلوا بالصبر حصل لهم من الربح ماخسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم. فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء. وهو ـ سبحانه ـ إنما قال: ﴿إن الإنْسَان لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر، وأنه ذو خسر، كما قال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: لقد فرطنا في قراريط كثيرة[1] فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

**ولما** قال في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاه أَسْفَلَ سَافِلِين﴾ قال: ﴿إلا الَّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات﴾ فقسم الناس إلى هذين القسمين فقط.

**ولما** كان الإنسان له قوتان: قوة العلم وقوة العمل. وله حالتان حالة يأتمر فيها بأمر غيره، وحالة يأمر فيها غيره، استثنى ـ سبحانه ـ من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به من الإنسان الذي هو في خسر.

---

(١) رواه البخاري في باب فضل اتباع الجنازة. قال الحافظ: أي من عدم المواظبة على حضور الدفن. لأن ابن عمر كان يصلي على الميت ثم ينصرف.

**فإن** العبد له حالتان حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق، وصبر عليه.

**فتضمنت** الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع، والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك. وقوله تعالى: **﴿وتواصوا بالحَقِّ وتَوَاصَوا بالصَّبْرِ﴾** إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين. كقوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُون بِأمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بآيَاتِنَا يُوْقِنُون﴾** [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

**والصبر** نوعان: نوع إلى المقدور، كالمصائب. ونوع على المشروع.

**وهذا** النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي. فذاك صبر على الإرادة والفعل. وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

**فأما** النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي ﷺ في حق ابنته: **«مرها فَلتصبر ولتحتسب»**(١).

**وقال** تعالى: **﴿إلاَّ الذين صَبَرُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أولئك لَهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ﴾** [هود: ١١]. وقال تعالى: **﴿بَلى إنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾** [آل عمران: ١٢٥]. وقال: **﴿وإن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾** [آل عمران: ١٢٠].

**فالصبر** بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور. وقال تعالى: **﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾**.

**فأمره** أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر. فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وماخفوا ولا استخفوا. فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر

(١) ابنته هي زينب، بعثت إليه أن ابنًا لها قبض، فائتنا. فأرسل يقرىء السلام ويقول: **«إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى»** - الحديث رواه البخاري وغيره في كتاب الجنائز عن أسامة بن زيد.

عنـده خفيف طائش تلعب به الأهـواء والشهـوات، كما تلعب الـرياح بالشيء الخفيف. والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العصر
والحمد لله رب العالمين




**بسم الله الرحمن الرحيم**

(١)**وقوله:** ﴿وَيلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: ١، ٢] فإن الهمزة واللمزة من الفخر، والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل. وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة مقصودهما.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الهمزة *
والحمد لله رب العالمين

(١) ٥٢ التبيان.

(*) في ترتيب سور المصحف تأتي سورتا الفيل وقريش بعد سورة الهمزة ولكن الشيخ علي الصالحي رحمه الله لم يقف على كلام لابن القيم رحمه الله حول هاتين السورتين لذا وجب التنبيه على ذلك (الناشر).



## بسم الله الرحمن الرحيم

## فصـــل[1]

**فإذا** قدر أن قومًا اضطروا إلى السكنى في بيت إنسان، لا يجدون سواه، أو النزول في خان مملوك، أو استعارة ثياب يستدفئون بها، أو رحى للطحن، أو دلو لنزع الماء، أو قِدْر، أو فأس، أو غير ذلك: وجب على صاحبه بذله بلا نزاع، لكن هل له أن يأخذ عليه أجرًا؟ فيه قولان للعلماء، وهما وجهان لأصحاب أحمد.

**ومن** جوز له أخذ الأجرة حرم عليه أن يطلب زيادة على أجرة المثل.

**قال** شيخنا: والصحيح أنه يجب عليه بذل ذلك مجانًا، كما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هم يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ [الماعون: ٤- ٧] قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة: «هو إعارة القِدْر والدلو والفأس ونحوهما».

**وفي** الصحيحين عن النبي ﷺ - وذكر الخيل - قال: «**هي لرجل أجر، ولرجل سِتْر، وعلى رجل وِزْر، فأما الذي هي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، وأما الذي هي له ستر: فرجل ربطها تَغنيًا وتعففًا، ولم ينس حق الله في رقابها، ولا في ظهورها**». وفي الصحيحين عنه أيضًا: «**من حق الإبل: إعارة دلوها، وإطراق فحلها**». وفي الصحيحين عنه: «**أنه نهى عن عسب الفحل**» أي عن أخذ الأجرة عليه، والناس يحتاجون إليه، فأوجب بذله مجانًا، ومنع من أخذ الأجرة عليه. وفي الصحيحين عنه أنه قال: «**لا يمنعن جار جاره أن يغرز خشبة في جداره**».

**ولو** احتاج إلى إجراء مائه في أرض غيره، من غير ضرر لصاحب الأرض. فهل

---

(١) ٢٨٠ الطرق الحكمية.

يجبر على ذلك روايتان عن أحمد يجبر والإجبار قول عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. . . .

[(١)] **الدليل** الثالث: قوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون**﴾ [النور: ٥٦].

**فوجه** الدلالة أنه ـ سبحانه ـ علق حصول الرحمة لهم بفعل هذه الأمور، فلو كان ترك الصلاة لا يوجب تفكيرهم وخلودهم في النار لكانوا مرحومين بدون فعل الصلاة، والرب ـ تعالى ـ إنما جعلهم على رجاء الرحمة إذا فعلوها.

**الدليل** الرابع: قوله تعالى: ﴿**فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾ [الماعون: ٤، ٥].

**وقد** اختلف السلف في معنى السهو عنها، فقال سعد بن أبي وقاص ومسروق بن الأجدع وغيرهما: هو تركها حتى يخرج وقتها، وروى في ذلك حديث مرفوع، قال محمد بن نصر المروزي: حدثنا سفيان بن أبي شيبة حدثنا عكرمة بن إبراهيم حدثنا عبد الملك بن عمير عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه سأل النبي ﷺ عن ﴿**الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾ قال: «**هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها**».

**وقال** حماد بن زيد: حدثنا عاصم عن مصعب بن سعد قال قلت لأبي: ياأبتاه أرأيت قول الله: ﴿**الذين هم عن صلاتهم ساهون**﴾ أينا لا يسهو؟ أينا لا يحدث نفسه؟ قال: إنه ليس ذاك، ولكنه إضاعة الوقت.

**وقال** حيوة بن شريح: أخبرني أبو صخر أنه سأل محمد بن كعب القرظي عن قوله: ﴿**الذين هم صلاتهم ساهون**﴾، قال: هو تاركها، ثم سأله عن ﴿**الماعون**﴾، قال: منع المال عن حقه.

**إذا** عرف هذا فالوعيد بالويل اطرد في القرآن للكفار كقوله: ﴿**وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون**﴾ [فصلت: ٦، ٧].

**وقوله**: ﴿**ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن**

---

(١) ١٦ الصلاة.

لم يسمعها﴾ إلى قوله: ﴿ولهم عذابٌ مُهِينٌ﴾ [الجاثية: ٧-٩].

**وقوله:** ﴿وَيْلٌ لِلْكَافِرِين مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إلا في موضعين، وهما ﴿ويل للمطففين﴾ و﴿ويلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١١] فعلق الويل بالتطفيف والهمز واللمز. وهذا لا يكفر به بمجرده.

**فويل** تارك الصلاة إما أن يكون ملحقًا بويل الكفار أو بويل الفسَّاق. فإلحاقه بويل الكفار أولى لوجهين:

**أحدهما** أنه قد صح عن سعد بن أبي وقاص في هذه الآية أنه قال: لو تركوها لكانوا كفارًا ولكن ضيعوا وقتها.

**الثاني** ما سنذكره من الأدلة على كفره.

(١)**الدليل** السادس: قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وأَقَامُوا الَّصلاةَ وآتُوا الَّزكَاةَ فإِخْوَانُكم في الدِّيْن﴾ [التوبة: ١١] فعلق إخوتهم للمؤمنين بفعل الصلاة، فإذا لم يفعلوا لم يكونوا إخوة، فلا يكونون مؤمنين لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُون إِخْوَةٌ﴾.

**الدليل** السابع: قوله تعالى: ﴿فلا صَدَّقَ ولا صَلَّى * ولكن كَذَّبَ وتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١-٣٢] فلما كان الإسلام وتصديق الخبر والانقياد للأمر جعل ـ سبحانه ـ له ضدين: عدم التصديق، وعدم الصلاة. وقابل التصديق بالتكذيب، والصلاة بالتولي فقال: ﴿ولـكِن كَذَّب وتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣٢] فكما أن المكذب كافر، فالمتولي عن الصلاة كافر، فكما يزول الإسلام بالتكذيب، يزول بالتولي عن الصلاة.

**قال** سعيد عن قتادة: ﴿فلا صَدَّقَ ولا صَلَّى﴾ لا صَدَق بكتاب الله ولا صلى لله، ولكن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته ﴿أَوْلَى لَكَ فأَوْلى * ثُمَّ أَوْلى لَكَ فأَوْلى﴾ [القيامة: ٣٤-٣٥] وعيد على إثر وعيد.

**الدليل** الثامن: قوله تعالى: ﴿يآأَيُّها الذين آمَنُوا لا تُلْهِكُم أموَالُكم ولا أولاَدُكم عَنْ ذكرِ الله ومن يَفْعَلْ ذلك فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُون﴾ [المنافقون: ٩].

**قال** ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يقول: هي الصلاة المكتوبة.

**ووجه** الاستدلال بالآية أن الله حكم بالخسران المطلق لمن ألهاه ماله وولده عن

---

(١) ١٨ الصلاة.

الصلاة، والخسران المطلق لا يحصُل إلا للكفار. فإن المسلم ولو خسر بذنوبه ومعاصيه فآخر أمره إلى الربح. يوضحه أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أكد خسران تارك الصلاة في هذه الآية بأنواع من التأكيد:

**أحدها**: إتيانه بلفظ الاسم الدال على ثبوت الخسران ولزومه، دون الفعل الدال على التجدد والحدوث.

**الثاني**: تصدير الاسم بالألف واللام المؤدية لحصول كمال المسمى لهم، فإنك إذا قلت: زيد العالم الصالح. أفاد ذلك إثبات كمال ذلك له، بخلاف قولك عالم صالح.

**الثالث**: إتيانه ـ سبحانه ـ بالمبتدأ والخبر معرفتين، وذلك من علامات انحصار الخبر في المبتدأ، كما في قوله تعالى: ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ٥] وقوله تعالى: ﴿**والكَافِرُون هُمُ الظَّالِمُون**﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقوله: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ المؤمنون حقًّا**﴾ [الأنفال: ٤] ونظائره.

**الرابع**: إدخال ضمير الفصل. بين المبتدأ والخبر، وهو يفيد مع الفصل فائدتين أخريين: قوة الإسناد، واختصاص المسند إليه بالمسند كقوله: ﴿**وإِنَّ الله لَهُوَ الغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [الحج: ٦٤] وقوله: ﴿**والله هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ [المائدة: ٧٦] وقوله: ﴿**إِنَّ الله هوُ الغَفُورُ الرَّحِيْمُ**﴾ [الشورى: ٥] ونظائر ذلك.

**الدليل** التاسع: قوله ـ سبحانه ـ: ﴿**إِنَّما يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا الذين إذا ذُكِّرُوا بها خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [السجدة: ١٥].

**ووجه** الاستدلال بالآية أنه سبحانه نفى الإيمان عمن إذا ذكروا بآيات الله لم يخروا سجدًا مسبحين بحمد ربهم.

**ومن** أعظم التذكير بآيات الله التذكير بآيات الصلاة، فمن ذُكِّر بها ولم يتذكر ولم يصل لم يؤمن بها؛ لأنه ـ سبحانه ـ خص المؤمنين بها بأنهم أهل السجود، وهذا من أحسن الاستدلال وأقربه: فلم يؤمن بقوله تعالى: ﴿**وَأَقِيْمُوا الصَّلَاةَ**﴾ [البقرة: ٤٣] إلا من التزم إقامتها.

(١)..... **فالمؤمن** له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه. كقوله: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ [الماعون: ٤-٧] فالرياء ضد الإخلاص. ومنع الماعون ضد الاحسان.

(٢)**الدليل** العاشر: قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾ ذكر هذا بعد قوله: ﴿**كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ**﴾ [المرسلات: ٤٦، ٤٩] ثم توعدهم على ترك الركوع وهو الصلاة إذا دعوا إليها، ولا يقال: إنما توعدهم على التكذيب، فإنه - سبحانه تعالى - إنما أخبر عن تركهم لها وعليه وقع الوعيد.

**على** أنا نقول: لا يصر على ترك الصلاة إصرارًا مستمرًا من يصدق بأن الله أمر بها أصلًا، فإنه يستحيل في العادة والطبيعة أن يكون الرجل مصدقًا تصديقًا جازمًا أن الله فرض عليه كل يوم وليلة خمس صلوات، وأنه يعاقبه على تركها أشد العقاب، وهو مع ذلك مصر على تركها: هذا من المستحيل قطعًا، فلا يحافظ على تركها مصدق بفرضها أبدًا، فإن الإيمان يأمر صاحبه بها، فحيث لم يكن في قلبه ما يأمر بها فليس في قلبه شيء من الإيمان.

**ولا تصغ** إلى كلام من ليس له خبرة ولا علم بأحكام القلوب وأعمالها.

**وتأمل** في الطبيعة بأن يقوم بقلب العبد إيمان بالوعد والوعيد والجنة والنار وأن الله فرض عليه الصلاة وأن الله يعاقبه معاقبة على تركها، وهو محافظ على الترك في صحته وعافيته وعدم الموانع المانعة له من الفعل، وهذا القدر هو الذي خفي على من جعل الإيمان مجرد التصديق وإن لم يقارنه فعل واجب ولا ترك محرم، وهذا من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية.

**ونحن** نقول: الإيمان هو التصديق، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقاد صدق المخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانًا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدًا رسول الله كما يعرفون أبناءهم

(١) ٥٢ التبيان. (٢) ١٩ الصلاة.

مؤمنين مصدقين، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي يعتقدون أنك صادق ﴿ولـٰكِنَّ الـظَّالِمِـينْ بآياتِ الله يَجْحَدُون﴾ [الأنعام: ٣٣] والجحود لا يكون إلا بعد معرفة الحق، قال ـ تعالى ـ: ﴿وجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. . . .

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الماعون

والحمد لله رب العالمين




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** أبونعيم الفضل: حدثنا أبوجعفر هو الرازي: حدثنا ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ [الكوثر: ١] قال: الخير الكثير.

**وقال** أنس بن مالك: نهر في الجنة. وقالت عائشة: هو نهر في الجنة، ليس يدخل أحد إصبعيه في أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر. وهذا معناه والله أعلم: أن خرير ذلك النهر يشبه الخرير الذي يسمعه حين يدخل أصبعيه في أذنيه.

**وفي** جامع الترمذي من حديث الحريري عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة: بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد**» قال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا ابن ثوبان عن عطاء بن قرة عن عبدالله بن سمرة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن يسقيه الله ـ عز وجل ـ من الخمر في الآخرة فليتركه في الدنيا، ومن سره أن يكسيه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا، وأنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعًا لكان مايحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعًا**».

**وذكر** الأعمش عن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبدالله قال: «**إن أنهار الجنة تفجر من جبل مسك**» وهذا موقوف صحيح.

**وذكر** ابن مردويه في مسنده حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم حدثنا عبدالله بن محمد بن النعمان حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا الحرث بن عبيد حدثنا أبوعمران الجوني عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**هذه**

---

(١) ١٣٠ حادي الأرواح.

**الأنهار تشخب من جنة عدن في جوبة، ثم تصدع بعد أنهارًا»**.

**وقال** ابن أبي الدنيا حدثنا يعقوب بن عبيدة حدثنا يزيد بن هارون حدثنا الحريري عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك قال: «أظنكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض؟ لا والله أنها لسائحة على وجه الأرض إحدى حافتيها اللؤلؤ والأخرى الياقوت، وطينها المسك الأذفر، قال: قلت ماالأذفر: قال: الذي لاخلط له. ورواه ابن مردويه في تفسيره عن محمد بن أحمد حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى حدثنا مهدي بن حكيم حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا الحريري عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ فذكره هكذا رواه مرفوعًا.

**وقال** أبوخيثمة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أنه قرأ هذه الآية ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ [الكوثر: ١] فقال رسول الله ﷺ: «**أعطيت الكوثر فإذا هو يجري ولم يشق شقا، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ فضربت بيدي إلى تربته فإذا مسك أذفر، وإذا حصباؤه اللؤلؤ**». وذكر سفيان الثوري عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن مسروق في قوله تعالى: ﴿**نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ**﴾ [الشعراء: ١٤٨] قال: من أصلها إلى فروعها أو كلمة نحوها.

**وفي** صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة**».

**وقال** عثمان بن سعيد الدارمي حدثنا سعيد بن سابق حدثنا مسلمة بن علي عن مقاتل بن حبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**أنزل الله من الجنة خمسة أنهار: سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناح جبريل ﷺ فاستودعها الجبال، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، فذلك قوله: ﴿وأَنْزَلْنا مِنَ السَّمآءِ مآءٍ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاه في الأَرْضِ وإِنا علىٰ ذَهابٍ به لَقادِرُون﴾** [المؤمنون: ١٨] **فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل جبريل فرفع من الأرض**

**القرآن والعلم كله والحجر الأسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه، وهذه الأنهار الخمسة، فرفع ذلك كله إلى السماء، فذلك قوله: ﴿وإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُون﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض، فقد حرم أهلها خيري الدنيا والآخرة»** ورواه أحمد بن عدي في ترجمة مسلمة هذا مع أحاديث غيره، وقال: عامة أحاديثه غير محفوظة، وبالجملة فهو من الضعفاء، قال البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك، وقال أبوحاتم: لا تشتغل به.

[1]**وسئل** ﷺ عن الكوثر، فقال: «**هو نهر أعْطَانيه ربي في الجنة، هو أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيورًا أعناقها كأعناق الجزر**» قيل: يارسول الله إنها لنَاعمة، قال: «**آكلُهَا أنْعَمُ منها**».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكوثر
والحمد لله رب العالمين

(١) أعلام جـ٤.




**بسم الله الرحمن الرحيم**

(١)﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣] لأن للرعد صوت عظيم من جرم عظيم والمسبح لا محالة أعظم فاستحقاقه للتسبيح من حيث يستحقه العظيمات من خلقه لا من حيث كان يعلم، ولا تقل العقل في هذا الموضع، فإذا تأملت ماذكرناه استبان لك قصور من قال: إن مامع الفعل في هذا كله سوى الأول في تأويل المصدر، وأنه لم يقدر المعنى حق قدره فلا لصناعة النحو وفق ولا لفهم التفسير رزق، وأنه تابع الحز وأخطأ المفصل وحام، ولكن ماورد المنهل. وأما قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**لا أعبد ماتعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ فما على بابها لأنها واقعة على معبوده ﷺ، على الإطلاق لأن امتناعهم من عبادة الله ليس لذاته، بل كانوا يظنـون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا جاهلين به فقوله: ﴿**وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ [الكافرون: ٣] أي لا أنتم تعبدون معبودي ومعبوده هو ﷺ،كان عارفًا به دونهم وهم جاهلون به، هذا جواب بعضهم.

**وقال** آخرون: إنها هنا مصدرية لا موصولة، أي: لا تعبدون عبادتي، ويلزم من تنزيههم عن عبادته تنزيههم عن المعبود، لأن العبادة متعلقة به، وليس هذا بشيء إذ المقصود براءته من معبوديهم وإعلامه أنهم بريئون من معبوده ـ تعالى ـ فالمقصود المعبود لا العبادة.

**وقيل:** إنهم كانـوا يقصـدون مخالفته ﷺ، حسدًا له وأنفة من اتباعه، فهم لا يعبدون معبوده لا كراهية لذات المعبود، ولكن كراهية لاتباعه ﷺ، وحرصًا على مخالفته في العبادة، وعلى هذا فلا يصح في النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ [ما] لإبهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية.

---

(١) ١٣٣ بدائع جـ١.

**وقيل** في ذلك: وجه رابع، وهو قصد ازدواج الكلام في البلاغة والفصاحة مثل قوله: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ ﴿وَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْه﴾ [البقرة: ١٩٤] فكذلك ﴿لَا أَعْبُدُ مَاتَعْبُدُونَ﴾ ومعبودهم لا يعقل، ثم ازدوج مع هذا الكلام قوله: ﴿ولا أَنْتُمْ عَابِدُون ماأَعْبد﴾ [الكافرون: ٥] فاستوى اللفظان وإن اختلف المعنيان، ولهذا لا يجيء في الإفراد مثل هذا، بل لا يجيء إلا من كقوله: ﴿قل من يهديكم﴾ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ﴾ [يونس: ٣١] ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ﴾ [يونس: ٣١] ﴿أَمَّنْ يَهْدِيْكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣] ﴿أَمَّن يُجِيْبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعاه﴾ [النمل: ٦٢] ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْق﴾ [النمل: ٦٤] إلى أمثال ذلك، وعندي فيه وجه خامس أقرب من هذا كله، وهو أن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلاً للعبادة مستحقًّا لها فأتي بما الدالة على هذا المعنى، كأنه قيل: ولا أنتم عابدون معبودي، الموصوف بأنه المعبود الحق، ولو أتى بلفظة [من] لكانت إنما تدل على الذات فقط، ويكون ذكر الصلة تعريفًا لا أنه هو جهة العبادة، ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلاً لأن يعبد تعريف محض أو وصف مقتضى لعبادته فتأمله، فإنه بديع جدًّا، وهذا معنى قول محققي النحاة: إن ما تأتي لصفات من يعلم ونظيره ﴿فَانْكِحُوا مَاطَابَ لَكُم مِنَ النسآءِ﴾ [النساء: ٣] لما كان المراد الوصف، وأنه هو السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح وقصده هو الطيب، فتنكح المرأة الموصوفة به أتى بما دون، من وهذا باب لا ينخرم، وهو من ألطف مسالك العربية. وإذ قد أفضى الكلام بنا إلى هنا، فلنذكر:

**فائدة** ثانية على ذلك، وهي تكرير الأفعال في هذه السورة.

**ثم فائدة ثالثة، وهي كونه كرر الفعل في حق نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين وأتى في حقهم بالماضي.**

**ثم فائدة رابعة: وهي أنه جاء في نفي عبادة معبودهم عنه بلفظ الفعل المستقبل، وجاء في نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل.**

**ثم فائدة خامسة: وهي كون إيراده النفي هنا بـ[لا] دون [لن].**

**ثم** فائدة سادسة: وهي أن طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفى عبادة ماسوى الله: ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد والنفي المحض ليس بتوحيد. وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات، وهذا حقيقة لا إلـه إلا الله، فلم جاءت هذه السورة بالنفي المحض، وماسر ذلك.

**وفائدة** سابعة: وهي ماحكمة تقديم نفي عبادته عن معبودهم، ثم نفى عبادتهم عن معبوده.

**وفائدة** ثامنة: وهي أن طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطبهم بالذين كفروا والذين هادوا كقوله: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا اليوم**﴾ [التحريم: ٧] ﴿**قل ياأَيُّها الذين هَادُوا إنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُم أُوليَآءُ لله**﴾ [الجمعة: ٦] ولم يجيء: ياأيها الكافرون إلا في هذا الموضع، فما وجه هذا الاختصاص؟

**وفائدة** تاسعة: وهي هل في قوله: ﴿**لكم دينكم ولي دين**﴾ معنى زائد على النفي المتقدم، فإنه يدل على اختصاص كل بدينه ومعبوده، وقد فهم هذا من النفي فما أفاد التقسيم المذكور.

**وفائدة** عاشرة: وهي تقديم ذكرهم ومعبودهم في هذا التقسيم والاختصاص، وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة.

**وفائدة** حادية عشرة: وهي أن هذه السورة قد اشتملت على جنسين من الأخبار:

**أحدهما:** براءته من معبودهم، وبراءتهم من معبوده، وهذا لازم أبدًا.

**الثاني:** إخباره بأن له دينه ولهم دينهم! فهل هذا متاركة وسكوت عنهم، فيدخله النسخ بالسيف، أو التخصيص ببعض الكفار أم الآية باقية على عمومها وحكمها غير منسوخة ولا مخصوصة؟

**فهذه** عشر مسائل في هذه السورة، فقد ذكرنا منها مسألة واحدة، وهي وقوع [ما] فيها بدل [من] فنذكر المسائل التسع مستمدين من فضل الله مستعينين بحوله وقوته متبرئين إليه من الخطأ، فما كان من صواب فمنه وحده لا شريك له، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه.

**فأما** المسألة الثانية: وهي فائدة تكرار الأفعال، فقيل فيه وجوه:

**أحدها:** أن قوله: ﴿**لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون**﴾ نفي للحال والمستقبل، وقوله: ﴿**ولا أَنْتُمْ عَابِدُون ماأَعْبُدُ**﴾ مقابله أي: لا تفعلون ذلك.

**وقوله:** ﴿**ولا أنا عَابِدٌ مَّاعَبَدتُّم**﴾ أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي، فقال: ماعبدتم، فكأنه قال: لم أعبد قط ماعبدتم.

**وقوله:** ﴿**ولا أَنْتُمْ عَابِدُون ما أعبد**﴾ مقابله أي: لم تعبدوا قط في الماضي ماأعبده أنا دائماً. وعلى هذا فلا تكرار أصلاً وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضيًا وحالاً ومستقبلاً عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه، وهذا إن شاء الله أحسن ماقيل فيها، فلنقتصر عليه ولا نتعداه إلى غيره، فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها فعليك بها.

**وأما** المسألة الثالثة وهي تكرير الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه وبلفظ الماضي حين أخبر عنهم، ففي ذلك سر وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله له عن الزيغ والانحراف عن عبادة معبوده والاستبدال به غيره، وأن معبوده واحد في الحال والمآل على الدوام لا يرضى به بدلاً، ولا يبغى عنه حولاً بخلاف الكافرين، فإنهم يعبدون أهواءهم، ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم، فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبودًا وغدًا غيره فقال: ﴿**لا أعبد ماتعبدون**﴾ يعني الآن ﴿**ولا أنتم عابدون ماأعبد**﴾ أنا الآن أيضًا. ثم قال: ﴿**ولا أنا عابد ماعبدتم**﴾ يعني ولا أنا فيما يستقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون.

**وأشبهت** ماهنا رائحة الشرط، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي، وهو مستقبل في المعنى كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط كأنه يقول: مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا.

**فإن** قيل: وكيف يكون فيها الشرط وقد عمل فيها الفعل، ولا جواب لها وهي موصولة فما أبعد الشرط منها. قلنا: لم نقل إنها شرط نفسها، ولكن فيها رائحة منه، وطرف من معناه لوقوعها على غير معين، وإبهامها في المعبودات وعمومها،

وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط باديًا على صفحاته.

**فإذا** قلت لرجل ما تخالفه في كل مايفعل: أنا لا أفعل ماتفعل. ألست ترى معنى الشرط قائمًا في كلامك وقصدك، وأن روح هذا الكلام مهما فعلت من شيء فإني لا أفعله.

**وتأمل** ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿**قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾ [مريم: ٢٩] كيف تجد معنى الشرطية فيه حتى وقع الفعل بعد [من] بلفظ الماضي والمراد به المستقبل، وأن المعنى من كان من المهد صبيًا فكيف نكلمه، وهذا هو المعنى الذي حام حوله من قال من المفسرين والمعربين أنه كان هنا[1] بمعنى يكون لكنهم لم يأتوا إليه من بابه، بل ألقوه عطلاً من تقدير وتنزيل وعزب فهم غيرهم عن هذا للطفه ودقته، فقالوا: كان زائدة، والوجه ماأخبرتك فخذه عفوًا، لك غنمه، وعلى سواك غرمه. هل على[2] من في الآية قد عمل فيها الفعل، وليس لها جواب، ومعني الشرطية قائم فيها، فكذلك في قوله: ﴿**ولا أنا عابد ماعبدتم**﴾ وهذا كله مفهوم من كلام فحول النحاة: كالزجاج وغيره.

**فإذا** ثبت هذا فقد صحت الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي في قوله: ﴿**ولا أنا عابد ماعبدتم**﴾ بخلاف قوله: ﴿**ولا أنتم عابدون ماأعبد**﴾ لبعد [ما]فيها عن معنى الشرط تنبيها من الله على عصمة نبيه أن يكون له معبود سواه، وأن يتنقل في المعبودات تنقل الكافرين.

**وأما** المسألة الرابعة: وهي أنه لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل، وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة وباسم الفاعل أخرى، فذلك والله أعلم لحكمة بديعة. وهي أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت، فأتى أولاً بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت، فأفاد في النفي الأول أن هذا لا يقع مني، وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة

---

(١) في الأصل المطبوع «نبيًا» والصواب ماذكرناه (ج).

(٢) في المخطوطة: هذا مع أن في الآية ولعل الصواب هذا على أن (من) في الآية (ج).

غير الله لا تكون فعلاً لي ولا وصفًا، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي.

**وأما** في حقهم، فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي إن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتف عنكم، فليس هذا الوصف ثابتًا لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحدًا، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: ﴿وَاذِ اعْتَزَلْتُمُوهم وما يَعْبُدُونَ إلَّا اللهَ﴾ [الكهف: ١٦] أي: اعتزلتم معبودهم إلا الله، فإنكم لم تعتزلوه، وكذا قال المشركون عن معبودهم: إنَّما نَعْبُدُهم لِيُقَرِّبُونا إلى الله زُلْفَى فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفى الوصف، لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتًا على عبادة الله موصوفًا بها.

**فتأمل** هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلاً، لم يلتفت إلى غيره، ولم يشرك به أحدًا في عبادته، وأنه عبده وأشرك به غيره، فليس عابدًا لله ولا عبدًا له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد، ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده، فله الحمد والمنة.

**وأما** المسألة الخامسة: وهي أن النفي في هذه السورة أتى بأداة [لا] دون [لن]، فلما تقدم تحقيقه عن قرب أن النفي بـ[لا] أبلغ منه بـ[لن] وأنها أدل على دوام النفي وطوله من [لن] وإنها للطول والمد الذي في نفيها طال النفي بها واشتد، وأن هذا ضد مافهمته الجهمية والمعتزلة من أن [لن] إنما تنفي المستقبل ولا تنفي الحال المستمر النفي في الاستقبال. وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد نجده في غير هذا التعليق، فالإتيان بـ[لا] متعين هنا، والله أعلم.

**وأما** المسألة السادسة: وهي اشتمال هذه السورة على النفي المحض، فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك، كما جاء في وصفها أنها براءة من الشرك، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين،

ولهذا أتي بالنفي في الجانبين تحقيقًا للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحًا فقوله: ﴿لا أعبد ماتعبدون﴾ براءة محضة ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ إثبات أن له معبودًا يعبده وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات. وطابقت قول إمام الحنفاء ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُون إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]. وطابقت قول الفئة الموحدين ﴿وَإِذ اعْتَزَلْتُمُوهُم وما يَعْبُدُون إِلَّا الله﴾ [الكهف: ١٦].

**فانتظمت** حقيقة لا إلـه إلا الله، ولهذا كان النبي ﷺ، يقرنها بسورة ﴿قل هو الله أحد﴾ في سنة الفجر وسنة المغرب، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد وأنه إلـه أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد، فيكون له نظير. ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها.

**فتضمنت** السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلاً وفرعًا ونظيرًا، فهذا توحيد العلم والاعتقاد، والثاني توحيد القصد والإرادة، وهو أن لا يعبد إلا إياه فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود، وسورة ﴿قل ياأيها الكافرون﴾ مشتملة على هذا التوحيد.

**فانتظمت** السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له، فكان ﷺ، يفتتح بهما النهار في سنة الفجر، ويختم بهما في سنة المغرب. وفي السنن أنه كان يوتر بهما، فيكونا خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار، ومن هنا تخريج جواب.

**المسألة** السابعة: وهي تقديم براءته من معبودهم، ثم اتبعها ببراءتهم من معبوده فتأمله.

**وأما** المسألة الثامنة: وهي إثباته هنا بلفظ ﴿ياأيها الكافرون﴾ دون ياأيها الذين كفروا فسره والله أعلم إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفًا ثابتًا له لازمًا لا يفارقه فهو حقيقي أن يتبرأ الله منه، ويكون هو أيضًا بريئًا من الله، فحقيق

بالموحد البراءة منه، فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر، وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة، فكأنه يقول كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائمًا أبـدًا، ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر وهذا واضح.

**وأما** المسألة التاسعة: وهي ماهي الفائدة في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ﴾ [الكافرون: ٦] وهل أفاد هذا معنى زائدًا على ماتقدم.

**فيقال** في ذلـك من الحكمة والله أعلم: إن النفي الأول أفاد البراءة، وإنه لا يتصور منه، ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم، وهم أيضًا لا يكونون عابدين لمعبوده.

**وأفاد** آخر السورة إثبات ماتضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضًا، فقال له: لا تدخل في حدِّي ولا أدخل في حدِّك، لك أرضك، ولي أرضي.

**فتضمنت** الآية أن هذه الـبراءة اقتضت أنـا اقتسمنا خطتنا بيننا، فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به، لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصون به، لا نشرككم به.

**فتبارك** من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه.

**وهذه** المعاني ونحوها إذا تجلت لقلوب رافلة في حللها، فإنها تسبي القلوب، وتأخذ بمجامعها، ومن لم يصادف من قلبه حياة، فهي خود تزف إلى ضرير مقعد، فالحمد لله على مواهبه التي لا منتهى لها، ونسأله إتمام نعمته.

**وأما** المسألة العاشرة: وهي تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم مايختص به على مايختص بهم، فهذا من أسرار الكلام وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضي كل بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة، وقد برز النصيبين وميز القسمين، وعلم أنهم راضون بقسمهم

الدون الذي لا أردئ منه، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف والحظ الأعظم بمنزلة من اقتسم هو وغيره سما وشفاء، فرضي مقاسمه بالسم، فإنه يقول له: لا تشاركني في قسمي، ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك، ولي قسمي، فتقديم ذكر قسمه ههنا أحسن وأبلغ، كأنه يقول. هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم، وزعمت أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم.

**فكان** في تقديم ذكر قسمه من التهكم به والنداء على سوء اختياره وقبح مارضيه لنفسه من الحسن والبيان مالا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه، والحاكم في هذا هو الذوق، والفطن يكتفي بأدنى إشارة، وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان.

ووجه ثان وهو أن مقصود السورة براءته ﷺ، من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبها ومغزاها.

**وجاء** ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني مكملاً لبراءته ومحققًا لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة ثم جاء قوله: ﴿لَكُمْ دِيْنُكُمْ﴾ مطابقًا لهذا المعنى أي: لا أشارككم في دينكم، ولا أوافقكم عليه، بل هو دين تختصون أنتم به، لا أشرككم فيه أبدًا، فطابق آخر السورة أولها فتأمله.

**وأما** المسألة الحادية عشرة: وهي أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه، هل هو إقرار فيكون منسوخًا أو مخصوصًا أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص.

**فهذه** مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة.

**وقد** غلط في السورة خلائق، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف؛ لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم.

**وظن** آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم، وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه.

**وهذه** السورة أخلصت التوحيد ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم.

**ومنشأ** الغلط ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا

الاقرار زال بالسيف فقالوا: منسوخ. وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار، وهم من لا كتاب لهم، فقالوا: هذا مخصوص.

**ومعاذ** الله أن تكون الآية اقتضت تقريرًا لهم أو إقرارًا على دينهم أبدًا، بل لم يزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشداء على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه والتهديد والوعيد كل وقت وفي كل ناد.

**وقد** سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم، ويتركونه وشأنه، فأبىٰ إلا مضيًّا على الإنكار عليهم وعيب دينهم.

**فكيف** يقال: إن الآية اقتضت تقريره لهم، معاذ الله من هذا الزعم الباطل. وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم، وأن ما هم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدًا، فإنه دين باطل فهو مختص بكم، لا نشرككم فيه، ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق.

**فهذا** غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص، أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال لكم دينكم ولي دين. بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده.

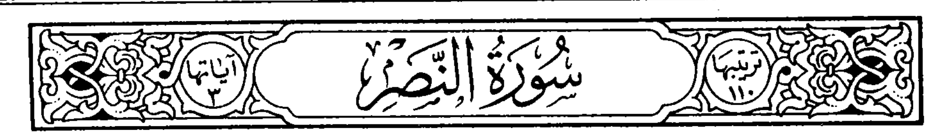
**وكذلك** حكم هذه البراءة بين أتباع الرسل ﷺ، أهل سنته، وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به الداعين إلى غير سنته، إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته: لكم دينكم ولنا ديننا. لا يتقضى هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذه براءة منها، وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان.

**فهذا** مافتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة والنبذة المشيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها، من غير استعانة بتفسير ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه، بل هي استملاء مما علمه الله وألهمه بفضله وكرمه. والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها، ولبالغت في استحسانها.

**وعسى** الله المان بفضله الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على تعليق تفسير هذا النمط وهذا الأسلوب. وقد كتبت علي مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس، والله المرجو إتمام نعمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الكافرون

والحمد لله رب العالمين




## بسم الله الرحمن الرحيم

(١) «فو الله إني لأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة» وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «رب اغفر لي وتب عَلَيَّ، إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة.

**وماصلى** صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ﴾ إلى آخرها. إلا قال فيها: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم غفر لي».

**وصح** عنه ﷺ، أنه قال: «لن يُنْجِيَ أحدًا منكم عَمَلُه». قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

**فصلوات** الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

(٢).... **وقد** قال عمر بن الخطاب للصحابة: ماتقولون في: ﴿إذا جَآءَ نَصرُ الله والفَتْحُ﴾ السورة؟ قالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره، فقال لابن عباس: ماتقول أنت؟ قال: هو أجلُ رسول الله ﷺ، أعلمه إياه، فقال: ماأعلم منها غير ماتعلم، وهذا من أدق الفهم وألطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه - سبحانه - لم يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو - سبحانه - من نعمة فَتْحِه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب للاستغفار، فعلم أن سبب الاستغفار غيره، وهو حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتَّوْبة النصوح والاستغفار بين يديه ليلقى ربه طاهرًا مطهرًا من كل ذنب، فيقدم عليه مسرورًا راضيًا مرضيًّا عنه، ويدل عليه أيضًا قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣] وهو ﷺ، كان يسبح بحمده دائمًا، فعلم أن المأمور به من

---

(١) ١٧٨ مدارج جـ١. (٢) ٣٥٣ أعلام جـ١.

ذلك التسبيح بعد الفتح ودخول الناس في هذا الدين أمر أكبر من ذلك المتقدم، وذلك مقدمة بين يدي انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وأنه قد بقيت عليه من عبودية التسبيح والاستغفار التي ترقيه إلى ذلك المقام بقية فأمره بتوفيتها، ويدل عليه أيضًا أنه ـ سبحانه ـ شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمة الحج وقيام الليل، وكان النبي ﷺ، إذا سَلَّم من الصلاة استغفر ثلاثًا، وشرع للمتوضىء بعد كمال وضوئه أن يقول: «**اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين**» فعلم أن التوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجًا، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها، فشرع له الاستغفار عقيبها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النصر

والحمد لله رب العالمين




# بسم الله الرحمن الرحيم

(١)**قال** الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥].

**فسماها** امرأته بعقد النكاح الواقع في الشرك. وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون**﴾ [التحريم: ١١] فسماها امرأته. والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ غالبهم إنما ولدوا من نكاح كان قبل الإسلام في حال الشرك، وهم ينسبون إلى آبائهم انتسابًا لا ريب فيه عند أحد من أهل الإسلام، وقد أسلم الجم الغفير في عهد النبي ﷺ، فلم يأمر أحدًا منهم أن يجدد عقده على امرأته، فلو كانت أنكحة الكفار باطلة لأمرهم بتجديد أنكحتهم. وقد كان رسول الله ﷺ يدعو أصحابه لآبائهم، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام(٢).

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المسد
والحمد لله رب العالمين

---

(١) ٣٠٨ أحكام أهل الذمة جـ١.

(١) تقدم في سورة الأحزاب عند ذكر زوجات النبي ﷺ ماله علاقة بهذا لمن أراده (ج) انظر في هذا الكتاب جـ٤ ص٨.




بسم الله الرحمن الرحيم

## (١)فائدة جليلة

**مايجري** صفة أو خبرًا على الرب تبارك ـ وتعالى ـ أقسام :

**أحدها:** مايرجع إلى نفس الذات : كقولك : ذات ، وموجود ، وشيء .

**الثاني:** مايرجع إلي صفات معنوية : كالعليم ، والقدير ، والسميع .

**الثالث:** مايرجع إلى أفعاله نحو: الخالق والرازق .

**الرابع:** مايرجع إلى التنزيه المحض ، ولا بد من تضمنه ثبوتًا إذ لا كمال في العدم المحض : كالقدوس ، السلام .

**الخامس:** ولم يذكره أكثر الناس ، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة ، لا تختص بصفة معينة ، بل هو دال على معناه لا على معنى مفرد نحو: المجيد ، العظيم الصمد . فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا ، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة ، فمنه : استمجد المرخ والغفار ، وأمجد الناقة علفًا . ومنه ﴿ذو(٢) العَرْشِ المجيدُ﴾ [البروج ١٥] صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه . وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ ، لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه ، فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه ، كما تقول : اغفر لي ، وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم . ولا يحسن أنك أنت السميع البصير ، فهو راجع إلى المتوسل إليه بأسمائه وصفاته ، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه . ومنه الحديث الذي في

(١) ١٥٩ بدائع جـ١ .

(٢) في المطبوعة «ربُّ» والصواب ماأثبتناه كما في المصحف المراجع .

المسند والترمذي «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**» ومنه «**اللهم أني أسألك بأن لك الحمد لا إلـه إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام**» فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده، وأنه الذي لا إلـه إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند المسئول وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد، أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصّره الله.

**ولنرجع** إلى المقصود، وهو وصفه ـ تعالى ـ بالاسم المتضمن لصفات عديدة.

**فالعظيم** من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال.

**وكذلك** الصمد قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده. وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده. وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد، وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم. واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد		بعمرو بن يربوع وبالسيد الصمد

**والعرب** تسمى أشرافها بالصمد، لاجتماع قصد القاصدين إليه، واجتماع صفات السيادة فيه.

**السادس:** صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعها، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم. **فتأمله** فإنه من أشرف المعارف.

**وأما** صفات السلب المحض، فلا تدخل في أوصافه ـ تعالى ـ إلا أن تكون متضمنة لثبوت: كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن

لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتا كقوله تعالى: ﴿لا تَأْخُذُه سِنَةٌ وَلاَ نَومٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله تعالى: ﴿ومَامَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] متضمن لكمال قدرته، وكذلك قوله: ﴿ولا يَعْزُبُ عن رَبّكِ من مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه، وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ﴾ [الاخلاص: ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَد﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لتفرده بكماله وأنه لا نظير له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب، ويجب أن يعلم هنا أمور:

**أحدها:** أن مايدخل في باب الإخبار عنه ـ تعالى ـ أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته: كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه. فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

**الثاني:** أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليها منها كمالها، وهذا كالمريد والفاعل والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلاً وخبراً.

(١)**التاسع** عشر: أن من أسمائه الحسنى مايكون دالًّا على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كما تقدم بيانه: كاسمه العظيم، والمجيد، والصمد. كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه. هذه صفته لا تنبغي إلا

(١) ١٦٨ بدائع جـ١.

له، ليس له كفـوًا أحـد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار، هذا لفظه. وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسر الاسم دون معناه ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علماً بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه، فتدبره.

(١)**وهو** سبحانه قد وصف نفسه بأنه ﴿لم يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَد﴾ [الإخلاص:٤] بعد وصفه نفسه بأنه الصمد. والصمد السيد الذي كمل في سؤدده. ولهذا كانت العرب تسمي أشرافها بهذا الاسم لكثرة الأوصاف المحمودة للمسمى به. قال شاعرهم:

ألا بكـر الناعي بخيـر بني أسـد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

**فإن** الصمـد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه. ولهـذا قال جمهـور السلف، منهم ابن عباس: الصمد الذي كمل سؤدده. وهو العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته، الحليم الذي كمل حلمه، الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده. ومن قال: إنه الذي لا جوف له فقوله لا يناقض هذا التفسير، فإن اللفظة من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال ولا جوف له، فإن مالم يكن أحد كفوًا له لما كان صمدًا كاملاً في صمدانيته، فلو لم يكن له صفات كمال ونعوت جلال، ولم يكن له علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر، ولا يقوم به فعل، ولا يفعل شيئًا ألبتة، ولا له حياة ولا إرادة، ولا كلام ولا وجـه، ولا يد، ولا هو فوق عرشـه ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يحب، ولا يبغض، ولا هو فاعل لما يريد، ولا يُرىٰ، ولا يمكن أن يُرىٰ، ولا يشار إليه، ولا يمكن أن يشار إليه لكان العدم المحض كفوا له فإن هذه الصفة منطبقة على المعدوم. فلو كان مايقوله المعطلون هو الحق لم يكن صمدًا وكان العدم كفوا له...

(٢) **وقوله** تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] هو سلب عن المخلوق

---

(١) ٢١١ مختصر الصواعق جـ١. (٢) ٢٣١ إغاثة جـ٢.

مكافأته ومماثلته للخالق سبحانه، ولم يقل: ولم يكن هو كفوًا لأحد، فينفي عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافأته له، إذ كان ذلك أبينُ وأظهر من أن يُحتاج إلى نفيه.

**وسر** ذلك: أن المقصود أن المخلوق لا يماثله - سبحانه - في شيء من صفاته وخصائصه، أما كونه سبحانه هو لا يماثل المخلوق، ولا يشابهه، ولا هو نِدٌّ له ولا كُفْؤٌ، فليس فيه مدح له.

**فإنه** لو مُدح بعضُ الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات، ولا الحجارة، ولا الخشب، ونحو ذلك، لم يُعَدَّ هذا مدحًا، ولا ثناء عليه، ولا كمالًا له، بخلاف ما إذا قيل: لا تُجعل للملك ندًّا ولا كفؤا، ولا شبيهًا من رعيته، تعظمه كتعظيمه، وتطيعه كطاعته، فإنه ليس في رعيته من يُساميه. ولا يماثله، ولا يكافئه: كان هذا غاية المدح.

(١)**ونظير** هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ فهو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده، فإذا قال العبد: قل هو الله أحد. كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة (قل) تحقيقًا لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض، قائل لما أمر بقوله، والله أعلم. وهذا بخلاف قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة، لا تبليغ لقوله أعوذ برب الناس، فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال، بخلاف قوله: ﴿قل هو الله أحد﴾ فإنه خبر عن توحيده، وهو سبحانه يخبر عن نفسه، بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة والله المستعان.

(٢)**ولما** كان القرآن شطرين: شطرًا في الدنيا، وأحكامها ومتعلقاتها، والأمور الواقعة فيها، من أفعال المكلفين وغيرها. وشطرًا في الآخرة، ومايقع فيها، وكانت سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر، فلم يذكر فيها إلا الآخرة، ومايكون فيها من أحوال الأرض وسكانها: كانت تعدل نصف القرآن.

---

(١) ١٧٢ بدائع جـ٢.		(٢) ١٧٠ زاد المعاد جـ١.

فأحرى بهذا الحديث أن يكون صحيحًا. والله أعلم.

**ولهذا** كان ﷺ، يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الطواف، لأنهما سورتا الإخلاص والتوحيد، وكان يفتتح بهما عمل النهار، ويختمه بهما، ويقرأ بهما في الحج الذي هو شعار التوحيد.

## فصل

**وكان** ﷺ، يضطجع بعد سنة الفجر على شقه الأيمن، هذا الذي ثبت عنه في الصحيحين من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عنه ﷺ، أنه قال: «**إذا صلى أحدكم الركعتين قبل صلاة الصبح فليضطجع على جنبه الأيمن**» قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

**وسمعت** ابن تيمية يقول: هذا باطل، وليس بصحيح. وإنما الصحيح عنه الفعل لا الأمر بها، والأمر تفرد به عبدالواحد بن زياد، وغلط فيه، انتهى.

**وأما** ابن حزم ومن تابعه: فإنهم يوجبون هذه الضجعة. ويبطل ابن حزم صلاة من لم يضطجعها بهذا الحديث. وهذا مما تفرد به عن الأمة. ورأيت مجلدًا لبعض أصحابه قد نصر فيه هذا المذهب، وقد ذكر عبدالرزاق في المصنف عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين «أن موسى ورافع بن خديج وأنس بن مالك رضي الله عنهم كانوا يضطجعون بعد ركعتي الفجر، ويأمرون بذلك» وذكر عن معمر عن أيوب عن نافع: أن ابن عمر كان لا يفعله ويقول: كفى بالتسليم.

[1]**وقد** اختلف الفقهاء أي الصلاتين آكد: سنة الفجر، أو الوتر، على قولين: ولا يمكن الترجيح باختلاف الفقهاء في وجوب الوتر. فقد اختلفوا أيضًا في وجوب سنة الفجر.

**وسمعت** شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل، والوتر خاتمته. ولذلك كان النبي ﷺ، يصلي سنة الفجر والوتر بسورتي

---

(١) ١٦٨ زاد المعاد جـ١.

الإخلاص، وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل، وتوحيد المعرفة والإرادة، وتوحيد الاعتقاد والقصد. انتهى.

**فسورة** ﴿قل هو الله أحد﴾ متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى: من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة لجميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية وغناه وأحديته، ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه.

**وهذه** الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي، الذي يباين معتقده جميع فرق الضلال والشرك. ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن.

**فإن** القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر، ونهي، وإباحة. والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه، فأخلصت سورة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته، فعدلت ثلث القرآن، وخَلَّصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصت سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ من الشرك العملي الإرادي القصدي. ولما كان العلم قبل العمل، وهو إمامه وقائده وسائقه، والحاكم عليه، ومنزله منازله: كانت سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في الترمذي التواتر. و ﴿قُلْ يَآأَيُّهَا الْكَافِرُون﴾ تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في الترمذي من رواية ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يرفعه « ﴿إذا زُلْزِلَت﴾ **تعدل نصف القرآن، و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، و ﴿قُلْ يَآأَيُّهَا الْكَافِرُون﴾ تعدل ربع القرآن**[1]» ورواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد.

---

(١) رواه الترمذي من حديث أنس في فضل إذا زلزلت ـ من رواية الحسن بن سلم بن صالح العجلي عن ثابت عن أنس ـ ثم قال: هذا حديث غريب. لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن سلم. وروى حديث ابن عباس في فضل سورة الاخلاص وإذا زلزلت، ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة العترى عن عطاء عن ابن عباس اهـ. والحسن بن سلم قال عنه الحافظ

**ولما** كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس، لأجل متابعتها هواها، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه، لما لها فيه من نيل الأغراض، وإزالته وقلعه منها أصعب، وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته، لأن هذا يزول بالعلم والحجة، ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة والقصد، فإن صاحبه يرتكب مايدله العلم على بطلانه وضرره، لأجل غلبة هواه، واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه. فجاء من التأكيد والتكرار في سورة ﴿قُلْ يَآأَيُّها الْكَافِرُون﴾ المتضمنة لإزالة الشرك العملي مالم يجيء مثله في سورة ﴿قُلْ هُوَ الله أحد﴾.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الإخلاص
والحمد لله رب العالمين

---

= في التهذيب: شيخ مجهول، له حديث واحد في فضل إذا زلزلت. أخرجه الترمذي واستغربه. وكذا فعل الحاكم أبو أحمد. وقال ابن حبان: ينفرد عن الثقات بما لا يشبه حديث الاثبات. وقال عن يمان: قال الدوري عن ابن معين: ليس حديثه بشيء. وقال البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث يروى المناكير.




## بسم الله الرحمن الرحيم

## فصل[1]

**ومن** ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَٰهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٦] وقوله: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]. وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، ومن المعلوم أن الإعاذة من الشيطان الرجيم ليست بإماتته ولا تعطيل آلات كيده، وإنما هي بأن يعصم المستعيذ من أذاه له، ويحول بينه وبين فعله الاختياري له، فدل على أن فعله مقدور له ـ سبحانه ـ إن شاء سلطه على العبد، وإن شاء حال بينه وبينه، وهذا على أصول القدرية باطل، فلا يثبتون حقيقة الإعاذة، وإن أثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، وجعلوا الآية ردًّا على الجبرية، والجبرية أثبتوا حقيقة الإعاذة ولم يثبتوا حقيقة الاستعاذة من العبد، بل الاستعاذة فعل الرب حقيقة، كما أن الإعاذة فعله، وقد ضل الطائفتان عن الصراط المستقيم، وأصابت كل طائفة منهما فيما أثبتته من الحق.

[2]... **وبالجملة** فالكلمة الجامعة لهذا هي الكلمة التي أثنى بها رسول الله ﷺ على ربه حيث يقول: «**والشر ليس إليك**» فالشر لا يضاف إلى من الخير بيديه، وإنما ينسب إلى المخلوق: كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

**فأمره** أن يستعيذ به من الشر الذي في المخلوق، فهو الذي يعيذ منه وينجي منه.

**وإذا** أخلى العبد قلبه من محبته والإنابة إليه وطلب مرضاته، وأخلى لسانه من

---

(١) ٦٣ شفاء. (٢) ٣٥١ مختصر الصواعق.

ذكره والثناء عليه، وجوارحه من شكره وطاعته فلم يرد من نفسه ذلك ونسي ربه، لم يرد الله ـ سبحانه ـ أن يعيذه من ذلك الشر، ونسيه كما نسيه، وقطع الإمداد الواصل إليه منه، كما قطع العبد العبودية والشكر والتقوى التي تناله من عباده. قال تعالى: ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحومُها وَلا دِماؤُها وَلَكِنْ يَنالُه التَّقْوىٰ مِنْكُم﴾ [الحج:٣٧]، فإذا أمسك العبد عما ينال ربه منه، أمسك الرب عما ينال العبد من توفيقه

**وقد** صرح ـ سبحانه ـ بهذا المعنى بعينه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَذَرُهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. أي نخلي بينهم وبين نفوسهم التي ليس لهم منها إلا الظلم والجهل. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلوبَهُمْ﴾ فعدم إرادته تطهيرهم وتخليته بينهم وبين نفوسهم أوجب لهم من الشر ما أوجبه.

**فالذي** إلى الرب وبيديه ومنه هو الخير، والشركان منهم مصدره، وإليهم كان منتهاه. فمنهم ابتدئت أسبابه بخذلان الله ـ تعالى ـ لهم تارة، وبعقوبته لهم به تارة، وإليهم انتهت غايته ووقوعه.

**فتأمل** هذا الموضع كما ينبغي، فإنه يحل عنك إشكالات حار فيها أكثر الناس، ولم يهتدوا إلى الجمع بين: الملك، والحمد، والعدل، والحكمة.

(١)**روى** مسلم في صحيحه من حديث قيس بن أبي حازم عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألم تر**(٢) **آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط: أعوذ برب الفلق، وأعوذ برب الناس**».

**وفي** لفظ آخر من رواية محمد بن إبراهيم التيمي عن عقبة: «أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟**» قلت: بلى. قال: «**قل: أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس**». وفي الترمذي: حدثنا قتيبة، نا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر قال: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة**». قال: هذا حديث غريب.

---

(١) ١٩٨ بدائع جـ٢.

(٢) قال النووي في شرح مسلم ضبط نر بالنون المفتوحة وبالياء المضمومة وكلاهما صحيح.

**وفي** الترمذي والنسائي وسنن أبي داود عن عبدالله بن حبيب قال: «خرجنا في ليلة مطر وظلمة نطلب النبي ﷺ ليصلي لنا فأدركناه، فقال: «قل»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قل»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قل» قلت: يارسول الله ما أقول؟ قال: «**قل: قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء**». قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

**وفي** الترمذي أيضاً من حديث الجريري عن أبي هريرة عن أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذهما، وترك ما سواهما، قال: وفي الباب عن أنس وهذا حديث غريب».

**وفي** الصحيحين عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا آوىٰ إلى فراشه نفث في كفيه بـ«قل هو الله أحد، والمعوذتين جميعاً» ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده. قالت عائشة: فلما اشتكىٰ كان يأمرني أن أفعل ذلك به».

**قلت:** هكذا رواه يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة ذكره البخاري ورواه مالك عن الزهري عن عروة عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا اشتكىٰ يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عليه بيده رجاء بركتها»، وكذلك: قال معمر عن الزهري عن عروة عنها: «أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في مرضه الذي قبض فيه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهن، وأمسح بيده نفسه لبركتها، فسألت ابن شهاب كيف كان ينفث؟ قال: ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه». ذكره البخاري أيضاً، وهذا هو الصواب أن عائشة كانت تفعل ذلك، والنبي ﷺ لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك.

**وأمّا** أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا[1] ولعل بعض الرواة رواه بالمعنىٰ فظن أنها لما فعلت ذلك وأقرها على رقيته أن يكون مسترقياً، فليس أحدهما بمعنى الآخر، ولعل الذي كان يأمرها به إنما هو المسح على نفسه بيده، فيكون هو الراقي لنفسه، ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على

(١) كيف والنبي ﷺ سيد المتوكلين، وقال ـ عليه السلام ـ: «يدخل الجنة سبعون ألفاً وهم قوم لا يرقون ولا يسترقون ولا يكوون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون». وقد يقال: فعل ذلك لبيان الجواز تأمّل.

بدنه، ويكون هذا غير قراءتها هي عليه، ومسحها على يديه، فكانت تفعل هذا وهذا، والذي أمرها به إنما هو تنقل يده لا رقيته، والله أعلم.

**والمقصود** الكلام على هاتين السورتين وبيان عظيم منفعتهما وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيراً خاصًّا في دفع السحر والعين وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطَّعام والشراب واللباس.

**فنقول** والله المستعان: قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول: وهي أصول الاستعاذة. أحدها: نفس الاستعاذة. والثانية: المستعاذ به. والثالثة: المستعاذ منه.

**فبمعرفة** ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين، فلنعقد لهما ثلاثة فصول: الفصل الأول في الاستعاذة. والفصل الثاني في المستعاذ به. والثالث في المستعاذ منه.

## الفصل الأول

**اعلم** أن لفظ: عاذ، وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذاً، كما يسمى ملجأ ووزراً.

**وفي** الحديث: أن ابنة الجون لما أدخلت على النبي ﷺ فوضع يده عليها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: «**لقد عذت بمعاذ الحقي بأهلك**». فمعنىٰ أعوذ ألتجيء وأعتصم وأتحرز.

**وفي** أصله قولان: أحدهما أنه مأخوذ من الستر، والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة. فأما من قال: إنه من الستر، قال: العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها عُوَّذ بضم العين وتشديد الواو وفتحها، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها سموه عوذاً، فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه، واستجن به منه.

**ومن** قال: هو لزوم المجاورة. فإن العرب تقول: للحم إذا لصق بالعظم فلم

يتخلص منه عوذ لأنه اعتصم به واستمسك به، فكذلك العائذ، قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه، والقولان حق والاستعاذة تنتظمهما معاً، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه متمسك به معتصم به، قد استمسك قلبه به، ولزمه كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفاً.

**وقصده** به فهرب منه، فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقى نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه، وألقىٰ بنفسه بين يديه، واعتصم به، واستجار به، والتجأ إليه.

**وبعد** فمعنىٰ الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة.

**ونظير** هذا التعبير عن معنى محبته وخشيته وإجلاله ومهابته، فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الصفة والخبر كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعنين لم تخلق له شهوة أصلاً فلو قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه، فإذا وصفتها لمن خلقت فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق.

**وأصل** هذا الفعل أعوذ بتسكين العين وضم الواو، ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو، فقالوا: أعوذ على أصل هذا الباب ثم طردوا إعلاله، فقالوا في اسم الفاعل: عائذ، وأصله عاوذ، فوقعت الواو بعد ألف فاعل، فقلبوها همزة، كما قالوا: قائم، وخائف، وقالوا في المصدر: عياذاً بالله، وأصله عواذاً كلواذ، فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها، ولم تحصنها حركتها، إلا أنها قد ضعفت بإعلالها في الفعل، وقالوا: مستعيذ. وأصله مستعوذ: كمستخرج، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها[1]، قلبت الواو قبلها كسرة، فقلبت ياء على أصل الباب.

---

(١) لعل صواب العبارة فكسر ما قبل الواو فقلبت إلخ أو نحو ذلك.

**فإن** قلت: فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل كقوله: فاستعذ بالله. ولم تدخل في الماضي والمضارع بل الأكثر أن يقال: أعوذ بالله، وعذت بالله دون أستعيذ وإستعذت.

**قلت**: السين والتاء دالة على الطلب، فقوله: أستعيذ بالله، أي أطلب العياذ به، كما إذا قلت: أستخير الله. أي: أطلب خيرته وأستغفره أي أطلب مغفرته وأستقيله أي أطلب إقالته، فدخلت في الفعل إيذاناً لطلب هذا المعنى من المعاذ فإذا قال المأمور: أعوذ بالله فقد امتثل ما طلب منه، لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام وبين طلب ذلك، فلما كان المستعيذ هارباً ملتجئاً معتصماً بالله أتى بالفعل الدال على ذلك، دون الفعل الدال على طلب ذلك فتأمله.

**وهذا** بخلاف ماإذا قيل استغفر الله فقال: استغفر الله، فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله فإذا قال: أستغفر الله كان ممتثلاً لأن المعنى: أطلب من الله أن يغفر لي. وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين، فيقول: أستعيذ بالله، أي: أطلب منه أن يعيذني، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه. فالأول مخبر عن حاله وعياذه بربه، وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه.

**والثاني**: طالب سائل من ربه أن يعيذه كأنه يقول: أطلب منك أن تعيذني؛ فحال الأول أكمل. ولهذا جاء عن النبي ﷺ في امتثال هذا الأمر: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ وأعوذ بكلمات الله التامات ـ وأعوذ بعزة الله وقدرته**». دون أستعيذ؛ بل الذي علمه الله إيَّاه أن يقول: ﴿**أعوذ برب الفلق**﴾ ﴿**أعوذ برب الناس**﴾ دون أستعيذ؛ فتأمل هذه الحكمة البديعة.

**فإن** قلت: فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به فقال: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ ﴿**وقل أعوذ برب الناس**﴾، ومعلوم أنه إذا قيل: قل الحمد لله، وقل: سبحان الله؛ فإن امتثاله أن يقول: الحمد لله، وسبحان الله، ولا يقول: قل سبحان الله.

**قلت:** هذا هو السؤال الذي أورده أبيّ بن كعب على النبي ﷺ بعينه، وأجابه عنه رسول الله ﷺ. فقال البخاري في صحيحه: حدَّثنا قتيبة، ثنا سفيان، عن عاصم، وعبدة عن زر[1]، قال: «سألت أبيٍّ بن كعب عن المعوذتين فقال: سألت رسول الله ﷺ فقال: قيل لي: فقلت: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ».

**ثم** حدَّثنا علي بن عبدالله، ثنا سفيان، ثنا عبدة بن أبي لبابة، زر بن حبيش، وحدَّثنا عاصم عن زر قال: «سألت أبيٍّ بن كعب قلت: أبا المنذر: إن أخاك ابن مسعود يقول: كذا وكذا، فقال: إني سألت رسول الله ﷺ فقال قيل لي فقلت قل فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ».

**قلت:** مفعول القول محذوف وتقديره قيل لي قل، أو قيل لي هذا اللفظ. فقلت كما قيل لي. وتحت هذا من السر أن النبي ﷺ ليس له في القرآن إلا بلاغة لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه، بل هو المبلغ له عن الله.

**وقد** قال الله له: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ فكان يقتضي البلاغ التام أن يقول: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ كما قال الله. وهذا هو المعنى الذي أشار النبي ﷺ إليه بقوله: «**قيل لي فقلت**»، أي: أني لست مبتدئاً، بل أنا مبلغ، أقول كما يقال لي: وأبلغ كلام ربي كما أنزله إليَّ. فصلوات الله وسلامه عليه، لقد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وقال كما قيل له، فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول هذا القرآن العربي. وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به.

**ففي** هذا الحديث أبين الرد لهذا القول، وأنه ﷺ بلّغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه حتى أنه لما قيل له، قل: قال: هو قل. لأنه مبلغ محض، وما على الرسول إلا البلاغ.

---

(١) هو ابن حبيش الآتي بعد.

# الفصـل الثـاني

**في** المستعاذ به، وهو الله وحده: رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إلـه الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

**وقد** أخبر ـ تعالى ـ في كتابه عن من استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغياناً ورهقـاً، فقـال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿**وأَنَّه كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرجال ٍ مِنَ الجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً**﴾ [الجن: ٦].

**جاء** في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه: فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح، أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً، أي طغياناً وإثماً وشرًّا يقولون سدنا الإنس والجن.

**والرهق** في كلام العـرب الإثم وغشيان المحـارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

**واحتـج** أهـل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي ﷺ استعاذ بقوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات**». وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبداً.

**ونظير** ذلك قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك**».

**فدل** على أن رضاه وعفوه من صفاته، وأنه غير مخلوق. وكذلك قوله: «**أعوذ بعزة الله وقدرته**». وقوله: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات**»، وما استعاذ به النبي ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيذ إلا بالله أو بصفة من صفاته.

**وجاءت** الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإلـه، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الفلق وإلى الناس، ولابد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها.

**وقد** قررنا في مواضع متعددة أن الله ـ سبحانه ـ يدعىٰ بأسمائه الحسنى فَيُسْأَل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه، وقد قال النبي ﷺ في هاتين السورتين: «**إنه ما تعوذ المتعوذون بمثلهما**»، فلابد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضياً للمطلوب وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه، وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث، وهو الشيء المستعاذ منه فتتبين المناسبة المذكورة فنقول.

## الفصل الثالث

**في** أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين:

**الشر** الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

**إما** ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوعَ ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالاً بصاحبه.

**وإما** شر واقع به من غيره وذلك الغير. إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان، أو ليس نظيره وهو الجني، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمى[1]، وغيرها.

**فتضمنت** هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما.

**فإن** سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة:

**أحدها:** شر المخلوقات التي لها شر عموماً. الثاني: شر الغاسق إذا وقب. الثالث: شر النفاثات في العقد. الرابع: شر الحاسد إذا حسد.

**فنتكلم** عن هذه الشرور الأربعة، ومواقعها، واتصالها بالعبد، والتحرز منها قبل وقوعها، وبماذا تدفع بعد وقوعها. وقبل الكلام في ذلك لابد من بيان الشر: ما هو؟ وما حقيقته؟

---

(١) جمع حمة كثبة وهو السم أو الإبرة التي يضرب بها الزنبور والحية ونحو ذلك أو يلدغ بها.

**فنقول:** الشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه، وليس له مسمى سوى ذلك. فالشرور هي الآلام وأسبابها، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم هي شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة، لكنها شرور لأنها أسباب الآلام. ومفضية إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها، فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة، وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التي تصيبه مفضية إلى مسبباتها ولابد، ما لم يمنع السببية مانع أو يعارض السبب ما هو أقوى منه، وأشد اقتضاء لضده، كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان وعظمة الحسنات الماحية وكثرتها، فيزيد في كميتها وكيفيتها على أسباب العذاب فيدفع الأقوى للأضعف، وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض، وأسباب الضعف والقوة.

**والمقصود** أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة، وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لذ لآكله وطاب له مساغه، وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب ولابد، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده. وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته!!

**فإن** الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه، حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

**ومن** تأمَّل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب كما قيل.

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

**فما** حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل

شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس.

**ومن** سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

**والمقصود** أن هذه الأسباب شرور ولابد. وأما كون مسبباتها شروراً فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم، والغموم، والأحزان، والحسرات.

**ولو** تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

**فلو** تيقظ حق التيقظ، لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول: ﴿**يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾ [الفجر: ٢٤] و﴿**يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ**﴾ [الزمر: ٥٦].

**ولما** كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين، فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم وإما سبب يفضي إليه. فكان يتعوّذ في آخر الصلاة من أربع، وأمر بالاستعاذة منهن، وهي: عذاب القبر، وعذاب النار. فهذان أعظم المؤلمات. وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال. وهذان سبب العذاب المؤلم فالفتنة سبب العذاب. وذكر الفتنة خصوصاً وعموماً. وذكر نوعي الفتنة لأنها إما في الحياة وإما بعد الموت، ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة.

**وأما** فتنة الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ فعادت الاستعاذة إلى الألم والعذاب وأسبابها، وهذا من آكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير.

**وأوجبه** ابن حزم في كل تشهد، فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته.

**ومن** ذلك قوله: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل،**

**والجبن والبخل، وضلع الدين[1] وغلبة الرجال»**. فاستعاذ من ثمانية أشياء، كل اثنين منها قرينان.

**فالهم** والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذباتها. والفرق بينهما أن الهم توقع الشر في المستقبل. والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح، فإن تعلق بالماضي سمي حزناً، وإن تعلق بالمستقبل سمي همًّا.

**والعجز** والكسل قرينان؛ وهما من أسباب الألم لأنهما يستلزمان فوات المحبوب، فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل.

**والجبن** والبخل قرينان؛ لأنهما عدم النفع بالمال والبدن، وهما من أسباب الألم، لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة. والبخل يحول بينه دونها أيضاً، فهذا الخلقان من أعظم أسباب الآلام

**وضلع** الدين وقهر الرجال قرينان؛ وهما مؤلمان للنفس، معذبان لها. أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين. والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال. وأيضاً فضلع الدين قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره.

**ومن** ذلك تعوذه ﷺ «من المأثم والمغرم»، فإنهما يسببان الألم العاجل.

**ومن** ذلك قوله: **«أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك»**. فالسخط سبب الألم، والعقوبة هي الألم، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها.

---

(١) ضلع الدين: ثقله.

# فصل

**والشر** المستعاذ منه نوعان: أحدهما موجود يطلب رفعه، والثاني معدوم يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد، كما أن الخير المطلق نوعان: أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته، وأن لا يسلبه. والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم.

**وقد** جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله ـ تعالى ـ حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أن آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لنا ذُنوبَنَا وكَفِّر عَنَّا سَيِّئاتِنا﴾؛ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود، فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه، ثم قال: ﴿وَتَوفَّنا مع الأَبْرَار﴾ فهذا طلب لدوام الخير الموجود، وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه، فهذان قسمان.

**ثم** قال: ﴿رَبَّنـا وآتِنَا ما وَعدتَّنا على رُسُلِكَ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه، ثم قال: ﴿وَلاَ تُخْزِنَا يومَ القِيامَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤]، فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم، وهو خزي يوم القيامة، فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب، قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما: المغفرة، ودوام الإسلام إلى الموت، ثم أتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة، وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة.

**فإذا** عرف هذا فقوله ﷺ في تشهد الخطبة: «**نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**» يتناول الاستعاذة من شر النفس الذي هو معدوم، لكنه فيها بالقوة، فيسأل دفعه وأن لا يوجد. وأما قوله: من «**سيئات أعمالنا**» ففيه قولان:

**أحدهما:** أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت، فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد ومن الشر الموجود، فطلب دفع الأول ورفع الثاني.

**والقول** الثاني: أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضاً لكنه دفع المسبب، والأول دفع

السبب فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه، وعلى الأول يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه، فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها، وعلى الثاني يكون من باب إضافة المسبب إلى سببه، والمعلول إلى علته، كأنه قال: من عقوبة عملي، والقولان محتملان، فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به، فإن مع كل واحد منهما نوعاً من الترجيح، فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس، فشر النفس يولد الأعمال السيئة، فاستعاذ من صفة النفس ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة، وهذان جماع الشر، وأسباب كل ألم، فمتى عوفي منهما عوفي من الشر بحذافيره، ويترجح الثاني بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل، وأسبابها شر النفس، فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها، والقولان في الحقيقة متلازمان، والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر.

## فصل

**ولما** كان الشر له سبب هو مصدره، وله مورد ومنتهىٰ، وكان السبب إما من ذات العبد وإما من خارج، ومورده ومنتهاه إما نفسه وإما غيره، كان هنا أربعة أمور.

**شر** مصدره من نفسه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره تارة أخرى.

**وشر** مصدره من غيره، وهو السبب فيه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى.

**جمع** النبي ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسىٰ وإذا أخذ مضجعه: «**اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إلـه إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم**».

فذكر مصدري الشر وهما: النفس، والشيطان. وذكر مورديه ونهايتيه، وهما عوده على النفس أو على أخيه المسلم، فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظ وأخصره وأجمعه وأبينه.

# فصـــل

**فإذا** عرف هذا فلنتكلم على الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين:

**الشـر** الأول العام في قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَاخَلَقَ﴾ وما ههنا موصولة ليس إلا، والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول لا إلىٰ خلق الرب ـ تعالى ـ الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما.

**فإن** الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى، فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما.

**وكذلك** أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلاً، ولو فعل الشر ـ سبحانه ـ لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنىٰ، ولعاد إليه منه حكم ـ تعالى وتقدس عن ذلك ـ. وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض، إذ هو محض العـدل والحكمة، وإنما يكون شرًّا بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالى.

**ونحن** لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة، فإنه خالق الخير والشر. ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال:

**أحدهما**: أن ما هو شر أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولاً منفصلاً، يكون وصفاً له ولا فعلاً من أفعاله.

**الثاني**: أن كونـه شرًّا هو أمر نسبي إضافي فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه، فله وجهان هو من أحدهما خير، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ خلقاً وتكويناً ومشيئة لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها.

**وأكثر** الناس تضيق عقولهم عن مبادىء معرفتها فضلاً عن حقيقتها، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله ـ سبحانه ـ هو الغني الحميد، وفاعل الشر لا يفعله لحاجته المنافية لغناه أو لنقصه، وعيبه المنافي لحمده فيستحيل صدور الشر من الغني الحميد

فعلاً. وإن كان هو الخالق للخير والشر، فقد عرفت أن كونه شرًّا هو أمر إضافي وهو نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه، فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك باباً عظيماً من معرفة الرب ومحبته ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء.

**وقد** بسطت هذا في كتاب التحفة المكية، وكتاب الفتح القدسي، وغيرهما. وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة. أحدها: أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمراً وحكماً، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموماً بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، مشكور عليه، يستحق عليه الحمد من عباده والثناء عليه والمحبة، وكذلك الحكم يقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماتهم، وجلد من يصول عليهم في أعراضهم، فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم، فكيف عقوبة من يصول على أديانهم، ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله، وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به؟! أفليس في عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل وإحسان إلى العبيد، وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي، فالشر ما قام به من تلك العقوبة، وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل، فهو عين الخير والحكمة، فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذي يطلعك على مسألة القدر، ويفتح لك الطريق إلى الله ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه، وإنه سبحانه كما أنه البر الرحيم الودود المحسن، فهو الحكيم الملك العدل، فلا تناقض حكمته رحمته، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه؛ وكلاهما مقتضىٰ عزته وحكمته، وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته، ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن الله أن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء، ولا فرق أصلاً، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة.

**وتأمل** القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلاً بالرد على هذه المقالة وإنكارها أشد الإنكار وتنزيه نفسه عنها. كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُون﴾ [القلم: ٣٥]. وقوله ﴿أَمْ حَسِبَ الذين اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَّجْعَلَهُم كَالَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحات سواءً مَّحيَاهُم وَمَماتُهُمْ سآءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات كالْمُفسِدِين في الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾. [ص: ٢٨].

**فأنكر** ـ سبحانه ـ على من ظن هذا الظن، ونزه نفسه عنه، فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته، وعزته وإلـٰهيته: لا إلـٰه إلا هو تعالَى عما يقول الجاهلون علوًّا كبيراً.

**وقد** فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان ومكافأة(١) الصنع الجميل بمثله وزيادة، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار واستهجنته أعظم الاستهجان. وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام في موضع العقوبة والانتقام.

**كما** إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم فأكرمه غاية الإكرام ورفعه وكرمه، فإن الفطر والعقول تأبىٰ استحسان هذا، وتشهد على سفه من فعله.

**هذه** فطرة الله التي فطر الناس عليها، فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة، وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها ولم تلق، ولظهرت مناقضة الحكمة، كما قال الشاعر:

نعمة الله لا تعاب ولكن ... ربما استقبحت على أقوام

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بإعدائه الصادين عن سبيله، الساعين في خلاف مرضاته الذين يرضون إذا غضب، ويغضبون إذا رضي، ويعطلون ما حكم به، ويسعون في أن تكون الدعوة لغيره والحكم لغيره والطاعة لغيره، فهم مضادون في كل ما يريد، يحبون ما يبغضه، ويدعون إليه، ويبغضون

---

(١) معطوف على مجرور [على] وهو استقباح اهـ.

ما يحبه، وينفرون عنه، ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه، ويظاهرونهم عليه وعلى رسوله. كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ الكافِرُ عَلَىٰ رَبِّه ظَهِيْراً﴾ [الفرقان: ٥٥]، وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إبليسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسقَ عن أمر ربِّه أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّته أولياء مِنْ دُوْني وَهُمْ لك عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠].

**فتأمل** ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعتابا وجلالة وتهديداً، كيف صدره بإخبارنا أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا، فأبى ذلك، فطرده، ولعنه، وعاداه من أجل إبائه عن السجود لأبينا، ثم أنتم توالونه من دوني، وقد لعنته وطردته إذ لم يسجد لأبيكم، وجعلته عدوًّا لكم ولأبيكم فواليتموه وتركتموني، فليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم، ويوم القيامة يقول تعالى: أليس عدلاً مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا، فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة إذا ذهبوا مع أوليائهم وبقي أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد، فيتجلىٰ لهم ويقول: ألا تذهبون حيث ذهب الناس فيقولون: فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده، فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها فيقولون: نعم إنه لا مثل له. فيتجلى لهم، ويكشف عن ساق فيخرون له سجداً.

**فيا** قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة! ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم وبقوا مع مولاهم الحق! فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياءه، إن أولياءه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

**ولا تستطل** هذا البساط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ونزولها منه منازلها في الدنيا لتنزل في جوار ربها في الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقا.

## فصـــل

**إذا** عرف هذا عرف معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك**»، وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال: والشر لا يتقرب به إليك. وقول من قال: والشر لا يصعد إليك، وأن هذا الذي قالوه، وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه، فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر.

**بخلاف** لفظ المعصوم الصادق المصدق، فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته - تبارك وتعالى - عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإن دخل في مخلوقاته، كقوله: ﴿**قُل أعوذُ برَبِّ الفَلَقِ * مِنْ شَرِّ ما خَلَق**﴾ وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به، كقوله: ﴿**والكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُون**﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿**واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِين**﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿**فَبِظُلمٍ مِنَ الذيْن هَادُوا**﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿**ذلك جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِم**﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقوله: ﴿**وَما ظَلَمْناهُمْ ولَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِين**﴾ [الزخرف: ٧٦]، وهو في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عشر معشاره، وإنما المقصود التمثيل.

**وتارة** يحذف فاعله كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿**وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهم رَشَداً**﴾ [الجن: ١٠]، فحذفوا فاعل الشر ومريده وصرحوا بمريد الرشد.

**ونظيره** في الفاتحة: ﴿**صِراطَ الذِينَ أَنْعمتَ عَلَيْهِمْ غيرِ الْمغضُوبِ عَلَيْهِمْ ولَا الضَّآلِيْنْ**﴾ [الفاتحة: ٧]، فذكر النعمة مضافة إليه - سبحانه - والضلال منسوباً إلى من قام به، والغضب محذوفاً فاعله.

**ومثله** قوله الخضر في السفينة ﴿**فَأَرَدْتُّ أَنْ أَعِيْبَها**﴾ [الكهف: ٧٩]، وفي الغلامين: ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَبِّكَ**﴾ [الكهف: ٨٢].

**ومثله** قوله: ﴿**ولَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصْيَانَ**﴾ [الحجرات: ٧]، فنسب هذا التزيين المحبوب إليه.

**وقال**: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ من النِّساءِ والبَنِيْنْ﴾ [آل عمران: ١٤]، فحذف الفاعل المزين.

**ومثله** قول الخليل ﷺ: ﴿الـذي خَلَقني فَهـوَ يَهْدِين * والَّـذِي هُوَ يُطْعُمنِي وَيسْقِيْنِ * وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِيْنْ * وَالَّذِي يُمِيْتُني ثُمَّ يُحْيِيْنِ * والَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَومَ الدِّين﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٢]، فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعـال، ونسب إلى نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة، وهذا كثير في القرآن، ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب الفوائد المكية[1]، وبينا هناك السر في مجيء و ﴿الَّذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَاب﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿الَّذين أُوتُوا الكِتاب﴾ [البقرة: ١٠١]، والفرق بين الموضعين وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعاً في سياق المدح. وحيث حذفه كان من أوتيه واقعاً في سياق الذم أو منقسماً، وذلك من أسرار القرآن.

**ومثله** : ﴿ثم أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِين اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وقال: ﴿وإِنَّ الذين أُوْرِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ منه مُرِيب﴾ [الشورى: ١٤]، وقوله: ﴿فخلفَ من بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ورِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩]. وبالجملة فالذي يضاف إلى الله ـ تعالى ـ كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

## فصل

**وقد** دخل في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من: حيوان، أو غيره، إنسيًّا، أو جنيًّا، أو هامة، أو دابة، أو ريحاً، أو صاعقة أي نوع كان من أنواع البلاء.

**فإن** قلت: فهل في «ما» ههنا عموم، قلت: فيها عموم تقييدي وصفي لا عموم إطلاقي. والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه.

(١) ذكرنا في المقدمة أن جنس هذه الإحالة تنطبق على مفتاح دار السعادة حيث ذكر هذا المبحث فيه بتفصيل (ج).

**وليس** المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله. فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض، والخير كله حصل على أيديهم، فالاستعاذة من شر ما خلق تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجن وشر السباع والهوام وشر النار والهواء وغير ذلك.

**وفي** الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل منه**». رواه مسلم.

**وروى** أبو داود في سننه عن عبدالله بن عمر قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: «**يا أرض! ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد**». وفي الحديث الآخر: «**أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزها بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما نزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلاَّ طارقاً يطرق بخير يا رحمن**».

## فصل

**الشر** الثاني: شر الغاسق إذا وقب، فهذا خاص بعد عام، وقد قال أكثر المفسرين إنه الليل. قال ابن عباس: الليل إذا أقبل بظلمته من الشرق، ودخل في كل شيء وأظلم، والغسق الظلمة يقال: غسق الليل وأغسق إذا ظلم. ومنه قوله تعالى: ﴿**أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ**﴾ [الإسراء: ٧٨].

**وكذلك** قال الحسن ومجاهد: الغاسق إذا وقب: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس. وقال مقاتل: يعني ظلمةالليل إذا دخل سواده في ضوء النهار. وفي تسمية الليل غاسقاً قول آخر: أنه من البرد، والليل أبرد من النهار، والغسق: البرد. وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى: ﴿**هَذَا فَلْيَذُوقُوه حَمِيْمٌ وغسَّاقٌ**﴾ [صٓ: ٥٧]. وقوله: ﴿**لاَ يذُوقُونَ فِيْها بَرْداً وَلاَ شَرَاباً * إِلاَّ حَمِيْماً وغَسَّاقاً**﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرها. وكذلك قال مجاهد ومقاتل: هو الذي انتهى برده.

**ولا تنافي** بين القولين، فإن الليل بارد مظلم، فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط اقتصر على أحد وصفيه، والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة، فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولىٰ بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق الذي هو الصبح، والنور، ومن شر الغاسق الذي هو الظلمة، فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة، كما سنزيده تقريراً عن قريب إن شاء الله.

**فإن** قيل: فما تقولون فيما رواه الترمذي من حديث ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبدالرحمن عن أبي سلمة عن عائشة قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال: «**يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب**»، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وهذا أولى من كل تفسير فيتعين المصير إليه.

**وقيل** هذا التفسير حق، ولا يناقض التفسير الأول، بل يوافقه، ويشهد بصحته، فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً**﴾ فالقمر هو آية الليل وسلطانه، فهو أيضاً غاسق إذا وقب وهذا خبر صدق، وهو أصدق الخبر، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب وتخصيص النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره.

**ونظيره** هذا قوله في المسجد الذي أسس على التقوى، وقد سئل عنه؟ فقال: «**هو مسجدي هذا**»، ومعلوم أن هذا لا ينفي كون مسجد قباء مؤسساً على التقوى مثل ذاك.

**ونظير** أيضاً قوله في علي وفاطمة والحسن والحسين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي**» فإن هذا لا ينفي دخول غيرهم من أهل بيته في لفظ: أهل البيت، ولكن هؤلاء أحق من دخل في لفظ أهل بيته.

**ونظير** هذا قوله: «**ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس شيئاً، ولا يفطن له فيتصدق عليه**»، وهذا لا ينفي اسم المسكنة عن الطواف، بل ينفي اختصاص الاسم به وتناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له.

**ونظير** هذا قوله: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب**» فإنه لا يقتضي نفي الاسم عن الذي يصرع الرجال، ولكن يقتضي أن ثبوته للذي يملك نفسه عند الغضب أولىٰ، ونظيره الغسق والوقوب وأمثال ذلك. فكذلك: قوله في القمر: هذا هو الغاسق إذا وقب لا ينفي أن يكون الليل غاسقاً، بل كلاهما غاسق.

**فإن** قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم أن المراد به القمر إذا خسف واسود، وقوله: وقب أي دخل في الخسوف أوغاب خاسفاً.

**قيل:** هذا القول ضعيف ولا نعلم به سلفاً، والنبي ﷺ لما أشار إلى القمر وقال هذا الغاسق إذا وقب لم يكن خاسفًا إذ ذاك، وإنما كان هو مستنير ولو كان خاسفاً لذكرته عائشة، وإنما قالت: نظر إلى القمر، وقال: «**هذا هو الغاسق**» ولو كان خاسفاً لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه، فإن ما أطلق عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لا يجوز أن يطلق عليه بدونها لما فيه من التلبيس.

**وأيضاً** فإن اللغة لا تساعد على هذا، فلا نعلم أحداً قال: الغاسق: القمر في حال خسوفه. وأيضاً فإن الوقوب لا يقول أحد من أهل اللغة: إنه الخسوف، وإنما هو الدخول من قولهم: وقبت العين إذا غارت. وركية وقبا: غار ماؤها. فدخل في أعماق التراب.

**ومنه** الوقب: للثقب الذي يدخل فيه المحور، وتقول العرب: وقب يقب وقوباً إذا دخل.

**فإن** قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: إن الغاسق هو الثريا إذا سقطت، فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها، وترتفع عند طلوعها، قيل: إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل، وإن أراد أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما، فهذا يحتمل أن يدل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبيهه، وأما أن يختص اللفظ به فباطل.

## فصل

**والسبب** الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو: أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين وفي الصحيح أن النبي ﷺ أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين، ولهذا قال: «**فاكتفوا صبيانكم واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء**». وفي حديث آخر: «**فإن الله يبث من خلقه ما يشاء**»، والليل هو محل الظلام، وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار، فإن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة على أهل الظلمة. وروي أن سائلاً سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: في ظلماء حندس.

**وسأل** النبي ﷺ كيف يأتيك؟ فقال: «**في مثل ضوء النهار**» فاستدل بهذا على نبوته، وإن الذي يأتيه ملك من عند الله، وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان، ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم والشياطين تجول فيها وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع وهو فيه أثبت وأمكن.

## فصل

**ومن** ههنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع، فإن الفلق: الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين في الليل، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب، أو كن، أو غار، وتأوي الهوام إلى أحجرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها ويقهر عسكرها وجيشها. ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم.

**قال تعالى**: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِين**

كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَّثَلُه فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام: ١٢٢].

**وقال** في أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحرٍ لُّجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَات بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لم يَكَدْ يراها ومن لم يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُّور﴾ [النور: ٤٠]، وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيْهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِيٌّ يُوْقَدُ من شَجَرةٍ مُبارَكةٍ زَيْتُونَةٍ لا شُرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيء ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ على نورٌ يَهدي الله لنوره من يشاء﴾ [النور: ٣٥] فالإيمان كله نور ومآله إلى نور، ومستقره في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة ومآله إلى الظلمات، ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بها الأرواح المظلمة، فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها، ونزل هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن، بل هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد ﷺ ومضادة لما جاء به الشياطين من كل وجه، وأن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون، فما فعلوه، ولا يليق بهم، ولا يتأتى منهم، ولا يقدرون عليه.

**وفي** هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قصر المتكلمون غاية التقصير في دفعها وما شفوا في جوابها، وإنما الله سبحانه هو الذي شفى وكفى في جوابها، فلم يحوجنا إلى متكلم ولا إلى أصولي ولا نظار، فله الحمد والمنة لا نحصي ثناء عليه.

## فصل

**واعلم** أن الخلق كله فلق، وذلك أن فلقاً قفل بمعنى مفعول: كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص.

**والله** - عز وجل - فالق الإصباح، وفالق الحب والنوى، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة: فلقاً وفرقاً. يقال: هو أبيض من فرق الصبح وفلقه، وكما أن في خلقه فلقاً وفرقاً، فكذلك أمره كله فرقان يفرق بين الحق والباطل، فيفرق ظلام الباطل بالحق، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح، ولهذا سمي كتابه الفرقان، ونصره فرقاناً لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه، ومنه فلقه البحر لموسى، وسماه فلقاً، فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته وأن العباد لا يقدرون قدره: وأنه ﴿تَنْزِيْلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

## فصل

**الشر** الثالث: شر النفاثات في العقد، وهذا الشر هو شر السحر، فإن النفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر والنفث هو: النفخ مع ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما والنفث فعل الساحر فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقدة نفخاً معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي.

**فإن** قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟ قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع، وهو: أن بنات لبيد بن أعصم سحرن النبي ﷺ، هذا جواب أبي عبيدة وغيره، وليس هذا

بسديد، فإن الذي سحر النبي ﷺ هو لبيد بن أعصم كما جاء في الصحيح.

**والجـواب** المحقق أن النفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفـاثـات، لأن تأثـير السحـر إنما هو جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير والله أعلم.

**ففي** الصحيح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: «أن النبي ﷺ طب حتى إنه ليخيل إليه أنه صنع شيئاً وما صنعه، وأنه دعا ربه، ثم قال: «**أشعرت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه**»، فقالت عائشة: وما ذاك يارسول الله؟ قال: «**جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليّ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: الآخر مطبوب، قال: من طبه، قال: لبيد بن الأعصم، قال: فيماذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في ذروان بئر في بني زريق**»، قالت عائشة رضي الله عنها: فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة فقال: «**والله لكأن ماءها نقاعة الحنا، ولكأن نخلها رءوس الشيـاطـين**»، قال: فقلت له: يارسـول الله هلا أخـرجته؟ قال: «**أما أنا فقد شفاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شرًّا**» فأمر بها فدفنت.

**قال** البخاري: وقال الليث وابن عيينة عن هشام في مشط ومشاقة. ويقال إن المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاقة من مشاقة الكتان. قلت: هكذا في هذه الرواية إنه لم يخرجه اكتفاء بمعافاة الله له وشفائه إياه.

**وقد** روى البخاري من حديث ابن عيينة قال: أول من حدثنا به ابن جريج يقول: حدثني آل عروة عن عروة فسألت هشاماً عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا، فقال ياعائشة: «**أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال لبيد بن الأعصم رجل من بني زريق حليف ليهود، وكان منافقاً، قال: وفيم قال؟**

**في مشط ومشاقة، قال: وأين قال؟ في جف طلع ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان، قال: فأتى البئر حتى استخرجه فقال: هذه البئر التي أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رءوس الشياطين، قال: فاستخرج، قالت: فقلت: أفلا أي تنشرت، قال: أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا»**. ففي هذا الحديث أنه استخرجه وترجم البخاري عليه باب: هل يستخرج السحر.

**وقال** قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب ويؤخذ عن امرأته أيحل عنه وينشر؟ قال: لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه.

**فهذان** الحديثان قد يظن في الظاهر تعارضهما فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه الأول فيه أنه لم يستخرجه، وحديث ابن جريج عن هشام فيه أنه استخرجه، ولا تنافي بينهما، فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه ثم دفنه بعد أن شفي، وقول عائشة: هلا استخرجته أي هلا أخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه فأخبرها بالمانع له من ذلك، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك، فيقع الإنكار، ويغضب للساحر قومه، فيحدث الشر، وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة، فأمر بها فدفنت ولم يستخرجها للناس، فالاستخراج الواقع غير الذي سألت عنه عائشة، والذي يدل عليه أنه ﷺ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه، ولم يجيء إليه لينظر إليها، ثم ينصرف إذ لا غرض له في ذلك، والله أعلم. وهذا الحديث: ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته.

**وقد** اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار، وقابلوه بالتكذيب. وصنف بعضهم فيه مصنفاً مفرداً حمل فيه على هشام، وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال: غلط واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء، قال: لأن النبي ﷺ لا يجوز أن يسحر، فإنه يكون تصديقاً لقول الكفار: ﴿**إِنْ تَتَّبِعُونَ إلا رَجُلاً مَسْحُوراً**﴾ [الفرقان: ٨].

**قالوا**: وهذا كما قال فرعون لموسى: ﴿**وإِنِّي لأَظُنُّكَ يامُوسَىٰ مَسْحُوراً**﴾ [الإسراء: ١٠١]. وقال قوم صالح له: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**﴾ [الشعراء: ١٥٣]. وقال قوم شعيب له: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**﴾.

**قالوا:** فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا، فإن ذلك ينافي حماية الله لهم وعصمتهم من الشياطين.

**وهذا** الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فإن هشاماً من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين؟ وما لهذا الشأن؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة.

**وقد** اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدةٍ، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله ﷺ وأيامه من المتكلمين، قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدَّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم، قال: سحر النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود فاشتكىٰ لذلك أياماً قال: فأتاه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، وعقد لذلك عقداً، فأرسل رسول الله ﷺ عليًّا فاستخرجها، فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام رسول الله ﷺ كأنما أنشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط.

**وقال** ابن عباس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدنت إليه اليهود، فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود فنزلت هاتان السورتان فيه.

**قال** البغوي: وقيل كانت مغروزة بالدبر، فأنزل الله ـ عز وجل ـ هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية، سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست(*) آيات، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال. قال: وروى أنه لبث فيه ستة أشهر، واشتد عليه ثلاثة أيام، فنزلت المعوذتان.

**قالوا:** والسحر الذي أصابه كان مرضاً من الأمراض عارضاً شفاه الله منه ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الإغماء

(*) في الأصل المطبوع: خمس آية وسورة الناس ستة آيات. والصواب ما أثبتناه. المراجع.

فقد أغمي عليه ﷺ في مرضه، ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه[1] وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته ونيل كرامته، وأشد الناس بلاء الأنبياء فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به من القتل والضرب والشتم والحبس، فليس ببدع أن يبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر، كما ابتلي بالذي رماه فشجه، وابتلي بالذي ألقى على ظهره السلا وهو ساجد وغير ذلك، فلا نقص عليهم، ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم وعلو درجاتهم عند الله.

**قالوا:** وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «**يا محمد أشتكيت؟ فقال: نعم. فقال: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك**». فعوذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد لما اشتكىٰ فدل على أن هذا التعوذ مزيل لشكايته ﷺ وإلا فلا يعوذه من شيء وشكايته من غيره.

**قالوا:** وأما الآيات التي استدللتم بها لا حجة لكم فيها، أما قوله ـ تعالى ـ عن الكفار أنهم قالوا: ﴿**إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً**﴾ [الإسراء: ٤٧]، وقول قوم صالح له: ﴿**إنما أنت من المسحرين**﴾، فقيل: المراد به من له سحر، وهي الرئة، أي: أنه بشر مثلهم، يأكل ويشرب، ليس بملك، ليس المراد به السحر، وهذا جواب غير مُرْضٍ وهو في غاية، البعد فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور، ولا يعرف هذا في لغة من اللغات، وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر فقالوا: ﴿**ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا**﴾ [يس: ١٥]، ﴿**أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلَنَا**﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿**بَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسولاً**﴾ [الإسراء: ٩٤]. وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السحر، وهي الرئة، وأي مناسبة لذكر الرئة في هذا الموضع؟ ثم كيف يقول فرعون لموسى: ﴿**إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَىٰ مَسْحُوراً**﴾ [الإسراء: ١٠١]. أفتراه ما علم أنه له سحراً، وأنه بشر، ثم كيف يجيبه موسى بقوله: ﴿**إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فرعونُ مَثْبُوراً**﴾ [الإسراء: ١٠٢]. ولو أراد بالمسحور أنه بشر لصدقه موسى، وقال: نعم أنا

---

(١) في الحديث أنه ﷺ سقط من فرس فجحش شقه أي انخدش جلده ا هـ. نهاية.

بشر أرسلني الله إليك، كما قالت الرسل لقومهم، لما قالوا لهم: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ [إبراهيم: ١٠]، فقالوا: ﴿إِنْ نَّحْنُ إِلَّا بَشرٌ مِثْلُكُم﴾ [إبراهيم: ١١]. ولم ينكروا ذلك، فهذا الجواب في غاية الضعف وأجابت طائفة منهم: ابن جرير وغيره: بأن المسحور هنا هو معلم السحر الذي قد علمه إيَّاه غيره، فالمسحور عنده بمعنى ساحر أي: عالم بالسحر، وهذا جيد، إن ساعدت عليه اللغة، وهو أن من علم السحر يقال له: مسحور، ولا يكاد هذا يعرف في الاستعمال ولا في اللغة، وإنما المسحور من سحره غيره: كالمطبوب والمضروب والمقتول (وبابه) وأما من علم السحر فإنه يقال له: ساحر بمعنى أنه عالم بالسحر وإن لم يسحر غيره، كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيْمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، ففرعون قذفه بكونه مسحوراً، وقومه قذفوه بكونه ساحراً، فالصواب هو الجواب الثالث، وهو جواب صاحب الكشاف وغيره: أن المسحور على بابه، وهو من سحر حتى جن، فقالوا: مسحور: مثل مجنون زائل العقل، لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول، فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعلَّمٌ مَجْنُون﴾ [الدخان: ١٤]، فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من أتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿آنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعونَ سَبِيْلاً﴾ [الفرقان: ٩]، مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرىٰ، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه، فإن أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلاً، ولا يقدر على سلوكها.

**فهكذا** حال أعداء رسول الله ﷺ معه حتى ضربوا له أمثالاً برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

**وأما** قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم، فإنه ـ سبحانه ـ كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذىٰ الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلىٰ بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلىء صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إلـٰه غيره ولا رب سواه.

## فصـــل

**وقـد** دلَّ قولـه: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّـاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر وأن له حقيقة.

**وقد** أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل، ولا حل ولا عقد، قالوا: وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين، لا حقيقة له سوى ذلك، وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف، وما يعرفه عامة العقلاء.

**والسحر** الذي يؤثر مرضاً وثقلاً وحلاًّ وعقداً وحبًّا وبغضاً ونزيفاً، وغير ذلك من الآثار الموجودة تعرفه عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه.

**وقـوله** تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً، كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه.

**وأيضاً**: فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به، مع أن هذا تغير في إحساسهم، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم، وماالفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟ فإذا غيّر إحساسه حتى صار

يرى الساكن متحركاً، والمتصل منفصلاً، والميت حيًّا، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغيضاً والبغيض إليه محبوباً، وغير ذلك من التأثيرات.

**وقد** قال ـ تعالى ـ عن سحرة فرعون: إنهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فبيَّن سبحانه أن أعينهم سحرت، وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصي، مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها، وهي الشياطين، فظنوا أنها تحركت بأنفسها، وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيراً أو بساطاً فترى الحصير والبساط ينجر، ولا ترى الجار له، مع أنه هو الذي يجره، فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين، فقلبتها كتقلب الحية، فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها، والشياطين هم الذين يقلبونها، وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي حتى رأى الحبال والعصي تتحرك، وهي ساكنة في أنفسها.

**ولا ريب** أن الساحر يفعل هذا وهذا، فتارة يتصرف في نفس الرأي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به، وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها.

**وأما** ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت، فهذا باطل من وجوه كثيرة.

**فإنه** لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً، بل حركة حقيقية، ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس، ولا يسمى ذلك سحراً، بل صناعة من الصناعات المشتركة، وقد قال تعالى: ﴿**فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعىٰ**﴾ ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون، لم يكن هذا من السحر في شيء، ومثل هذا لا يخفىٰ. وأيضاً: لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء، لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال، ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها.

**وأيضاً:** فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة، بل يكفي فيها

حذاق الصناع، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة، وخضوعه لهم، ووعدهم بالتقريب والجزاء.

**وأيضاً** فإنه لا يقال في ذلك: إنه لكبيركم الذي علَّمكم السحر، فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها. وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود.

## فصل

**الشر** الرابع: شر الحاسد إذا حسد وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود فنفس حسده شر يتصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿ومِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] فحقق الشر منه عند صدور الحسد والقرآن ليس فيه لفظة مهملة.

**ومعلوم** أن الحاسد لا يسمى حاسدًا إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك، ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاه عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ووجهت إليه سهام الحسد من قبله، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولا بد فقوله تعالى: ﴿إذا حسد﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل.

**وقد** تقدم في حديث أبي سعيد الصحيح رقية جبريل النبي ﷺ وفيها «**بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك**» فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد، ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها إذ لو نظر إليه نظر ساه عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئًا، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة وانسمت واحتدت فصارت نفساً غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة فأثرت في المحسود تأثيرًا بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد فربما أعطبه وأهلكه بمنزلة من فوق سهماً نحو رجل عريان فأصاب منه

مقتلاً وربما صرعه وأمرضه والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر.

**وهذه** العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة وهي في ذلك بمنزلة الحية التي إنما يؤثر سمها إذا عضت واحتدت فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث فتحدث فيها تلك الكيفية السم فتؤثر في الملسوع.

**وربما** قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة فتطمس البصر وتسقط الحبل كما ذكره النبي ﷺ في الأبتر وذي الطفيتين منها وقال: «**اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ويسقطان الحبل**»، فإذا كان هذا في الحيات فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية وأنسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها، فالله كم من قتيل وكم من سليب وكم من معافي عاد مضني على فراشه يقول طبيبه لا أعلم داءه ما هو، فصدق ليس هذا الداء من علم الطبائع، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها، ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع وانفعال الأجسام عنها، وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس، والمحجوبون منكرون له، ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه، وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى، وهل الأنفعال والتأثر وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة والآثار الغريبة إلا من الأرواح والأجسام آلتها بمنزلة آلة الصانع، فالصنعة في الحقيقة له والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع.

**ومن** له أدنى فطنة، وتأمل أحوال العالم ولطفت روحه وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها كل ذلك بتقدير العزيز العليم خالق الأسباب والمسببات رأى عجائب في الكون وآيات دالة على وحدانية الله وعظمته وربوبيته، وإن ثم عالمًا آخر تجري عليه أحكام أخر تشهد آثارها وأسبابها غيب عن الأبصار، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين الذي اتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه.

**ولا نسبة** لعالم الأجسام على عالم الأرواح، بل هو أعظم وأوسع وعجائبه أبهر وآياته أعجب.

**وتأمل** هذا الهيكل الإنساني إذا فارقته الروح كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل وتلك الصنائع الغريبة وتلك الأفعال العجيبة وتلك الأفكار والتدبيرات كيف ذهبت كلها مع الروح وبقى الهيكل سواء هو والتراب، وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك أو يعاديك ويخف عليك ويثقل ويؤنسك ويوحشك إلا ذلك الأمر الذي وراء الهيكل المشاهد بالبصر، فرب رجل عظيم الهيولا كبير الجثة خفيف على قلبك حلو عندك، وآخر لطيف الخلقة صغير الجثة أثقل على قلبك من جبل وماذاك إلا للطافة روح ذاك وخفتها وحلاوتها، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها، وبالجملة فالعلق والوصل التي بين الأشخاص والمنافرات والبعد إنما هي للأرواح أصلاً والأشباح تبعاً.

## فصل

**والعاين** والحاسد يشتركان في شيء، ويفترقان في شيء، فيشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه، فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته. والحاسد يحصل له ذلك عند غيب المحسود وحضوره أيضاً. ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه، وربما أصابت عينه نفسه، فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين. وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿**وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ**﴾. [القلم: ٥١]، إنه الإصابة بالعين، فأرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ فنظر إليه قوم من العائنين، وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حجته.

**وكان** طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيعينها، ثم يقول لخادمه: خذ المكتل والدرهم وائتنا بشيء من لحمها، فما تبرح حتى تقع فتنحر.

**وقال** الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه! فما

تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها طائفة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين، ويفعل به كفعله في غيره، فعصم الله رسوله، وحفظه، وأنزل عليه: ﴿وإن يَكَادُ الَّذِين كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِم﴾. هذا قول طائفة:

**وقالت** طائفة أخرى: منهم ابن قتيبة: ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك، قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك.

**وهذا** مستعمل في الكلام. يقول القائل: نظر إليّ نظراً كاد يصرعني.

**قال**: ويدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، فيحدُّون إليه النظر بالبغضاء.

**قلت**: النظر الذي يؤثِّر في المنظور قد يكون سببه شدة العداوة والحسد، فيؤثر نظره فيه، كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة، فإن العدو إذا غاب عن عدوه قد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قبلاً اجتمعت الهمة عليه وتوجهت النفس بكليتها إليه، فيتأثر بنظره. حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يحم، ومنهم من يحمل إلى بيته، وقد شاهد الناس من ذلك كثيراً.

**وقد** يكون سببه الإعجاب وهو الذي يسمونه بإصابة العين، وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين، وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك. قال عبدالرزاق بن معمر عن هشام بن قتيبة، قال: هذا ما حدَّثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«العين حق» «ونهى عن الوشم»**.

**وروى** سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة عن عامر عن عبيد بن رفاعة: **«أن أسماء بنت عميس قالت: يارسول الله: إن ابني جعفر تصيبهم العين أفنسترقي لهم؟ قال: نعم، فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»**.

**فالكفار** كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة، فهو نظر يكاد يزلقه، لولا حفظ الله وعصمته، فهذا أشد من نظر العائن، بل هو جنس من نظر العائن فمن قال: إنه من الإصابة بالعين، أراد هذا المعنى، ومن قال: ليس به، أراد أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب، فالقرآن حق. وقد روى الترمذي من حديث أبي سعيد: «**أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان**». فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها:

**وفي** الترمذي من حديث علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير حدثني حابس بن حبة التميمي، حدثني أبي: «**أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا شيء في الهام، والعين حق**». وفيه أيضاً من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: «**كان رسول الله ﷺ يقول لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا**». وفي الباب عن عبدالله بن عمرو، وهذا حديث صحيح.

**والمقصود** أن العائن حاسد خاص، وهو أضر من الحاسد، ولهذا ـ والله أعلم ـ إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائناً، فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين، وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

**وأصل** الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها، فالحاسد عدو النعم، وهذا الشر هو من نفسه[1] وطبعها ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرها، بخلاف السحر، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، واستعانة بالأرواح الشيطانية، فلهذا ـ والله أعلم ـ قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر؛ لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن، فالحسد من شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين.

**وبقي** قسم ينفرد به شياطين الجن وهو الوسوسة في القلب، فذكره في السورة الأخرىٰ كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله.

---

(١) في نسخة أخرى: هو من نفس الحاسد وطبعها. المراجع.

**فالحاسد** والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه، بل هو أذى من أمر خارج عنه، ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

**والوسواس** إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له، وقبوله منه، ولهذا يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوساوس التي تقترن بها الأفعال والعزم الجازم، لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر، فإنه لا يعاقب عليه، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته، فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة، وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة، ولهذا اليهود أسحر الناس وأحسدهم، فإنهم لشدة خبثهم فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم، وقد وصفهم الله في كتابه بهذا وهذا، فقال: ﴿وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَان وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفُروا يُعلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وما أُنْزِلَ على المَلَكيْنِ ببابلَ هَارُوتَ ومارُوتَ وما يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُر فَيتَعَلَّمُون مِنْهُما مَا يُفرِّقُونَ بِهِ بينَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بضَارِّيْنَ بِهِ مِنْ أَحدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضرُّهُمْ ولَا ينْفَعُهم ولَقَدْ عَلِموا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَه في الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَما شَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَو كَانُوا يعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ١٠٢] والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس، وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما في[1] موضع غير هذا إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين، وشدة حاجة الخلق إليهما، وإنه لا يقوم غيرهما مقامهما.

**وأما** وصفهم بالحسد فكثير في القرآن: كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ ما آتَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]، وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَو يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِكُمْ كُفاراً حَسَداً مِنْ عند أَنْفُسِهِمْ مِن بَعْد مَا تبيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾

(١) الجار والمجرور خبر قوله: والكلام على أسرار هذه الآية ا هـ.

**والشيطان** يقارن الساحر والحاسد، ويحادثهما، ويصاحبهما؛ ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان، لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبىٰ أن يسجد له حسداً، فالحاسد من جند إبليس، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه، وربما يعبده من دون الله حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له.

**وفي** كتب «السحر والسر المكتوم» من هذا عجائب. ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوىٰ وأنفذ؛ ولهذا سحر عباد الأصنام أقوىٰ من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوىٰ من سحر المنتسبين إلى الإسلام، وهم الذين سحروا رسول الله ﷺ.

**وفي** الموطأ عن كعب قال: «كلمات أحفظهن من التوراة لولاها لجعلتني يهود حماراً: أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنىٰ، ما علمت منها، وما لم أعلم، من شر ما خلق وذرأ وبرأ».

**والمقصود** أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر. لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود، والشيطان يقترن به، ويعينه، ويزين له حسده، ويأمره بموجبه. والساحر بعلمه وكسبه وشركه واستعانته بالشياطين.

## فصل

**وقوله:** ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] يعم الحاسد من الجن والإنس، فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، كما حسد إبليس أبانا آدم وهو عدو لذريته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس، والوسواس يعمهما كما سيأتي بيانهما، والحسد يعمهما أيضاً، فكلا الشيطانين حاسد موسوس. فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً.

**فقد** اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم، وتضمنت شروراً أربعة يستعاذ منها. شرًّا عاماً وهو شر ما خلق. وشر الغاسق إذا وقب. فهذان نوعان.

**ثم** ذكر شر الساحر والحاسد، وهي نوعان أيضاً، لأنهما من شر النفس الشريرة، وأحدهما يستعين بالشيطان، ويعبده، وهوالساحر، وقلما يتأتىٰ السحر بدون نوع عبادة للشيطان، وتقرب إليه: إما بذبح باسمه، أو بذبح يقصده به هو، فيكون ذبحاً لغير الله، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق. والساحر وإن لم يسم هذه عبادة للشيطان فهو عبادة له، وإن سماه بما سماه به، فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه لا لاسمه ولفظه، فمن سجد لمخلوق وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة، كما أقبلها بالنعم، أو هذا إكرام لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله، فليسمه بما شاء.

**وكذلك** من ذبح للشيطان، ودعاه، واستعاذ به، وتقرب إليه بما يحب، فقد عبده، وإن لم يسم ذلك عبادة، بل يسميه استخداماً ما، وصدق هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ويعبده، كما يفعل هو به.

**والمقصود** أن هذا عبادة منه للشيطان، وإنما سماه استخداماً. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُون قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُون﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين، وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة ولبئس المولى ولبئس العشير، فهذا أحد النوعين.

**والنوع** الثاني: من يعينه الشيطان وإن لم يستعن به، وهو الحاسد لأنه نائبه وخليفته، لأن كليهما عدو نعم الله ومنغصها على عباده.

## فصل

**وتأمل** تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إذا حسد﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد، إلا من عصمه الله.

**وقيل** للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف، لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر لها، بل يعصيها طاعة لله وخوفاً وحياء منه وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله، وبغضاً لما يحبه الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمنى زيادة الخير له بخلاف ما إذا حقق ذلك، وحسد، ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم هذا كله حسد تمني الزوال. وللحسد ثلاث مراتب: أحدها هذه.

**الثانية:** تمني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه، فهو يتمنىٰ دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله، وعدو عباده وممقوت عند الله تعالى وعند الناس، ولا يسود أبداً، ولا يواسي، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبداً إلا قهراً، يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها، فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

**والحسد** الثالث حسد الغبطة وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

**وفي** الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها،**

**ويعلمها الناس»** فهذا حسد غبطة الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكون من سباقهم وعليتهم ومصلهم لا من فساكلهم، فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة مع محبته لمن يغبطه، وتمني دوام نعمة الله عليه فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما، فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود، فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيذ بولي النعم ومولیها، كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ: أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني، ويزيلها عني، وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولىٰ ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على فهو حسبه﴾** [الطلاق: ٢، ٣].

**فلا** تستبطيء نصره ورزقه وعافيته، فإن الله بالغ أمره، وقد جعل الله لكل شيء قدرا، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ومن لم يخفه أخافه من كل شيء. وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله، قال تعالى: **﴿فإذَا قَرأْتَ القُرآنَ فَاسْتَعذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم إِنَّه لَيسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَىٰ اللَّذينَ آمنُوا وعلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون إِنَّمَا سُلْطَانَهُ عَلَىٰ الَّذِين يَتولَّونه والَّذِيْنَ هُمْ به مُشْرِكُون﴾** [النحل: ٩٨-١٠٠] وقال: **﴿إِنَّما ذٰلِكُمْ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَـآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مؤمنين﴾** [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم بأوليائه ويعظمهم في صدوركم، فلا تخافوهم، وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم.

## فصل

**ويندفع** شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.

**أحدها**: التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجوء إليه، وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته عليم بما يستعيذ منه.

**والسمع** هنا المراد به سمع الإجابة، لا السمع العام، فهو مثل قوله: «**سمع الله لمن حمده**». وقول الخليل ﷺ: ﴿**إِنِّي رَبِّي لَسَمِيْعُ الدُّعَآءِ**﴾

**ومرة** يقرنه بالعلم ومرة بالبصر، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك، فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب عليم بكيد عدوه، يراه، ويبصره لينبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء.

**وتأمل** حكمة القرآن: كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده، ولا نراه بلفظ السميع العليم في [الأعراف، وحم السجدة] وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون، ويرون بالأبصار بلفظ السميع البصير في [سورة حم المؤمن] فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ يُجَادِلُون فِي آيَاتِ اللهِ بَغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبرٌ مَّاهُمْ بِبَالِغِيْه فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ**﴾ [غافر: ٥٦]، لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترى بالبصر. وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية، والله أعلم(١).

**السبب** الثاني: تقوىٰ الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتَّقىٰ الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: ﴿**وإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُم شَيئاً**﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عباس: «**احفظ الله يحفظك،**

---

(١) سيأتي لهذا البحث زيادة تحت عنوان: قاعدة نافعة. (ج).

**احفظ الله تجده تجاهك»** فمن حفظ الله حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر؟!

**السبب** الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل: الصبر عليه، والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه، وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه، ولو رأى المبغي عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله. وقد قال تعالى: **﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾** [الحج: ٦٠].

**فإذا** كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولا، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه، بل بُغي عليه وهو صابر.

**وما** من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله: أنه لو بَغَى جبل على جبل جعل الباغي منهما دكًّا.

**السبب** الرابع: التوكل على الله **﴿فمن يتوكل على الله فهو حسبه﴾**، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى، لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وأضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال: **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق: ٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه ـ سبحانه ـ كاف عبده، المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك، وكفاه، ونصره. وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة

العبد إليه في: ﴿كتاب الفتح القدسي) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة وبينا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

**السبب** الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه وهذا من أنفع الأدوية وأقوىٰ الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإيَّاه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء فإذا علق روحه وشبثها به، وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناماً لا يفتر عنه وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبث، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر، حتى يهلك أحدهما فإذا جبذ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله.

**فإذا** خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً، فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ماتأكله أكل بعضها بعضاً، وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه، وتعلق روحه به، ولا يرى شيئاً ألم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها، فوثقت بالله وسكنت إليه، واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق، ووعده صدق، وأنه لا أوفىٰ بعهده من الله، ولا أصدق منه قيلاً، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها ولا يقوى على هذا إلا **بالسبب** السادس وهو الإقبال على الله والإخلاص له، وجعل محبته وترضيه

والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها، تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئاً فشيئاً، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه، وذكره كما يذكر المحب التام المحبة لمحبوبه المحسن إليه، الذي قد امتلأت جوانحه من حبه، فلا يستطيع قلبه انصرافاً عن ذكره، ولا روحه انصرافاً عن محبته. فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معموراً بالفكر في حاسده والباغي عليه، والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه.

**هذا** ما لايتسع له إلا قلب خراب، لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله وطلب مرضاته، بل إذا مسه طيف من ذلك، واجتاز ببابه من خارج ناداه حرس قلبه: إياك وحمى الملك، اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حل فيها، ونزل بها ما لك ولبيت السلطان الذي أقام عليه اليزك وأدار عليه الحرس وأحاطه بالسور؟!

**قال** ـ تعالى ـ حكاية عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] وقال تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الحجر: ٤٢]. وقال: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَىٰ الَّذِيْنَ آمَنُوا وعَلَىٰ رَبِّهِم يَتوكَّلُون إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَىٰ الَّذِيْنَ يَتَوَلَّونَه والَّذين هُمْ بِهِ مُشْرِكُون**﴾ [النحل: ١٠٠]. وقال في حق الصديق يوسف ﷺ: ﴿**كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنا الْمُخْلَصِين**﴾ [يوسف: ٢٤] فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، وصار داخل اليزك، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه: ﴿**ذٰلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيْه مَنْ يَشَآءُ والله ذُو الفَضْلِ العَظِيْمِ**﴾.

**السبب** السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه. فإن الله تعالى يقول: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكم**﴾ [الشورى: ٣٠] وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿**أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيْبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكِم**﴾ [آل عمران: ١٦٥].

**فما** سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره.

**وفي** الدعاء المشهور: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**». فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

**ولقي** بعض السلف رجل، فأغلظ له، ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك. فدخل، فسجد لله، وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي.

**وسنذكر** إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بُغِيَ عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح.

**وعلامة** سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقىٰ فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولابد، فما أسعده من عبد! وما أبركها من نازلة نزلت به! وما أحسن أثرها عليه! ولكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهذا، لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

**السبب** الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفىٰ به، فما يكاد العين والحسد والأذىٰ يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

**فالمحسن** المتصدق في خفارة إحسانه، وصدقته عليه من الله جنة راقية وحصن حصين. وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها.

**ومن** أقوى الأسباب حسد الحاسد والعائن، فإنه لا يفتر ولا ينى ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود، فحينئذٍ يبرد أنينه، وتنطفيء ناره، لا أطفأها الله، فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفران المنعم.

**فالمحسن** المتصدق يستخدم جنداً وعسكرًا يقاتلون عنه، وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر، والله المستعان.

**السبب** التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرًّا وبغياً وحسداً ازددت إليه إحساناً وله نصيحة وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون، فضلاً عن أن تتعاطاه.

**فاسمع** الآن قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] وقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤] وتأمّل حال النبي ﷺ الذي حكى عنه نبينا ﷺ[1] أنه ضربه قومه حتى أدموه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[2] كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه.

**أحدها** عفوه عنهم. والثاني: استغفاره لهم. الثالث اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. الرابع استعطافه لهم بإضافتهم إليه، فقال: ﴿اغْفِر لقومي﴾ كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به. هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي، فهبه لي.

---

(١) هذه الجملة ليست في بعض الأصول ولعل حذفها هو الصواب فإن المعروف أن نبينا ﷺ هو الذي ضربه قومه إلى آخره ا هـ. وكذا في المخطوطة.

(٢) متفق عليه. المراجع.

**واسمع** الآن ماالذي يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به. اعلم أن لك ذنوباً بينك وبين الله، تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها، ويغفرها لك، ويهبها لك. ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله.

**فإذا** كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم، ليعاملك الله هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك، يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقاً، فانتم بعد ذلك أواعف وأحسن أو أترك، فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك.

**فمن** تصور هذا المعنى، وشغل به فكره، هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه. هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم، وهم يسيئون إليه، فقال: «**لا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك**»(١).

**هذا** مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير، وهو مسيء إليه، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خبزاً.

**هذا** مع أنه لابد له مع عدوه وحاسده من احدىٰ حالتين.

**إما** أن يملكه بإحسانه، فيستعبده، وينقاد، له ويذل له ويبقى من أحب الناس إليه.

**وأما** أن يفتت كبده، ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه.

**ومن** جرب هذا عرفه حق المعرفة، والله هو الموفق المعين، بيده الخير كله، لا إلـه غيره، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه.

---

(١) أخرجه مسلم. المراجع.

**وفي** الجملة ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجله وآجله، سنذكرها في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

**السبب** العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، فهو الذي يحسن عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه.

**قال** تعالى: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**».

**فإذا** جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه، وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً واشتغالاً به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمناً فالله يدافع عنه ولابد.

**وبحسب** إيمانه يكون دفاع الله عنه، فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مَزَجَ مُزِجَ له، وإن كان مرة ومرة، فالله له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة. ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

**فالتوحيد** حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين.

**قال** بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء، فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلى الله، وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به، وأن لا يخاف معه

غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره ولا يستغيث بسواه ولا يرجو إلا إيَّاه.

**ومتى** علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه، وخذل من جهته، فمن خاف شيئاً غير الله سلَّط عليه، ومن رجا شيئاً سوى الله خذل من جهته وحرم خيره، هذه سنة الله في خلقه **﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾** [الأحزاب: ٦٢].

## فصـل

**فقد** عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة الهامة التي لا غنىً للعبد عنها في دينه ودنياه. ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث في العقد.

**وقد** افترق العالم في هذ المقام أربع فرق:

**ففرقة** أنكرت تأثير هذا وهذا، وهم فرقتان:

**فرقة** اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن، وأنكرت تأثيرهما البتة، وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات.

**وفـرقـة** أنكرت وجودهما بالكلية وقالت: لا وجود لنفس الآدمي سوى هذا الهيكـل المحسـوس وصفـاته وأعراضه فقط، ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبـين إلى الإسـلام. وهو قول شذوذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة.

**الفرقة** الثانية أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن وأقرت بوجود الجن والشياطين وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم.

**الفرقة** الثالثة: بالعكس أقرَّت بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأنكرت وجود الجن والشياطين، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها، وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم، وهؤلاء يقولون: إنما يوجد في العالم من التـأثـيرات الغـريبة والحوادث الخارقة، فهي من تأثيرات النفس، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها بغير واسطة شيطان منفصل، وابن

سينا وأتباعه على هذا القول حتى أنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب، ويقولون إنما هي من تأثيرات النفس في هيولي العالم، وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل ليسوا من أتباع الرسل جملة.

**الفرقة** الرابعة: وهم أتباع الرسل وأهل الحق أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأقروا بوجود الجن والشياطين، وأثبتوا ما أثبته الله تعالى من صفاتهما وشرهما، واستعاذوا بالله منه، وعلموا أنه لايعيذهم منه ولا يجيرهم إلا الله، فهؤلاء أهل الحق، ومن عداهم مفرط في الباطل أو معه باطل وحق، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فهذا ما يسر الله من الكلام على سورة الفلق.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفلق
والحمد لله رب العالمين




## بسم الله الرحمن الرحيم

**وأما** سورة الناس: فقد تضمنت أيضاً: استعاذة، ومستعاذاً به، ومستعاذ منه، فالاستعاذة تقدمت. وأما المستعاذ به فهو الله: ﴿**رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَـٰهِ النَّاسِ**﴾ فذكر ربوبيته للناس، وملكه إياهم، وإلاهيته لهم، ولابد من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان كما تقدم. فنذكر أولاً معنى هذه الإضافات الثلاث، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة.

**الإضافة** الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم. هذا معنى ربوبيته لهم، وذلك يتضمن قدرته التامة، ورحمته الواسعة، وإحسانه، وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم.

**الإضافة** الثانية: إضافة الملك فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم، المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم، فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره، فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

**الإضافة** الثالثة: إضافة الإلـهية فهو إلـههم الحق، ومعبودهم الذي لا إلـه لهم سواه، ولا معبود لهم غيره. فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلـههم ومعبودهم فلا ينبغي أن يجعلوا معه

شريكاً في إلـهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه.

**وهذه** طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهٰية والعبادة.

**وإذا** كان وحده هو ربنا وملكنا وإلـهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى، ولا يخاف، ولا يرجى ولا يحب سواه، ولا يذل لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه: إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولي شأنك، وهو ربك فلا رب سواه، أو تكون مملوكه وعبده الحق، فهو ملك الناس حقًّا وكلهم عبيده ومماليكه.

**أو** يكون معبودك وإلـهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك.

**وهو** الإلـه الحق: إلـه الناس الذي لا إلـه لهم سواه.

**فمن** كان ربهم وملكهم وإلـههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غير حماه، فهو كافيهم، وحسبهم، وناصرهم، ووليهم، ومتولي أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلـهيته لهم، فكيف لا يلتجىء العبد عند النوازل، ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلـهه، فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدىٰ الأعداء وأعظمهم عداوة وأشدهم ضرراً وأبلغهم كيداً.

**ثم** إنه ـ سبحانه ـ كرر الاسم الظاهر، ولم يوقع المضمر موقعه، فيقول: رب الناس، وملكهم، وإلٰهم، تحقيقاً لهذا المعنى وتقوية له، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة.

**والمقصود** الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتىٰ كأنها صفة واحدة.

**وقدم** الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخّر الإلـهية لخصوصها لأنه ـ

سبحانه - إنما هو إلـه مَنْ عبده ووحده واتخذه دون غيره إلـهاً، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلـهه، وإن كان في الحقيقة لا إلـه له سواه، ولكن ترك إلـهه الحق، واتخذ إلـهاً غيره.

**ووسط** صفة الملك بين الربوبية والإلـهية، لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلـههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلـهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق الملك الحق، الإلـه الحق، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدهم بإلـهيته.

**فتأمل** هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسن سياق: رب الناس، ملك الناس، إلـه الناس. وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنىٰ.

**وأما** تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى فإن الرب هو: القادر، الخالق، الباريء، المصور، الحي، القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع، الضار، النافع، المقدم، المؤخر، الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، إلى ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

**وأما** الملك فهو الآمر الناهي، المعز المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى: كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل الخافض، الرافع، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الوالي، المتعالي، مالك الملك، المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

**وأما** الإلـه فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح: إن الله أصله الإلـه،

---

(١) باديه أي الذي يظهر منه بالنسبة إلى الخافي يسيرا هـ.

كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه، إلا من شذ منهم، وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ.

**فقد** تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنىٰ.

**فكان** المستعيذ بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ ويمنع من الوسواس الخناس، ولا يسلط عليه. وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر، وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه وإن باديه(١) إلى الخافي يسير.

## فصـــل

**وهذه** السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة، فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج، وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه، وهو شر من داخل. فالشر الأول لا يدخل تحت التكليف، ولا يطلب منه الكف عنه، لأنه ليس من كسبه، والشر الثاني في سورة الناس يدخل تحت التكليف، ويتعلق به النهي، فهذا شر المعائب والأول شر المصائب، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما.

**فسورة** الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

## فصـــل

**إذا** عرف هذا فالوسواس فعلال من وسوس وأصل الوسوسة الحركة أو الصوت الخفي لا يحس، فيحترز منه. فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس: إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من أُلقي إليه. وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

**ومن** هذا وسوسة الحلي، وهو حركته الخفية في الأذن، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها سميت وسوسة لقربها وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو الاذن، فقيل وسوسة الحلي، لأنه صوت مجاور للأذن: كوسوسة الكلام الذي يلقيه الشيطان في أذن من يوسوس له. ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس،

ويؤكـده عنـد من يلقيه إليه كرروا لفـظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وسوس وسوسة، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه.

**ونظير** هذا ما تقـدم من متـابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه: كالدوران، والغليان، والنزوان وبابه.

**ونظير** ذلك: زلزل، ودكدك، وقلقل، وكبكب الشيء، لأن الزلزلة حركة متكـررة، وكذلك الدكدكة والقلقلة، وكذلك كبكب الشيء، إذا كبه في مكان بعيد، فهو يكب فيه كبًّا بعد كب كقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾

**ومثله** رضرضه إذا كرر رضّه مرة بعد مرة، ومثله ذرذره إذا ذره شيئاً بعد شيء، ومثله صرصر البـاب إذا تكرر صريره، ومثله مطمط الكلام إذا مطّه شيئاً بعد شيء، ومثله كفكف الشيء إذا كرر كفه، وهو كثير.

**وقد** علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنىٰ الثلاثي المضاعف لم يصب، لأن الثلاثي لا يدل على تكرار بخلاف الرباعي المكرر فإذا قلت: ذر الشيء، وصر الباب، وكف الثوب، ورض الحب لم يدل على تكرار الفعل، بخلاف. ذرذر، وصرصر، ورضرض ونحـوه، فتـأمله فإنـه مطابق للقـاعـدة العربية، في الحذو بالألفاظ حذو المعاني وقد تقدَّم التنبيه على ذلك فلا وجه لإعادته.

**وكذلك** قولهم: عج العجل، إذا صوّت، فإن تابع صوته، قالوا: عجعج، وكذلك: ثج الماء إذا صب، فإن تكرر ذلك قبل ثجثج، والمقصود أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها قيل وسوس[1].

---

(١) ما يلي هذا بحث لغوي مطول اختصرناه (ج).

## فصـل

**وأما** الخنـاس: فهـو فعـال من خنس يخنس إذا توارىٰ واختفىٰ. ومنه قول أبي هريرة: «لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة وأنا جنب، فانخنست منه».

**وحقيقة** اللفظ اختفاء بعد ظهور، فليست لمجرد الاختفاء، ولهذا وصفت بها الكـواكب في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، قال قتادة: هي النجـوم تبـدو بالليل، وتخنس بالنهـار، فتختفي ولا تُرى. وكـذلك قال ـ علي رضي الله عنه ـ: هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى.

**وقالت** طائفة الخنس هي الراجعة التي ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق، وهي السبعة السيارة، قالوا: وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء والخناس مأخوذ من هذين المعنيين، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخير.

**فإن** العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه، واستعاذ به، انخنس، وانقبض: كما ينخنس الشيء ليتوارى، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضـاً تجمـع ورجوع، وتأخر عن القلب إلى خارج، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء. وخنس وانخنس يدل على الأمرين معاً. قال قتادة: الخنّاس له خرطوم: كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبد ربه خنس.

**ويقال**: رأسه كرأس الحية، وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يمنيه ويحدثه، فإذا ذكر الله خنس، وإذا لم يذكره عاد ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه، وجيء من هذا الفعـل بوزن فعال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس إيذاناً بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله، وأن ذلك دأبه وديدنه، لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحياناً، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر، فإن ذكر الله هو مقمعته التي يقمع بها: كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصي ونحوها.

**فذكر الله** يقمـع الشيطان ويؤلمـه ويؤذيه: كالسياط والمقـامع التي تؤذي من

يضرب بها. ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مضنى مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

**وفي** أثر عن بعض السلف: إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي الرجل بعيره في السفر، لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة فشيطانه معه في عذاب شديد، وليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون قويًّا عاتياً شديداً، فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلابد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه..

**وتأمل** كيف جاء بناء الوسواس مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً، حتى يعزم عليها العبد، وجاء بناء الخناس على وزن الفعّال الذي يتكرر منه نوع الفعل، لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنييهما.

## فصل

**وقوله: ﴿الذي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾** [الناس: ٥] صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولاً، ثم ذكر محلها ثانياً، وأنها في صدور الناس.

**وقد** جعل الله للشيطان دخولاً في جوف العبد، ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وكل بالعبد، فلا يفارقه إلى الممات.

**وفي** الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حيي قالت: «كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً، فحدَّثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: **«على رسلكما، إنها صفية بنت حيي»** فقالا: سبحان الله! يارسول الله! فقال: **«إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً - أو قال - شيئاً»**.

**وفي** الصحيح أيضاً عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قُضي أقبل،**

**فإذا ثُوّب بها أدبر، فإذا قُضي أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول: اذكر كذا اذكر كذا حتى لا يدري أثلاثاً صلي أم أربعاً؟ فإذا لم يدر أثلاثاً صلي أم أربعاً سجد سجدتي السهو»**.

**ومن** وسوسته ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته**».

**وفي** الصحيح أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: «يارسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه مالأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، قال: «**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**».

**ومن** وسوسته أيضاً أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله، ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال: ﴿**إِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَه**﴾. [الكهف: ٦٣].

**وتأمل** حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه فإن قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ يعم كل شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرًّا وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً، وهي الوسوسة التي هي مباديء الإرادة، فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه، ويمنيه، ويشهيه، فيصير شهوة ويزينها له، ويحسنها، ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهى وينسى علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً، فإن فتروا حرّكهم، وإن ونوا أزعجهم.

**كما** قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾

[مريم: ٨٣]. أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبدِ تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، قد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبىٰ أن يسجد لأبيهم، فلا بتلك النخوة والكبر ولا[1] برضاه أن يصير قوادًا الكل من عصى الله، كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه		وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة		وصار قواداً لذريته

**فأصل** كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها، أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضاً. فمن شره: أنه لص سارق لأموال الناس، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه، فله فيه حظ بالسرقة والخطف.

**وكذلك** يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقاً ويخرج مغيراً، ويدل على عوراتهم فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومناماً أنه فعل كذا وكذا.

**ومن** هذا: أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به. وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل، وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب، ثم فضحه به، فالرب تعالى يستره، والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته، فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله، ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته، وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة. ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقداً تمنعه من اليقظة.

**كما** في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام: ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت**

---

(١) الظاهر الذي يقتضيه المعنىٰ فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قواداً لكل من عصىٰ الله ا هـ.

**عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلىٰ انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»**.

**ومن** شره أنه يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح، قال: **«ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنه»**. رواه البخاري.

**ومن** شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته.

**ويكفي** من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم.

**وأقسم** ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

**ولقد** بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة.

**ثم** لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة للنار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين.

**ثم** لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض، وقصد أن تكون الدعوة له، وأن يعبد من دون الله فهو ساعٍ بأقصىٰ جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته، وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض. ويكفي من شره أنه تصدَّىٰ لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار، فرد الله كيده عليه وجعل النار على خليله برداً وسلاماً.

**وتصدى** للمسيح ﷺ حتى أراد اليهود قتله وصلبه، فرد الله كيده، وصان المسيح ورفعه إليه. وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا.

**واستثار** فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض ودعوىٰ أنه ربهم الأعلىٰ.

**وتصدى** للنبي ﷺ وظاهر الكفار على قتله بجهده والله تعالى يكبته ويرده خاسئاً.

**وتفلت** على النبي ﷺ بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو في الصلاة، **فجعل** النبي ﷺ يقول: **«ألعنك بلعنة الله»**.

**وأعان** اليهود على سحرهم للنبي ﷺ . فإذا كان هذا شأنه وهمته في الشر فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته .

**ولا يمكن** حصر أجنـاس شره فضلاً عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر.

**الشر** الأول : شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإن يأس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى .

**المرتبة** الثانية من الشر وهي البدعة وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي، لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضاً نائبه وداعياًمن دعاته، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى .

**المرتبة** الثالثة : من الشر وهي الكبائر على اختلاف أنواعها فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع، من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر و﴿**إِنَّ الَّذين يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيْـعَ الفَاحِشَةَ فِي الَّذين آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيْمٌ**﴾ [النور: ١٩]. هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم، ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به .

**وذنوب** هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات .

**وأما** ذنـوب أولئـك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصد لفضيحتهم، **والله**

سبحانه بالمرصاد لا تخفىٰ عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى.

**المرتبة** الرابعة وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها كما قال النبي ﷺ: «**إيَّاكُم ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض**» وذكر حديثاً معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتووا. ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى.

**المرتبة** الخامسة وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظاً لوقته شحيحاً به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى.

**المرتبة** السادسة وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلىٰ منه، وقل من يتنبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأىٰ فيه داعياً قويًا ومحركاً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول هذا الداعي: من الله وهو معذور، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل.

**وهذا** لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم.

**ولا يعرف** هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في

الأرض. وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا يخطر بقلوبهم، والله يمن بفضله على من يشاء من عباده.

**فإذا** أعجـزه العبد من هذه المراتب الست وأعى عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذىٰ والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره وليمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا يني فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلاَّ الموت. ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقىٰ الله.

**فتأمل** هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال، فإنه طلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعاً لمن تدبره ووعاه.

## فصـــل

**وتأمل** السر في قوله تعالى: ﴿**يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾ [الناس: ٥] ولم يقل في قلوبهم والصدر هو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصـدر ثم تلج في القلب فهـو بمنـزلـة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصـدر ثم تتفـوق على الجنود، ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿**وَلِيَبْتَلِي اللهُ ما في صُدُورِكم وَلِيُمَحِّصَ مَافي قُلُوبِكم**﴾ [آل عمران: ١٥٤].

**فالشيطان** يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب فهو موسوس في الصدر ووسوته واصلة إلى القلب ولهذا قال تعالى: ﴿**فَوَسْوَسَ إليهِ الشَّيْطَانُ**﴾ [طه: ١٢٠]. ولم يقل فيه لأن المعنى أنه ألقىٰ إليه ذلك وأوصله فيه فدخل في قلبه.

## فصـــل

**وقـولـه** تعالى: ﴿من الجِنَّةِ والنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]. اختلف المفسرون في هذا الجـار والمجـرور بم يتعلق. فقـال الفراء، وجماعة هو بيان للناس الموسوس في صدورهم. والمعنىٰ يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والإنس، أي الموسوس في صدورهم قسمان، إنس وجن، فالوسواس يوسوس للجني كما يوسوس للإنسي.

**وعلى** هذا القول فيكون من الجنة والناس نصب على الحال لأنه مجرور بعد معرفة على قول البصريين، وعلى قول الكوفيين نصب بالخروج من المعرفة هذه عبارتهم. ومعناها أنه لما لم يصلح أن يكون نعتاً للمعرفة انقطع عنها فكان موضعه نصباً. والبصريون يقدرونه حالاً أي كائنين من الجنةوالناس وهذا القول ضعيف جدًّا لوجوه:

**أحدها:** أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدور الجني ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي ويجري منه مجراه من الإنسي، فأي دليل يدل على هذا حتى يصح حمل الآية عليه.

**الثـاني:** أنه فاسد من جهة اللفظ أيضاً فإنه قال: الذي يوسوس في صدور الناس، فكيف يبين الناس بالناس، فإن معنىٰ الكلام على قوله يوسوس في صدور الناس الذين هم أو كائنين من الجنة والناس، أفيجوز أن يُقال في صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم هذا ما لا يجوز ولا هو استعمال فصيح.

**الثالث** أن يكون قد قسم الناس إلىٰ قسمين: جنة وناس، وهذا غير صحيح فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه.

**الرابع** أن الجنة لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه لا أصلاً واشتقاقاً ولا استعمالاً ولفـظهـا يأبىٰ ذلـك. فإن الجن إنما سموا جنًّا من الاجتنان وهو الاستتار فهم مستترون عن أعين البشر، فسموا جنًّا لذلك من قولهم جنه الليل وأجنه إذا ستره وأجن الميت إذا ستره في الأرض قال:

ولا تبـك ميتاً بعـد ميتٍ أجنـه    علي وعـبـاس وآل أبي بكـر

**يريد** النبي ﷺ ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَـاتِكُم﴾ [القصص: ٢٩]، ومنه المجن لاستتار المحارب به من سلاح خصمه، ومنه الجنة لاستتار داخلها بالأشجار، ومنه الجُنة بالضم لما يقي الإنسان من السهام والسلاح، ومنه المجنون لاستتار عقله.

**وأما** الناس فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنىٰ، وبينهما اشتقاق أوسط وهو عقد(١) تقاليب الكلمة إلىٰ معنىٰ واحد.

**والإنس** والإنسان مشتق من الإيناس، وهو الرؤية والإحساس.

**ومنه** قوله: ﴿آنَسَ من جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾ [القصص: ٢٩] أي: رآها. ومنه ﴿فإن آنستُم منهم رُشْداً﴾ [النساء: ٦]. أي أحسستموه ورأيتموه فالإنسان سمي إنساناً لأنه يونس أي يرىٰ بالعين، والناس فيه قولان أحدهما: أنه مقلوب من أنس وهو بعيد، والأصل عدم القلب، والثاني: وهو الصحيح أنه من النوس وهو الحركة المتتابعة، فسمي الناس ناساً للحركة الظاهرة والباطنة، كما سمي الرجل حارث وهمام وهما أصدق الأسماء، كما قال النبي ﷺ لأن كل أحد له هم وإرادة، وهي مبـدأ، وحرث وعمل هو منتهىٰ، فكل أحد حارث وهمام والحرث والهم حركتا الظاهر والباطن، وهو حقيقة النوس، وأصل ناس نوس تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت ألفاً، هذان هما القولان المشهوران في اشتقاق الناس، وأما قول بعضهم أنه من النسيان وسمي الإنسان إنساناً لنسيانه.

**وكـذلـك** الناس سموا ناساً لنسيانهم فليس هذا القول بشيء، وأين النسيان الـذي مادتـه [ن س ى] إلى الناس الذي مادته [ن و س] وكذلك أين هو من الإنس الذي مادته [ا ن س و]. كذلك أين هو من الإنس الذي مادته ا ن س و.

**وأما** إنسان فهو فعلان من [أ ن س] والألف والنون في آخره زائدتان لا يجوز فيه غير هذا البتة إذ ليس في كلامهم أنس حتى يكون إنساناً إفعالاً منه، ولا يجوز أن يكون الألف والنون في أوله زائدتين، إذ ليس في كلامهم انفعل، فيتعين أنه

(١) معناه رجوع تقاليب الكلمة أي تصرفاتها إلى معنىٰ واحد.

فعلان من الإنس ولو كان مشتقاً من نسي لكان نسياناً لا إنساناً.

**فإن** قلت: فهلا جعلته إفعلالاً وأصله إنسيان كليلة إصحيان ثم حذفت الياء تخفيفاً فصار إنساناً.

**قلت:** يأبىٰ ذلك عدم إفعلال في كلامهم، وحذف الياء بغير سبب ودعوىٰ ما لا نظير له وذلك كله فاسد.

**على** أن الناس قد قيل إن أصله الأناس فحذفت الهمزة فقيل الناس. واستدل بقول الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الغافلينا

**ولا ريب** أن أناساً فعال ولا يجوز فيه غير ذلك البتة، فإن كان أصل ناس أناساً فهو أقوىٰ الأدلة على أنه من أنس ويكون الناس كالإنسان سواء في الاشتقاق ويكون وزن ناس على هذا القول عال لأن المحذوف فاؤه، وعلى القول الأول يكون وزنه فعل لأنه من النوس.

**وعلى** القول الضعيف يكون وزنه فلع لأنه من نسي فقلبت لامه إلى موضع العين فصار ناساً ووزنه فلعاً.

**والمقصود** أن الناس اسم لبني آدم فلا يدخل الجن في مسماهم فلا يصح أن يكون من الجنة والناس بياناً لقوله: ﴿**في صُدُورِ النَّاسِ**﴾ [الناس: ٥]. وهذا واضح لا خفاء فيه.

**فإن** قيل: لا محذور في ذلك فقد أطلق على الجن اسم الرجال كما في قوله تعالى: ﴿**وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ من الإنْسِ يَعُوذُون بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ**﴾[الجن: ٦]. فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم الناس.

**قلت:** هذا هو الذي غر من قال: إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية.

**وجواب** ذلك: أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعاً مقيداً في مقابلة ذكر الرجال من الإنس ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقاً.

**وأنت** إذا قلت إنسان من حجارة أو رجل من خشب ونحو ذلك لم يلزم من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب.

**وأيضاً** فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجني أن يطلق عليه اسم الناس وذلك لأن الناس والجنة متقابلان.

**وكذلك** الإنس والجن فالله سبحانه يقابل بين اللفظين كقوله: ﴿**يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ**﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وهو كثير في القرآن.

**وكذلك** قوله: ﴿**مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ**﴾ يقتضي أنهما متقابلان فلا يدخل أحدهما في الآخر بخلاف الرجال والجن فإنهما لم يستعملا متقابلين فلا يقال: الجن والرجال، كما يقال الجن والإنس وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم في أن الجن لا يدخلون في لفظ الناس، لأنه قابل بين الجنة والناس، فعلم أن أحدهما لا يدخل في الآخر.

**فالصواب** القول الثاني وهو أن قوله: ﴿**من الجِنَّةِ والنَّاسِ**﴾ بيان للذي يوسوس. وأنهم نوعان إنس، وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس والإنسي أيضاً يوسوس إلى الإنسي، فالموسوس نوعان: إنس وجن، فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب وهذا مشترك بين الجن والإنس، وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج إلى تلك الواسطة لأنه يدخل في ابن آدم ويجري منه مجرىٰ الدم، على أن الجني قد يتمثل له ويوسوس إليه في أذنه كالأنسي. كما في البخاري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الملائكة تحدث في العنان والعنان الغمام بالأمر يكون في الأرض فتستمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**». فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن.

**ونظير** اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني، قال تعالى: ﴿**وَكَذٰلِكَ جَعلْنا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِيْنَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً**﴾ [الأنعام: ١١٢].

**فالشيطان** يوحي إلى الإنسي باطله ويوحيه الإنس إلى إنسي مثله فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني ويشتركان في الوسوسة.

**وعلى** هذا فتزول تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبها أصحاب القول الأول. وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين: شياطين الإنس، والجن.

**وعلى** القول الأول إنما تكون الاستعاذة من شر شياطين الجن فقط فتأمَّله، فإنه بديع جدًّا.

**فهذا** ما من الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين وله الحمد والمنة وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط فما ذلك على الله بعزيز والحمد لله رب العالمين ونختم الكلام على السورتين بذكر.

## قاعـدة نافعـة

**فيما** يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه.

**وذلك** عشرة أسباب. أحدها: الاستعاذة بالله من الشيطان.

**قال** تعالى: ﴿وإمَّا يَنْزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ﴾. [فصلت: ٣٦]، وفي موضع آخر: ﴿إنه سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ﴾. [الأعراف: ٢٠٠].

**وقد** تقدم أن السمع المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام. وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة (هو) الدال على تأكيد النسبة واختصاصها، وعرف الوصف بالألف واللام في سورة (حم) لاقتضاء المقام لهذا التأكيد، وتركه في سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه فإن الأمر بالاستعاذة في سورة (حم) وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم، كما قال الله تعالى.

**والشيطان** لا يدع العبد يفعل هذا، بل يريه أن هذا ذل وعجز ويسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام ويزينه له، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه، وأن لا يسيء إليه ولا يحسن فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه، وآثر الله وما عنده على حظه العاجل، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال فيه: ﴿وإما يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذ باللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ العِلِيْمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

**وأما** في سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان، بل بالإعراض، وهذا سهل على النفوس غير مستعصي عليها، فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان فقال: ﴿**وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ باللهِ إنَّهُ سَمِيْعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

**وقد** تقدَّم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله في (حم المؤمن). ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ**﴾ [غافر: ٥٦]. وفي صحيح البخاري عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال: «كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**[1] **ذهب عنه ما يجد**».

**الحرز** الثاني: قراءة هاتين السورتين فإن لهما تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه. ولهذا قال النبي ﷺ: «**ماتعوذ المتعوذون بمثلهما**». وقد تقدَّم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة. وتقدم قوله ﷺ: «**إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يمسي وثلاثاً حين يصبح كفته من كل شيء**».

**الحرز** الثالث: قراءة آية الكرسي ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتىٰ آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي ﷺ: «**صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان**». وسنذكر إن شاء الله تعالى السر الذي لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم في التحرز من الشيطان واعتصام قارئها بها في كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله وتأييده.

---

(١) في نسخة بحذف الرجيم والعمل على الرواية.

**الحرز** الرابع: قراءة سورة البقرة ففي الصحيح من حديث سهل عن عبدالله عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان**».

**الحرز** الخامس: قراءة خاتمة سورة البقرة فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى[1] الأنصاري قال: «قال رسول الله ﷺ: **من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**». وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان**».

**الحرز** السادس: أول سورة حم المؤمن إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، مع آية الكرسي في الترمذي من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: **من قرأ: حم المؤمن إلى: ﴿إليه المصير﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح**». وعبدالرحمن المليكي وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته.

**الحرز** السابع: لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة. ففي الصحيحين من حديث سمي مولىٰ أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك**». فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله عليه.

**الحرز** الثامن: وهو من أنفع الحروز من الشيطان كثرة ذكر الله عز وجل، ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيى بن**

(١) في نسخة ابن مسعود.

زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وأنه كاد أن يبطيء بها فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم فقال يحيى: أخشىٰ إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ وقعدوا على الشرف فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّ إليّ فكان يعمل ويؤدِّي إلى غير سيده فأيكم يرضىٰ أن يكون عبده كذلك، وأن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدىٰ نفسه منهم. وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتىٰ على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله قال النبي ﷺ: وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن ادعىٰ دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم، فقال رجل: يارسول الله وإن صلى وصام، قال: وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله». قال الترمذي هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال البخاري الحارث الأشعري له صحبة وله غير هذا الحديث.

**فقد** أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة: قل أعوذ برب الناس فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس والخناس، الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمَّع

وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوساوس التي هي مباديء الشر كله فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل.

**الحرز** التاسع: الوضوء والصلاة وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض**».

**وفي** أثر آخر: «إن الشيطان خلق من نار وإنما تطفأ النار بالماء». فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة، فإنها نار والوضوء يطفئها والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

**الحرز** العاشر: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة. فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب والاشتغال به والفكرة في الظفر به فمبدأ الفتنة من فضول النظر كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه**»، أو كما قال ﷺ. فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر

**وقال** الآخر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً ... لقلبك يوماً أتبعتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

**وقال** المتنبي:

وأنا الذي جلب المنية طرفه ... فمن المطالب والقتيل القاتل

**ولي** من أبيات:

يا رامياً بسهام اللحظ مجتهداً ... أنت القتيل بما ترمي فلا تصب
وباعث الطرف يرتاد الشفاء له ... توقه إنه يرتد بالعطب
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض ... فهل سمعت ببرء جاء من عطب
ومفنياً نفسه في إثر أقبحهم ... وصفا للطخ جمال فيه مستلب
وواهباً عمره في مثل ذا سفهاً ... لو كنت تعرف قدر العمر لم تهب
وبائعاً طيب عيش ماله خطر ... بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت والله غبناً فاحشاً فلو اسـ ... ـترجعت ذا العقد لم تغبن ولم تخب
ووارداً صفو عيش كله كدر ... أمامك الورد صفواً ليس بالكذب
وحاطب الليل في الظلماء منتصباً ... لكل داهية تدن من العطب
شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب ... وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها ... والضي في الأفق الشرقي لم يغب
وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت ... عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ... ورسل ربك قد وافتك في الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائب من ... تهواه للصب من سكنى ولا أرب
فأفرش الخد ذياك التراب وقل ... ما قاله صاحب الأشواق في الحقب
ما ربع مية محفوفاً يطوف به ... غيلان أشهىٰ له من ربعك الخرب
ولا الخدود إن أدمين من ضرج[1] ... أشهىٰ إلى ناظري من خدك الترب
منازلاً كان يهواها ويألفها ... أيام كان منال الوصل عن كثب
فكلما جليت تلك الربوع له ... يهوي إليها هوى الماء في صبب
أحيا له الشوق تذكار العهود بها ... فلو دعا القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منزل في الأرض يألفه ... وما له في سواها الدهر من رغب
ما في الخيام أخو وجد يريحك إن ... بثثته بعض شأن الحب فاغترب

---

(١) في القاموس تضرج لخد أحمار فالضرج الاحمرار.

وأسر في غمـرات الليل مهتـدياً بنفحـة الطيب لا بالنار والحطب
وعـاد كل أخـي جبن ومعجـزة وحارب النفس لأتلقيك[1] في الحرب
وخـذ لنفسـك نوراً تستضيء به يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب
فالجسر ذو ظلمات ليس يقـطعـه إلا بنـور ينجي العبـد في الكرب

**والمقصود** أن فضول النظر أصل البلاء.

**وأما** فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها مداخل للشيطان فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «**وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم**». وفي الترمذي أن رجلاً من الأنصار توفي فقال بعض الطحابة: «طوبىٰ له فقال النبي ﷺ: **فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه**».

**وأكثر** المعـاصي إنـما تولـدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان فإن جارحتيمها لا يملان ولا يسئمان بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلىء لم يبق فيه إرادة للطعـام وأمـا العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

**وأما** فضول الطعام فهو داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشر فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ويثقلها عن الطاعات وحسبك بهذين شرًّا، فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونها فمن وقي شر بطنه فقد وقي شرًّا عظيماً والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام.

**ولهذا** جاء في بعض الآثار: ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم. وقال ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن**». ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة

(١) في النهـاية الحـرب بالتحريك نهب مال الإنسان وتركه لا شيء له فأطعني جارب النفس لئلا تسلب الفضيلة أو رأس مالك وهو العمر.

عن ذكر الله عز وجل وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ومناه وشهاه وهام به في كل واد. فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

**وأما** فضـول المخـالـطة فهي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخـالطة والمعاشرة من نعمة وكم زرعت عن عداوة وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات، وهي في القلوب لا تزول فضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة. ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه للشر.

**أحدها** من مخالطته كالغذاء لا يستغني عنه في اليوم والليلة فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا على الدوام وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

**القسم** الثاني: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته وهم من لا يستغني عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتـاج إليه من أنـواع المعـاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من.

**القسم** الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه.

**فمنهم** من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومـع ذلك فلابد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف.

**ومنهم** من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضرباً عليك فإذا فارقك سكن الألم.

**ومنهم** من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منـزلتها، بل إن تكلَّم فكلامه كالعصىٰ تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه

بكلامه وفرحه به، فهو يحدث من فيه كلما تحدث ويظن أنه مسك يطيب به المجلس وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

**ويذكر** عن الشافعي رحمه الله أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

**ورأيت** يوماً عند شيخنا قدَّس الله روحه رجلاً من هذا الضرب والشيخ يحمله وقد ضعفت القوىٰ عن حمله فالتفت إليّ وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمىٰ فصارت لها عادة أو كما قال.

**وبالجملة** فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة. ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلىٰ بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

**القسم** الرابع: من مخالطته الهلك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثَّرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله ﷺ الداعون إلى خلافها الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين. وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير قالوا: أنت من المشبهين.

**وإن** أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهىٰ الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين. وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين. وإن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين. وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين، فالحزم كل الحزم التماس مرضات الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا

تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك كما قال.

وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني فاضل

**وقال** آخر:

وقد زادني حبًّا لنفسي أنني ... بغيض إليَّ كل امرىء غير طائل(١)

**فمن** كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة، واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق، وسد على نفسه أبواب جهنم، وفتح عليها أبواب الرحمة، وانغمر ظاهره وباطنه، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء فعند الممات يحمد القوم التقي، وفي الصباح يحمد القوم السري والله الموفق لا رب غيره ولا إلـه سواه.

**هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الناس**
**والحمد لله رب العالمين**

---

(١) معناه: غير كريم.

# كلمة لابد منها

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي بلغ البلاغ المبين، وأرشد السائرين، وأنار السبيل، وأوضح المحجة وأقام الحجة، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين.

**أما بعد:**

يقول الله تعالى: **﴿قل كُلٌّ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾**. [الإسراء: ٨٤]. وقال رسول الله ﷺ: **«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[1].

وقال أيضًا ﷺ: **«إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علّمه ونشره، وولداً صالحاً تركه...»**[2].

وغير خافٍ ما لابن القيّم رحمه الله من جهود مباركة، ووقفات سديدة رشيدة، وغوص في بحور الأحاديث والآيات، ينتقي درر المعاني وجواهر الدلالات، ولما كان هذا الكنز الدفين حول تفسير كلام رب العالمين مبثوثا في بطون كتب هذا الإمام الرباني والعلامة السلفي، وكان من العسير على طالب

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته رقم (١٦٣١) وأبوداود في كتاب الوصية، باب فيما جاء في الصدقة عن الميت رقم (٢٨٨٠). والترمذي في كتاب الأحكام، باب في الوقف رقم (١٣٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب ثواب معلم الناس الخير رقم (٢٤٢). وحسنه المنذري والألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٧٤).

العلم الوقوف عليها كلها أو أكثرها والاسترشاد بها، وظلت هذه الفوائد والأبحاث والفرائد ردحاً من الزمن لا يطلع عليها كثير من الناس، فقد قيض الله عز وجل لانجاز هذا العمل، وإخراج هذه المكنونات وجمع شتاتها ولمِّ شعثها وتأليف مبعثرها في سلك واحد، وانتظامها في عقد بديع طريف فريد، ألا وهو الشيخ الفاضل علي الحمد المحمد الصالحي ـ غفر الله له ورحمه رحمة واسعة ـ فقد عكف الشيخ على مؤلفات ابن القيم أكثر من خمس عشرة سنة يقرأ وينقب ويلتقط ويجمع كل شاردة وواردة، ويرتب ويضع كل بحث في موضعه من السورة على حسب ترتيب المصحف فكان هذا المجموع الذي بين يديك ـ أيها القاريء الكريم ـ كما تراه في ثوب قشيب وحلة زاهية.

ومما ينبغي التنبيه عليه ولفت النظر إليه أن أكثر حواشي الكتاب من التعليقات والتخريجات ليست من صنيع الشيخ ـ رحمه الله ـ بل هو أخذها ممن حققوا وعلقوا على كتب ابن القيّم من الطبعات التي أشار إليها الشيخ في المقدمة، فإذا كان للشيخ ـ رحمه الله ـ تعليق أو حاشية كتب في نهايتها (ج) دلالة عليه.

ومما ينبغي أن يشار إليه أيضًا أن الشيخ ـ رحمه الله ـ وقد كان كبر سنه وأدركته الشيخوخة فكان كلما وقف على بحث أو فائدة أو نادرة صورها من هنا ومن هناك وكان في بعض الأحيان يختلط عليه الأمر فينسى أن يعزو بعض ما نقله إلى مصدره، فقد تجد أيها القاريء الكريم نقلاً ثم لا تجد عزوه في الحاشية، فهذا إما نسيان من الشيخ أو خطأ غير مقصود.

وممن شارك معنا في إنجاز هذا العمل الأخ أبوعبد الرحمن عزت الروبي والأخ أبوعبدالله فكري محمود حفظهما الله وكان الشيخ علي بين الحين والآخر يتابع معنا حتى أخرجنا الجزءين الأول والثاني إلى حيز الوجود وانشرح صدر الشيخ وقرت عينه برؤية ثمرة جهوده، ولكن المرض ظل يعاود الشيخ بين الفينة والأخرى فأسند الشيخ إليَّ عمل فهارس الكتاب: الأجزاء الأربعة المتبقية وعندما انتهينا من الجزءين الثالث والرابع وراجعهما الشيخ ووقع على الموافقة بالطباعة ولما كان

الجزءان في المطبعة أوشكا على الانتهاء كان الشيخ يعاني من آلام المرض وسكرات الموت وغربت شمس حياته في يوم الأربعاء الموافق ٢١/ ٥/ ١٤١٥هـ

وانتهينا من الجزءين الخامس والسادس بعد وفاة الشيخ وقد أصبح رهين اللحد عند رب رحيم فعسىٰ أن يكون هذا العمل له نوراً وبرهانًا وفوزاً وفلاحًا في يوم يجزي الله الصادقين بصدقهم، سائلين الله ـ عز وجل ـ للشيخين الفاضلين ابن القيّم وعلي الصالحي أن يتغمدهما بوافر رحمته وعميم كرمه وجوده وإحسانه وأن يحشرنا وإياهما في زمرة رسوله الأمين محمد بن عبدالله ﷺ كما نسأله سبحانه أن ينفعنا بما علمنا ويعلمنا ما ينفعنا ويرزقنا العمل بالعلم النافع وأن يختم لنا ولكم بخاتمة الخير والسعادة ويوفقنا إلى محبته ومرضاته إنه ولي ذلك والقادر عليه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبهـا

**صبري بن سلامة شاهين**

**مكتبة دار السلام بالرياض**

**في اليوم الثاني من شهر رجب ١٤١٥هـ**



# فهرس المجلد السادس

## فهـــرس سورة المجادلة

رقـم الصحيفة الموضـــــــوع



## فهرس سورة الحشر

## فهرس سورة الممتحنة

## فهــرس سورة الصف



## فهرس سورة الجمعة



## فهرس سورة المنافقون

## فهرس سورة التغابن



## فهرس سورة الطلاق



## فهرس سورة التحريم

## فهــرس سورة الملك



## فهرس سورة القلم

## فهرس سورة الحاقة

# فهرس سورة المعارج



# فهرس سورة نوح

## فهرس سورة الجن



## فهرس سورة المزمل



## فهرس سورة المدثر

## فهرس سورة القيامة



## فهرس سورة الإنسان

## فهرس سورة المرسلات



## فهرس سورة النبأ



## فهرس سورة النازعات

## فهرس سورة عبس



## فهرس سورة التكوير



## فهرس سورة الانفطار

## فهرس سورة المطففين



## فهرس سورة الانشقاق



## فهرس سورة البروج

## فهرس سورة الطارق



## فهرس سورة الأعلىٰ

## فهرس سورة الغاشية



## فهرس سورة الفجر



## فهرس سورة البلد

## فهرس سورة الشمس



## فهرس سورة الليل

## فهرس سورة الضحى



## فهرس سورة الشرح



## فهرس سورة التين

## فهرس سورة العلق



## فهرس سورة القدر



## فهرس سورة البينة



## فهرس سورة الزلزلة



## فهرس سورة العاديات

## فهـرس سـورة التكاثر



## فهرس سورة العصر



## فهـرس سورة الهمزة

## فهرس سورة الماعون



## فهرس سورة الكوثر



## فهرس سورة الكافرون

## فهرس سورة النصر



## فهرس سورة المسد



## فهرس سورة الإخلاص



## فهـرس سـورة الفلـق

## فـهـرس سـورة الناس



**بهذا ينتهي المجلد السادس والأخير**
**من كتاب الضوء المنير على التفسير**
**والحمد لله رب العالمين**

# نبذة مختصرة عن حياة الشيخ علي الحمد المحمد الصالحي(*) ١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ رحمه الله

**أولا: نسبه ومولده ونشأته:**

هو الشيخ أبو محمد علي الحمد المحمد الصالح العبد الله الصالحي.

ولد - رحمه الله - في مدينة عنيزة بمنطقة القصيم سنة ١٣٣٣هـ من أسرة أمية، وكان والده حمد محبًّا للعلم والعلماء، وكان يأمل في ابنه علي أن يكون من العلماء، فحرص أبوه على ذلك، واجتهد، فكان يدفعه لحفظ القرآن ويشجعه حتى أتمه في سنٍّ مبكر، كما كان يزج به في حلقات العلم والعلماء حتى حفظ كثيراً من المتون والأشعار، ودرس أمهات الكتب وهو في سن مبكر وقد لازم شيخه عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ولما رأى الشيخ فيه وفور النجابة وتوقد الذكاء عهد إليه تدريس النشأ، فأجاد وأفاد، ثم انتسب إلى المعهد العلمي بالرياض ثم انتسب إلى كلية الشريعة ثم انتسب إلى المعهد العالي للقضاء، وكان في كل ذلك مثال الجد والاجتهاد والحيوية والنشاط، فَدَرِسَ ودرَّس، وأجاد وأبدع وحسن مدخله ومخرجه - رحمه الله -.

**ثانيا: شيوخه:**

لازم الشيخ علي - رحمه الله - كثيراً من العلماء وكان من أهم وأقرب شيوخه إليه والذين أثروا في حياته العلمية هو فضيلة العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي وفضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وفضيلة الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم آل الشيخ وفضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي - رحمهم الله جميعاً -. وكذلك درس على يد سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله تعالى وفضيلة الشيخ عبدالله بن حميد رحمه الله.

---

(*) هذه النبذة أفادنا بها أولاد الشيخ علي الصالحي - رحمه الله - وفضيلة الشيخ عبدالله المعتاز حفظه الله وفضيلة الشيخ محمد العثمان القاضي. أمين المكتبة الصالحية بعنيزة. حفظه الله. ونشر في جريدة الجزيرة عدد ٨٠٨٤ في ١٤١٥/٦/١٣هـ وفي جريدة المدينة العدد ١١٥٧٢ في ١٤١٥/٧/٤هـ.

**ثالثا: تلاميـــذه:**

قد أسند الشيخ السعدي إلى الشيخ علي تدريس صغار طلبة العلم وهو في سن مبكر. أما تلاميذه ومن تعلموا على يديه فهم جمع غفير ومن أبرزهم وأشهرهم وأفضلهم فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ـ حفظه الله تعالى ـ.

وكذلك من أبرزهم: عبد الرحمن اليوسف الشبل، وسليمان الأشقر الزامل، وعبد الله الصالح اليحيا، وعبد العزيز الغرير، وعبد الله وعبد العزيز السليمان القاضي ومحمد عثمان القاضي ومحمد وصالح الونين وغيرهم.

**رابعا: أعماله ومؤلفاته:**

كان الشيخ علي ـ رحمه الله ـ من أهم المؤسسين لمكتبة عنيزة العامرة بأمهات الكتب، وقد كان يعمل مديراً لمستودعات الكتب بدار الإفتاء في السبعينات الهجرية وأنشأ مؤسسة النور للطباعة والتجليد، والتي تعتبر من أقدم مطابع المملكة، وكان لهذه المؤسسة ـ بعد فضل الله تعالى ـ الأثر الكبير في إعادة طباعة أمهات الكتب، وظل الشيخ علي ـ رحمه الله ـ في مجال طباعة الكتب ونشر العلم حتى أرهقته الشيخوخة فعاد إلى عنيزة عام ١٣٩٠هـ وهناك لم يتوقف نشاطه من أجل خدمة العلم والعلماء، وكان يأتي إلى الرياض بين الحين والآخر من أجل متابعة ومراجعة كتاب «الضوء المنير على التفسير».

أما الكتب التي ألفها وجمعها وقام على تحقيقها فهي:

١ ـ كتاب الضوء المنير على التفسير.

فقد قام فضيلة الشيخ علي ـ رحمه الله ـ بجمع كلام العلامة ابن القيم من خلال مؤلفاته حول التفسير قرابة خمسة عشر عاما حتى جمع هذا السفر الجليل، وهو يتكون من ستة أجزاء طبع عام ١٤١٥هـ.

٢ ـ كتاب التنبيهات حول المقام ومنى طبع ١٣٩٤هـ.

٣ ـ كتاب العطار والقاسم في الميزان طبع في ١٣٨٤هـ.

٤ ـ كتاب دعوة المسلمين إلى احترام شعائر الدين طبع ١٤١٣هـ وترجم إلى الإنجليزية.

أما الكتب التي طبعها على نفقته وحسابه الخاص فهي:

١ ـ كتاب تنبيه الغافلين طبع ١٤١١هـ.

٢ ـ كتاب مجموع ابن رميح طبع ١٤١٤هـ.
٣ ـ الربع الأول من تفسير القرآن باللغة الإنجليزية.
٤ ـ تفسير معاني القرآن الكريم كاملاً باللغة الإنجليزية.
٥ ـ رسالة الحسن بن أيوب. تحت الطبع وغيرها كثير من رسائل أهل العلم.

وهذا بجوار المشاريع الخيرية داخل وخارج المملكة مما كان لها الفضل بعد الله ـ عز وجل ـ في تعليم وتفهيم الكثيرين مبادىء الإسلام وأمور الدين.

**خامسا: صفاته وأخلاقه:**

كان ـ رحمه الله ـ جم الخلق، جواداً، يبذل المعروف، ويدعو إليه، ويكف عن الشر، ويحذر منه مع كونه جلداً صبوراً حازماً نشيطاً في زهد وإقبال على الآخرة، لا يخشى في الله لومة لائم، كان قويًّا في الحق، لا يحابي أحداً، ولا يداهن، وكان تقيًّا محسنا صدوقا، وبالجملة ففقده خسارة فادحة لا تعوض، وثلمة لا تسد، إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وخَلَفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿**أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها**﴾ قال: هو موت العلماء والصالحين. وقال الشاعر:

**الأرض تحيا إذا ماعاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرف**
**كالأرض تحيا إذا ماالغيث حلَّ بها ... وإن أبىٰ عاد في أطرافها التلف**

هذا مانحسبه عنه والله حسيبه.

**سادسا: وفاته:**

كان ـ رحمه الله ـ دائماً يقول: أنا لم أعرف اللعب واللهو في حياتي، ولا أضيع أوقاتي فيما لا يفيد، فإما في عمل الدنيا وإما في عمل الآخرة.

أصيب ـ رحمه الله ـ بمرض تليف الرئة، واشتد عليه المرض، ووافاه الأجل وهو منهمك في مراجعة كتاب «الضوء المنير» في الأجزاء الأخيرة منه وفارق الدنيا في يوم الأربعاء ٢١ من شهر جمادى الأولى سنة ١٤١٥هـ بعد حياة حافلة بالجد والعمل الدءوب، وله من العمر ثلاثة وثمانون عاماً فرحمه الله رحمة واسعة، وجعل مستقره دار كرامته، ونفع الله بعلومه وجهوده إلى يوم الدين، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.